العالم الإسلامي

في الحرب العالمية الأولى

(١٩١٤ - ١٩١٨)

العالم الإسلامي
في الحرب العالمية الأولى
(١٩١٤ - ١٩١٨)

تأليف

دكتور السعيد رزق حجاج

الأستاذ المساعد بقسم التاريخ

جامعة الأزهر

الطبعة الأولى

١٤٠٩هـ - ١٩٨٩م

مطبعة الأمانة

٣ شارع جزيرة بدران شبرا - مصر

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله والصلاة والسلام على سيدنا محمد رسول الله وعلى آله وصحبه أجمعين . وبعد ..

فقد واجه العالم فى النصف الأول من القرن العشرين حربين عالميتين رهيبتين أتت كلتاهما على الأخضر واليابس ، وانتقل العالم بعدهما الى مرحلة تاريخية جديدة تختلف بمشاكلها السياسية والاجتماعية والاقتصادية اختلافا بينا عما كان قبل الحرب .

وحتى تصبح الصورة واضحة يكفى أن نعرف ما أحدثته الحرب الأولى والتى استمرت أربع سنوات وخمسة عشر أسبوعا ، حيث اشتركت فيها ثلاثون دولة ، جندت لها خمسا وستين مليون مقاتل ، لقى مصرعه منهم ثمان ونصف مليون ، وجرح وأسر تسع وعشرون مليون ، وخسر العالم فيها نحو ١٢٠ مليار جنيه استرلينى ذهب ، علاوة على حرمان العالم من نشاط وانتاج الملايين من البشر الذين انصرفوا بكل قواهم الى الحرب كذلك ضياع ملايين الأطنان من المواد الأولية التى استخدمت وقودا لتلك الحرب الكبرى ، وتحملت ميزانيات الدول المتحاربة بعد انتهائها أعباء ثقيلة نجمت عن المبالغة فى النفقات أثناء القتال ، فضلا عن المعاشات واعانات أرامل وأيتام وعجزة الحرب ومشوهيها .

ولقد تعددت ميادين القتال وامتدت من آسيا وشرق أفريقيا وشمالها ومصر والخليج العربى وشبه الجزيرة الى المانش وبحر الشمال وغيرها من المناطق ، وكانت ملاحم ومعارك حامية فى البر والبحر والجو .

وباعتراف كثير من المؤرخين الأوربيين لم يبلغ أثر تلك الحرب ونتائجها فى أى جزء من أجزاء العالم حتى فى أوربا ذاتها ما بلغه فى العالم الاسلامى .

ومعنى العالم الاسلامى ذلك التعبير الذى ينطوى على مفاهيم دينية وسياسية وجغرافية بل واستراتيجة كذلك والذى كان - ولا يزال الى حد بعيد - يمتد من اقليم تركستان والجمهوريات الاسلامية الخاضعة للاحتلال الشيوعى السوفيتى الى وسط آسيا فيضم أفغانستان كما يضم الملايو وبورما والفلبين والقارة الهندية واندونيسيا وايران والعالم العربى وتركيا وأجزاء عديدة من البلقان وشرق أفريقيا ووسطها الصحراوى وشبه الصحراوى حتى الحزام الزنجى الممتد من السنغال الى الكونغو

وقد أكدت نتائج الحرب أن العالم قد أصبح وحدة اقتصادية وسياسية متماسكة الأجزاء ، وأنه فى مسيس الحاجة لاقامة العلاقات بين شعوبه على أسس سليمة وتجنب آثام الحرب وشرورها بعمل تسوية عادلة

ولكن هيهات فقد تتابعت الأحداث الدولية بعد ذلك لتقود العالم بعد سنوات قلائل الى حرب عالمية جديدة كانت كسابقتها حربا استعمارية تستهدف السيطرة والتوسع .

وعلى الرغم من أن هذه الحرب الثانية ليست داخلة فى حدود هذه الدراسة حيث سيفرد لها بمشيئة الله عمل آخر لتوضيح وجهة النظر الاسلامية فيها الا أنه يمكن القول أنها كانت نتيجة للتسويات الظالمة بعد الحرب الأولى وأنه لو وجد العقلاء من قادة العالم لأمكن تجنب ويلات هذه الحرب التى انتهت هى الأخرى بسقوط حوالى ١٤ مليونا من الجنود . كما قتل فيها عشرة ملايين من البشر فى معسكرات الاعتقال وأضحى ٢١ مليونا بلا مأوى ، وأصيب ثلاثون مليونا باصابات أعجزتهم عن العمل وغير ذلك من الخسائر الفادحة التى لحقت بالبشرية .

والذى تعنى به هذه الدراسة محاولة ايضاح وجهة النظر الاسلامية فى الحرب العالمية الأولى التى امتدت أحداثها الى كثير من بلدان العالم الاسلامى كما شارك فيها جنود من أبنائه سيقوا الى ميادين القتال فى حرب لا ناقة

لهم فيها ولا جمل ، والأسوأ من ذلك أن المسلمين كان يقاتل بعضهم بعضا اما لحساب الألمان أو البريطانيين والفرنسيين والمتحالفين معهم .

واذا كانت حروب السلاح قد وضعت أوزارها فى عام ١٩١٨ فقد حلت محلها حروب الأفكار والمذاهب ، فالفكرة القومية ، والغزو الفكرى ، ونشر المبادىء الهدامة ومحاولات الشيوعية بعد انقلاب أكتوبر ١٩١٧ ايجاد مكان لها على خريطة العالم لا سيما فى المناطق الاسلامية .

وبعد الحرب الأولى توالت الضربات على المسلمين فى فلسطين وتركيا حيث ابتليت الأولى بتدفق اليهود عليها فى رعاية ومساندة بريطانيا (حليفة العرب فى الحرب) وفى الثانية (تركيا) كان الغاء الخلافة على يدأتاتورك الذى أعد ليقوم بدوره على مسرح الأحداث بعناية فائقة .

واذا كان مؤتمر الصلح قد عقد لاجراء تسوية عادلة ، واعادة بناء العالم المحطم الا أن الساسة الذين اجتمعوا لمثل هذا العمل كانوا هم المنتصرون فى الحرب والمزهوون بقوتهم ، وقد عجزوا أن يجردوا أنفسهم من النزعات الشخصية والتحيز القومى ، فقسموا ممتلكات الدول المهزومة فيما بينهم دون أن يكون للشعوب أى اعتبار عند تحديد مصائر بلادهم .

وقد شعر العرب بصفة خاصة والمسلمون بعامة بغدر هذه الدول الاستعمارية وتصميمها على السيطرة والتوسع وتمزيق ما تبقى من العالم الاسلامى .

وعلى الرغم من تحول تركيا الى الغرب والغائها للخلافة فان محاولات بذلت لتوحيد المسلمين ومناقشة أوضاعهم ومحاولة احياء الخلافة مرة أخرى واصلاح ما أفسده أتاتورك فكانت الدعوة الى مؤتمر العالم الاسلامى بمكة المكرمة ، وتبنى الأزهر لعقد مؤتمر للخلافة الاسلامية فى رحابة وجهت الدعوة اليه الى كل الزعماء المسلمين والى كل صاحب رأى وفكر . واذا كان هذا المؤتمر الذى عقد بالقاهرة قد فشل فى مهمته

لأسباب كثيرة الا أنه أكد صدق الداعين اليه من علماء الأزهر ورغبتهم فى القيام بعمل لخدمة المسلمين لا مجاملة لهذا أو ذاك كما زعم بعض المؤرخين

وأما مؤتمر العالم الاسلامى فى مكة فكانت له هو الآخر نتائجه الايجابية التى أكدت للمسلمين أن بلاد الحجاز ومقدسات المسلمين قد أصبحت فى أيد أمينة ترعاها وتسهر من أجلها فاطمأن المسلمون وعادوا الى بلادهم وقد تغيرت لديهم كثير من الأفكار التى كانت شائعة فى هذا الوقت ٠

والذى نرجوه أن تؤتى هذه الدراسة عن العالم الاسلامى ثمرتها المرجوة وأن تكون بداية لدراسات أخرى فى هذا الميدان ٠

والله ولى التوفيق وهو الهادى الى الرشاد ٠

المؤلف

الفصل الأول

الحرب العالمية الأولى

واعلان العثمانيين للجهاد فى العالم الاسلامى

فى الثامن والعشرين من شهر يونيو عام ١٩١٤ اتقدت الشرارة الأولى التى أضرمت نيران الحرب العالمية الأولى . ذلك أن طالبا من أبناء البوسنة يدعى غفرتلوبرنسيب Gavrilopincip أطلق الرصاص على ولى عهد النمسا فى سراجيفو Saragivo عاصمة البوسنة بينما كان يقوم بزيارة رسمية لتلك المنطقة فقتله هو وزوجته ، وأثبتت التحقيقات الأولى أن القاتل ينتمى الى جمعية « اليد السوداء » الصربية التى ارتكبت قبل هذا الحادث اغتيالات سياسية فى أوقات متفرقة .

وكانت حكومة النمسا قد طالبت فى أعقاب الحادث مباشرة باجراء تحقيق شامل ولكن الحكومة الصربية تباطأت بعض الشىء . مما دفع حكومة النمسا الى أن ترسل الى الصرب انذارا نهائيا جاء فيه :

١ ـ أن تتعهد صربيا بالتحقيق تحقيقا نزيها فى الجريمة وأن تنزل بمقترفيها والمتواطئين عليها عقابا رادعا(١) .

٢ ـ أن تعمل على كبح جماح الدعاية العنيفة القائمة ضد النمسا والمجر فى الصحف ودور العلم الصربية .

٣ ـ حل الجمعيات السرية فى مملكة الصرب .

٤ ـ طرد الموظفين الصربين الذين يناصرون تلك الدعاية وطلبت النمسا أن يسمح لموظفيها بمساعدة الحكومة الصربية فى القضاء على هذه الحركات .. ولبعض القضاة النمساويين بأن يجلسوا مع القضاة الصربيين خلال محاكمة المتواطئين والمشتركين فى الجريمة(٢) .

وقد أجابت الحكومة الصربية فى الميعاد المحدد بالموافقة على أغلب المطالب النمساوية ولكنها أصرت على رفض البعض الآخر وخاصة المطلب الخاص باشتراك النمساويين فى الاجراءات القضائية بحجة أن ذلك يمس مظهرا هاما من مظاهر استقلال صربيا ، وفى الوقت ذاته طلبت احالة الخلاف الى التحكيم الدولى اذا لم تقتنع النمسا بوجهة نظرها · ورأت النمسا فى هذه الاجابة مماطلة متعمدة يقصد من ورائها التستر على المشتركين فى الجريمة فاعلنت الحرب على صربيا فى الثامن والعشرين من يوليو ١٩١٤ واجتاحت قواتها الأراضى الصربية فى محاولة لاحتلالها والاطاحة بحكومتها ، ومحاكمة المتهمين بحادث الاغتيال لينالوا عقابا رادعا(٣) ·

موقف المانيا :

اسرعت المانيا لتأييد النمسا فى موقفها وشجعتها على تأديب مملكة الصرب ، وأخبر مستشار الرايخ « بتمان هولفج » السفير النمساوى فى برلين يوم ٦ يوليو ١٩١٤ أن على النمسا أن تقرر ما يجب عمله مع الصرب ، وأن المانيا تقف على أى الحالات كصديق وحليف مع النمسا · وما أن تأزم الموقف باعلان النمسا الحرب على الصرب حتى حاولت المانيا كبح جماح حليفتها لتمنع نشوب حرب كبرى قد لا تكون غير مستعدة لها ، ولكن الوقت كان قد فات (٤) ·

ومن ناحية أخرى فشلت محاولات انجلترا وألمانيا لانهاء الخلاف بين النمسا وروسيا مما دفع الأخيرة (روسيا) الى اعلان التعبئة الجزئية ضد النمسا · ثم أعلنت فى ٣٠ يوليو التعبئة الكاملة ضد النمسا والمانيا(٥) ·

وهكذا تطور الموقف ليصل الى هذا الحد الذى جعل النمسا وألمانيا تعلنان الحرب ضد روسيا أول أغسطس ثم على فرنسا ٣ أغسطس ، وعبرت القوات الألمانية الحدود البلجيكية ، كما أعلنت انجلترا هى الأخرى الحرب على النمسا وألمانيا ·

وأما ايطاليا فلقد تخلت عن التزاماتها تجاه ألمانيا والنمسا وذلك بسبب اعلان الحرب على فرنسا وروسيا • وفى الأيام الأخيرة من أغسطس انضمت اليابان للحلفاء (روسيا ــ انجلترا ــ فرنسا ــ ايطاليا) لأنها كنت ترمى من وراء ذلك الى بسط نفوذها على الصين(٦) •

موقف العثمانيين من الحرب :

كانت الحكومة العثمانية قد عقدت مع ألمانيا معاهدة سرية فى أول أغسطس تتضمن مساعدة ألمانيا ضد الروس ، وتظاهرت تركيا بالحيدة فترة من الزمن • ولكن حينما بدا لها أن استعداداتها الحربية قد اكتملت بدرجة كافية وتطبيقا لمعاهدة الصداقة مع ألمانيا ، أرسلت أسطولها فى ٢٩ أكتوبر سنة ١٩١٤ لضرب الموانى الروسية على البحر الأسود مما أدى بروسيا هى الأخرى الى اعلان الحربعلى الدولة العثمانية وفى الخامس من نوفمبر أعلنت فرنسا وبريطانيا الحرب على الدولة العثمانية وقطعت علاقاتها الدبلوماسية معها(٧) •

وكان دخول العثمانيين الحرب ذا أهمية قصوى نظرا لتحكمها فى مضيق الدردنيل والبسفور مما أعاق معونة انجلترا وفرنسا عن الوصول الى روسيا الا عن طريق المحيط المتجمد بعد أن تلاقى صعوبات جسيمة كما أنها من ناحية أخرى شغلت انجلترا بالحرب فى ميدان الشرق مماأثر على مقدرة بريطانيا الحربية فى أوربا وبدخول العثمانين الحرب غدا القتال عالميا فى فترة وجيزة لا تزيد على ثلاثة أشهر من ٢٨ يوليو الى ٢٩ أكتوبر ، وشمل خمسا من قارات العالم الست ، ووقفت المانيا والنمسا والعثمانيون فى جانب وروسيا وفرنسا وبريطانيا ومستعمراتها واليابان وبلجيكا والصرب والجبل الأسود فى الجانب لآخر(٨) •

واذا كانت مصالح الدول الكبرى الاستعمارية ورغبتها فى السيطرة والتوسع قد أشعلت نيران الحرب العالمية فكان على العثمانيين أن يقفوا على الحياد ليجنبوا الولايات التابعة لهم الآثار المدمرة التى ترتبت عليها ،

فان هذه الحرب لم تترك بلدا من البلدان ولا شعب من الشعوب الا اكتوى بنارها بصورة أو بأخرى .

العالم الاسلامى فى الحرب العالمية الأولى :

وأما عن العالم الاسلامى فلم يبلغ أثر الحرب - بشهادة المؤرخين الأوربيين أنفسهم - ونتائجها فى أى جزء من أجزاء العالم حتى فى أوربا ذاتها ما بلغته فى العالم الاسلامى شرقه وغربه ، وشماله وجنوبه .

ويعنى بالعالم الاسلامى حينذاك تلك المنطقة الواسعة الممتدة فى شمال أفريقيا وجنوب آسيا الغربى وشرق أفريقيا والمحيط الهندى من المحيط الأطلنطى الى حدود الهند حيث تدين أغلبية السكان العظمى بالاسلام .

وحيث كانت تدين به منذ الفتوحات الاسلامية الكبرى فى القرن الهجرى الأول ، كما كان هناك عدة ملايين من المسلمين خارج حدود هذه المنطقة فى بلاد الهند وجزائر الملايو وآسيا الوسطى وروسيا والصين .

وقد ظل نفوذ العثمانين يتزايد فى العالم الاسلامى وبصفة خاصة بعد فتوحاتهم فى القرنين الخامس عشر والسادس عشر الميلاديين فى شبه جزيرة البلقان وأوربا . وكانت هذه الدولة فى أيام مجدها تشمل جميع الأقطار الاسلامية الواقعة فى غرب بلاد الفرس (ايران) وفى آسيا الصغرى وبلاد الشام وأرض الجزيرة وبلاد العرب ومصر وشمال أفريقيا(٩) .

التغلغل الاستعمارى فى العالم الاسلامى :

اقتسمت الدول الاستعمارية الكثير من بلدان العالم الاسلامى فى وقت مبكر بعد أن وصلت الدولة العثمانية الى درجة كبيرة من الضعف فى نفس الوقت الذى تزايدت فيه الأطماع الأوربية وكانت الجزائر أول دولة عربية فى شمال أفريقيا تقع تحت الاحتلال الفرنسى عام ١٨٣٠ ، كما احتلت بريطانيا عدن فى ١٨٣٩ .

واحتلت فرنسا تونس وبريطانيا مصر ١٨٨٢ . وأعلنت النمسا ضمها لاقليمى البوسنة والهرسك فى ١٩٠٩، وفى ذات السنة أعلنت بلغاريا استقلالها عن الدولة العثمانية بمعونة روسيا وبريطانيا وفرنسا وبعض الدول الأوربية الأخرى .

وفى المناطق الاسلامية الأخرى التى لم تكن خاضعة للعثمانين كانت بريطانيا قد احتلت الهند بعد أن تسللت اليها بعد عام ١٦٠٠ من خلال شركة الهند الشرقية البريطانية التى منحت حق احتكار التجارة بين بريطانيا والهند ، وفى مطلع القرن ١٩ كانت الشركة نتيجة للمفاوضات الدبلوماسية والأعمال الحربية قد بسطت سلطانها على شبه القارة الهندية تقريبا وفى سنة ١٨٧٧ نودى بالملكة فيكتوريا « امبراطورة للهند »(١٠).

وباحتلال بريطانيا الهند قضت على آخر الفتوح الخارجية الكبرى للاسلام ، وذلك لأن الجزء الأكبر من الهند ظل خاضعا للحكم الاسلامى منذ القرن الثانى عشر فلما استولت بريطانيا على هذه البلاد خضع لحكمها أكثر من سبعين مليونا من مسلمى شبه القارة الهندية(١١) .

كذلك أخضع الروس لحكمهم مسلمى آسيا الوسطى ، أهل خيوه وبخارى وسمرقند وغيرها من الأقاليم الاسلامية التى كانت تعرف ببلاد ما وراء النهر والتى قال عنها ياقوت « ما وراء النهر من أنزه الأقاليم وأخصبها وأكثرها خيرا وأهلها يرجعون الى رغبة فى الخير والسخاء ، واستجابة لمن دعاهم اليه مع قلة غائلة وسماحة بما ملكت أيديهم وشدة شوكة ومنعة وبأس .. فأما الخصب فهو فيها يزيد على الوصف . ويتعاظم على أن يكون فى جميع بلاد الاسلام وغيره مثله » .

ويكفى هذه البلاد فخرا أنها قدمت للعالم الاسلامى الامام البخارى والامام مسلم والمفسران الجليلان الزمخشرى والنسقى وأئمة البلاغة عبد القاهر والتفتازانى والسكاكى ، ومنها كذلك الفارابى وابن سينا ومن علماء الرياضة والفلك : خالد والبلخى ، ومن علماء الهندسه

بنو موسى ومنهـا البيرونى والخوارزمى والسرخسى والجوهرى من خـيرة العلمـاء(١٢) .

لقد بدأ الاحتلال الروسى لآسيا الوسطى باحتلال طشقند(١٨٦٥) وسمرقند فى (١٨٦٨) وبخارى فى (١٨٧٣) وخوارزم (١٨٧٥) وفى ١٨٧٥ توجهت القوات الروسية الى خانية خوقند وواجه الروس مقاومة شعبية مذهلة مما جعلهم يدكون المدينـة دكا ويبيدون أهلها عن بكرة أبيهم .. وأكمل الروس فتح تركستان الغربية بوصولهم الى هضبة بامير (١٩٠٠) (١٣) .

وقد اقتسم الروس والانجليز السـيطرة على ايران فى عام ١٩٠٧ وضـم الايطاليون طرابلس فى سـنة ١٩١١ ، واقتسمت الدول الأوربية أفريقية فأصبح المسـلمون فى وسط هذه القارة (حيث كان الاسـلام ينتشر بصورة كبيرة) خاضعين لحكم هذه الدول الاستعمارية كما خضعت دول شرقى أفريقيا وغربها كذلك للسيطرة الأجنبية .

مخطط بانرمان الاستعمارى :

تبنى سير « هنرى كامبل بانرمان » فكرة تشكيل جبهة استعمارية موحدة من الدول ذات المصالح المشتركة فى العالم الاسلامى وهى فرنسا وبريطانيا وهولندا وبلجيكا والبرتغال وأسبانيا . وبدأت الاتصالات مع هذه الدول وتم تشكيل لجنة من كبار أساتذة الجامعات فى شتى المجالات مثل الاقتصاد والبترول والزراعة والتاريخ والاجتماع وشئون الاستعمار كما ضمت اللجنة أعلام السياسة فى هذه الدول(١٤) وقد اجتمعت هذه اللجنة فى لندن سنة ١٩٠٧ وتحددت مهمتها فى :

١ ـ اقتراح الوسائل التى تمنع سقوط الامبراطوريات الاستعمارية الأوربية القائمة وقتذاك .

٢ ـ العمل على اعاقة تقدم العالم غير الأوربى وتطوره بحرمانه من التعليم والتنظيم والرفاهية حتى يطمئن الاستعمار الى وجوده فيها أطول

مدة ممكنة وبعد فترة الدراسة والبحث والمناقشة خرج المؤتمرون بخطة عمل للمستقبل أوصوا بها وضمنوها تقريرا قدموه الى وزارة الخارجية البريطانية التى أحالته بعد دراسته الى وزارة المستعمرات ، غير أن التقرير ما لبث أن اختفى وانقطعت أخباره حتى كانت سنة ١٩١٤ ليطفو على سطح الأحداث مرة أخرى ويتضح من استعراض التقرير ما جاء فيه عن الأخطار المحدقة بالاستعمار ويؤكد على أنها تتمثل فى المنطقة العربيه الاسلامية باعتبارها همزة الوصل بين الشرق والغرب ، وهى موطن الحضارات الانسانية القديمة وفيها نشأت الأديان السماوية . ويمضى التقرير فيحلل تاريخ المنطقة العربية التى يقيم فيها شعب واحد تتوافر له وحدة التاريخ والدين واللغة والثقافة وجميع مقومات الترابط والاتحاد كما تتوافر له كل أسباب القوة والتحرر والنهوض نتيجة لنزعاته التحررية وثرواته الطبيعية الكافية وموارده البشرية المتزايدة اذ قدر التقرير تعداده بخمسة وثلاثين مليون نسمة : كما قدر أن يرتفع هذا العدد ليصبح مائة مليون نسمة فى مدى قرن واحد(١٥) .

وطرح المجتمعون توصية لدرء الخطر الداهم من المنطقة العربية وذلك « بالعمل على فصل الجزء الافريقى من هذه المنطقة عن جزئها الآسيوى » .

واقترح لذلك اقامة حاجز بشرى قوى وغريب على الجسر البرى الذى يربط آسيا بأفريقيا ويربطهما معا بالبحر المتوسط ، بحيث يشكل فى هذه المنطقة ، وعلى مقربة من قناة السويس قوة صديقة للاستعمار مواليه له ومعادية لسكان المنطقة . ويعنى هذا فى وضوح زرع شعب غريب عن المنطقة العربية شرقى قناة السويس أى فى فلسطين وسيناء باعتبارهما المناطق الوحيدة التى تفصل آسيا عن أفريقيا كلية وتمزيق الوطن العربى بصورة كاملة(١٦) .

العثمانيون يرفعون شعار الجهاد فى الحرب العالمية الأولى :

بدخول العثمانيين الحرب العالمية الأولى الى جانب دولتى الوسط ـ ألمانيا والنمسا ـ ضد الدول المتحالفة أصبح الموقف فى حاجة الى مساندة مسلمى العالم للعثمانيين ماديا ومعنويا ومن هنا أصدر شيخ الاسلام فتوى يعلن فيها الجهاد ويدعو المسلمين فى كل مكان الى مشاركة اخوانهم فى الدين (العثمانيون) فى هذه الحرب لتتحرر بلادهم وتحقق استقلالها بعد أن تكالبت هذه الدول الاستعمارية على اقتسامها فيما بينهم كما أعلن السلطان محمد رشاد بصفته خليفة للمسلمين الجهاد ووجه نداء مماثلا الى كل المسلمين فى الشرق والغرب ، ثم كانت الفتوى الثالثة بتوقيع شيخ الاسلام ومعه ثمانية وعشرين من كبار العلماء من ذوى المناصب الدينية الرفيعة . والدراسات التحليلية لهذه الفتاوى الثلاث كما يذكر أستاذنا الراحل الدكتور عبد العزيز الشناوى(١٧) تؤكد رغبة الاتحاديين فى ابراز الطابع الدينى للدولة وذلك على النحو التالى :

١ ـ ان هذه الفتاوى الثلاث موجهة الى جميع المسلمين فى بقاع الأرض سواء الذين يعيشون تحت حكم الدولة العثمانية أو الذين يخضعون لحكم الدول « عدو ، الاسلام » وهما روسيا وبريطانيا وفرنسا أو غير هؤلاء وأولئك من مسلمى العالم .

٢ ـ ان هذه الحرب التى تخوضها الدولة هى حرب دينية تستهدف تحرير المسلمين المستعبدين والدفاع عن الدولة وأنه قد وضح ـ بما لايدع مجالا للشك ـ أن النصارى من أعداء الاسلام يستهدفون تدمير الدولة وتحطيم الاسلام لأن الدولة العثمانية هى دولة الاسلام الكبرى ومقر الخلافة ودرع الاسلام .

٣ ـ دعوة جميع المسلمين فى مشارق الأرض ومغاربها الى الاتحاد والاشتراك فى الدفاع عن الاسلام ، وعن الأماكن الاسلامية المقدسة فى مكة المكرمة والمدينة المنورة والقدس الشريف .

٤ - ان الجهاد الديني فرض عين على كل مسلم بالغ وقادر وعلى المسلمين أن يطيعوا كتاب الله وأوامره وسنة رسوله كما فسرتها تلك الفتاوى ٠

٥ - ان الدولة العثمانية استهدفت اثارة الشعور الديني في جميع أنحاء العالم الاسلامى على بريطانيا وحليفاتها(١٨) ٠

وكانت دعوة المسلمين على هذا النحو - فى مشارق الأرض ومغاربها الى الجهاد وضد الدول التى تحارب تركيا سلاحا خطيرا - لو أحسن استخدامه - في يد السلطان باعتباره خليفة المسلمين ، لأن الخلافة على الرغم مما وصلت اليه من ضعف كانت لا تزال الوشيجة الكبرى التى تربط المسلمين فى شتى بقاع الأرض ، وكان فى مكنة السلطان ان يثير متاعب واخطار لا يستهان بها فى وجه بريطانيا وايطاليا وفرنسا وروسيا لأن كلا من هذه الدول كان لها رعايا مسلمون فى الهند وشمال أفريقيا والقرم والقوقاز وبخارى وسمرقند وخوارزم ٠ وكان أخشى ما تخشاه هذه الدول الثلاث أن ينفر المسلمون الخاضعون لها خفافا وثقالا لدعوة السلطان ويجاهدون بأموالهم وأنفسهم فى حرب جهاد دينى اطلقت عليه المنشورات التركية فرض عين لا يجوز لأى مسلم بالغ قادر على حمل السلاح النكوص عنه ٠

وكان الخبراء من المستشرقين الألمان قد اشتركوا مع الأتراك فى وضع صياغة هذه المنشورات التى كتبت بجميع لغات العالم الاسلامى ووزعت بالملايين فى الشام ومصر والسودان والعراق والجزيرة العربية وشمال أفريقيا وايران وافغانستان وغيرها(١٩) ٠

وعمدت الحكومة العثمانية الى ايفاد مبعوثين من قبلها كان من بينهم الوعاظ والعلماء وذوو الثقافة الدينية الواسعة ومعهم بعض المحرضين المحترفين وانتشر هؤلاء جميعا فى البلاد التى كان فى استطاعتهم التسلل اليها فدخلوا الأقاليم الافريقية التى كانت تحت حكم بريطانيا أو فرنسا أو ايطاليا مثل مصر والسودان وطرابلس وتونس والجزائر والصومال

وأثيوبيا كما ركزوا جهودهم على الشعوب الاسلامية من غير العرب رغبة في استمالتها الى تلبية دعوة الجهاد الديني ، فمدوا نشاطهم الدعائي الى الهند وافغانستان وايران . وأما العرب فكان العثمانيون يأملون أن يجدوا منهم المساندة القوية والمسارعة الى الجهاد دفاعا عن الاسلام والأماكن المقدسة(٢٠) .

وقد أكدت التقارير الأمريكية أن المسلمين من رعايا الدولة العثمانية كانوا يرحبون بالحرب أملا في القضاء على الخطر الروسي ويؤملون هزيمة روسيا وبريطانيا بالاستعانة بالمانيا والنمسا ، فقد ذكر السفير الأمريكي في استانبول نقلا عن السفير الألماني (فانجنهايم) بأن خطة المانيا تعتمد على اثارة العاطفة الدينية لدى المسلمين ضد الدول المسيحية وأن امبراطور المانيا اقترح حربا دينية مقدسة لتحطيم النفوذ الانجليزي والفرنسي في الشرق وأضاف السفير الألماني « ان تركيا في حد ذاتها ليست بذات قيمة فان جيشها ضعيف ونحن لا نعول عليها في انجاز شيء له قيمته . ولكن العمل العظيم هو الشعب المسلم ، فاذا نجحنا في حشده ضد الانجليز والروس فاننا نستطيع أن نرغم هاتين الدولتين على طلب الصلح(٢١) .

الآثار التي ترتبت على دعوة الجهاد :

توقع العثمانيون ومعهم ألمانيا والنمسا أن تنجح الدعوة التي روجوا لها في كثير من بلدان العالم الاسلامي باعلان الجهاد ورتبوا على هذا النجاح أشياء كثيرة وفي نفس الوقت لجأت بريطانيا وفرنسا الى سلاح آخر لمواجهة هذه الدعوة يتمثل في التركيز على الاتجاهات القومية التي تم التمهيد لها مع مطلع القرن العشرين وأثبتت الأحداث أن سلاح القومية شديد الخطورة وظهرت له نتائج سيئة أثرت الى حد كبير على اعلان الجهاد من قبل العثمانيين ، كما أن سياسة القهر والاستعباد والقبض على الكثير من الشخصيات الاسلامية التي كان من المتوقع قيامها بدور كبير في هذا الميدان ، كما فعلت بريطانيا في مصر على ما سيأتي وما فعلته

فى أثيوبيا بعد اعلان الامبراطور « لينج ياسو » الاسلام والجهاد لمساندة العثمانيين . وغير ذلك من الأمثلة الدالة على خطة بريطانيا وحلفائها لمواجهة اعلان الجهاد(٢٢) .

الموقف فى الوطن العربى :

اهتمت الأطراف المتصارعة بالوطن العربى لأهمية موقعه من ناحية وللدور القيادى الرائد للعرب فى العالم الاسلامى من ناحية أخرى ولكن الموقف فى البلدان العربية كانت تحركه اتجاهات أخرى تعكس الأوضاع المتدهورة نظرا لوقوع هذه الدول تحت الاحتلال وظهور عدد من الاحزاب والجمعيات التى تسير فى تيار قومى علمانى كما كان لموقف جماعة الاتحاد والترقى من فكرة الجامعة الطورانية أثره الكبير فى استجابة العرب للوقوف الى جانب تركيا ، يضاف الى ذلك كله أن تحالف العثمانيين مع ألمانيا والنمسا وكلتاهما من الدول الاستعمارية المسيحية أضعف من الآثار المتوقعة لاعلان الجهاد وفقدت هذه الدعوة مغزاها وهناك شخصيات عربية كثيرة استلهمت موقفها من صادق وطنيتها وما كانت تمليه الحكمة السياسية والظروف الدولية وكانت أول استجابة منهم لنداء الواجب أن أوقفوا النشاط السياسى ضد العثمانيين .

نظرا لأنهم كانوا يحاربون ضد الغرب والاستعمار ، وذلك الى أن يستبين لهم الطريق السوى . وأكثر من ذلك أن جمعياتهم السرية قد اخطرت أعضاءها عند اندلاع الحرب أن عليهم معاونة تركيا فى محنتها ثم يكون هناك اتفاق على أمور أخرى بعد انجلاء الموقف(٢٣) .

كما أن البعض الآخر من العرب تدبروا الأمر بعد ذلك وتدارسوا موقفهم فى أناة وتعمق فوجدوا أنهم بين أمرين اثنين : اما أن يغتنموا فرصة دخول العثمانيين الحرب فيساندونهم ويطالبون باستقلالهم بعد ذلك ثمنا لمعاونتهم ، وبذلك يحققون أهدافهم السياسية من جهة ويكتسبون رضاء العالم العربى والاسلامى من جهة أخرى .

واما أن يغلبوا سوء الظن بالعثمانيين فيدبرون للثورة ضدهم سرا ويضرمون نارها علنا منضمين الى صفوف الحلفاء متى حان الوقت المناسب وبذلك يفوزون بالاستقلال ومعاونة الحلفاء لهم اذا ما كسبوا الحرب ٠

أما الرأى الأول والقائل بمعاونة الأتراك العثمانيين فكان يكتنفه خوف بالغ من أن ينكث هؤلاء بعهودهم اذا ما خرجوا منتصرين فى هذه الحرب وأما الرأى الثانى فكان يساوره الخوف كذلك من مطامع الدول الاستعمارية بعد انتهاء الحرب(٢٤) ٠

وأما العثمانيون فلم يكن معقولا ولا مقبولا أن يسيروا فى نفس الطريق الذى سلكوه حيال العرب قبل الحرب حين أسرفوا فى سياسة التتريك واغلاق الجمعيات والنوادى العربية ومحاربة لغة العرب واتجاهاتهم للتحرر ، بل كانت السياسة الرشيدة تحتم عليهم أن يكسبوا العرب الى جانبهم حتى يكونوا دعما لهم فى ميادين القتال ويقفوا الى جوارهم فى تلك الظروف الحرجة(٢٥) ٠

بيان جمعية العربية الفتاة :

أصدرت جمعية العربية الفتاة بيانا جاء فيه « ينتج عن دخول تركيا الحرب أن الأجزاء العربية فى الدول العثمانية باتت مهددة بالخطر الشديد وأنه يجب بذل أقصى جهد لضمان تحريرها واستقلالها ، وقد تقرر كذلك أنه فى حالة ظهور مطامع أوربية فى هذه الأجزاء ينبغى على الجمعية أن تعمل الى جانب تركيا فى سبيل مقاومة النفوذ الأجنبى مهما كان نوعه وشكله »(٢٦) ٠

محاولات الاتصال مع الشريف حسين :

حرصت الدولة العثمانية من جانبها على الاتصال بالشريف حسين أمير مكة ودعوته لاصدار بيان يوجهه الى العالم الاسلامى قاطبة يدعو فيه المسلمين الى الجهاد الدينى ضد بريطانيا وحليفاتها على غرار الفتاوى الثلاث

الصادرة عن استانبول .. لكن الحسين أحجم عن الاستجابة لهذا الطلب وضغطت عليه الحكومة فى استانبول ضغطا لا هوادة فيه(٢٧) .

وانهالت عليه البرقيات والرسائل من العاصمة العثمانية :

من سعيد حليم الصدر الأعظم ، وأنور باشا وزير الحربية وطلعت باشا وزير الداخلية وغيرهم من كبار المسئولين : كما أخذ أحمد جمال باشا القائد العام للجيش الرابع فى دمشق من ناحيته يحث الشريف على أن يصدر اعلانا بالجهاد الدينى ، وأن يبعث الى دمشق راية الرسول صلوات الله وسلامه عليه ، وأن يحشد جيشا من قبائل الحجاز .

وهكذا أظهرت الدوائر العليا فى الدولة العثمانية تلهفا على استصدار اعلان الجهاد الدينى من الشريف حسين للمكانة الفريدة التى يتبوأها(٢٨) .

موقف الشريف حسين :

كانت العلاقات بين الشريف حسين بن على ورجال الاتحاد والترقى متوترة الى حد كبير نظرا لمحاولاتهم التدخل فى شئون الحجاز وحمله على قبول النظام المركزى رغبة منهم فى تقييد سلطانه وسعيا منهم لتحطيم نفوذ « الشرافة » فى الحجاز ولكنه رفض الاستجابة لطلبهم ، ثم ازدادت العلاقة بينهم وبينه سوءا حين سعوا لعزله وأرسلوا الى الحجاز واليا من أتباعهم ومن المتعصبين للتتريك هو وهيب باشا وكان على نصيب موفور من الغلظة ، وكما كان متوقعا أخفق هذا الوالى الجديد فى تحطيم نفوذ الشريف حسين(٢٩) .

ولنا أن نتوقف عند هذه المحاولة لنرى أن قادة تركيا من الاتحاديين كانوا بعيدين عن الدبلوماسية وضيقى الأفق لأنه كان من الممكن التلميح للشريف حسين بمزيد من الحكم الذاتى وعدم مضايقته بشخص كوهيب الذى أدى الى تدهور الموقف بدلا من تصفية الخلافات التى كانت قائمة . وقد تنبه العثمانيون لهذا الخطأ ووجدوا أنه من حسن السياسة مهادنة

الشريف بعض الوقت حتى تتبين لهم نواياه الحقيقية وعندها يمكن عزله من منصف الشرافة وتولية غيره ولكن الشريف على حيدر وهو من الفرع الآخر لبنى هاشم مع عدم توقف المحاولات مع الحسين لاعلان الجهاد الدينى ومساندة تركيا(٣٠) • ومن هنا يتضح لنا انه لم تكن هناك ثقة متبادلة بين العثمانيين والشريف حسين الذى أحس بأن هناك تيارات خفية تعمل ضده مما جعله يتطلع الى بريطانيا كى تشد من أزره فى صراعه المرتقب مع الأتراك •

وعلى الجانب الآخر بدأت بريطانيا تفسد ما يحاول العثمانيون اصلاحه ولم تضيع وقتا فى الاتصال بالشريف حسين من خلال رونالد ستورز السكرتير الشرقى فى دار المعتمد البريطانى فى القاهرة الذى أتاح له الفوائد الجمة التى تعود عليه من تعاونه مع البريطانيين •

ولم يشأ الشريف حسين أن ينفرد برأى فاصل فى موقف كهذا وفضل أن يعرض الموضوع برمته على ولديه عبد الله وفيصل وقد وجد أن رأى كل منهما يختلف عن الآخر الى حد كبير فبينما كان الأمير عبد الله يرى التعاون مع البريطانيين كان فيصل يرى من ناحيته الانضمام الى الأتراك العثمانيين وكان لكل منهما أسانيده وحججه ـ كان الأول يرى أنه لا أمل فى تركيا ولا يرجى للعرب على يديها خيرا وانه لا يمكن الحصول على حقوق العرب الا بالثورة عليهم ، وأن الحرب الحالية فرصة مواتية يجب اهتبالها ، وانه يمكن ـ عن طريق المفاوضة مع الانجليز ـ الوصول الى معرفة الوعود التى يقدمها البريطانيون للعرب اذا انضموا اليهم(٣١)

أما حجة الأمير فيصل بن الحسين فهى أن لبريطانيا مطامع فى العراق وفرنسا أطماعها فى بلاد الشام وليس فى تصريحات البريطانيين ما يدل من قريب أو من بعيد على ضمان مستقبل البلاد العربية وتحررها من الأطماع الاستعمارية • كما كان فيصل يرى ان العرب ليسوا على استعداد لامتشاق الحسام فى وجه الأتراك حيث أنهم اخوان لهم فى الدين • ولما كان من الصعب على الشريف حسين التوفيق بين وجهتى

النظر المعارضة لولديه فقد رأى أن يتخذ موقفا وسطا حيث يظل على اتصاله بالبريطانيين مع التأكيد لهم أنه لن يتردد فى محاربة الأتراك اذا اضطروه الى حمل السلاح فى وجوههم واشترط أن تتعهد له انجلترا بتقديم مساعدة فعالة اذا حدث ذلك ، كما أعلن أنه لن يستطيع المجاهرة بأى عمل عدائى ضد الأتراك قبل أن يجمع قواته كلها ويستكمل الاستعدادات اللازمة ، وأنه سوف ينتهز الفرصة المواتية لاعلان الثورة على الأتراك(٣٢) ٠

ويشير بعض المؤرخين الى حادثة لها دلالتها على تطور الأحداث فيما بعد حيث كان وهيب باشا القائد التركى مسافرا الى المدينة فى يناير ١٩١٥ وفى أثناء الطريق فقدت احدى حقائبه الخاصة من بين أمتعته الشخصية وتدل الملابسات التى أحاطت بالحادث على أنه وقع بتدبير دقيق فلم يكن حادثا عرضيا كما تقول بعض المراجع وما يهمنا أن الحقيبة حملت الى الشريف حسين وبفحصها وجدت أوراق رسمية صادرة من الآستانة تشير الى مؤامرة تركية لاغتيال الشريف حسين وأولاده ، ولم يمنع تنفيذ هذه المؤامرة الا قيام الحرب العالمية الأولى(٣٣) ٠

وتمضى الرواية التى تفرد بها أمين سعيد فتؤكد أن الأمير فيصل الذى كان معروفا بالميل الى الترك والحرص على استيفاء مودتهم قد زار استانبول وأطلع الصدر الأعظم على هذه الوثائق والكتب التى عثر عليها ، وشكا من تصرف الاتحاديين وقال انهم يعملون للتنكيل بنا ودس الدسائس ضدنا مما أفقدنا الثقة بهم وانتهت هذه المقابلة بالأمر بفصل وهيب باشا من الحجاز - ارضاء للشريف حسين - وعين غالب باشا مكانه ، وأعطيت له تعليمات بالتقرب من الشريف حسين واقامة علاقات طيبة معه ٠

وفى أوبة الأمير فيصل من استانبول اتصل برجال جمعيتى العهد والعربية الفتاة فى دمشق فى السادس والعشرين من مارس ١٩١٥ وكانتا قد أصدرتا ميثاقا مشتركا لتحقيق استقلال البلاد العربية فى الحجاز ونجد وسوريا والعراق وفلسطين وحمل فيصل الميثاق الى أبيه فى مكة

الذى ابلغه بدوره الى السير هنرى ماكماهون فى مصر مطالبا بقيام دولة عربية فى تلك البلاد(٣٤) ٠

وهكذا تأكد للعثمانيين أن الشريف حسين يقدم رجلا ويؤخر أخرى اذا كان فى مفترق الطرق ٠ فهو يفكر فى القيام على الدولة العثمانية وتحريك ثورة عربية هادرة تستهدف تخليص البلاد العربية الآسيوية من الحكم العثمانى ٠

ولا شك أن بريطانيا كانت مسؤولة عن توتر العلاقات بين الحسين وبين العثمانيين فقد بدأت اتصالات مبكرة معه حيث قدمت له عرضا على لسان لورد كتشنر Kachenar وزير الحربية البريطانى وكان هذا العرض يتضمن التأكيد بأن الحكومة البريطانية تضمن له بقاءه فى منصب أمير مكة واحتفاظه بجميع حقوق هذا المنصب وامتيازاته ، وأنها تحميه من كل اعتداء خارجى واختتم كتشنر هذا العرض بتلميح يشير الى أن الشريف فى حالة مبايعته بالخلافة يستطيع أن يطمئن الى اعتراف بريطانيا وكان التلويح بهذه العروض المغرية أحد الأسباب فى امتناع الشريف حسين عن اصدار دعوة الجهاد الدينى ولكنه لم يفصح عن مكنون قلبه . فرد على الطلبات المكررة التى بعث بها اليه رجالات الحكومة التركية بأنه يؤيد الدعوة الى الجهاد ويباركها فى صمت أما تأييده لها فى العلن فأمر يؤدى الى عواقب وخيمة لأنه يخشى أن يعمد الأسطول البريطانى الموجود فى البحر الأحمر الى فرض الحصار على ميناء جدة وميناء ينبع وسواحل الحجاز الممتدة ، وينقطع وصول المؤن بحرا فيواجه السكان أزمات خانقة فى المواد التموينية ، ولا تلبث أن تنقلب الى مجاعة قد تؤدى الى الاطاحة به ، واشتعال الثورة بين القبائل(٣٥) ٠

العثمانيون وموقفهم من مناورات الشريف حسين :

كظم رجال الدولة العثمانية غيظهم ، فهم يريدون أن يؤكدوا مرارا وتكرارا أن الحرب التى تخوضها الدولة ضد بريطانيا وحليفاتها هى حرب

دينية ويريدون ان يعتقد المسلمون فى مشارق الأرض ومغاربها أن العثمانيين هم حماة الاسلام وحماة الأماكن المقدسة ، وان أمير مكة وشريفها يؤيدان علنا الدعوة الى الجهاد ٠ فصدرت التعليمات الى أئمة المساجد فى ولايات الشام بأن تتضمن خطب أيام الجمعة ما يفيد أن الشريف حسين قد بارك الدعوة الى الجهاد الدينى وصدرت التعليمات أيضا الى الصحف العربية بأن تقوم بدورها فى المجال الاعلامى ، وتنشر أن أمير مكة وشريفها قد أعلن الجهاد فى جميع أنحاء الحجاز ، وأنه يعمل بتنسيق مع خليفة المسلمين ٠ وجاء فى نشرة جريدة « الاتحاد العثمانى » التى تصدر فى بيروت فى عددها الصادر فى ٢٩ من ديسمبر ١٩١٤ البيان التالى(٣٦):

« لقد نشرنا أمس نقلا عن مصادر رسمية أن الأمير عبد الله بن شريف مكة قد تطوع للعمل فى سبيل الجهاد ومعه فرقة كبيرة من رجال القبائل الحجازية ، وبوسعنا الآن أن نؤكد أن الشريف حسين قد أعلن الجهاد فى جميع أنحاء الحجاز ملبيا فى ذلك رغبة الخليفة وأن القبائل تستجيب لهذه الدعوة من كل ناحية ومعهم أسلحتهم الكاملة ومن ناحية أخرى بعد مضى زهاء عام على دخول العثمانيين الحرب العالمية الأولى ، فقد ظلت دائمة السعى لاستصدار اعلان من الحسين بالدعوة الى الجهاد(٣٧) ٠

وفى سبتمبر سنة ١٩١٥ كشف الحسين عن خبيئة نفسه فصرح بأنه على استعداد لاعلان الجهاد الدينى وتأييد الدولة اذا اعترفت باستقلال الحجاز من تبوك شمالا الى مكة المكرمة جنوبا وتقرير حكم هذا الاقليم وراثيا فى أسرة الحسين أمير مكة على غرار النظام المقرر بالنسبة لمصر بجعل الحكم وراثيا فى أسرة محمد على ، أى يكون للحجاز استقلال ذاتى داخل نطاق الدولة ٠ وحدد الشريف هذا العرض فى شهر مارس ١٩١٦ ورفضت الدولة طلبه وأجابت بأنها منصرفة قلبا وقالبا الى العمليات الحربية وليس لديها متسع من الوقت للنظر فى مثل هذا الطلب ، وكانت فى رفضها توجه اليه نوعا من اللوم ، اذ قالت ما كان ينبغى له أن يتطلع الى الحكم الوراثى فى الحجاز فى مثل هذا الوقت حتى ولو كان على حق

لأن موارد الدولة وجهودها يجب أن تحشـد لهذا الغرض الذى لا بديل عنه وهو احراز النصر النهـائى ، وأن الدولة قد خاضت الحرب لمصلحة العالم الاسلامى « والحق أن العثمانيين بموقفهم هـذا كانوا بعيدين عن الدهاء السياسى والا لقبلوا بعض هذه المطالب وتفاوضوا بشأن بعضـها الآخر ولن يضـيرهم ذلك طالمـا أن هـذا يحقـق لهم تفوقا فى ميـادين القتـال(٣٨) .

جمال باشا يساهم فى القضاء على اعلان الجهاد :

أخذت القيادة العامة العثمانية تحشد الجيوش فى سوريا وفلسطين لتنفيذ خطتها الحربية فى اجتياز صحراء النقب مع شـبه جزيرة سـيناء والتقدم لفتح مصر وطرد البريطانيين منها ، وعهدت الحكومة العثمانية الى وزير الحربية جمال باشا بهذه المهمة وزودته بصلاحيات « فوق العادة » تكاد تكون مطلقة فى جميع الشؤون العسكرية والمـالية .

كان جمال باشا هذا أحد « الثلاثة » الذين يسـيطرون على شـئون الدولة والحزب سيطرة تامة . وكان نجمه قد سـطع بوجه خاص عندما تولى محـافظ العاصـمة ولعب دورا هاما فى اسـقاط حكومة « الحرية والائتلاف » وفى القضاء على مؤمرات المعارضة عقب مقتل محمود شوكت باشـا وكان معروفا فى الوقت ذاته بميوله الطورانيـة ، لأنه كان وثيق الصلة بدعاة القومية التركية وكثير التشجيع لنواديها(٣٩) .

واذا كانت مقدرته الادارية والعسكرية تجعله أجدر الناس بتولى هذه المهمة الخطيرة الا أن نزعته العنصرية كانت تجعله ـ على العكس من ذلك ـ من أخطر الرجال على الحفاظ على العـلاقات القـائمة بين الاتراك والعرب وقد وصل جمال باشا الى دمشق فى موكب رسمى واتخذها مقرا لقيادته وهنـاك رأى آخر يختلف تماما عن الرأى الأول يؤكد أن جمال باشا كان لا يشاطر زملاءه فى الأخذ باتجاهات الحركة الطورانية بل كان يؤمن بالتضامن الاسلامى وأنه كان الشخص المناسب لمثل هذه المهمة التى

أسندت اليه . وقد اعتزم فى أول الأمر كسب العرب الى جانب الدولة واستمالة المسلمين الى المشاركة الفعالة فى الجهاد الدينى ضد بريطانيا وحليفاتها(٤٠) .

وفى الحقيقة فان جمال باشا الذى سار فى بادىء الأمر ، على سياسة « استمالة القلوب » وجمع الكلمة . أخذ يتكلم ويخطب فى روابط الأخوة التى تجمع بين الأتراك والعرب ، ويستحث همم الجميع لخدمة « الغاية المقدسة » التى تسعى الحكومة العثمانية الى تحقيقها بواسطة الجيش غير أنه بعد مرور نحو سنة وبعد أن تأكد له فشل سياسته تلك وأن الشريف حسين متجه بالفعل للتحالف مع البريطانيين ، غير سياسة الملاينة وبدأ عهدا جديدا من الارهاب والاعتقال والتشريد والنفى بل وشنق الكثيرين من زعماء العرب بعد اتهامهم بالخيانة والاتصال بالبريطانيين والفرنسيين(٤١) .

وقد استمر جمال باشا فى هذه الأعمال الارهابية دون أن يلتفت لا الى الملاحظات التى أبداها بعض رجال الدولة ولا الى النصائح التى أسداها له الشريف حسين وابنه الأمير فيصل .

وقد أوفد الشريف حسين ابنه (فيصل) الذى كان عندئذ نائبا عن الحجاز فى مجلس المبعوثان العثمانى ـ ليلتمس منه الكف عن سياسة الارهاب والتنكيل بالعرب . ولكن جمال باشا لم يعبأ بذلك واستمر فى سياسته وكانت بعض الأخبار قد تسربت الى جمال باشا تفيد عن اتصالات بعض العرب من أعضاء الجمعيات العربية فى بلاد الشام بالدول الأجنبية وقد حفظت بعض الوثائق فى القنصلتين الفرنسية والبريطانية بعد قيام الحرب ووردت أسماء بعض زعماء رجال الحركة العربية وبعض الجمعيات السرية وكانت النتيجة محاكمة العشرات أمام الديوان العرفى ووجهت اليهم تهمة الخيانة وصدر الحكم بالاعدام .

ونفذ فى القافلة الأولى فى نهاية عام ١٩١٥ فى بيروت والمجموعة الثانية فى ٦ مايو سنة ١٩١٦ قسم منها فى بيروت والقسم الثانى فى

دمشق ، كما صـدرت أحكام بالاعدام على خمســة وأربعين كانوا خارج البلاد • وقد حاول جمال باشا الدفاع عن نفسه فنشر الوثائق المتعلقة بهذه القضايا فأصدر كتابا بالعربية والتركية ضمن الوثائق التى استند اليها الديوان العرفى فى اصدار قراراته مع ذكر الجرائم التى أدين بها كل واحد منهم(٤٢) •

وعلى هذا يمكن القول ان سياسة جمال باشـا وقسـوته ساهمت بنصيب كبير فى اتجاه الشريف حسين الى بريطانيا واعلان الثورةالعربية

ويحاول البعض تبرير سياســة جمال باشـا بأنها « مجرد أعمـال وقائية » تقتضـيها ظروف الحـرب وأن من حكم عليهم بالاعدام قد ثبتت عليهم تهمة « التخابر مع الأعداء فى زمن الحرب » ولكن من الصعب على المؤرخ ايجاد تبرير لمثل هذه الأعمـال وليس من مهمته ذلك • فكم من الجرائم ترتكب فى حق الشـعوب ويتم ايجـاد المبررات لها بحجة الحرب أو الطوارىء التى اقتضـاها الموقف ويمـكن الرد على ذلك بأن الظروف الحرجة تقتضى تآلف القلوب واجتماعها ووحدة الكلمة لا الاجراءات الوقائية أو الاستثنائية كما يسميها البعض وكما فعل جمال باشا وغيره(٤٣) •

حواشي الفصل الأول

الحرب العالمية الأولى واعلان العثمانيين للجهاد

(١) محمد قاسم ، أحمد نجيب هاشم : التاريخ الحديث والمعاصر، القاهرة ١٩٥٨ ، ص ٢١٠

(٢) فيشر : تاريخ أوربا فى العصر الحديث ، دار المعارف ، ١٩٧٦ ، ص ٤٨٤

(٣) د. محمد كمال الدسوقى : تاريخ ألمانيا ، دار المعارف ١٩٦٩ ، ص ١٠٦

(٤) د. عبد الحميد البطريق : التيارات السياسية المعاصرة ١٨٧٠ ـ ١٩٦٥ ، دار الفكر العربى ، ص ١٣٦

(٥) د. محمد كمال الدسوقى : مرجع سابق ، ص ١٠٨ .

(٦) د. عبد الحميد البطريق ، مرجع سابق ، ص ١٣٦

(٧) محمد قاسم : مرجع سابق ، ص ٢١٢ ـ ٢١٣ .

(٨) د. مصطفى محمد رمضان : العالم الاسلامى فى التاريخ الحديث والمعاصر ، القاهرة ١٩٨٥ ، ص ١٠١

(٩) رمزى ميور : النتائج السياسية للحرب العظمى : ترجمة محمد بدران ، ص ١٨٠

(١٠) المرجع السابق ، ص ١٨١

(١١) د. عبد العزيز نوار :

(١٢) د. السعيد رزق حجاج : الاستعمار الأوربى فى أفريقيا وآسيا ، ١٩٨٧ ص ٢٦٥ ـ ٢٦٦

(١٣) المرجع السابق ، ص ٢٦٦

(١٤) تقرير كامبل بانرمان ، نقلا عن د. حسن صبرى الخولى : سياسة الاستعمار والصهيونية تجاه فلسطين ، المجلد الأول ، المعارف ١٩٧٣ ، ص ١١٣ ـ ١١٤

(١٥) المرجع السابق ، ١١٦

(١٦) د. عبد العزيز الشناوى : الدولة العثمانية دولة اسلامية مفترى عليها ، أربعة أجزاء جـ ١ ، الأنجلو ص ١٥ ـ ٣٦ .

(١٧) د . حسن صبرى الخولى : مرجع سابق ، ١٢٤

(١٨) د. محمود صالح منسى : حركة اليقظة العربية فى الشرق الأسيوى ، ط ١٩٦٣ ، ص ٢٠٤

(١٩) المرجع السابق ، ص ٧٨

(٢١) د. أحمد عبد الرحيم مصطفى : فى أصول التاريخ العثمانى ، دار الشروق ، ١٩٨٢ ، ص ٢٨٦

(٢٢) د. محمود صالح منسى : مرجع سابق ، ٢٠١ .

(٢٣) محمد رفعت : التوجيه السياسى للفكرة العربية الحديثة ، المعارف ، ١٩٦٤ ، ص ١٠٥

(٢٤) د. محمود حلمى : المجتمع العربى ، ١٩٦٥ ، ص ٢٣٦

(٢٥) توفيق على برو : العرب والترك فى العهد الدستورى ، معهد الدراسات العربية ، ١٩٦٠ ، ٦١٩

(٢٦) د. محمود صالح منسى : مرجع سابق ، ص ٢٠٥ .

(٢٧) د. عبد العزيز الشناوى ، مرجع سابق ، جـ ١ ، ص ٧٨ .

(٢٨) أمين سعيد : الثورة العربية ، جـ ١ ص ١٠٥ ـ ١٠٦ .

(٢٩) المرجع السابق ، ص ١٠٦

(٣٠) د. حسين فوزى : السياسة والاستراتيجية فى الشرق الأوسط ، النهضة المصرية ، ص ٣٧٦

(٣١) د. حسن صبرى الخولى : مرجع سابق ، ص ١٣١ ـ ١٣٢

(٣٢) أمين سعيد ، جـ ١ ، مرجع سابق ، ص ١٠٥ ، ١٠٦ .

(٣٣) د. محمود زايد : أحداث الثورة العربية ، دراسات فى الثورة العربية ، الاردن ١٩٦٧ ، ص ٧١

(٣٤) د. زاهية قدورة : تاريخ العرب الحديث ، ص ٢٤٨ ـ ٢٤٩

(٣٥) د. أحمد سويلم العمرى : بحوث فى المجتمع العربى ، ص ٢٣٠

(٣٦) د٠ عبد العزيز الشناوى ، الدولة العثمـــانية ، ج ١ ، مرجع سابق ، ص ٨١ ٠

(٣٧) المرجع السابق ، ص ٨١

(٣٨) د٠ زين الدين نور الدين ، أسباب الثورة العربية الكبرى (دراسات فى الثورة العربية) ص ٦٢ ـ ٦٤ ٠

(٣٩) ساطع الحصرى : محاضرات فى نشوء الفكرة القومية ، بيروت ١٩٥٦ ، ص ٢٠٩

(٤٠) المرجع السابق ، ص ٢٠٩

(٤١) د٠ زاهية قدورة ، مرجع سابق ، ٢٤٩ ٠

(٤٢) د٠ ساطع الحصرى ، مرجع سابق ، ص ٢٠٩ ـ ٢١١ ٠

(٤٣) د٠ أحمد سويلم العمرى : مرجع سابق ، ص ٢٣٠ ٠

الفصل الثانى

بريطانيا والعرب فى الحرب العالمية الأولى

أدركت بريطانيا منذ الوهلة الأولى لاشتراكها فى الحرب أهمية الشرق العربى ، والدور الذى يمكن القيام به فى ظل مظاهر السخط على الحكم التركى منذ بدأ الاتحاديون سياستهم العنصرية ، كما أن بريطانيا رأت فى النيل من هؤلاء العثمانيين فرصة ذهبية قل أن يجود بها الزمان مرة أخرى ، وسال لعاب ساسة بريطانيا للعراق وفلسطين وغيرهما من البلدان العربية التى تنوى بعد انتهاء الحرب احتلالها وتوسيع نفوذها تطبيقا لسياستها القديمة فى الشرق ٠

من هنا بدأ البريطانيون اتصالات تمهيدية مع بعض الزعماء العرب قبل الحرب وبعد قيامها ٠ وقد مهدت هذه الاتصالات لعقد الاتفاق المعروف بمراسلات الحسين ـ ماكماهون (١) ٠

وقد وجدت السلطات البريطانية كما يشير استاذنا الدكتور محمود صالح منسى أن قيام ثورة ضد الأتراك فى بلاد الشرق العربى الآسيوى سوف يرغم تركيا على الاحتفاظ بجانب كبير من قواتها وبذلك لاتساهم فى جبهات القتال الرئيسية الأخرى لاسيما الجبهة الروسية ، كما أن الثورة فى شبه الجزيرة بالذات من شأنها أن تقطع الصلة بين القوات العثمانية الرئيسية المتمركزة فى الشام والفرق العثمانية فى جنوب شبه الجزيرة العربية كاليمن وعسير ، وبذلك لا تستطيع هذه الأخيرة أن تصبح ذات خطر على المراكز البريطانية فى الجنوب وخاصة عدن ، كما أنه الى جانب ذلك كان من المعروف أن ألمانيا سوف تحاول الاستفادة من تحالفها مع العثمانيين بايجاد جسر يوصل المستعمرات الألمانية فى شرق أفريقيا وبين ألمانيا عن طريق ممتلكات حلفائهم فى شبه الجزيرة العربية

ومن شأن ثورة العرب - كما يرى البريطانيون - افساد هذا المخطط الألمانى وقد نشط الانجليز بعد قيام الحرب فى سبيل اتمام سيطرتهم على البلاد العربية التى كانت تحت سلطان العثمانيين المباشر وهى الحجاز والعراق وبلاد الشام (٢) ٠

وقد استغلت الدبلوماسية البريطانية جيشان الحركة العربية بعد اعلان الدستور العثمانى عام ١٩٠٨ وما كان من رجال الاتحاد والترقى من موقف مريب نحو العرب ، وما نتج عنه من التنكيل بأحرارهم شنقا وسجنا وتعذيبا وتشريدا فى بداية الحرب العالمية الأولى فاتصلوا بشريف مكة الحسين بن على وراودوه عن انحياز العرب لجانبهم واعلان الثورة على العثمانيين مقابل التعهد باستقلال البلاد العربية ٠

وفى الأيام الأولى بعد قيام الحرب كتبت جريدة التايمز « أن تركيا قد خانت مصالح الاسلام باعلانها حربا خرقاء على الحلفاء ، وهى بذلك قد أصدرت حكم الاعدام على نفسها (٣) » ٠

وبعد نشوب الحرب بخمسة أشهر تقريبا فى ٢٣ مارس ١٩١٥ أخبر السير ادوارد جراى السفير الفرنسى فى بريطانيا « يبدو أن مجلس الوزراء هنا قد توصل الى نتيجة واحدة : لقد قلت أننا اتفقنا مسبقا على أنه فى حالة اختفاء تركيا من الاستانة والمضايق فانه لابد من قيام وحدة سياسية اسلامية مستقلة فى مكان ما ، وذلك لمصلحة الاسلام ، وسيكون مركزها بطبيعة الحال الأماكن الاسلامية المقدسة وستشمل جزيرة العرب » (٤) ٠

وفى ٢٤ أغسطس ١٩١٤ اقترح كتشنر وزير الحربية البريطانى على وزير خارجية بريطانيا ارسال « رسالة شخصية » الى شريف مكة للتحقق من موقف العرب وتم ارسال مندوب الى الشريف حسين الذى عبر فى محادثاته مع المندوب البريطانى عن آرائه بكل صراحة ووضوح حين قال : « مدوا لنا يد العون فاننا لن نساعد هؤلاء الظالمين » ٠

وقد تعددت المراسلات التمهيدية بين الطرفين وفيها تم التأكيد على قيام التحالف بين الشريف حسين وبريطانيا وعزمه على الثورة ضد العثمانيين وتحقيق طموحاته فى حكم دولة كبرى وقد يمتد هذا الطموح الى حصوله على لقب الخلافة الذى طالما تاقت اليه نفسه (٥) .

وكانت لدى البريطانيين عدة اعتبارات سياسية واستراتيجية تجعلهم يرحبون بقيام ثورة كهذه لمقاومة الخطر التركى الألمانى على مصر مباشرة وعلى الهند بصورة غير مباشرة وقد عبر السكرتير الشرقى للسفارة البريطانية فى مصر عن هذه السياسة بقوله :

« ان التهديد الرئيسى لنا يكمن فى الأثر الذى سيحدثه العداء التركى مع بريطانيا العظمى لدى السكان المسلمين فى الهند ومصر والسودان » (٦) .

المراسلات بين الحسين ومكماهون :

بعد سلسلة الاتصالات التمهيدية بين الجانبين اتجهت المراسلات بينهما اتجاها آخر بعد أن أصدر رجال الحركة العربية فى بلاد الشام بيانا تضمن مطالب العرب فى الحرية والاستقلال لقاء قيامهم بالثورة على تركيا وعلى أساس الحصول من بريطانيا على ضمان استقلال البلاد العربية بعد انتهاء الحرب وجاء فى هذا البيان أو الميثاق كما يسميه البعض :

« اعتراف بريطانيا العظمى باستقلال البلاد العربية الواقعة ضمن الحدود التالية :

شمالا — خط مرسين — أطنة الى ما يوازى خط العرض ٣٧ شمالا ثم على امتداد خط بيريجبك — أورقة — ماردين — مدبات — جزيرة ابن عمرو — العمادية الى حدود ايران شرقا — على امتداد حدود ايران الى خليج العرب جنوبا .

جنوبا المحيط الهندى باستثناء عدن التى يبقى وضعها الحالى كما هو .

غربا — على امتداد البحر الأحمر ثم البحر المتوسط الى مرسين .

الغاء جميع الامتيازات الاستثنائية التى منحت للأجانب بمقتضى الامتيازات الأجنبية — عقد معاهدة دفاعية بين بريطانيا العظمى وهذه الدولة العربية المستقلة » .

« كذلك تقديم بريطانيا العظمى وتفضيلها على غيرها من الدول فى المشروعات الاقتصادية » (٧) .

وقد تطورت المحادثات بين الشريف حسين وماكماهون الذى عين مندوبا ساميا فى مصر والسودان فى مستهل عام ١٩١٥ . وكانت هذه المراسلات عبارة عن خمس مذكرات مبتدئة فى الثانى من رمضان ١٣٣٣هـ ١٤ يوليو ١٩١٥ وآخرها فى جمادى الأولى عام ١٣٣٤هـ (١٠ مارس ١٩١٦) وكانت هذه المذكرات المتبادلة بين الرجلين وماتضمنتها من وعود وعهود ، الأساس الذى دفع الحسين الى اعلان الثورة(٨) .

ومن هذه المراسلات يتبين أن بريطانيا قطعت على نفسها وعدا صريحا بتحقيق استقلال البلاد العربية مع تحفظات أبدتها تقبل تفسيرات مختلفة استطاعت فيما بعد أن تستند اليها فى اتباع سياسات ألحقت بالعرب أفدح الأضرار من بينها : السياسة البريطانية فى فلسطين خاصة وفى بعض أجزاء من بلاد الشام الواقعة فى الجبهة الغربية لولايات دمشق وحمص وحماه وحلب بزعمها أنها ليست عربية خاصة ، كذلك فى مرسين واسكندرونة .

ولم يقف الأمر عند هذا الحد فقد كانت وعود بريطانيا للشريف حسين وعود زائفة ولم تكن سوى مجرد أسلوب للدعاية تجتذب به تأييد العرب لأنه ما كادت تنتهى مراسلات حسين ماكماهون ، حتى اتفقت بريطانيا مع فرنسا وروسيا على سياسة تناقض وعودها للعرب بالاستقلال

وذلك فى ١٦ مايو ١٩١٦ بالمعاهدة السرية المعروفة بمعاهدة سايكس بيكو وفيها اتفقت الدول الثلاث على تقسيم البلاد العربية والاسلامية ، وكان الاتفاق قائما على أساس حصول روسـيا على الآسـتانة الى جانب بعض الأميال على جانبى البوسفور مع قسم كبير شرقى الأناضول ، يشمل أربع ولايات مجاورة للحدود الروسية التركية وتقع كلها خارج الحدود العربية

أما فرنسا فقد حصلت على القسم الأعظم من سوريا وعلى قسم صغير من جنوب الأناضول ، ومنطقة الموصل فى العراق بينما حصلت بريطانيا على قسم يمتد من أقصى جنوب سوريا عبر العراق بحيث يشـمل بغداد والبصرة والقسم الواقع بين خليج العرب والمنطقة المخصصة لفرنسا ، وتضم حيفا وعكا على الساحل وقسم صغير من المنطقة الداخلية ، وأن تصبح هذه الأقسام مناطق نفوذ انجليزية وفرنسـية ، وكذلك تضمنت المعاهدة كثيرا من التفصيلات والمواد ، التى تضمن مصالح الدول الموقعة عليها السياسية والاقتصادية فى البلاد العربية (٩) ٠

أما فلسطين فقد وضعت فى هذه المعاهدة تحت ادارة دولية خاصة وقد لعبت الصهيونية دورا كبيرا فى الضغط على المسئولين البريطانيين لأخذ مثل هذا القرار ، وكان التدويل خطوة أولى فى استبعاد فرنسـا عن فلسطين وتوطئة لجعلها تحت النفوذ البريطانى كما سيأتى ٠

والجدير بالذكر أنه تم كشف النقاب عن اتفاقية سايكس بيكو هذه بعد انسـحاب روسـيا من صف الحلفـاء سنة ١٩١٧ بسبب الانقلاب الشيوعى ومحاولتها الزعم بأنها ليست مسـئولة عن أخطاء الحكومة القيصرية ذات الاتجاهات الاستعمارية وقد أثبتت الأحداث أن قادة الانقلاب الشيوعى كانوا أكثر وحشية ودموية من سابقيهم ولاسيما فى المناطق الاسـلامية التى ارتكبوا فيها من المذابح ما يؤكد بكل جلاء حقدهم على الاسلام ورغبتهم الشـديدة فى القضاء عليه والذى يعنينا فيمـا يتعلق بالمؤامرة الثلاثية أنه بعد انسحاب روسيا من الاتفاق أصبح ثنائيا وأكدت بريطانيا وفرنسا على ما جاء فيه بالنسبة للبلاد العربية وصار يعرف باسم

سايكس بيكو اقتباسا من اسم المندوبين الانجليزى والفرنسى اللذين تفاوضا باسم حكومتيهما .

وهكذا مزقت بلاد الشام والعراق بالمؤامرة الانجليزية الفرنسية أفظع تمزيق وأسوأه ، فكان ذلك من أشد الضربات التى وجهت للحركة العربية المتحدة ، وبينما كان هذا يتهيأ لاعلان الثورة وضم العرب للقتال الى جانب الحلفاء والحرب معهم ، وهو ما تم الاتفاق عليه قبل هذه المؤامرة وما بدىء بتنفيذه بعدها بقليل (١٠) .

اعلان الثورة الحسينية :

قبيل اعلان ثورة الشريف حسين بيوم واحد وجه الأمير فيصل رسالة الى جمال باشا القائد العثمانى مؤرخة فى ٨ شعبان ١٣٣٤ هـ (٩ يونيو ١٩١٦) وكانت فى الحقيقة انذارا وجه الى القائد العثمانى والحكومة العثمانية :

« ان المطالب العربية المعتدلة قد رفضتها الدولة العثمانية ، وبما أن الجند الذى تهيأ للجهاد سوف لا يرى عليه أن يضحى بغير مسألة العرب والاسلام فاذا لم تنفذ الشروط المعروضة من شريف مكة حالا فلا لزوم لبيان قطع أى علاقة بين الأمة العربية والأمة التركية ، وأنه بعد وصول هذا الكتاب بأربع وعشرين ساعة ستكون قائمة بين الأمتين »(١١) .

وبعد ذلك ببضع ساعات تم قطع السكة الحديدية بين دمشق والمدينة وفى فجر يوم السبت التاسع من شعبان ١٣٣٤ (١٠ يونيو ١٩١٦) بدأت الثورة المعروفة بالثورة العربية الكبرى والأدق أن تسمى بثورة الشريف حسين الذى أطلق الرصاصة الأولى معلنا بعدها استقلال الحجاز كما أذاع منشورا مسهبا بالأسباب التى جعلته يقدم على حركته وعدد من جملتها تحقيق الاستقلال العربى والخلافة العربية وما كان من تصرفات الأتراك نحو العرب . وفى نوفمبر من ذات العام أعلن الحسين نفسه ملكا على العرب .

ويلاحظ أن بريطانيا اعترضت على لقب « ملك العرب » ولم تعترف الا بلقب ملك الحجاز وكانت هـذه أول بادرة من بوادر المكر ومن أولى الصدمات الشديدة التى صدم بها الحسين (١٢) ·

عزيز المصرى فى بلاد الحجاز :

فى شهر سبتمبر وصل عزيز المصرى الى الحجاز حيث أعلن مساندته للحسين فى ثورته وقد كوفىء على ذلك بتعيينه وزيرا للحربية ، وأعطى صلاحيات وقد تمكن خلال ثلاثة أشهر من انشاء بضعة أفواج نظامية ، وخلق نواة جيش الثورة النظامى · وكان يعاونه فى مهمته عـدد من الضباط العرب الناقمين على سياسة الأتراك ، أكثرهم من العراق ومنهم نورى السعيد ومولود مخلص وعلى جودت الأيوبى ورشيد المدفعى ولكن لم يمض وقت طويل على عمل عزيز المصرى مع الشريف حسين حتى دب الخلاف بينهما فاستقال من عمله بعد ثلاثة أشهر (١٣) ·

وقد شهدت الثورة فى الفترة من ٢٤ أكتوبر ١٩١٦ وحتى ٢٤ يناير ١٩١٧ أوج فتراتها نظرا للمقاومة الشـديدة من جانب القوات التركية فى المدينة بقيادة فخرى باشـا · وعلى الرغم من الحاح الشريف على البريطانيين ـ بحكم تحالفه معهم ـ لارسال التعزيزات والأسلحة الا أن الحكومة البريطانية اعترضت على ارسال مثل هذه القوات تحت ذريعة الخوف من اتهام العالم الاسلامى لها خاصة المسلمون فى الهند باحتلال الأماكن المقدسة (١٤) ·

وقد حدث تحول فى الموقف لصالح قوات الشريف حسين بعد ذلك انتهى بدخول العقبة فى ٦ يوليو ١٩١٧ وفى أول أكتوبر دخلت القوات العربية النظامية دمشق مع القوات المتحالفة وأرسل الأمير فيصل حاكما من قبله هو شكرى الأيوبى ليقيم حكما عربيا فى المنطقة الساحلية بعد أيام من دخوله دمشق · وقد ذهب هذا الحاكم العربى ورفع أعلام الثورة الحسينية وأخذ يمارس فى بيروت الحكم والتنظيم ثم لم تلبث أن دخلت

الكتائب الفرنسية واحتلت هذه المنطقة وجعلت الحـــاكم العربى يطوى أعلامه وينسحب وكان هذا دليلا جديدا على لؤم الفرنسيين والبريطانيين وغدرهم بالعرب ٠

وعلى الرغم من أن الثورة لم تحقق أهدافها فى الحصول على الاستقلال الا أنها على الجانب الآخر قد ساعدت الحلفاء بصورة أو بأخرى يدلنا على ذلك ما قاله اللبنى فى تقريره الرسمى الى وزارة الخارجية البريطانية فى ٢٨ يوليو ١٩١٨ : « لقد ساعد الجيش العربى الحلفاء مساعدة كبيرة فى الحصول على نتائج فاصلة فى الحرب » (١٥) ٠

وبعد أن فشلت الثورة الحسينية فى تحقيق غاياتها تدور كثير من الأسئلة وهى هل كان العرب يريدون الثورة على العثمانيين فعلا ؟ ٠

وهل ارتضى العرب زعامة الشريف حسين بن على وقيادته للثورة ؟

والحقيقة التى ظهرت من خلال هذه الدراسة تؤكد أن هذه الثورة جاءت فى وقت غير مناسب ، كما أنها عجزت عن أخذ الضمانات الكافية على الدول المتحالفة مما كان سببا فى فشلها والحـــاق الضرر بالعرب وسوقهم الى ميادين القتال الى جانب الدول التى كانت تدبر لهم فى الخفاء المؤامرات والاتفاقات السرية ٠

والأهم أنها لم تكن ثورة كل العرب بل كانت ثورة الشريف حسين وبعض المتعـــاطفين معه والناقمين على العثمانيين لأســباب مختلفة ، وقد ظل العرب على ولائهم للدولة العثمانية وتعاطفهم معها حتى غدر جمال باشـــا بزعمائهم وعلق جماعات منهم على أعواد المشـــانق بعد محاكمات صورية لم تثبت عليهم جرما يستحقون عليه ما حدث لهم (١٦) ٠

ومصداقا لهذا الكلام نستعرض سويا موقف العرب فى غير الشام والعراق والحجاز من ثورة الحسين بن على ، حيث كان من المعروف أن العرب فى مصر وبرقة وطرابلس وتونس والجزائر كانت تجيش نفوسهم بالنقمة على الاستعمار الذى ارتكب من الفظائع والوحشية ما يجعلها تعلق

أملا كبيرا على انتصار الدولة العثمانية للتحرر من ربقته والفوز بالاستقلال ففى مصر كان المصريون يتجهون بآمالهم الى الدولة العثمانية وكان نداء الجامعة الاسلامية مدويا خفتت الى جواره أصوات الدعوة الى القومية المصرية أو غيرها من القوميات التى حاربها الاسلام منذ ظهوره .

وعندما حدث العدوان الايطالى على طرابلس وبرقه عام ١٩١١ هب المسلمون فى مصر وفى غير مصر من البلاد الأخرى فى أفريقيا وآسيا لنصرتها فى جهادها لمقاومة هذا العدوان الصليبى الجديد .

وفى تلك البلاد العربية التى شهدت عدوان الاستعمار ومكره ، وعرفت قبل ذلك الوحدة الاسلامية فى ظل الحكم العثمانى لم يكن هناك من يقف الى جانب الحسين فى ثورته أو يجد تبريرا لها . فالحسين فى نظر أصحاب الاتجاه الاسلامى خائن يقف فى صف أعدائهم وخارج على الملة والدين بثورته على خليفة المسلمين الذى يحارب دول الاستعمار التى اغتالت أقطار الاسلام والعروبة فى مصر والسودان وشمال أفريقيا وشرقها وفى آسيا كذلك (١٧) .

ويرى البعض أن هذه الحركة أو الثورة كما تسمى اذا قيست بمقاييس التاريخ لم تكن غير مقامرة خائبة يدفعها الخوف وينقصها العمق والأصالة وأنها بكل المقاييس « أخرت كفاح العرب القومى جيلا آخر من الزمان وكانت نشازا فى وحدة التاريخ العربى » (١٨) .

وعلى العكس من ذلك هناك من يرى أن هذه الثورة كانت استقلالية عربية غير اقليمية والدليل على ذلك أنه قد اشترك فيها عراقيون وسوريون وفلسطينيون ولبنانيون وكذلك كان علمها العربى علما ذو ألوان أربعه يمثل كل لون منها شعارا لعهد من عهود العرب ابان مجدهم .

ويكفى دليلا على عروبتها مشاركة مصر فيها على الرغم من وقوعها تحت الاحتلال البريطانى وأن وجود عزيز على المصرى القائد العسكرى الكبير مع الشريف حسين حيث التحق بالثورة ـ كما أسلفنا ـ ودرب

المتطوعين واشترك فى المعارك التى خاضتها ، كما كان هناك أكثر من ثلاثمائة ضابط وجندى من الجيش المصرى اشتركوا فيها وأبلوا بلاءا حسنا فى معاركها (١٩) .

والحقيقة أن اشـــتراك عزيز المصرى أو غيره ليس دليلا على نبل الأهداف التى قامت من أجلها الثورة ، كما أن اشتراكه وهو من مصر لا يعنى أن المصريين جميعا كانوا مؤيدين لها أو ناقمين على العثمانيين ولكن اشتراك عزيز المصرى كانت له ظروفه الخاصة بعد توتر العـــلاقات بينه وبين الحكومة العثمانية فى ذلك الوقت ، ولا شك أن بريطانيا شجعت مثل هذه الاتجاهات القومية التى اســتفادت منها فى محــاربة العثمانيين وكانت السلطات البريطانية فى مصر راضية عن مثل هذه الأعمال ومشجعة لها طالما أن هؤلاء الضباط سيحاربون فى صفوفها .

ومن ناحية أخرى تقاس الثورات دائما بالنتائج التى تمخضت عنها ، وحتى نكون منصفين فاننا نرى أن هذه الثورة لم تحقق شيئا له أهميته بل مزقت الشمل وفرقت بين المسلم وأخيه المسلم وجعلت كلا منهما يقتل أخاه فى ميدان القتال دفاعا عن أطماع بريطانية أو فرنسية من ناحية أو ألمانية نمساوية من ناحية أخرى كما أن تهاون الحسين جعل بريطانيا وفرنسا تتلاعبان به وتفرضان عليه معــاهدات واتفاقيات مزقت شــمل البلدان العربية .

ولعل أخطر هذه النتائج منح بريطانيا لليهود وعد بلفور فى الثانى من نوفمبر ١٩١٧

بريطانيا ومساندة الأطماع اليهودية فى فلسطين :

كان اليهود فى فلسطين حتى نهاية القرن التاسع عشر أقلية ضئيلة لا تلفت النظر اليها ولا تثير الشبهات والحذر لقلة عددهم وضآلة شأنهم حقيقة كانت بأيديهم بعض المتاجر ولكن كان أهل فلسطين مشغولين عنهم بحياتهم اليومية ، وعاش الجميع فى ظلال الحكم العثمانى لا يفكرون بغير أرزاقهم وأعمالهم .

وقد عد اليهود بفلسطين فى القرن الماضى من « الأقليات الضئيلة » جما فى هذا الاصطلاح من معنى معاصر ، غير أن كبارهم وخبثاءهم كانوا يحلمون بيوم يزيد فيه تعدادهم ونشـــاطهم حتى يملكوا هـذه الأرض المقدسة ، وكانت الطوائف اليهودية فى كثير من الدول تبحث عن بلد واحد يضمهم فى أرض الميعاد ـ كمازعموا ـ فقد كثر اضطهادهم فى أوربا وفى أكثر المدن التى سكنوها ، وكانوا هم أنفسهم سبب هذا الاضطهاد لقد أحبوا المال وعبدوه وسعوا الى جمعه والاستيلاء على موارده ومصـــادره بشتى الوسائل ، وكان المال أحب شىء الى اليهود حيث كان • فنشأ لدى الناس كره لليهود ومقت لجشعهم ومطامعهم ، ومنذ القرن التاسع عشر قامت فكرة الصهيونية وهى ترمز الى القدس القديم أو أرض الميعاد نسبة الى جبل صهيون وهو فى عرفهم وعقيدتهم نداء الماضى البعيد (٢٠) •

ومنذ نجح الصحفى اليهودى النمساوى « هرتزل » فى وضع لبنات تلك الحركة فى كتابه الدولة اليهودية ، عام ١٨٩٥ والذى وضع فيه تصوره لاقامة ملك لاسرائيل فى فلسطين وحشد فى كتابه حججا تاريخية واهية منها أن استرجاع اليهود لفلسطين عقيدة تعود الى ثلاثة آلاف سنة وأن الكوارث التى نزلت على رؤوس اليهود فى عهود الآشورين والبابليين والرومان لم تثن من عزيمتهم فى عودتهم الى أرض الميعـــاد وأكثر ما فى كتابه مزاعم صهيونية تقوم على غير أساس من سـياسة أو دين وكانت مؤتمرات الصهيونية التى عقدت بين عامى ١٨٩٧ ـ ١٩١١ موطدة ومدبرة لتلك الخطط المحكمة ، ففى مؤتمر بازل بسويسرا قررت الصــهيونية الأمور الآتية :

١ ـ انشاء مزارع نموذجية لايواء اليهود وتشغيلهم •

٢ ـ تأليف الجمعيات اليهودية داخل فلسطين وخارجها •

٣ ـ نشر اللغة العبرية وانشـــاء المدارس والمجامع التى تعلم أبناء اليهود وتزرع فى نفوسهم حب لغتهم وتاريخ أمتهم •.

٤ ـ بعث القومية اليهودية فى قلوب الفتيــان والفتيات واقناع الكهول والشيوخ منهم بالفكرة الصهيونية ان كان هؤلاء وأولئك منصرفين الى مرافق الحياة وكسب المال فحسب ٠

٥ ـ انشاء صـندوق يهودى دولى تجمع فيه أعطيـات المحسـنين واعانات الأمم التى تعطف على قضيتهم ليكون عونا وذخرا للحياة المـالية التى ينشدون من ورائها الاستيلاء على أرض فلسطين ٠

٦ ـ السعى للحصول على مساعدة من دولة أوربية كبرى ولتكن هذه الدولة (انجلترا) لايجــاد وطن قوى يهودى تضمنه الدول الأوربية الأخرى (٢١) ٠

اليهود والحرب العالمية الأولى :

أعلن المؤتمر الصهيونى الحادى عشر فى عام ١٩١٣ وقوف المنظمة الصهيونية على الحياد بين المعسكرين المتنازعين فى أوربا ، ولكن المنظمه واجهت موقفا صعبا عقب نشوب الحرب فى خريف عام ١٩١٤ وبادر المجلس الصهيونى العام الى التأكيد مرة أخرى على حياد المنظمة الصهيونية لكن الزعيم الصهيونى وايزمان أخذ يرقب سير الأحداث ونجح فى انشاء وحدات صهيونية مستقلة وقام بدور فعال فى الاتصال باليهود الأمريكيين وعملت الصهيونية فى كل اتجاه لضمان تحقيق أهدافها آيا كان المنتصر فى هذه الحرب ٠

وكان هم الصهيونية الأكبر الحصول على وثيقة دولية تنطلق منها نحو تأسيس دولتهم فى فلسطين ، لذلك اجتهد اليهود طيلة الأيام الأولى للحرب فى الحصول على صك دولى يركزون عليه « حقهم التاريخى » على أرض فلسطين العربية وهنا يبدأ وايزمان فى القيام بدور حاسم ورئيسى فى هذا الصدد ونجح مع غيره من زعماء الحركة الصـــهيونية فى جعل الولايات المتحدة تتخلى عن حيادها وتخوض غمار الحرب فى ١٩١٧ ، كما تمكن دكتور وايزمان وهو أستاذ فى الكيمياء الحيوية وكان يعمل فى مخبر

البحرية البريطانية ـ من اكتشاف مواد شـــديدة الانفجار منها مادة « الاسيتون » وكانت بريطانيا فى حاجة ماسة الى هذه المواد لمصـــانعها الحربية وكان اكتشاف وايزمان يقوم على استخدام النيتروجلسرين وعرض اكتشافه على السلطة البريطانية التى كافأته بالاسراع فى اعلان وعدها المعروف بوعد بلفور ووقعت الموافقة المبدئية على هذه المقايضة فى ١٩١٧ ولم يبق الا الاتفاق على صيغة الصك الرسمى الذى كانت تطالب به المنظمة الصهيونية وتتهيأ للاحتفال به باعتباره « بطاقة الولادة للدولة اليهودية المزمع انشاؤها » وقد كشفت السياسة البريطانية بعد ذلك عن تصميمها على عدم قيام دولة قوية فى الشرق الأدنى وهى تعرف أن العرب ان استقلوا وحققوا وحدتهم فان دولتهم ستصبح دولة لا تستطيع بريطانيا أو غيرها املاء ارادتها لتحقيق مصالحها كما تشاء وبهذا رأت غرس عنصر غريب عن المنطقة لديه الحيوية والأطماع غير المحدودة ، ويمكنه أن يتعاون معه على اضعاف العرب ، الذين وعدتهم بالاســـتقلال ، وكان يهمها كذلك الحفاظ على شريان الامبراطورية ، قناة السويس ، فى أمان من السيطرة العربية من هنا قررت تجزئة البلاد العربية بعد أنتصار الحلفاء وذلك بانشاء ما يسمى « الوطن القومى اليهودى » فى فلسطين ٠ ملبية بذلك المساعى التى كان يقوم بها وايزمان (٢٢) ٠

واتخذت موافقة بريطانيا على مساندة اليهود صـــيغة « تصريح » ضمنه وزير الخارجية البريطانية كتابه المؤرخ فى ٢ نوفمبر ١٩١٧ الذى وجهه الى اللورد روتشـــيلد من المؤيدين للحركة الصـــهيونية ومن كبـــار المـــالين البريطانية ونص الكتاب هو :

وزارة الخارجية

٢ نوفمبر ١٩١٧

عزيزى اللورد روتشيلد

« يسرنى جدا أن أبعث أليكم ، بالنيابة عن حكومة جـــلالة الملك

بالتصريح الذى ينم عن العطف على أمانى اليهود الصهيونيين ، والذى رفع الى الوزارة ووافقت عليه » .

« ان حكومة جلالة الملك تنظر بعين العطف الى تاسيس وطن قومى للشعب اليهودى فى فلسطين ، وستبذل جهدها لتسهيل تحقيق هذه الغاية على أن يكون مفهوما بجلاء أنه لن يؤتى بعمل من شأنه أن يضير الحقوق المدنية والدينية التى تتمتع بها الطوائف غير اليهودية المقيمة الآن فى فلسطين ، ولا الحقوق أو الوضع السياسى الذى يتمتع به اليهود فى البلاد الأخرى وسأكون شاكرا اذا أطلعتم الاتحاد الصهيونى على هذا التصريح » .

والذى يعنينا فى هذا المقام أن تصريح بلفور ليس الا وثيقة بمقتضاها .

« قطعت أمة تصريحا رسميا لأمة أخرى بمنحها بلد أمة ثالثة » .

كما أن هذا التصريح كان الحجر الأساس للدولة اليهودية التى ما تزال قائمة حتى اليوم فى فلسطين .

ومن مقال نشره الكاتب البريطانى المعروف مايكل آدمز عن تصريح بلفور وصلته بالصراع العربى الاسرائيلى ، فى جريدة الجارديان فى ٣ نوفمبر ١٩٦٧

« ... اذا قيس تصريح بلفور بالنسبة الى المصالح البريطانية فانه أكبر خطأ ارتكبته بريطانيا فى تاريخ الامبراطورية » .

ويمضى فى مقاله قائلا : « أن تصريح بلفور فيما يتعلق ببريطانيا وسمعتها كان تصريحا ظاهره البراءة وباطنه الخداع . وهذا أمر يجب أن يتذكره كل انجليزى عندما يتأمل الموقف الحالى فى الشرق الأوسط (٢٣) .

نتائج تصريح بلفور :

كان من نتائج هذا التصريح المشئوم انتعاش الحركة الصهيونية والتفاف اليهود بعد الحرب العالمية الأولى حــول انجلترا وتخفيفهم عن كاهلها أعباء الديون التى كانت عليها . وما كاد اليهود ينعمون باعــلان هذا التصريح حتى تدفقت وفودهم من بلاد العالم مستفيدة من الوجود البريطانى فى فلسطين والذى ساندهم طوال سنوات الانتداب وحتى ١٥ مايو ١٩٤٨

ان وعد بلفور لم يكن فى ذاته التزاما دوليا ، وانما كان على مايبدو من ضيعته مجرد عطف وأمنية وتشجيع من جانب واحد ، ولم تكن فلسطين من أملاك بريطانيا حتى يحق لها التصرف فيها ، فهى فى تصريح بلفور تعد بما لا تملك ، وتهب ما ليس لديها ، وتبحث فى مصير بلد لا سيادة لها عليه .

ان الشخص الذى وجه اليه التصريح ، وقطع الوعد على صورة كتاب موجه اليه ، لم يكن ذا صفة دولية ، انه شخص من وجهاء اليهود كما أن عبارة الوطن القومى عبارة غامضة مبهمة لا تفيد معنى محددا فى القانون الدولى وانما هى اصطلاح اخترعه الصهيونيون وتبناه البريطانيون ، ثم ان اليهود ليس لهم خصائص أمة تجعل منهم ذوى قومية واحدة . فهم ينتمون الى دين ، وهناك يهود انجلترا ويهود أمريكان ويهود فرنسيون ويهود أثيوبيون ، ويهود روس وهكذا ، فلقد تشتت اليهود منذ ألف سنة فى أنحاء الدنيــا تشتتــا ذهب بطابعهم القومى حتى أن غالبيتهم العظمى تجهل اللغة العبرية وذهب بكل مظهر من مظاهر الانسجام التى يفترض وجودها فى الأمة الواحدة (٢٤) .

وقد أثبت كثير من العلمــاء والمؤرخين أنه لا علاقة لهؤلاء اليهود بالساميين البتة ، وأن الكثرة من يهود أوربا الشرقية يرجعون بجنسهم الى قبائل الخزر التى اعتنقت اليهودية فى القرن الثامن الميلادى وانتشرت

فى شرق أوربا ووسطها فهم لا يمتون الى الاسرائيليين القدماء الا بالدين فقط .

اذا كان اليهود فى هذا العصر يزعمون أنهم يشكلون وحدة جنسية أو عنصرية فهذه مغالطة واضحة يهدفون من ورائها الى القول بنقاء جنسهم بعد الشتت بحجة أنهم لم يتعرضوا لاختلاط جنسى أو عنصرى مع الشعوب التى انتشروا بيننا ، وأن يهود اليوم هم النسل المباشر لبنى اسرائيل التوراة ، ومن ثم فهم يذهبون الى القول بأنهم جنس واحد وقومية واحدة مثلما هم طائفة دينية (٢٥) .

واليهود على الرغم من محاولاتهم ومكابراتهم أبعد الناس عن أن يمثلوا جنسا نقيا قائما بذاته يطلب وطنا باسم هذا الجنس ويبرز واضحا كخلاصة البشرية السامية أو كشعب الله المختار ولم يختلف المتخصصون فى علم الأجناس البشرية فى الوصول الى هذه النتيجة وما هو أبعد منها وهى أن اليهود المبعثرين فى العالم اليوم خليط من شتى الأجناس والعناصر بين الطوال والقصار والنحاف والضخام والسمر والشقر وهذا التباين أقوى حجة تؤدى الى انهيار مطالبهم فى انشاء وطن قومى هو المزيج المتناقض الفريد فى العالم .

ويؤكد من ناحية أخرى علماء الأجناس البشرية - فيما عدا اليهود المتعصبين لفكرة ثابتة معينة وهى فكرة العنصر اليهودى - يؤكدون أن كافة اليهود أبعد الناس عن أن يتبعوا ما يسمى « الجنس اليهودى » (٢٦)

وعلى هذا فمن الخطأ محاولة ربط اليهود بسلالة معينة أو بقطر بعينه فالعبريون قد ذابوا فى الشعوب الأخرى من زمن طويل ، ولم يبق الا اليهود أصحاب دين دخله غير العبريين منذ القرن الأول للميلاد على الأقل ، وهؤلاء هم الذين يكونون اليهودية الحالية ، وهذا أمر متوقع فعدد بنى اسرائيل فى يهوذا لم يزد قط على ثلاثة أرباع المليون من البشر ، ثم أصبحوا فى تقدير بعض العلماء سبعة ملايين يعيشون فى أرجاء

الامبراطورية الرومانية ، وهم يبلغون اليوم حوالى ثلاثة عشر مليون نسمة على الرغم من المذابح العديدة والاضطهادات المتكررة التى تعرضوا لها فى أكثر من قطر أوربى منذ عصر النهضة ، ولا يمكن أن يكون هذا العدد غير نتيجة لتزاوج اليهود بالشعوب الأخرى التى عاشوا معها ، ولاعتناق أفراد هذه الشعوب أو بعضهم الدين اليهودى ٠ فدخل الخزر اليهودية جملة ، كما دخلته بعض قبائل الجرمان والكلت فى أوربا وبعض قبائل العرب فى الحجاز واليمن كذلك (٢٧) ٠

ملاحظات أخرى حول تصريح بلفور :

اذا رجعنا مرة أخرى الى تصريح بلفور لاستكمال بعض الملاحظات نجد أن التصريح اشـــترط ألا يضير قيام الوطن القومى لليهود الحقوق المدنية والدينية للطوائف غير اليهودية فى فلسطين ، فعلى الرغم من أن اليهود حين صدر التصريح كانوا لا يزيدون عن خمسين ألفا يقابلهم من العرب (٦٥٠) ألف نسمة أى أن عدد العرب كان يزيد أكثر من اثنتى عشرة مرة على عدد اليهود ، فان تصريح بلفور جعل اليهود هم الأصـــل وتجاهل وجود شعب عربى وتجنب ذكر كلمة « عرب » كأنهم هم الأقلية المؤلفة من طوائف متعددة ، وكأن اليهود هم الأكثرية فى فلسطين ومع أن تأسيس هذا الوطن لليهود وما يقتضيه من فتح أبواب الهجرة اليهودية الى فلسطين وتسهيل انتقال الأرض اليهم،من شأنه أن يلحق الضرر بجميع الحقوق العربية لأنه يهدد كيانهم ، فان التصريح تعمد الاشارة الى «الحقوق المدنية والدينية » مغفلا « الحقوق السياسية » لما فى لفظة الحقوق المدنية من ابهام مع أنه لم يغفل عن الاشتراط فى التصريح بألا يؤدى انشـــاء الوطن القومى الى الأضرار « بالحقوق السياسية » لما فى لفظة الحقوق المدنية من ابهـام مع أنه لم يغفل عن الاشـــتراط فى التصريح بألا يؤدى انشاء الوطن القومى الى الاضرار « بالحقوق السياسية » التى لليهود فى البلدان الأخرى ، فاليهود والأجانب الغزاة ، يجب أن يشجعوا على المجىء الى فلسطين وأن يقيموا لهم وطنا قوميا على أنقاض العرب على ألا يمس

ذلك حقوقا سياسية اكتسبوها فى البلدان الأخرى وفى هذا اغراء لليهود على ازدواج الشخصية وحماية لهم من حرمانهم جنسياتهم ما داموا يعملون للصهيونية ولو هاجروا الى فلسطين ، ولو أقاموا بها نهائيا وأما العرب فيجب أن تداس حقوقهم السياسية فى وطنهم وفى عقر دارهم ، فوعد بلفور ، اذن ، باطل من جميع نواحيه ·

ومما يلفت النظر فى هذا التصريح من جهة القانون الدولى خلو صياغته من صيغة الالتزام ، اذ أنه ينص على عطف الحكومة البريطانية على أمانى الصهيونيين ، والعطف والأمانى والرجاء وما اليها من هذه الصيغ لاتدخل فى نطاق الالتزام الدولى القانونى (٢٨) ·

كما أن هذا التصريح قد صدر بين مجموعة من وعود دولية سابقة ووعود لاحقة ، وعود سابقة فيها وعود للشريف حسين ومراسلات ماكماهون اليه ، ووعود لاحقة تتمثل فى رسائل بريطانيا الى العرب من ناحية وقانون الانتداب من ناحية أخرى · وأخيرا يتعارض هذا التصريح تماما مع مبدأ حق تقرير المصير · ففلسطين كانت جزءا من الدولة العثمانية ، وتحرر هذا الجزء من الارض أثناء الحرب العالمية الأولى بفضل الثورة العربية ، ولم ينجم عن دخول الجيش البريطانى فى فلسطين اخضاعها للتاج البريطانى ، فقد أعلنت الحكومة البريطانية مرارا أن الغرض من الاحتلال البريطانى هو تخليص فلسطين من نير الأتراك واقامة حكومة وطنية فيها ، كما أن تصريح الرئيس الأمريكى « ولسن » فى ديسمبر سنة١٩١٧ الذى أقره الحلفاء بلا قيد ولا شرط وأعلنوه للملأمتضمنا أربعة عشر مبدأ للسلم العام قد ورد فيه نص صريح بخصوص الشعوب الأخرى غير التركية الخاضعة للحكم العثمانى فينبغى لها أن تعيش بأمان واطمئنان وأن تتاح لها فرصة الرقى في مدارج الحكم الذاتى دون تدخل أو ازعاج » (٢٩) ·

الأصداء المباشرة لتصريح بلفور :

على الرغم من خطورة تصريح بلفور الا أن الأصداء المباشرة لصدوره لم تكن بالقدر الذى يتناسب مع حجم المأساة المتوقعة فى حالة تنفيذ بريطانيا لما جاء به سواء على المستوى الدولى أو العربى .

فعلى المستوى الدولى لم يحظ بتأييد كثير من الاتجاهات فى بريطانيا ذاتها فالمحافظون كانوا يرون أن بريطانيا تحكم عددا من الرعايا المسلمين الغيورين على الأماكن المقدسة ومنها القدس ومن ثم فان تأييد بريطانيا للصهيونية ينطوى على مغامرة لأنه سيؤدى الى نفور المسلمين من الحكم البريطانى وتمهيد السبيل أمام مؤمرات أعداء بريطانيا وأن انشاء دولة يهودية أمر غير عملى وفرصة تكوينها ضئيلة ، خاصة وأن اليهود ليسوا أمة اذ تنقصهم مقوماتها ، كما أن انشاء دولة يهودية فى فلسطين قد يجعلها مركزا لخدمة المصالح الألمانية(٣٠) .

وأما الشخص العادى فى بريطانيا فانه لم يعبأ باصدار التصريح بل اعتبره خبرا عاديا ولعل ذلك يرجع الى أن الوقت لم يكن مناسبا اذ نشر التصريح فى الوقت الذى لم يكن فيه الرأى العام البريطانى يبدى شعورا طيبا نحو اليهود ، كما أنه فى ذلك الوقت كانت المسائل الحربية تطغى على ما عداها فى اهتمام الشخص العادى(٣١) .

وأما أصداء التصريح فى الأوساط العربية فمن المؤكد أنه أصاب العرب بصدمة بالغة .. وخاصة فى فلسطين حيث عارض أهلها الاتجاهات الصهيونية منذ مطلع القرن العشرين وقبل اصدار بريطانيا للتصريح : ويعرفون جيدا أنه ليس لليهود حق مشروع فى فلسطين بعد أن انقطعت صلتهم بها قبل أكثر من ألف عام بالاضافة الى الخوف من انتزاع اليهود — بمساعدة الاستعمار — لثروة البلاد ولا سيما وأن الصهيونية العالمية ستكون وراءهم بكل مواردها وعلى الرغم من أن بريطانيا حاولت كتمان الوعد عن عرب فلسطين ومنع الصحف من نشره لا سيما فى أيام الحرب الا أن التصريح نشر فى الصحف المصرية وقرأه الفلسطينيون بالفعل.

وتداولوه فيما بينهم ، وعقدوا النية على التصدى لآثاره والتظاهر فى شوارع القدس استنكارا له ولكن سلطات الاحتلال البريطانى احتاطت للأمر ومنعت التجمع وعززت الحاميات العسكرية فى مدن فلسطين ترقبا لردود الفعل المنتظره من جانب الفلسطينيين .

وقد ازداد التوتر فى فلسطين بمجىء سلطات الاحتلال التى كانت تجاهر بعطفها على الصهيونية ، ثم بمجىء اللجنة الصهيونية التى تولت العمل لتحقيق الوعد ، ثم بانتهاء الحرب ونقل القضية الى ميدان المساومات والمؤتمرات الدولية عبر زعمـــاء فلسطين عن مخاوفهم فى سلسلة من الاحتجاجات والمحاولات اليائسة . وكان أقوى ردود الفعل لديهم ما حدث فى المؤتمر القومى الذى عقد فى اليوم الأخير من يناير ١٩١٩ لاستنكار الوعد ، كما اشترك مندوبون عن عرب فلسطين فى المؤتمرين العربيين الكبيرين فى دمشق فى يوليو ١٩١٩ ومارس ١٩٢٠ . وقد أصـــدرت المؤتمرات قرارات حاسمة باســتنكار الأطمـاع الصـــهيونية والتنديد بوعد بلفور .

وعندما وصلت لجنة كنج ـ كرين الى فلسطين لاستفتاء الفلسطينيين حول المصير الذى يريدونه لأنفسهم فى صيف عام ١٩١٩ طالبوا بالتصدى لوعد بلفور ومقاومة السياسة الصهيونية ، كما طالبت أغلبيتهم بالوحدة السورية العربية وقد نقل تقرير اللجنة هذه الرغبة الى الولايات المتحدة وأعلن أن سكان فلسطين المسلمين والمسيحيين ضد الصهيونية ووعد بلفور بالاجماع وقد عبروا عن ذلك باستنكار شديد(٣٢) .

ثورة ١٩٢٠ فى فلسطين :

اتخذت الاحتجاجات ضد صدور وعد بلفور فى مدينة القدس طابع الثورة ضد الصهيونية والاحتلال البريطانى وذلك اثر تعرض الصهاينة لمظاهرة عربية كانت تهتف باستقلال فلسطين وتنادى بسقوط الصهيونية وكان رد العرب مهاجمة أحياء اليهود ومجاورة تابيه المجتمعين فى مؤتمر السلام الى النزاع العربى الصهيونى الذى تسبب وعد بلفور فى تفاقمه

الى هذا الحد • ولكن المؤتمر بدلا من أن يعيد النظر فى هـذه السياسة بشأن الوطن القومى اليهودى فى فلسطين منح بريطانيا حق الانتداب على فلسطين وحدد واجباتها من خلال تكرار نص تصريح بلفور حرفيا على الرغم من التناقض الواضح بين فرض وعد بلفور على الشعب الفلسطينى وبين حق هذا الشعب فى تقرير مصيره وسيره نحو الاستقلال بموجب ميثاق عصبة الأمم ووعود الحلفاء الصادرة بهذا الصدد •

ولقد عمت الثورة أنحاء فلسطين فاندلعت فى مدينة يافا وطول كرم وامتدت الى مدن أخرى وظلت أكثر من خمسة أيام الى أن تمكنت القوات الهندية والبريطانية من السيطرة على الموقف •

وقد اعترفت اللجنة التى شكلتها بريطانيا للتحقيق فى هذه الثورة — كعادتها فى مثل هذه المواقف ، أن أسبابها تتركز فى عدم تحقيق الاستقلال ووقوف بريطانيا الى جانب اليهود باعطائهم وعد بلفور اذ خشى العرب محاباة الانجليز للصهاينة وترك الباب مفتوحا لهجرتهم الى فلسطين وكانت هذه الثورة فاتحة لمرحلة طويلة من الثورات والانتفاضات الوطنية فيها (٣٣) •

المرحلة الثانية للثورة العربية :

ابتدأت المرحلة الثانية للثورة بعد انتهاء الحكم التركى فى بلاد الحجاز باستثناء المدينة المنورة التى اعتصمت بها حامية تركية فاكتفت قوات الشريف حسين بفرض حصار حولها احتراما لقدسيتها واقترب من العقبة جيش نظامى بقيادة الأمير فيصل وغدا هذا الجيش جزءا من جيش الحلفاء الزاحف على بلاد الشام بقيادة اللنبى ويعتقد البعض أن انفصال هذا الجيش عن قيادة الحجاز له مغزاه كاعتراف من الحلفاء بأن الثورة ليست حجازية بل عربية شاملة ولكن سرعان ما خاب الآمال وتزعزعت ثقة العرب بحلفائهم فبعد صدور وعد بلفور وكشف الروس لاتفاقيات سايكس بيكو ومبادرة أحمد جمال باشا للاتصال مرة أخرى بالشريف

حسين وولديه يدعوهم الى الاتفاق مرة ثانية مع الأتراك ونسيان الماضى ٠

وقد تبادل الشريف حسين مع بريطانيا والولايات المتحدة وغيرها من الدول المتحالفة رسائل يشرح فيها وجهة النظر العربية وأكدت بريطانيا للشريف حسين بكل وقاحة وقوفها « بجانب الأمم العربية فى جهادها لتبنى مجتمعا عربيا يسود فيه القانون والشرع بدل الظلم العثمانى » وأنها - بريطانيا - قد سلكت مسلك سياسة التحرر بأن تحفظ العرب الذين تحرروا من السقوط فى وهدة الدمار وتساعد العرب الذين لا يزالون تحت نير الظالمين لينالوا حريتهم ، ولم تكتف بريطانيا بهذه الرسائل المعسولة بل أكدت للشريف حسين فيما يتعلق بوعد بلفور أن « الاستيطان اليهودى فى فلسطين لن يكون مسموحا به الا بقدر ما يتفق ذلك مع حرية السكان العرب من الناحيتين الاقتصادية والسياسية » (٣٤) ٠

وعلى الرغم من احتجاجات العرب فقد نجحت محاولات الحلفاء فى تبديد شكوك العرب ليستأنف جيش الشمال العربى نشاطه العسكرى الى جانبهم وانهارت الجبهة التركية وتقهقرت القوات التركية بعد هزيمتها نحو الشمال متخلية عن دمشق وبيروت وغيرها من المدن العربية ، ما عدا الموصل والمدينة المنورة وبعض أجزاء من اليمن (٣٥) ٠

هوامش الفصل الثانى

بريطانيا والعرب

(٢) د٠ محمود صالح منسى : حركة اليقظة ، مرجع سابق ، ص٢١٥

(٣) المرجع السابق : ص ٢١٦

(٤) د٠ زين الدين نور الدين ، مرجع سابق ، ص ٤٧ ٠

(٥) د٠ حسن صبرى الخولى : مرجع سابق : ص ١٣٧ ٠

(٦) د٠ زين الدين نور الدين : مرجع سابق ، ص ٥٠ ٠

(٧) جورج انطونيوس ، يقظة العرب ، ص ٢٤٣ ، د٠ ابراهيم العدوى ، مصر والشرق العربى ، الأنجلو ـ ١٩٨٥ ص ٢٨٨ ٠

(٨) محمد عزه دروزه ، الوحدة العربية : بيروت ١٩٥٧ ص ٢٣٥ ـ ٢٣٦

(٩) المرجع السابق ، ص ٢٣٦

(١٠) لمزيد من التفاصيل حول الاتفاقية الانجليزية ـ الفرنسية ـ الروسية المعروفة باتفاقية سايكس بيكو ، انظر : د٠ محمود صالح منسى سابق ، ص ٣٢٥ ـ ٣٤١

(١١) محمد عزة دروزه ، مرجع سابق ، ص ٢٣٩ ٠

(١٢) المرجع السابق ، ص ٢٢٩ ، د٠ زاهية قدورة ، مرجع سابق ٢٤٩ ٠

(١٣) د٠ عبد العظيم رمضان : الغزوة الاستعمارية للعالم العربى، دار المعارف ١٩٨٥ ، ص ٢٤٤

(١٤) المرجع السابق ، ٢٤٦

(١٥) د٠ حسن صبرى الخولى : مرجع سابق ، ص ١٤٨ !

(١٦) أكرم زعيتر ، القضية الفلسطينية ، دار المعارف ١٩٥٥ص٤٠

(١٧) د٠ حسين فوزى : العرب والعروبة ، الانجلو المصرية ٠ ١٩٦٢ . ص ٨٤

(١٨) المرجع السابق ، ص ٨٥،

(١٩) أكرم زعيتر ، مرجع سابق ، ص ٣٩ ٠

(٢٠) د٠ زاهية قدوره : تاريخ العرب الحديث ، ص ٢٥١ ٠

(٢١) د٠ محمود صالح منسى : تصريح بلفور : دار الفكر العربى ١٩٧٠ ، ص ٤١ — ٤٢

(٢٢) د٠ زكى المحاسنى : فلسطين ، « دراسات فى تاريخ النهضة العربية » ، ص ٢٧٩

وايزمان من مواليد روسيا تولى زعامة الحركة الصهيونية بعد وفاة وولفسن ثانى زعمائها بعد هرتزل فى ١٥ سبتمبر ١٩١٤ وكان وايزمان قد ذهب فى صباه الى مدينة بينسك **Pinsk** ، وعاش فى مجتمع يهودى ، ومن هناك ذهب الى ألمانيا وتخصص فى الكيمياء وأصبح عالما معروفا فيها وهاجر بعد ذلك الى بريطانيا وعاش فيها ، وتمكن من دخول الأوساط البريطانية العليا والفوز بثقة زعماء سياسيين أمثال لويدجورج وبلفور ، وتشرشل وغيرهم ٠

ويعتبر وايزمان من الشخصيات الصهيونية التى ساهمت فى قيام الدولة اليهودية أ ٠ هـ ، د ٠ أحمد سويلم العمرى : الشرق الأوسط ومشكلة فلسطين ١٩٥٤ ، ص ٢٠٤

(٢٣) د٠ عمر عبد العزيز : دراسات فى تاريخ العرب الحديث ، النهضة العربية ١٩٧٥ ، ص ٦١١

(٢٤) د٠ محمد أنيس ، د٠ السيد رجب حراز : الشرق العربى فى التاريخ الحديث والمعاصر ، النهضة العربية ص ٤٠٠ — ٤٠١ ، د٠ محمود صالح منسى ، سابق ، ص ١٠٢

(٢٥) حسين التريكى : هذه فلسطين ، تونس ١٩٧١ ، ص ٧٢

(٢٦) المرجع السابق ، ص ٧٣ ، د٠ محمد السيد غلاب : تطور الجنس البشرى ، الانجلو ١٩٨١ ص ٢٧٥ — ٢٧٦

(٢٧) د٠ أحمد سويلم العمرى : الشرق الأوسط ، ص ٢٠٥ ـ ٢٠٧

(٢٨) د٠ يوسف هيكل : فلسطين قبل وبعد ، ص ١٠٧ ـ ١٠٨

(٢٩) د٠ محمود صالح منسى : تصريح بلفور ، مرجع سابق ، ص ١٠٢ ـ ١٠٣ ، أكرم زعيتر ، سابق ، ص ٤٦

(٣٠) د٠ السعيد رزق حجاج : دراسات فى تاريخ الحركة الصهيونية ، طبعة ١٩٨٤ ، ص ٨ ٠

(٣١) د٠ محمود صالح منسى : الصهيونية والاستعمار ، ص ٥٧

(٣٢) أنيس صايغ : الهاشميون وقضية فلسطين ، ص ٥٠ ٠

(٣٣) محمد عزه دروزه ، مرجع سابق ، ص ٣٧ ، د٠ السعيد رزق حجاج : تاريخ الحركة الصهيونية ، ص ٦٥ ٠

(٣٤) محمد عزه دروزه ، سابق ، ٣٨

(٣٥) د٠ عبد الكريم غرايبة : الثورة العربية الكبرى والعالم العربى (دراسات فى الثورة ٠٠) ص ٩٥ ـ ٩٨ ٠

الفصل الثالث

الصراع الاستعمارى
فى شمال افريقية
١٩١٤ ـ ١٩١٨

شهدت منطقة شمال افريقية (طرابلس ـ تونس ـ الجـــزائر ـ مراكش) خلال سنوات الحرب العالمية الأولى صراعا استعماريا رهيبا بين بريطانيا وفرنسا وايطاليا من ناحية وألمانيا وتركيا من ناحية أخرى ودارت فى هذه الأراضى العربية معارك حامية الوطيس كانت لها نتائج حاسمة حددت مسار الحرب فى أيامها الأخيرة وباستعراض أحداث الحرب فى كل دولة عربية على حدة يتبين لنا الخسائر الفادحة والتضحيات الكبيرة التى قدمها العرب فى تلك البلاد ، وكيف حاول الفرنســــيون ـ كما فعل البريطانيون فى مصر ـ تكميم الأفواه وجمع المؤن والغلال وتجنيد الأهالى للقتال فى صفوف الدول المتحالفة وغير ذلك من الاجراءات التى سيأتى الحديث عنها بصورة مفصلة .

وعلى الجانب الآخر حاول العثمانيون والألمان الاستفادة من موقـــع (ليبيا) لمهاجمــة حدود مصر والحاق الهزيمة بالقوات البريطانية ودارت أكثر من معركة بين الجانبين .

من هنا تأتى أهمية دراسة أهم أحداث الحرب العالمية الأولى فى منطقة شمال أفريقيا .

أولا طرابلس :

منذ دخلت ايطاليا طرابلس فى عام ١٩١١ لم تهدأ مقاومة الشعب العربى هناك وشاركهم فى جهادهم كثير من الشباب العربى فى مقدمتهم عزيز المصرى وتحسين العسكرى وكثير من الضباط السوريين والعراقيين. وانتشرت الدعوة الى الجهاد فى كل مكان من العالم الاسلامى وقام الأمير

عمر طوسون (١) بنشاط كبير لجمع الأموال والمساعدات لمسلمي هذه البلاد ، ولم تقتصر الدعوة على الأفراد والمنظمات الشعبية فقط بل ساندها عدد من الحكام المسلمين فى مقدمتهم عبد العزيز آل سعود وامام اليمن وكان نصيب مصر على المستويين الرسمى والشعبى على الرغم من وجود الاحتلال البريطانى الجاثم عليها عظيما اذ احتجت الجمعيات والهيئات على هذا العدوان ووحشيته فبجانب ما قام به الأمير عمر طوسون تألفت لجان كثيرة لمعاونة المنكوبين كما جاءت البعثات الطبية لاغاثة المجاهدين فى وسط ميادين الحرب فى طرابلس وبرقة ومن بين هذه اللجان التى تشكلت اللجنة العليا برئاسة الشيخ على يوسف التى تأسست بعد وقوع الاعتداء الايطالى بأيام قليلة (١٤ أكتوبر ١٩١١) كذلك ساهمت هيئات فى تركيا وسورية والحجاز وبلدان أخرى من الشرق الأدنى فى هذه الأعمال وعملت تركيا على تعزيز المقاومة الليبية على الرغم من استسلامها أمام الطليان وذلك بمنح الليبيين استقلالهم وقد استمرت المقاومة فى برقة على يد السيد أحمد السنوسى الذى اشترك فى بعض المواقع وعلى يد عزيز المصرى الذى قام بدوره على أكمل وجه لكنه انسحب بعد ذلك لخلاف مع الليبيين وتزعم المقاومة المجاهد الليبى الكبير عمر المختار الذى ظل يقاوم حتى قيام الحرب العالمية الأولى وبعدها (٢) ٠

وكما هو معروف دخلت ايطاليا الحرب الى جوار الانجليز وحلفائهم بينما دخلت تركيا الحرب الى جانب ألمانيا والنمسا فكان من الطبيعى أن تجاهر تركيا بمناصرة الليبيين وقررت استئناف القتال فى برقة وطرابلس مستهدفة بذلك غزو مصر عن طريق ليبيا فى نفس الوقت الذى كانت فيه تعد حملة فى الشام لغزو مصر من الشرق ٠ وهى فى ذلك على أية حال كانت تعمل على شغل القوات البريطانية فى مصر وتوزيع قواتها ما بين قناة السويس شرقا وحدود مصر غربا (٣) ٠

وعلى ذلك يستمر الجهاد فترة الحرب ، ويكتفى الايطاليون بالسيطرة على المدن الكبرى فى برقة وطرابلس ٠ وقد قررت الحكومة التركية فى

عام ١٩١٦ تأسيس هيئة فى الآستانة لغزو شمال أفريقية ، بالاتفاق مع رجالها اللاجئين وطلبت الهيئة تعيين سـليمان البارونى واليا عاما على المناطق المحررة . وذب البارونى فى غواصة ألمانية وظهر فى سبتمبر من نفس العام يحمل فرمانا من سلطان تركيا بتعيينه حاكما عاما على ولايات طرابلس وتونس والجزائر . واتخذ البارونى مقرا له فى الجبال ، وأخذ ينظم المقاومة فى طرابلس ويزعج الايطاليين بمعاركه طوال عام ١٩١٧ ويبعث برسله الى الجزائر وتونس لنشر الدعوة الى المقاومة والجهـاد وكانت ألمانيا تمد المجاهدين بالأسلحة والذخائر والضباط الالمان وتتصل بهم بواسطة الغواصات (٤) الا أن مجرى الحوادث فى برقة قد تغير فى أواخر عام ١٩١٥ لأن السيد أحمد الشريف ، تحت ضغط الضباط الأتراك والألمان الذين هبطوا البلاد فى عـام ١٩١٥ لاثارة برقة ، قام بحملة عسكرية على مصر ، كان يقصد منها — كما أشرنا — ارغام بريطانيـا على القتال فى حدود مصر الغربية ، ومن ثم شغلها عن الحملة التركية الألمانية على قناة السويس (٥) .

وقد دامت الحرب فترة قصيرة ، بدأ الهجوم السنوسى فى نوفمبر ١٩١٥ باحتلال السلوم ثم مرسى مطروح وفى مارس ١٩١٦ كانت القوات البريطانية والمصرية قد استردت هذه الأماكن ، ومع أن البريطانيين هاجموا واحة سيوة فى أواخر السنة نفسها ، فان فشل الهجوم السنوسى على مصر كان واضحا منذ البداية ، وقد اعترف به السيد أحمد الشريف نفسه اذ تنازل عن القيادة السياسية والعسكرية فى برقة الى محمـد ادريس المهدى واحتفظ لنفسه بالزعامة الدينية .

اما طرابلس فقد ارسلت الحكومة العثمانية فى سنة ١٩١٨ الأمير عثمان فؤاد حاكما عاما لطرابلس وكان معه مساعدون بينهم عبد الرحمن عزام (باشا) لكن بعد توقيع تركيا للهدنة انسحب الجميع تاركين لأهل البلاد العبء يحملونه بأنفسهم .

وكانت ايطاليا ترغب فى القضاء على مقاومة الليبيين لتتفرغ لقتال النمسا واسترجاع « تيرستا » فأرسلت من طرابلس جيشا تحت قيادة الكولونيل « ميانى » وضم هذا الجيش بعض الليبيين منهم « رمضان السواحيلى » (٦) ·

موقعة القرضابية :

وقعت معارك بين السنوسيين والايطاليين فى القرضابية ونجحت القوات السنوسية بعد انضمام الجنود الطرابلسيين وفى مقدمتهم رمضان السواحيلى فى الحاق هزيمة كبيرة بالجيش الايطالى انسحب بعدها من سرت ثم انسحب بعد ذلك من مصراته ·

وكان من نتائج معركة القرضابية أن ايطاليا انسحبت من المناطق الداخلية فى برقة وطرابلس واحتفظت منها بمدن طرابلس والخمس وبنغازى ودرنه · وبعدها امتد نفوذ السنوسيين الى طرابلس ونظرا لوقوع خلاف شديد بينهم وبين رمضان السواحيلى ومجموعته انسحبوا الى برقة وبقى السواحيلى ومن معه مسيطرين على جهات طرابلس الشرقية وهى مصراته وزليتن وساحل آل حامد واسلامه وقماطة ·

وأما الجهات الغربية والوسطى فخضعت لنفوذ زعمائها وكان من أشهرهم عبد النبى بالخير فى ورفله والمريض فى ترهونه وسليمان البارونى وابن عسكر فى جبل نقوسة ، وابن شعبان فى زوارة والحاج محمد افكينى فى نواحى الرحبان والشيخ محمد مسوف المحمودى فى الزاوية الغربية وعمر الجنزورى فى منطقة جنزور (٧) ·

الاتفاق بين السنوسيين والايطاليين :

وصلت الى السلوم البعثة التركية الألمانية لاثارة السنوسيين من جديد ضد الايطاليين والبريطانيين ، ولمحاولة حمل السيد الشريف على مهاجمة مصر ولكن ظهرت حصافة السيد محمد ادريس وبعد نظره لأنه رأى أن تجنب البلاد عملا كهذا لما قد يجره عليها من ضيق وتشديد اذا

أغلق الطريق المصرى وهو الطريق الوحيد الذى يمكن أن تتسرب منه حاجات الناس الى برقة ودارت مفاوضات بين السنوسيين ووفد ايطالى وبريطانى وكان الوفد البريطانى يتكون من الكولونيل تالبوت وبرفقته أحمد حسنين والوفد الايطالى مكونا من الكولونيل فلا والسيد بياشننيتى

وقد توصل السنوسيون والايطاليون الى اتفاق لوقف القتال عرف بهدنة عكرمة بريل ١٩١٧ (٨) ويمكن تلخيص شروط الهدنة فى :

١ ـ يقف الايطاليون عند النقط التى كانوا يحتلونها فى ابريل عام ١٩١٧ ، ويتعهدون بأن لا يجددوا مراكز عسكرية أبدا على أن يكون مثل هذا الشرط مقيدا للسنوسيين أيضا •

٢ ـ أخذت ايطاليا على نفسها عهدا بأن تبقى على المحاكم الشرعية وتولى أمر النظر فى القضايا علماء يوثق بهم ينظرون فى قضايا الأحوال الشخصية •

٣ ـ قبلت ايطاليا أن تفتح المدارس العلمية والمهنية فى برقة وأن تعنى بتعليم القرآن الكريم على أيدى قوم هم أهل لذلك •

٤ ـ وقبلت ايطاليا أن تعيد الزوايا وأراضيها الخاصة بها ، وأن تعفى هذه من الضرائب •

٥ ـ تدفع الحكومة الايطالية مرتبات لمشايخ الزوايا التابعة لها على أن يقوم هؤلاء بدور الوسيط بين السلطات الايطالية وأهل البلاد حين الحاجة •

٦ ـ تسمح السلطات الايطالية بتبادل التجارة بين الداخل وثلاث من الموانى وهى طبرق ودرنه وبنغازى على أن يشمل هذا بقية الموانى عندما تتحسن الأحوال وتسمح بمثل هذا العمل •

وبجانب هذه الشروط التى كان يجب ـ حسب الاتفاق ـ أن تنفذ

حالا كان ثمة أمور أخرى قبلها الفريقان مبدئيا لكن رؤى وجوب التروى فى تنفيذها وهى :

(أ) وجوب حل الأدوار (المعسكرات) السنوسية وتسريح الجنود الموجودين فيها ٠

(ب) تجريد العرب (القبائل) من السلاح تدريجيا فى مدة عام ٠

(ج) تختار السلطات الايطالية شيوخا للزوايا الواقعة فى منطقتها من لائحة يقدمها السيد ادريس تحوى ثلاثة أسماء لكل زاوية أما الاتفاق السنوسى ـ الانجليزى (اتفاق السيد محمد ادريس ـ تالبوت) فقد نص فيه على أن يسلم جميع الرعايا البريطانيين والمصريين والتابعين لدول الحلفاء لبريطانية وأن ينفى جميع اشخاص الذين من شأنهم أن يعكروا صفو الاتفاق عن أفريقية ، وأن يخرج جميع السنوسيين المسلحين من مصر ، وأن تفتح طريق السلوم ـ الاسكندرية ومع أن الاتفاق نص على أن لا تفتح زوايا سنوسية جديدة فى مصر فانه لم يمنع السنوسيين المصريين من أن يدفعوا ما عليهم من زكاة للسنوسية ٠

والذى يمكن أن تخلص اليه من هذه المفاوضات أن ايطاليا كانت تحاول الحصول على امتيازات سياسية ، بينما كانت بريطانيا يهمها أن تؤمن الحدود المصرية الغربية (٩) ٠

وقد انصرف السيد محمد ادريس الى المنطقة التى ظلت تحت نفوذه، وهى تشمل الكفرة والجغبوب وجالو وأوجيله يديرها ادارة الحزم والنظام من أجدابية ويحاول جهده ، أن يحول دون الايطاليين وتدخلهم فى شئون القبائل القاطنة فيها ٠

وبعد انتهاء الحرب العالمية الأولى سنة ١٩١٨ انسحب الترك من ليبيا الغربية الى بلادهم ونشطت ايطاليا فى احتلال برقة وطرابلس فلقيت فيها مقاومة شعبية شديدة مما جعلها تتخلى عن سياسة القوة وتعقد مع الطرابلسيين صلحا فى ١٩١٩ عرف باسم صلح (سوانى بن

آدم) ويقضى بمنحهم استقلالا يكفل لهم نفس الحقوق التى ستكون للطليان ، وبموجب الاتفاق مع الطرابلسيين اعترفت ايطاليا بالجمهورية التى أعلنها زعماء طرابلس فى نوفمبر ١٩١٨ كما نص على انهاء القتال بين الطرفين والاعتراف بالاستقلال تحت سيادة ملك ايطاليا وايجاد مجلس نواب محلى ومجلس حكومى يشتركان فى حكم البلاد .

كما عقدت مع البرقاوين معاهدة (الرجمة) على منوال الاتفاق مع الطرابلسيين وزادت عليها الاعتراف بامارة السيد محمد ادريس على برقة وبموجبه أصبح السنوسى حاكما مدنيا وزعيما للقسم الداخلى من برقة ومنح لقب الأمير ، وأصبحت حكومة برقة وراثية ويلاحظ أن برقة غدت بعد هذا الاتفاق منقسمة بين ادريس وبين الطليان الذى أبقوا على الساحل البرقاوى تحت نفوذهم المباشر ، كما اشترط الايطاليون على السنوسى تصفية معسكرات المجاهدين (الأدوار) والتشكيلات السياسية والادارية وألا يحتفظ بجيش أكثر من ألف شخص ويجوز زيادته باتفاق الطرفين .

وبعد هذا الاتفاق أجرى السيد ادريس انتخابات وافتتح البرلمان وانتخب رئيسا بالاجماع .

ويتضح لنا من هذه الاتفاقات التى عقدتها ايطاليا مع زعماء برقة وطرابلس وغيرها أنها كانت تهدف الى عقد هدنة مؤقتة طالما تستعد لجولة جديدة ، ولذلك بدأوا فى التقرب من السكان أملا فى أن ينتهى الأمر بقبول السيادة الايطالية .

وعلى الجانب الآخر كان الزعماء الليبيون يشعرون بما قدموا من تنازلات ويعتبرون أن هذه الهدنة مؤقتة يجب أن يحل محلها معاهدة ذات صفة دائمة .

مؤتمر غربان نوفمبر ١٩٢٠ :

تأكد للزعماء الليبيين أن ايطاليا كانت تراوغ وتناور لتمكن لنفسها من جديد ، كما أنها أخذت تزرع الشقاق فى البلاد وتماطل فى

وضع القانون الأساسى الذى أعلنته موضع التنفيذ لذلك عقد اجتماع ضم زعماء الحركة الوطنية وممثلون عن القسم الأكبر من المناطق الطرابلسية فى غريان نوفمبر ١٩٢٠ لبحث القضية من أساسها ٠ وكان أحمد المريض رئيسا للمؤتمر ، كما كان عبد الرحمن عزام مستشارا له ٠ وقد اتخذ المؤتمر بالاجماع القرار التالى :

« ان الحالة التى آلت اليها البلاد لا يمكن تحسينها الا باقامة حكومة قادرة ومؤسسة على ما يحقق الشرع الاسلامى من الأصول بزعامة رجل مسلم منتخب من الأمة لا يعزل الا بحجة شرعية واقرار مجلس النواب وتكون له السلطة الدينية والمدنية والعسكرية بأكملها بموجب دستور تقره الأمة بواسطة نوابها وأن يشمل حكمه جميع البلاد بحدودها المعروفة » (١٠) ٠

وقرر مؤتمر غريان أن يكون الجهاد فى سبيل البلاد موحدا فى برقة وطرابلس وارسل وفد الى سرت حيث اجتمع بمندوبى السنوسية حيث تم الاتفاق الذى يعرف باتفاق سرت على الأمور التالية :

١ ــ توحيد الكلمة ضد العدو وضد المفسدين ٠

٢ ــ أن يكون عدوهم واحدا وصديقهم كذلك ٠

٣ ــ السعى لعقد الصلح بين القبائل وترك السلطة للحكومة لمعاقبة المخطئين ٠

٤ ــ من يخالف الجماعة ويدس الدسائس الأجنبية ، تصادر أمواله حسب الشريعة الاسلامية ٠

٥ ــ توحيد الزعامة فى البلاد لمصلحة الوطن مع وضع دستور ترضاه البلاد وأن يكون تولية الأمير بارادة الأمة ٠

٦ ــ انتخاب مجلس تأسيسى لوضع القانون الأساسى والنظم اللازمة لادارة البلاد ٠

٧ - يتعهد المجتمعون على عدم الاعتراف بسلطة العدو وأن يمنعوه من بسط نفوذه خارج الأماكن المتحصن فيها الآن واذا لجأ الى الحرب فعل الجميع التضامن لمقاومته ولا يعقد صلح أو هدنة الا باتفاق ٠

٨ - تجتمع هيئة منتخبة من أهالى طرابلس وبرقة مرتين فى كل سنة للنظر فى مصالح البلاد ٠

وبصفة عامة تم انتخاب السيد ادريس أميرا للقطرين طرابلس وبرقة وقبل هذه البيعة فى نوفمبر ١٩٢٢

وكان قبول السيد ادريس للبيعة دافعا للحكومة الايطالية على اعادة النظر فى موقفها والقيام بنشاط عسكرى لاعادة احتـــلال المناطق التى انسحبت منها قبل ذلك وأدرك السيد ادريس نوايا الايطاليين فهرب الى مصر بطريق الجنوب فى ديسمبر ١٩٢٢ تاركا أخاه السيد محمد الرضى وابن عمه السيد صفى الدين لادارة شئون برقة ، كما ظل السيد أحمد المريض يدير أمور طرابلس (١١) ٠

والذى لاشك فيه أن الأمير ادريس قد جانبه الصواب فى تلك الخطوة فترك الميدان لأى سبب من الأسباب يعتبر جبنا وهروبا وكان الأولى به البقاء وسط هؤلاء الذين أجمعوا على امارته وطالبوه بتوحيد البلاد للقضاء على الاحتلال وفى مارس ١٩٢٣ هاجمت القوات الايطالية المناطق الداخلية واستولت على الأدوار المختلطة والدور السنوسى فى خولان ومركز الادارة فى اجدابية وأسرت الكثير من الجنود السـنوسيين وكان الفاشـيون قد وصلوا الى الحكم فى ايطاليا فبدأوا جولة جديدة من الاستعمار الايطالى بالغاء جميع الاتفاقات التى عقدت مع السنوسيين وكان ذلك ايذانا ببدء الحرب من جديد ٠ وتحمل مسئولية قيادة الجهاد الليبى بشجاعة نادرة السيد عمر المختار (١٢) ٠

ثانيا : تونس فى الحرب العالمية الأولى :

وقعت تونس تحت الاحتلال الفرنسى بعد معاهدة ١٢ مايو ١٨٨١ المعروفة بمعاهدة باردو أو معاهدة قصر السعيد ٠

كما أعلنت الحماية بصورة سافرة فى ٨ يوليو ١٨٨٣ بعد معاهدة المرسى الكبير التى جعلت فرنسا تدير تونس ادارة مباشرة ودام احتلالها للبلاد حتى عام ١٩٥٦ ومن ناحية أخرى لم تتوقف المقـاومة الوطنية للاحتلال الفرنسى طوال تلك الفترة وكان جامع الزيتونة وجامعته الحصن الحصين للثقافة العربية والاسلامية ومعقل الحركة الوطنية فى تونس ٠

وكان الشيخ عبد العزيز الثعالبى من زعماء الحركة ، كما كان أبرز قادتها على باش حمية وهى من مؤسسى حركة تونس الفتاة ٠

وكانت لجمعية تونس الفتاة مجلة تصدر باللغة الفرنسية هى التونسى وكانت لها طبعة عربية يشرف عليها السيد عبد العزيز الثعالبى ٠

وعندما وقع الاحتلال الايطالى لليبيا أعلن الزعماء التونسيون مساندتهم للجهاد الليبى فقامت الحكومة الفرنسية بنفى الكثير منهم عام ١٩١٢

وجاءت الحرب العالمية الأولى فعاون فيها التونسيون فرنسا وجندوا بأعداد وفيرة واشتركوا فى القتال الى جانبهـا ، وكان أمل الوطنيين التونسيين أن يكافئوا بالاستقلال بعد نهاية الحرب (١٣) ٠

وفى الآستانة وجد على باش حمبه وغيره من الزعماء العرب المنفيين عطفا من الحكومة العثمانية التى أكرمت وفادتهم وأسندت اليهم مناصب عالية (١٤) وهناك وطد حمية صلاته بالعديد من الزعماء العرب مثل محمد فريد وعبد العزيز جاويش وشكيب أرسلان ٠٠ وغيرهم ٠ هؤلاء تابعوا من الخارج نضالهم ٠ أما فى داخل تونس فقد كانت ظروف الحـرب والأحكام العرفية تمنع كل نشاط سـياسى ، وظل معظم قادة الشعب معتقلين طيلة مدة الحرب ومع ذلك استطاع أبناء الشمال الأفريقى بفضل مجهـودات باش حمبـه ومن معه أن يفتحـوا فى أفريقيـة جبهة جديدة لفرنسا وايطاليا ٠

وأعلنت قبائل الجنوب التونسى وخاصة قبائل بنى زيد الثورة على فرنسا (١٩١٥) بقيادة البطل سعيد بن عبد اللطيف واستمرت المعارك

سنتين حتى قضت عليها فرنسا بعد جهد (١٥) كبير وبعد أن أتت بالنجدات يتلو بعضها بعضا . وبعد أن جردت جيشا كاملا جاءت به من واجهة القتال الكبرى .

وفى سنة ١٩١٧ — ١٩١٨ تشكلت فى الآستانة هيئة كانت تعمل لمحاولة جديدة هى جمع أسارى المغاربة فى ألمانيا وتركيا وتنظيمهم ضمن فرقة واحدة تزود بالسلاح والذخيرة وارسالها عن طريق الغواصات الى طرابلس وكان مقررا أن يرأسها على باش حمبة بنفسه ليكون مندوبا عن الخليفة العثمانى لتحرير مسلمى شمال أفريقيا من (الاستعمار المسيحى) ولكن لم يكن لهذه التحركات أثر كبير على مجريات الحرب(١٦) .

ولم يلبث على باش أن قضى نحبه قبل توقيع الهدنة .

ومغزى هذه المحاولات هو دلالتها على أهمية الاسلام فى هذا الطور الأول من حياة الوطنية التونسية .

الدستوريون :

عندما حلت السلطات الفرنسية حركة تونس الفتاة منذ حوادث سنة ١٩١١ فاضطر من بقى من أعضائها فى البلاد الى العمل خفية مستعنين ببعض أفراد الأسرة الحاكمة ولكن اعتقل معظمهم أثناء الحرب فلما وضعت الحرب أوزارها وأطلقت بعض الحريات ذهب عبد العزيز الثعالبى الى فرنسا معلقا ، مثل كثير من زعماء الشرق الوطنيين ، الأمل على مبادىء الرئيس الأمريكى ويلسون ، ولكن كما هو معروف خيب مؤتمر الصلح فى باريس آمال الشعوب المستعمرة ولذلك اتجه الثعالبى الى الرأى العام عاقدا بعض الرجاء على اليسار الفرنسى ، فنشر كتابا شهيرا فى تاريخ الحركة الوطنية باسم « تونس الشهيدة » ويعزى الى المحامى أحمد السقا رفيق الثعالبى تحرير هذا الكتاب .

والذى يعنينا أنه يتضمن الحديث عن سياسة الاستيطان واغتصاب الأراضى التى قامت بها سلطات الاحتلال الفرنسى فى تونس وكيف أدت

الى حالة البؤس والشقاء التى آل اليها الشعب التونسى بعد الحمـــاية ، وخلص الى أن تونس تستطيع أن تحكم نفسها بنفسها لو تخلت فرنســا عن سياستها وتركت البلاد لابنائها ٠

وقد أثبت الثعالبى حتى هذه اللحظة تمسكا بمبادىء تونس الفتاة المبنية على أساس فكرة الاستقلال التام ٠

وفى يونيو عام ١٩١٩ قدم مجموعة من الوطنيين الشباب الذين تلقوا تعليمهم فى مدارس فرنسية مطالبهم الى كل من الباى والمقيم العام الفرنسى وهى تتركز فى منح البلاد نظاما دستوريا وكان هؤلاء الشبان يرون أن البدء بالاصلاحات الداخلية هو الأساس ويشبهون من هذه الناحية زعماء حزب الأمة فى مصر ٠

وقد وعد الباى هؤلاء باجابة مطالبهم ولذلك قرروا انشاء حزب يقوم على أساس المطالبة بنظام دستورى وأطلقوا عليه اسم حزب الدستور (١٧) وقد ترأس الثعالبى الحزب الدســـتورى فترة من الوقت على الرغم من اختلافه مع أعضائه فى كثير من الأمور وقد التف حول الحزب الدستورى وتكتمل فيه كثير من الشباب التونسى وانبث فى المدن والقرى يؤسس له فروعا وينظم صفوف الوطنيين ويقيم الدعوة فى كل مكان ٠

وأخذ القصر الملكى يؤازر الحزب بفضل الأمير محمد المنصف الذى لم يقتصر على مجرد التأييد بل انضم الى الحزب وأدى يمين الاخـــلاص للمبادىء الوطنية ٠

ولم تقف السلطات الفرنسية مكتوفة الأيدى أمام اتســـاع الحركة التونسية فأسرعت الى القاء القبض على حامل لوائها الشيخ عبد العزيز الثعالبى بباريس ونقلته والأغلال فى يديه الى السجن العسكرى بتونس وأقامت عليه دعوى خطيرة بتهمة التآمر ضد أمن الدولة ٠ ولما رأت ثورة الشعب وحماسته واندفاعه فى الدفاع عن زعيمه اضطرت الى اطلاق سبيله فخرج من السجن وقاد بنفسه الحركة الوطنية ٠ ومن ناحية أخرى لجأت

فرنسا الى تعيين مقيم جديد فى تونس وأعطت له تعليمات شديدة بضرورة الحزم مع الحركة الوطنية وقد فتح أبواب تونس أمام الهجرة للفرنسيين والمتفرنسيين من أبناء أوربا ، وفتح لهم أبواب الادارات التونسية ليتخذوا منها مرتزقا يستولون بواسطتها على النقود والسلطة وأقطعهم الاراضى الشاسعة التى اغتصبها من العرب •

وبعد أن هدد الملك محمد الناصر بالانضمام الى الوطنيين وقدم احتجاجا على تلك السياسة ، حاصرت القوات الفرنسية القصر الملكى فى ٥ أبريل ١٩٢٢ وبوفاة هذا الملك فقدته الحركة الوطنية •

ثالثا : الجزائر ابان الحرب العالمية الأولى :

تاريخ الجزائر بعد الاحتلال الفرنسى فى عام ١٨٣٠ انما هو تاريخ لكفاح الجزائريين المستمر ضد الاحتلال ونضالهم فى سبيل الحصول على حقوقهم وهو أيضا تاريخ أسود للاستعمار الفرنسى بكل قسوته وبشاعته ورغبته الكامنة فى استنزاف خيرات هذا الشعب وحقده الدفين على الاسلام الذى وحد جهود الجزائرين لمقاومة هذا الاحتلال •

ولا تستطيع فى هذه العجالة استعراض أسماء الزعماء الجزائريين أو حصر أعداء الشهداء الذين لقوا حتفهم على أيدى الفرنسيين •

وهل هناك من يجهل دور الأمير عبد القادر الجزائرى فى تنظيم حركة المقاومة ضد الفرنسيين وقبله ابن زعمون والحاج سيد السعدى والحاج محيى الدين بن المبارك وغيرهم •

كما أن التاريخ الجزائرى الحديث يسجل ثورة الشعب الكبرى بقيادة الزعيم محمد المقرانى فى اقليم قسطنطينة وقد نجح الثوار فى طرد القوات الفرنسية والسيطرة على ثلث الجزائر تقريبا (٨)

وقد اتبعت الحكومة الفرنسية سياسة التفرقة بين الأوربيين والجزائريين فى كل المجالات ، حيث كانت تعتبر الجزائريين أقل مرتبة

من المستوطنين الاوربيين أو على حد قولهم « جيشا غير قابل للتهذيب » بل ان كلمة مسلم فى مفهومهم لاتدل على « حالة » شخصية أو « عقيدة » معينة بقدر ما تدل على الجنس الأدنى فى نظرهم بدليل ما حدث لبعض الجزائريين حين أغواهم بعض المنصرين فارتدوا عن الاسلام واعتنقوا الكاثوليكية ثم طالبوا بمساواتهم فى الحقوق السياسية والاجتماعية مع الأوربيين ورفضت السلطات المختصة هذا المطلب بحجة عدم تسوية المسلمين الكاثوليك بالأوربيين ٠

وقبيل الحرب العالمية الأولى قررت فرنسا أن تكون الخدمة العسكرية اجبارية بالنسبة للجزائريين وبعد أن اشتعلت الحرب أرسلت نحو ٤٠ ألفا من المجندين الى الجبهة الشرقية ، كما حشدت نحو ٨٠ ألف جزائرى للعمل فى المصانع والمناجم الفرنسية وغير هؤلاء كثيرون للعمل فى خدمة قوات فرنسا المشتركة فى الحرب العالمية ٠

وكان هؤلاء المجندون اما من الفلاحين أو من العمال الزراعيين ، واما من العاطلين عن العمل ، وذلك باستعمال « ارهاب متطرف » وقمع شديد ودعاية سوداء واغراء مشبوه ٠ وقد دفع بعض الجزائريين باعتراف الفرنسيين ، ضرائب ثقيلة بما فى ذلك الذهب ، لكى يقوا أبناءهم شر التجنيد ٠ وقد وجد بعضهم فى الحرب خلاصا من حالتهم الاقتصادية التعسة (١٩) ٠

ونظرا لعدم اقتناع الجزائريين بالتجنيد فى جيش الاحتلال بدأوا يفرون من الخدمة العسكرية طالما سنحت لهم الفرصة فقد فروا فى الجزائر ، وفى الشرق الأدنى ، وفى الجبهة الأوربية زرافات ووحدانا والتحقوا بمواطنيهم الثائرين فى الجزائر ومن هناك واصلوا نشاطهم فى شكل حرب عصابات معلنين الثورة على الاحتلال الفرنسى ٠ وقد بقى بعض هؤلاء الفارين خارج الجزائر وشكلوا بالتعاون مع التونسيين والمغاربة ، لجانا وطنية فى جنيف وبرلين والآستانة للدعوة لاستقلال شمال أفريقية

وعلى الرغم من ظروف الحرب ، واصل الشعب الجـزائرى مقاومته للاحتلال ولكن بقيت الجماهير بلا قيادة منظمة . لقد اختفى خلال الحرب أولئك الزعمـاء القلائل ، والأفكار والجمعيـات ، والصحف التى ظهرت بين ١٩٠٠ ـ ١٩١٤

ففى عام ١٩١٠ تجمعت فئة حول العمل الوطنى عرف أفرادها بدعاة الجامعة الاسلامية ، وكان هؤلاء يدعون الى نهج انتشر فى أنحاء أخرى من العالم الاسلامى وبخاصة فى الشرق وكان الهـدف منه تجميع قوى المسلمين لمواجهة الاستعمار الأوربى الذى اغتصب الكثير من أراضيهم وكان بين رجال هذه الفئة المحامى أحمد بودربة ، والسيد صادق ديوان والحاج عمار أحد الماليين (٢٠) .

وقد برز هذا الاتجاه الاسلامى مرة أخرى بعد انتهاء الحرب العالميه الأولى بصورة قوية فتشكلت « جمـاعة علمـاء الجـزائر » عام ١٩٢٦ وأسست نادى الترقى فى الجزائر .

وكان لاعلان مفتى اسطنبول الجهاد ضد الفرنسيين والبريطانيين أثره كل أمور الدين ومحاولة السيطرة على الشئون الدينية كافة ، كما كان ظهور هذه الجماعة أيضـا يمثل رد فعل لحركة الادماج التى كانت ترمى ضم الجزائر الى فرنسا .

وكان لاعلان مفتى اسطنبول الجهاد ضد الفرنسيين والبرطانيين أثره فى الجزائر على الرغم من أن الدعاية الفرنسية حاولت التقليل من شأن ذلك الاعلان ومنع انتشاره بينهم .

وعلى سبيل المثال فى ميزاب اسـتقبل المواطنون اعلان الجهـاد بالترحيب وعندما انفجرت ثورة الهقار سنة ١٩١٦ استقبلها الجزائريون فى ميزاب من كل قلوبهم .

ومن ناحيـة أخـرى حاولت الحـكومة الفرنسـية الحيلولة دون الجزائريين واخوانهم فى الدول الاسلامية الأخرى فأصدرت أمرا بمنعهم

من الحج الى البقاع المقدسة حتى لا يقعوا تحت تأثير الدعاية العثمانيه والألمانية ، ولهذا السبب بعثت فرنسا معظم الجنود الجزائريين الى أوروبا وليس للشرق الأدنى ٠

وطوال سنوات الحرب وقعت فى الجزائر أكثر من ثورة هادرة ضد الاحتلال منها ما حدث فى قسطنطينة ديسمبر ١٩١٤ ، وكذلك ما حدث فى الجزائر عام ١٩١٦

ثورتى أوراس والهنقار :

انتشرت حرب العصابات فى مناطق متفرقة من الجزائر ضد الفرنسيين سواء فى بريقو (المحمدية حاليا) أو فى جويبه ١٩١٥ أو فى وهران وقسطنطينة وعلى الرغم من استخدام الفرنسيين لكل وسائل القهر والقمع نجح الثوار فى سنة ١٩١٦ فى فتح جبهتين أخرين احداهما فى اقليم أوراس فى الشمال وثانيهما فى اقليم الهقار فى الجنوب ٠

وقد نادى الى ثورة أوراس زعماء أمثال ابن على بن نؤى والشيخ مقدم زغانة وقد سمى الثوار أنفسهم « مجاهدين » وأعلنوا الجهاد ضد فرنسا فى اجتماعات عقدت لهذا الغرض ٠ وقد بدأت الثورة فى سبتمبر ١٩١٦ فى بريكة وانتشرت بعدها الى بقية الاقليم بعد أن أخذت شكلا أكثر عنفا وأكثر حمية ، وكان الثوار مؤيدين من الأهالى وزعماء الدين ، والأعيان فى المنطقة وقد هاجموا بلدية عين التوتة وتامارين ، تاركين وراءهم قتلى من الموظفين الفرنسيين وخسائر ضخمة فى المراكز العسكرية والعامه الفرنسية وقد لقى مصرعه حاكم مدينة عين التوتة ونائب العامل فى مدينة باتنة وأسرعت القوات الفرنسية الى المنطقة مزودة بتعليمات باطلاق النار على جزائرى يقع أمام أنظارهم وبناء على هذه الأوامر قام الجيش الفرنسى بحملة قمع شديدة العنف شملت حرق منازل الأهالى وتفريغ مخازن الحبوب وبادة قطعان الماشية ومحاصيل القمح والشعير ٠

وهكذا توقفت الحياة الاقتصادية تماما فى منطقة أوراس . فظلت سنة كاملة بعد الثورة كانت الأسواق العامة مغلقة وتوقف حصاد الحبوب وقطع الحلفاء وامتد الحكم العسكرى الى المنطقة ، كما قتل كثير من الأطفال والنساء وحكمت لجنة الأمن والنظام على أكثر من ١٢٠٠ نسمة بالاعدام وأحكام أخرى « للتآمر ضد السلطة أو عصيان السلطة »(٢١) .

وأما ثورة اقليم الهقار فقد نشبت متأثرة بالأفكار الوطنية والجامعة الاسلامية ودامت هذه الثورة أكثر من ثلاث سنوات وأوشكت على انهاء الحكم الفرنسى فى الصحراء الجزائرية .

ونظرا لقرب منطقة الثورة من حدود ليبيا فانها قد تأثرت بالحرب التى كانت تجرى بين الايطاليين والليبيين منذ سنة ١٩١١ . وقد انتشرت أفكار الجامعة الاسلامية ، كما بشرت بها السنوسية الى المناطق المجاورة بما فيها منطقة الهقار .

وقد بدأ سخط الجزائريين فى الهقار سنة ١٩١٥ . وفى فيفرى أعلن الزعيمان ، أحمد سلطان والشيخ عبد السلام الجهاد رسميا ضد فرنسا وفى مارس من نفس العام بعث الهقاريون حملة ضد جانيت وحاصروها وبذلك اضطر الفرنسيون الى مغادرتها والاحتماء بقلعة شارلى التى كانت اكثر حصانة ، ولكن الثوار دخلوا هذه القلعة أيضا وأرغموا المعسكر الفرنسى فيها على الاستسلام . ومع مطلع عام ١٩١٦ انتشرت الثورة فى كل مكان .. ولبعد المنطقة لم تستطع فرنسا اخماد هذه الثورة الا بعد انتهاء الحرب فى أوربا وبعد استخدام وسائل القمع المماثلة لما استخدم فى أوراس وقد استمرت عمليات القضاء على الثورة أكثر من ثلاث سنوات دعمت خلالها فرنسا مواصلاتها فى المنطقة واعتقلت كثيرا من الزعماء وحاولت فرنسا أن تطلق على هؤلاء الثوار بأنهم قطاع طرق وأنهم تأثروا بدعاية (ألمانيا وتركيا)(٢٢) .

الأمير خالد الجزائرى ودوره :

بعد انتهـاء الحرب العالمية الأولى شكل الجزائريون وفدا من بعض الضباط الجزائريين بمن اشتركوا فى الحرب الى جوار فرنسا برئاسة الأمير خالد محيى الدين ، أحد أحفاد الأمير عبد القادر الجزائرى ، وكان من الضباط الذين تزعموا بعد الحرب الدعوة الى صلاح ولكن على أساس بقاء الجزائر ضمن الأراضى الفرنسية(٢٣) ٠

فقدم الأمير خالد الى الرئيس الأمريكى ولسون فى باريس يطالبه بتطبيق مبادئه على الأمة الجزائرية ولكن خاب ظن هؤلاء الضباط فى ديلون ومؤتمر الصلح حيث أغلقت أمامهم كل الأبواب وأحالت الحكومة الفرنسية خالدا الى التقـاعد فرجع الى الجـزائر ليكون ما أسـماه « كتلة المنتخبين المسلمين الجزائرين » وهم أعضاء المجالس البلدية الذين اسـتفادوا من هذا التشريع الفرنسى الصادر سنة ١٩١٩ والذى وسع دائرة تمثيل الجزائرين فى هذه المجالس(٢٤) ٠

والذى يعنينا أخيرا انه اذا كانت الجزائر والعالم كله كان يمر [illegible] هائل نتيجة للحرب العـالمية الاولى ، فان فرنسـا قد حاولت [illegible] تحتفظ بسياسـتها الاسـتعمارية فى الجزائر بكل الطرق سـواء بالحديث عن الاصـلاحات المزعومة أو بزيادة عدد المسـتوطنين الفرنسـيين [illegible] قمع الحركات الوطنية بكل القسـوة ، ومحاولة إقنـاع الجـزائرين بسـياسة الادماج وأنه من الأفضـل لهم أن يكونوا مواطنـين فرنسـيين و[illegible] تكون بلادهم جزءا من الأراضى الفرنسية ٠

رابعا : المغرب فى الحرب العالمية الاولى :

منذ أجبرت فرنسا سلطان المغرب على عقد معاهدة فاس [illegible] التى قبل بمقتضاها الحماية الفرنسية على بلاده ٠ ٠من هذا اليوم استمر الكفاح المسـلح فى مراكش بين الوطنيـين والفرنسـيين وامتدت ثورة الشعب المغربى فى كافة الأنحاء فى الشمال والجنوب والأطلس المتوسط وقد كانت

هذه الثورة بشهادة كثير من المؤرخين ثورة منظمة على أحسن المستويات ترمى الى الكفاح من أجل الوطن والى الحرب المقدسة • وعين الفرنسيون الماريشال ليوتى Lyaatey مقيما عاما وقائدا لقوات الغزو الفرنسى فى كل مراكش وعلى الرغم من ذلك لم تتمكن من قمع الثورة الا بعد جهد •

كان الجنرال ليوتى من بيت عريق فى العسكرية الفرنسية وكان يضطرم منذ صباه بأحلام المجد والسيطرة دون أن يتمكن من تحقيق شىء من ذلك فى وطنه ولذلك بدأ يتجه الى الامبراطورية الافريقية عله يجد فيها ما فقده فى فرنسا ، وكان يكره المناقشة ويرمى دائما الى ابرام آرائه فى استبداد وما كاد يعين فى هذا المركز حتى بدأ يتلمس الطريق الى تلك الأحلام التى طالما اضطرم بها خياله •

وقد كان وصول ليوتى الى فاس يومئذ بمثابة اضافة وقود جديد لنيران الثورة فاشتد لهيبها فى كل مكان وباتت المدينة تعج بالأحداث الخطيرة وحاصرتها القبائل الثائرة وكانت الفرق الفرنسية تنهزم الواحدة تلو الأخرى وأعد ليوتى أوراقه ليحرقها قبل انسحابه ، ولكن فرقة المدفعية الفرنسية استطاعت فى النهاية انقاذ الموقف وفك الحصار عن المدينة وذلك فى مايو ١٩١٢(٢٥) •

ويفسر بعض المؤرخين قيام الشعب المغربى بأسره لمقاومة الاحتلال أربعمائة سنة بينما كانت البلاد العربية جمعاء خاضعة للحكم العثمانى ويضيف ليفى بروفنتال « ان المغرب الذى كان لمدى خمسة قرون البلد الاسلامى الوحيد الذى يشعر بأنه يكون أمة مع أن مثل هذه الفكرة لم تكن واضحة كل الوضوح • لقد كان يشعر بوحدته السياسية والعرقية » وكيف يمكننا أن نعلل فردية حضارته واستمرارها ، ومعارضة البلاد بأكملها تقريبا للاحتلال الفرنسى ؟

وهناك رأى آخر للمارشال ليوتي نفسه — والفضل ما شهدت به الأعداء — فقد أوضح وجهة نظره بشكل لا يقبل الشك فى خطاب ألقاه

سنة ١٩١٦ قال فيه : « لقد وجدنا فى هذه البلاد دولة وشعبا واضحى المعالم • فأكثر المنظمات القائمة كانت راسخة وكانت تمثل شيئا حقيقيا فلم يكن ثمة نظام سياسى واضح فحسب ، بل كان هنالك نظام قضائى هام » •

ويشبه البعض سياسة ليوتى فى المغرب بسياسة بريطانيا فى الهند حيث أهملت الطبقات الفقيرة والطبقة الوسطى وساندت أمراء الهند ، كذلك فعل ليوتى مع زعماء القبائل والحكام وأهمل باقى الطبقات وقد أدت هذه السياسة الى نتائج خطيرة حيث أضعفت نفوذ السلطان • وشلت يد الوطنيين • وزاد عدد الفرنسيين القادمين الى البلاد وأعطيت لهم امتيازات كبيرة •

الحرب العالمية الأولى :

وجد ليوتى نفسه فى مأزق حرج بعد قيام الحرب •• كانت فرنسا فى حاجة الى الجنود فاضطر ليوتى الى ارسال خير فرقة الى فرنسا وكان عليه ، أكثر من أى وقت آخر أن يعتمد على معاملة دبلوماسية واستراتيجية دقيقة • والمنطقة التى كان عليه اخضاعها وهى منطقة جنوبى مكناس فى الأطلس الأوسط ـ كان يقطنها أكثر القبائل عصيانا من بلاد السيبة • فلجأ ليوتى الى عزل أقسام المنطقة بعضها عن البعض الآخر بوساطة جماعات صغيرة مسلمة ، مما ساعده فى الوصول الى مأربه بعد ذلك ، على الرغم من أن بعض المقاومة استمرت فى جيوب فى شمال الأطلس وجنوبه(٢٦) •

ولما عاد ليوتى من فرنسا الى المغرب عام ١٩١٧ ، وجد البلاد هادئة بعض الهدوء ويفسر البعض ذلك بالاعانات المالية التى قدمها ليوتى الى بعض القواد والباشاوات وأن ذلك يؤكد مقدرته السياسية وبصيرته النفاذة والحقيقة أنه كان الهدوء الذى يسبق العاصفة فقد ظلت المعارك

مستمرة وازدادت عنفا فى مناطق كثيرة بالوسط والجنوب ولم تتوقف الا عام ١٩٣٥(٢٧) ٠

المقاومة الباسلة فى منطقة الريف :

كانت أسبانيا طامعة هى الاخرى فى بلاد المغرب وقد نجحت فى بداية القرن الحالى فى اثارة القلاقل فى وجه السلطان عبد العزيز حيث ساندت قيام ثورة دامية بقيادة الجيلالى الزرهونى استمرت أكثر من سبع سنوات وبعد هزيمته لجأ مع كثير من أعوانه الى منطقة الريف فى الشمال وهناك وطد مركزه بمساندة الأسبان ووقع معهم امتيازا لبيع الحديد والرصاص وبدأوا يفكرون فى السيطرة على منطقة الريف كلها بواسطة الزرهونى ولذلك أغروه بمهاجمة قبيلة بنى ورياغل التى عجزوا عن الاستيلاء عليها من قبل ٠

وهنا ينزع اسم قبيلة بنى ورياغل التى جردت عليه جيشا كبيرا بقيادة السيد عبد الكريم - والد الزعيم العظيم محمد عبد الكريم الخطابى - ودارت بين الفريقين معارك طاحنة انتهت بهزيمة الثائر وفراره من منطقة الريف الى مدينة فاس ، حيث تمكنت جيوش السلطان من القضاء على ثورته واعدامه ٠

وقد رأت أسبانيا بعد اعدام الزرهونى أن تطالب بالمعادن التى اشتروها منه ورفض السيد عبد الكريم واستغلت أسبانيا تلك الفرصة فعبأت جيشا قوامه ٩٠ الف مقاتل وبدأ التدخل العسكرى من ناحية مليلة ونشبت نتيجة لذلك معركة حامية الوطيس تكبد فيها الأسبان خسائر فادحة فى الأرواح والعتاد ، وقد ظلت الحرب سجالا بين الطرفين منذ ١٩٠٩ الى أن نشبت الحرب العالمية الأولى سنة ١٩١٤ ومن أشهر المعارك التى نشبت بين الطرفين ابان هذه الفترة (الزين) و (سلوان) و (اغزانا) ٠

وفى نفس الوقت اكتسحت ريف مراكش مجاعة هائلة شغلت الناس عن القتال ، وبذلك احتفظ الفريقان بمراكزهم طيلة الحرب العالمية الأولى الى أن كان انتصار الحلفاء وكان الكثيرون يظنون أن هذه الحرب سوف

تصفى جميع المشاكل الاستعمارية وأن الدول الصغيرة سوف تتمتع بحق تقرير المصير ولكن الحرب انتهت فاستأنفت الدول الكبرى سيرها فى طريق الاستعمار وتفننت فى اتباع وسائل التحكم فى مصائر الشعوب والقضاء على مقاومتها .

ومن ناحية أخرى ما كادت الحرب تنتهى حتى بدأت أسبانيا تقوم باستعدادات كبيرة لاستئناف حربها ضد ريف مراكش وعينت واحدا من أشهر قوادها هو الجنرال « سلفستر » قائدا عاما للقضاء على الحركة الوطنية ، كما لجأت الى أحط الوسائل فى التخلص من الأمير عبدالكريم فدست له السم بواسطة بعض عملائها فبدأت تظهر عليه أعراض التسمم ثم عاجلته المنية بعد رحلة كفاح طويلة وشاقة(٢٨) .

الأمير عبد الكريم الخطابى زعيم الريف(٢٩) :

اجتمع زعماء قبيلة بنى ورياغل وأجمعوا أمرهم على تولية الأمير محمد عبد الكريم رئيسا على القبيلة واتفق المجتمعون على ضرورة الاستمرار فى الكفاح ضد الاحتلال الأسبانى والعمل بكل السبل للحصول على السلاح والاستعداد للمعركة الفاصلة .. ويرى الكاتب الأمريكى روم لاندو « أن القسوة والفساد والظلم والعجز الذى تميز به الحكم الأسبانى فى الساحل أثار حفيظة فجمع الناس حوله فى ثورة مسلحة » ويرى المؤلف نفسه أن عبد الكريم كان على حق فى ثورته ، ذلك بأن الأسبان أبدوا فى المغرب القسوة والعنف ذاتهما اللذين أديا بهم الى اخراجهم من أمريكا الجنوبية .

وقد نهض عبد الكريم لتحرير منطقة الريف من سلطان أسبانيا منذ عام ١٩٢٠ والتفت حوله القبائل الريفية وأيدته وناصرته ، فاستطاع عام ١٩٢٤ أن يجلى الأسبان عن مناطق الريف وطاردوهم حتى تطوان وتقدم بعد ذلك الى المنطقة الفرنسية ، لكن الانقسام بين أتباعه وتحالف الفرنسيين والأسبان واستخدام أحدث الأسلحة ضده أدى الى هزيمته وتغلب الفرنسيين عليه فى عام ١٩٢٦(٣٠) .

حواشى الفصل الثالث

الصراع الاستعمارى

(١) ولد الأمير عمر طوسون بالاسكندرية فى ١٨٧٢/٩/٨ وهو حفيد محمد سعيد باشا ثالث ولاة مصر بعد محمد على ، تلقى علومه الأولى فى مصر ، ثم سافر الى سويسرا وفرنسا وانجلترا وعاد مزودا بكثير من العلوم والمعارف • وعلى الرغم من مشاغله العديدة ، حيث كان يرأس العديد من الجمعيات ذات الأنشطة الاجتماعية والزراعية ، الا أنه كان لا يكل ولا يمل يقضى وقتا طويلا فى الدرس والمطالعة ، فيواظب على التنقيب فى مكتبته الضخمة ، ويهتم بالبحث فى تاريخ مصر والسودان وكان له منهجه فى البحث التاريخى القائم على الاعتماد على الوثائق والمصادر الأصلية وله فى تاريخ مصر والسودان مؤلفات كثيرة من أشهرها

١ ـ الجيش المصرى البرى والبحرى فى عهد محمد على •

٢ ـ نبذة عن المدارس الحربية فى عهد محمد على •

٣ ـ كلمات فى سبيل مصر •

٤ ـ مذكرة عن السودان •

٥ ـ مالية مصر من عهد الفراعنة الى اليوم •

٦ ـ بطولة الأورطة السودانية فى حرب المكسيك •

٧ ـ يوم ١١ يوليو عام ١٩٨٢ •

٨ ـ الأطلس التاريخى الجغرافى لمصر السفلى منذ الفتح الاسلامى الى الآن •

٩ ـ الجيش المصرى فى حرب القرم •

١٠ ـ تاريخ مديرية خط الاستواء من فتحها الى ضياعها •

وغير ذلك من المؤلفات الهامة التى تؤكد مكانته كمؤرخ مصرى له منهجه وأسلوبه • وهو بحق يستحق لقب الأمير العالم وقد توفى فى ٢٦ يناير ١٩٤٤ • أ • هـ قلينى فهمى باشا : عمر طوسون ، تاريخ حياة

عمر طوسون مجموعة مقالات أصدرتها الجمعية الملكية الزراعية فى ١٩٤٦ وللمؤلف بحث مخطوط تحت عنوان الأمير طوســون ومنهجه فى كتــابه تاريخ مصر ٠

(٢) د٠ زاهية قدورة ، مرجع سابق ، ص ٤٣٢ ٠

(٣) د٠ حسن صبحى : تاريخ شــمال أفريقية الحـديث والمعاصر ط ١٩٧٣ ، الاسكندرية ص ١٨١ ٠

(٤) المرجع السابق ، ص ١٨٢ ٠

(٥) د٠ نقولا زيادة : ليبيا من الاستعمار الايطالى الى الاستقلال ، القاهرة ١٩٥٨ ص ٨٦ ٠

(٦) محمد بن مسعود : تاريخ ليبيا الحديث ، ١٩٥٤ ، ص ١٦ ٠

(٧) المرجع السابق ، ص ١٧ ٠

(٨) د٠ نقولا زيادة ، مرجع سابق ، ص ٨٩ ٠

(٩) د٠ حسن صبحى ، مرجع سابق ، ص ١٨٣ ، د٠ نقولا زيادة، مرجع سابق ص ٩١ ٠

(١٠) د٠ محمد فؤاد شكرى:السنوسية دين ودولة ص ٢٠٦ــ٢٠٨

(١١) المرجع السابق ، ص ٢٠٧ ــ ٢١٠ ٠

(١٢) د٠ نقولا زيادة ، مرجع سابق ص ٩٩ ٠

(١٣) د٠ زاهية قدورة ، مرجع سابق ، ص ٤٧٤ ٠

(١٤) على البهلوان : تونس الثائرة ، ١٩٥٤ ص ٤٢ ٠

(١٥) د٠ حسن صبحى ، مرجع سابق ص ٩٨ ٠

(١٦) د٠ صلاح العقاد : المغرب العربى ، الأنجلو المصرية ١٩٦٦ ص ٣٥١ ٠

(١٧) على البهلوان : تونس ، مرجع سابق ص ٤٥ ٠

(١٨) لمزيد من التفاصيل انظر : د٠ السعيد رزق حجاج : الاستعمار الأوربى ، مرجع سابق ص ١٤٠ ، د٠ حسن صبحو ، مرجع سابق ص٣٣

(١٩) د٠ أبو القاسم سعد الله : الحركة الوطنية الجزائرية ، ج ٢. معهد البحوث والدراسات العربية القاهرة ١٩٧٧ ، ص ٢٢١ ٠

(٢٠) د٠ صلاح العقاد : الجزائر المعاصرة ، القاهرة ١٩٦٤ ، ص ٢٠ ـ ٢١ ٠

(٢١) د٠ أبو القاسم سعد الله ، مرجع سابق ، ص ٢٤٠ ـ ٢٤١ ٠

(٢٢) المرجع السابق ص ٢٤١ ٠

(٢٣) د٠ جلال يحيى : السياسة الفرنسية فى الجزائر ، دار المعرفة ١٩٥٩. ص ٢٧٥ ٠

(٢٤) د٠ حسن صبحى ، مرجع سابق ص ٤٥ ، د٠ صلاح العقاد: المغرب العربى ، ٣١٣ ٠

(٢٥) عبد المجيد بن جلون : هذه مراكش ، مطبعة الرسالة ، القاهرة ١٩٤٩. ص ٧٣ ـ ٧٤ ٠

(٢٦) روم لاندو : تاريخ المغرب فى القرن العشرين : ترجمة د٠ نقولا زيادة ، بيروت ١٩٦٣ ص ١٢١ ٠

(٢٧) المرجع السابق ص ١٢٢ ٠

(٢٨) عبد المجيد بن جلون ، مرجع سابق ص ١٧٧ ٠

(٢٩) عبد الكريم الخطابى زعيم مغربى عربى كبير ، ولد ببعض نواحى الريف شمال المغرب عام ١٨٨٢ فى أسرة انتهت اليها زعامة قبيلة بنى ورياغل ، تعلم بجامعة القرويين بفاس ، ثم استقر بعد ذلك بمليلة (وكانت وما زالت منطقة احتلال أسبانية) وتولى منصب القضاء الشرعى فيها ، ومرة ثانية يعود الى مسقط رأسه باجدير فى الوقت الذى شرع فيه الأسبان فى بسط احتلالهم العسكرى على منطخة الريف ٠ وتزعم الخطابى حركة المقاومة المسلحة التى امتدت ست سنوات وحقق انتصارات باهرة على الأسبان ٠

وفى عام ١٩٢٥ فتحت أسبانيا وفرنسا أكثر من جبهة ضده ولكنه
على الرغم من ذلك حقق انتصارات أخرى أدت الى عقد مؤتمر فى مدريد
١٧ يونيو ١٩٢٥ ٠
وفى عام ١٩٢٦ استخدمت فرنسا وأسبانيا الطائرات والدبابات
ولم يكن أمام الأمير سوى الاستسلام فى ٢٧ مايو ١٩٢٦ ، واتفق على نفيه
الى احدى أجزاء المحيط الهادى لتنتهى بذلك حركة المقاومة فى منطقة
الريف أ٠هـ محمد سلام أمزيان عبد الكريم الخطابى ١٩٧١ ص ٢٦١-٢٦٢

(٣٠) روم لاندو ، مرجع سابق ص ١٤٩ ، محمد سلام ، مرجع
سابق ص ٢٦٢ ٠

الفصل الرابع

مصر والسودان

فى الحرب العالمية الأولى

كانت مصر منذ خضعت للاحتلال البريطانى عام ١٨٨٢ تعانى « ازدواجا فى التبعية » ان جاز لنا هذا التعبير حيث كانت مصر من الناحية الرسمية ما تزال ولاية عثمانية ومن الناحية الفعلية تقع تحت السيطرة البريطانية على الرغم من أن بريطانيا أعلنت أكثر من مرة أن هدفها من وجودها فى مصر هو « المحافظة على المعاهدات القائمة بين السلطان والخديوى » ولم يكن معتمدها السياسى فى مصر اسميا سوى « وكيل سياسى وقنصل جنرال » يعرب عن آراء حكومته ورغباتها لحكومة مصر كغيره من معتمدى الدول الأخرى .

وبعد قيام الحرب العالمية الأولى وتوقيع معاهدة سرية بين تركيا وألمانيا تنص على التحالف والاتفاق العسكرى بين الطرفين أصبحت الدولة العثمانية بعد هذه الاتفاقية طرفا فى الصراع الدولى الذى أدى الى قيام الحرب الكبرى الأولى التى اشتركت فيها انجلترا مع حلفائها ضد ألمانيا وحليفاتها(١) .

وقد اتخذت السلطات البريطانية العديد من الاجراءات التى مكنتها فى النهاية من تقطيع أسباب الاتصال الباقية بين مصر والدولة العثمانية ومن تغيير الوضع القانونى الذى ظل قائما منذ تسوية لندن ١٨٤٠ ـ ١٨٤١ وكانت الأمور منذ اعلان الحرب تسير نحو هذه النتيجة سراعا، فقد أجبرت سلطات الاحتلال رشدى باشا رئيس الوزراء المصرى على قطع كل العلاقات مع الدول التى اشتركت فى الحرب ضد بريطانيا منذ ٥ أغسطس ١٩١٤ .

وقد تضمن قرار القطع منع الشعب المصرى من الاتجار أو التراسل مع الدول المعادية لبريطانيا ، كما منعت السفن المصرية من الدخول فى موانى الأعداء وفى ذات الوقت تمت دعوة الشعب المصرى لتقديم كل معونة ممكنة لبريطانيا ، كما خولت الجيش والأسطول البريطانى حق استخدام الأراضى والموانى المصرية فى العمليات العسكرية ٠

ولم تمض أشهر قليلة حتى كانت السلطات البريطانية قد أطلقت يدها فى دواوين الحكومة ونكلت بالمواطنين الذين يعادون الاحتلال بصورة سافرة، ثم احتاجت الى العمال فجمعت منهم نحو مليون ومائتى ألف من الفتيان الأشداء فرقتهم فى ميادين القتال وأهملتهم أسوأ اهمال فكانوا يتساقطون بالعشرات وتنقطع أخبارهم عن أهلهم وذويهم فلا يسمع عنهم بعد ذلك ، كما اتخذت هذه السلطات عددا من الاجراءات الاستثنائية الأخرى فقامت باحتلال قناة السويس(٢) ٠

وبمقتضى مرسوم ١٨ أكتوبر عام ١٩١٤ أجلت الحكومة اجتماعات الجمعية التشريعية لمدة شهرين ، ثم صدرت عدة مراسيم بعد ذلك تؤجل هذه الاجتماعات خوفا من أن تظهر داخلها مظاهر السخط التى تفشت فى البلاد ، وفى ٢٠ أكتوبر أصدرت الحكومة مرسوما آخر بتحريم الاجتماعات وتحددت عقوبات لأى تجمع يبلغ خمسة أفراد أو أكثر(٣) ٠

مصر بين تركيا وانجلترا :

كان تعلق المصريين بدولة الخلافة الاسلامية معروفا لدى الطرفين المتحاربين وله تأثيره فى هزائمهما وانتصاراتهما فى الحرب على الحدود المصرية ٠

من جهة تركيا كان هذا الاعتقاد فى مساندة المصريين هو ما دفع جمال باشا الى محاولة الاغارة على مواقع تبعد ١٤٠ ميلا عن قاعدته الأمامية فى بير سبع ، وعبر صحراء جبلية فى بعض أجزائها الأخرى ،

وضد قوات تفوقه عددا بما لا يقل عن أربعة أضعاف الخمسة عشر ألف رجل الذين تحت امرته . وكان قد سبق هذه الحملة منشور صدر عن الخديو عباس حلمى الثانى فى الآستانة فى ١١ نوفمبر ١٩١٤ الى الأمة المصرية يمنيهم باعلان الدستور ويدعوهم لتأييد دولة الخلافة الاسلامية والوقوف الى جانبها(٤) .

وقد جاء فى هذا المنشور: «ولما كانت رغبات الخليفة العظيم، وحكومته السنية هى تأييد الفرمانات الشاهانية ، لتمام رفاهية البلاد المصرية والسودانية، فقد اقتضت ارادة أمير المؤمنين تسيير جيش عثمانى عديد مظفر على القطر المصرى ، لاعادة الحالة الى ما كانت عليه قبل ١٨٨٢ ، وقد رأينا أن نسير مع هذا الجيش حتى يتم له النصر بمعاونتكم بعضكم البعض ، وقيامكم بتمهيد كل الوسائل لتسهيل مأموريته واستعدادكم لاستقبالنا بما هو معهود فيكم من الحمية الوطنية والاخلاص لجلالة الخليفة المعظم ولنا ولبلادكم ، وبما أن الأمل وطيد فى نجاحها بمعونته تعالى فاننا نعلن من الآن منحكم الدستور الكامل والغاء القوانين المنافية للحرية .. الخ(٥).

وفيما يختص بالبريطانيين فى مصر ، فقد كان فى حسبانهم أيضا منذ البداية احتمال قيام المصريين بحركة داخلية ، لمساعدة الهجوم التركى ولهذا وجدوا من الضرورى الاحتفاظ بقوات كبيرة وخصوصا فى القاهرة لمواجهة ما قد يحدث من ثورات لصالح الأتراك .

وفى ٧ نوفمبر ١٩١٤ منح القائد العام للقوات الانجليزية المستشار البريطانى فى وزارة الداخلية صلاحيات عسكرية وخوله حق القبض والاعتقال فأخذ فى القبض على طائفة من الأتراك والمصريين الوطنيين(٦) وفى نفس الوقت تم اعلان قطع العلاقات بين انجلترا والدولة العثمانية وجاء فى المنشور الصادر بهذا الخصوص :

« أنا اللفتننت جنرال جون جراتفل مكسويل قائد جيوش صاحب الجلالة البريطانية فى القطر المصرى قد كلفت بأن أعلن أنه فى يوم ٥ نوفمبر سنة ١٩١٤ أصبحت بريطانيا العظمى وتركيا فى حالة حرب · ولو أنه منذ ابتداء الحرب الناشبة بين جلالته وبين امبراطورى المانيا والنمسا قد أقدمت الحكومة العثمانية مرارا تحت نفوذ أعداء جلالته على خرق حرمة الحقوق المكتسبة لجلالته بمقتضى القوانين الدولية والمعاهدات فان حكومة جلالته قد تحاشت مقابلة هذه الأعمال بمثلها تحاشيا دقيقا حتى ارغمت على ذلك · ليس فقط بسبب الاستعدادات الحربية فى سوريا التى لا يمكن الا أن تكون موجهة ضد القطر المصرى بل بسبب خرق حرمة الحدود المصرية بواسطة عصابات مسلحة وباعتداء قوات الدولة العثمانية البحريه على أملاك أحد حلفاء جلالته تحت قيادة ضباط ألمانيين بدون سبب يحملها على هذا الاعتداء فان بريطانيا العظمى تحارب الآن لغرضين وهما الدفاع عن حقوق مصر وحريتها التى كسبها محمد على فى الأصل فى ميدان القتال ، واستمرار هذا القطر على التمتع بالسلم والرخاء الذين تمتع بهما مدة الاحتلال البريطانى فى ٣٠ سنة ·

« ولعلم بريطانيا العظمى بما للسلطان بصفته الدينية من الاحترام والاعتبار عند مسلمى القطر فقد أخذت بريطانيا العظمى على عاتقها جميع أعباء هذه الحرب بدون أن تطلب من الشعب المصرى أية مساعدة · ولكنها مقابل ذلك تنتظر من الأهالى وتطلب اليهم الامتناع عن أى عمل من شأنه عرقلة حركات جيوشها الحربية أو أداء أى مساعدة لأعدائها »(٧) ·

الامضـــاء

(ج · ج·مكسويل)

فريق قائد الجيوش البريطانية بالقطر المصرى

وهكذا أصبحت مصر فى وضع فريد ، فعلى الرغم من أنها لم تكن دولة محاربة أو حتى محايدة الا أنها وجدت نفسها فى قلب الصراع الذى لم تكن طرفا فيه ، وغدت أرضها مسرحا للنشاط الحربى وجبهة قتال ذات أهمية بالغة • ورأت بريطانيا أنه لزاما عليها من الناحية الحربية أن تعزز مركزها فى مصر ، فى حين كان يلزمها من الناحية السياسية أن تقيم علاقات جديدة مع المصريين ، كما كان عليها فى نفس الوقت أن تجابه المطالب الناجمة عن هذا الموقف الطارئ(٨) • فماذا فعلت انجلترا؟

من الناحية الحربية جعلت بريطانيا مصر ميدانا لتدريب قوات الأمبراطورية الاحتياطية من بلاد الكومنولث والهند وأخذت تجلب العساكر من مستعمراتها المترامية الأطراف من كل ملة ونحلة فأصبحت مصر مستودعا عاما للجنود وكانت السياسة البريطانية المعلنة تهدف فى مبدأ الأمر الى تأمين مصر وكذا منطقة قناة السويس التى تمتد مائة ميل من السويس الى بورسعيد(٩) بيد أن هذه السياسة قد تغيرت فيما بعد وأدت بريطانيا الى الاشتباك فى حرب هجومية ضد الأتراك الى أن عقدت الهدنة وكانت قواتها قد وصلت الى حلب ، على بعد ٥٠٠ ميل من القناة •

اعلان الحماية على مصر :

الحماية كما عرفها القانون الدولى هى علاقة دولة قوية بدولة ضعيفة تقوم بموافقة الثانية ورضاها - على أن تحميها الأولى ضد أى اعتداء أو تدخل أجنبى - فالحماية تستلزم اعتراف الدولة الحامية بسيادة الدولة المحمية وموافقة الدولة المحمية على أن تدخل فى حمايه الدولة الأقوى ولكن انجلترا فرضت حمايتها على مصر من تلقاء نفسها وخلعت الخديو عباس حلمى الثانى وعينت حسين كامل سلطانا على مصر وتصرفت فى شؤون البلاد كما لو كانت جزءا من الامبراطورية البريطانية وبهذا الاجراء التعسفى نكثت انجلترا بكل عهودها وخالفت القانون والعرف الدوليين•

وقد وصفت جريدة « مانشيستر جارديان » هذا الاجراء بأنه بمثابة ضم مصر الى الممتلكات البريطانية ٠

ويرى البارون « فان دن بوش » البلجيكى الأصل والذى كان نائبا عاما لدى المحاكم المختلطة أن الذى دفع بريطانيا لاعلان الحماية أن جيش الاحتلال كان قليل العدد ، وكان معظمه من القوات الهندية وأن انجلترا لكى تواجه تغييرا جذريا فى مصر كان لابد من امداد جيش الاحتلال بقوات اضافية وكان ذلك يتطلب وقتا وجهدا طويلين(١٠) ٠

ولعل من الأسباب الهامة التى ارتكنت عليها بريطانيا فى اعلان الحماية على مصر ، كما ورد بالوثائق البريطانية، أن سلطان تركيا ـ قبل دخولها الحرب ـ بعث بمنشور الى الدول الكبرى يسترعى نظرها الى أن وجود القوات العسكرية الانجليزية فى مصر يحول بينه وبين مباشرة حقوق السيادة على القطر المصرى ٠٠ كذلك بعث سفير تركيا فى لندن يوم ٢ نوفمبر ١٩١٤ انذارا باسم الخديو عباس حلمى الثانى الى الحكومة الانجليزية يطلب فيه اجلاء الجيوش البريطانية عن مصر فورا وكان نص اعلان الحماية على مصر والصادر فى ١٨ ديسمبر ١٩١٤(١١) ٠

« يعلن ناظر الخارجية لدى حكومة ملك بريطانيا العظمى أنه بالنظر الى حالة الحرب التى سببها عمل تركيا ٠ قد وضعت بلاد مصر تحت حماية جلالته وأصبحت من الآن فصاعدا من البلاد المشمولة بالحماية البريطانية وبذلك قد زالت سيادة تركيا عن مصر ٠ وستتخذ حكومة جلالته كل التدابير اللازمة للدفاع عن مصر وحماية أهلها ومصالحها » ٠

وأعقب اعلان الحماية فى اليوم التالى ١٩ ديسمبر ارسال تبليغ للسلطان حسين كامل يعد مثابة دستور أولى لنظام الحماية ، كما تألفت فى نفس اليوم وزارة حسين رشدى التى ألغى فيها منصب وزير الخارجية حيث أن نظام الحماية يتضمن أن تكون الاتصالات الخارجية مع ممثلى الدول الأجنبية بواسطة ممثل بريطانيا فى مصر ٠

ويذكر الرافعى أن أول مظهر للاحتجاج على اعلان الحماية على مصر كان اعلان أمين الرافعى رئيس تحرير جريدة الشعب فى عدد ٢٧ نوفمبر سنة ١٩١٤ أنه سيحتجب من ذلك اليوم وأنه سيعود بمشيئة الله الى الظهور » والحقيقة أن أمين الرافعى لم يحتجب بسبب اعلان الحماية فقط ولكن بسبب فرض الرقابة على الصحف والذى بدأ العمل به مع اعلان الأحكام العرفية فى ٢ نوفمبر ١٩١٤ وتعرضت الصحف المصرية ومنها الشعب لمضايقات عديدة واعتقل عدد من الصحفيين وذوى الرأى(١٢) ٠

رأى حسين رشدى فى الحماية :

فى حديث بين حسين رشدى رئيس الوزراء ومراسل جريدة «الديلى كرونكل» أعلن « أن المنافع التى عادت على البلاد فى حسن الادارة البريطانية لا تحصى ولا تعد ٠ وكل مصرى تهمه مصلحة بلاده وارتقاؤها يسلم بهذا ويرجو أن تدوم الرابطة بين الآمتين الى ما شاء الله ٠ وما دام قنال السويس حلقة الاتصال بين أجزاء الامبراطورية البريطانية وطريقا لازما للانجليز فمن الطبيعى أن ترتبط بريطانيا العظمى ومصر بأشد روابط الصداقة والوداد » ٠

وأضاف رشدى « أننا أمة ضعيفة تحتاج الى صديق قوى يصون أملاكنا من كل اعتداء ويكون على جانب من الارتقاء والحرية حتى يتيسر لنا أن نسير بارشاده فى معارج الحرية »(١٣) ٠

ومن المؤلم حقا أن تصدر الحماية ويقضى على استقلال مصر وتداس كرامتها ويسجن أبناؤها وتنهب خيراتها ويصدر مثل هذا التصريح من رئيس الوزراء يؤكد فيه امتنانه لقبول بريطانيا فرض حمايتها على مصر وأن على المصريين أن يسجدوا لله شكرا على هذه الحماية التى ستنجيهم من شرور الحرب وقساوتها ٠

وحتى الجمعية التشريعية التى كانت لها بموجب القانون القديم صفة النيابة عن الأمة بقيت ساكنة صامتة ومصر تخضع للحمايه ورحم الله عبد الرحمن الرافعى وهو يتحدث فى مرارة عن وكيلها المنتخب سعد زغلول بأنه كان فى مقدمة المحتفين بالسير (أرثر ماكماهون) أول مندوب سامى بريطانى عين فى ظل الحماية اذ استقبله على محطة العاصمة ساعة مجيئه ، يوم ٩ يناير سنة ١٩١٥ وقال عنه على مسمع من المستقبلين : « ان دلائل الخير بادية على وجهه » وأمل أن يجزل الله لمصر الخير على يده(٤١) .

وعلى المستوى الشعبى فى مصر فقد نبهت المصريين لهذه المفاجآت والمباغتات التى لم يكونوا يتوقعونها غير أنهم لم يستطيعوا الاحتجاج بطريقة واضحة لاسيما والأحكام العرفية معلنة ، والاجتماعات محظورة ، والأفواه مكممة والرقابة على الصحف قائمة ، كما أن الكثيرين انتظروا جلاء الموقف وكانوا يأملون رجوع الخديو عباس حلمى وانتصار تركيا على أعدائها .

ويؤكد أحمد شفيق أن هناك شائعات راجت فى العاصمة المصرية عن عزم الخديو السابق على العودة وأن السلطات البريطانية حالت دون ذلك .

وكانت السلطات البريطانية قد اتخذت قبل ذلك اجراءات شديدة لمطاردة الوطنيين الأمر الذى أدى الى فرار عدد من قادة الحزب الوطنى الى تركيا ، كما أصدر قائد جيش الاحتلال أمرا بأن يعاقب بمقتضى السلطة المخولة له باعتباره « الضابط العام لجيوش جلالة الملك فى القطر المصرى» كل من يدخل الى مصر أسلحة أو ذخيرة أو يساعد على ادخالها ، ثم عمدت السلطات بعد ذلك الى طواف جنود الاحتلال(١٥) فى شوارع العاصمة حتى يلقوا الرعب فى قلوب الجماهير ويؤكدوا قوة بريطانيا .

وبمقتضى قانون الأحكام العرفية والحكم العسكرى ألقت الشرطة القبض على عدد كبير من المصريين الجالسين فى المقاهى أو السائرين فى الطرقات ليلا لأنهم - كما قيل - يروجون للسياسة الألمانية وطورد على الفور أعضاء الحزب الوطنى بعد أن صودر الحزب وضبطت أوراقه وسجلاته وشتت شمل أعضائه أو الذين اشتبه فيهم بأنهم من أعضائه وأنصاره ، واعتقل الكثيرون منهم فى سجن الاستئناف وفى معتقلات درب الجماميز، وطره والجيزة وسيدى بشر ، وسجن الحضرة بالاسكندرية ، ونفى بعضهم الى مالطة وأوربا .

كما قبض على كثير من المصريين فى الأقاليم ووضعوا فى السجون وأخذت الشرطة فى جمع الأسلحة والعصى الغليظة بحجة المحافظة على الأمن .

وبلغ المعتقلين عددا كبيرا حتى أن السلطات نقلت جزءا من هؤلاء من سجن القلعة الى دار بجانب سجن طره ، ولم ترم حملة الارهاب الى الفت فى عضد السياسيين أو الحزبيين فحسب ، بل الى ارهاب الناس جميعا والقاء الذعر فى نفوسهم حتى أن بوليس المطرية ألقى القبض على غلام صغير لأنه كان قد مزق اعلانا ملصقا على جدار وفيه نص الحكم العرفى وقد عوقب هذا الطفل بالجلد « عشر جلدات » .

محاولة اغلاق الأزهر :

ونظرا لتخوف الانجليز من الأزهر لمعرفتهم بأنه معقل الوطنية طلبوا تعطيل الدراسة فيه ولكن رجال الأزهر أفهموا مستشار الداخلية الانجليزى أن الأزهر جامع تؤدى فيه الشعائر الدينية ولا يمكن اغلاقه . ففكر الانجليز فى تقليل عدد الطلبة وكان عددهم فى ذلك الوقت ٨٢٢٢ طالبا فأوعزوا الى شيخ الأزهر بفصل الطلبة الذين عرفوا بعدائهم للانجليز من مصريين وأتراك وغيرهم من أبناء المستعمرات البريطانية والفرنسية

وبضغوط من السلطات البريطانية تم فصل حوالى ٣٠٠٦ من الطلاب ، ثم قاموا بتخريج ألف طالب فى امتحان سريع وبذلك قللوا عدد الطلبة الى النصف وتمت مراقبة الدراسة بالأزهر مراقبة شديدة وأجبر الطلاب على عدم التواجد بعد دروسهم بأعداد تزيد عن العدد المسموح به فى ظل الأحكام العرفية .

الحملة العثمانية على مصر :

تحقق الخطر العثمانى الذى توقعه البريطانيون على مصر وقناة السويس وذلك عندما بدأت الحملة العثمانية فى يوم ٢٨ يناير ١٩١٥ . وكان الألمان يهدفون من هذه الحملة الهجوم على قناة السويس والاستيلاء عليها باعتبارها أكثر المناطق أهمية فى خطوط مواصلات بريطانيا ، كما أن الهجوم عليها سوف يحول دون وصول الامدادات من آسيا الى الجبهة الأوربية .

وكان العثمانيون من ناحيتهم يرون فى الحملة على مصر خير وسيلة لحجز القوات البريطانية فيها والحيلولة دون تدعيم الهجوم البريطانى على العراق ، واستخدامها فى النزول على سواحل بيروت أو الاسكندرونة أو أزمير ، الى جانب احتمال استعدادتهم لمصر خاصة وأنهم يعلقون آمالا كبيرة على ثورة المصريين ضد الاحتلال(١٧) .

وقد بدأ الهجوم العثمانى بمهاجمة المواقع البريطانية فى القنطرة والفردان والاسماعيلية وطوسون بقوات تقترب من خمسة عشر ألف جندى تعاونهم المدفعية وبعض القطع البحرية . وقد فشلت المحاولة التى قاموا بها لعبور القناة بين سيرابيوم وطوسون فشلا تاما ولم يتمكن من العبور سوى ثلاث معديات قتل وأسر جميع من كانوا فيها .

أما مدفعية الأتراك العثمانيون فقد توقفت بعد النيران الكثيفة التى أطلقت عليها . وقام البريطانيون تعاونهم وحدات مصرية أجبرت على

القتال الى جانبهم بهجوم مضاد واسع النطاق على الضفة الشرقية للقناة مما أدى الى تقهقر العثمانيين ، وانسحابهم مخلفين خسائر أكثر من ألفين .

ويذكر أحمد شفيق أن الضابط المصرى أحمد حلمى الذى كان يقود على الضفة الغربية احدى بطاريات المدفعيـة المصرية قام بدور كبير فى صـد هـذا الهجوم ، فبعـد أن مد الأتراك جسرا مؤقتا على زوارق من الألومنيوم لعبور القنال عليه . تركهم الضابط المذكور حتى أتموا الجسر وبدأوا فعلا بالسـير عليه وعند توسـطهم القناة فاجأهم بنيران مدافعه بينما كانوا يعتقدون أنهم فى أمان كامل وقد لقى كثير من الجنود العثمانيين مصرعهم أثناء عبورهم القناة ، كما لقى الضابط المصرى مصرعه كذلك(١٨) .

وقد أدت هذه الحملة التركية الفاشلة الى أن يعيد البريطانيون النظر فى خططهم للدفاع عن القناة، كما اتضح لهم احتمال غزو مصر مرة أخرى من الشرق فبدأوا يعملون على اتخاذ الاجراءات اللازمة للدفاع عن وجودهم فى مصر بزيادة عدد قواتهم وتحصين مواقعهم فى نفس الوقت الذى شغل فيه الأتراك بالحملات التى أرسلوها الى أعالى دجلة والى غاليبولى(١٩) .

ومن ناحية أخرى كان البريطانيون يضعون فى حسبانهم منذ البداية احتمال قيام المصريين بثورة لمساندة الهجوم العثمانى ولهذا وجدوا من الضرورى الاحتفـاظ بقوات كبيرة فى القاهرة ولكن نظرا لهدوء الموقف وعدم قيام المصريين بعمل ما عادوا فبعثوا هذه القوات الى الاسماعيلية . وقد وصلتها بعد انسحاب العثمانيين بخسائر لا تزيد عن عشرة فى المائة .

ومن المفارقات أنه بينما كان البريطانيون يحتفظون بحـامية كبيرة فى القاهرة كانوا فى ذات الوقت يسـتعينون بالقوات المصرية والمدفعية المصرية لافساد الغزو العثمانى على الرغم من اعلانها قبل ذلك أنها تتحمل وحدها أعباء الحرب دون أن تطلب من الشعب المصرى أية مساعدة الا أنه

لم تكد تمضى أيام قلائل حتى كانت الوحدات المصرية تستدعى للاشتراك فى الدفاع عن القناة(٢٠) .

ويفسر البعض موقف المصريين وعدم ثورتهم على الاحتلال ومساندتهم للعثمانيين بأنه يعود فى الغالب الى اجراءات الأمن البريطانية والأحكام العرفية ، وتعطيل الجمعية التشريعية واعتقال قادة الرأى والعناصر المعروفة بولائها للخلافة فى مصر ، كما كان لاعتقال وتشريد أعضاء الحزب الوطنى ونفى الكثيرين منهم أثر كبير فى هذا الموقف .

وفى اعتقادنا أن موقف الحكومة المصرية والسلطان حسين كامل ومساندتهم للبريطانيين علانية ودعوتهم الشعب المصرى للهدوء والسكينة كما أن انتشار الوعى القومى واعتقاد كثير من المصريين أن الألمان والعثمانيين لا يختلفون فى شىء عن البريطانيين والفرنسيين ، وأن الاستقلال الكامل هو ما يجب عليهم العمل من أجله ومن أجل هذا عليهم الانتظار حتى تنتهى الحرب وينجلى الموقف أيا كان المنتصر فيها .

وأما وصف الشعب المصرى باتخاذ موقف سلبى من الحماية فأمر غير مقبول حيث قامت مظاهرات وأعمال تعبر عن سخط المصريين على الحماية ولعل أهمها كما ذكر الأستاذ الرافعى .

مظاهرة طلبة الحقوق :

وكان السلطان حسين قد اعتزم زيارة بعض معاهد العلم فى محاولة منه للتودد الى المصريين ، وقد ظهر سخط الشباب على الحماية والاجراءات التى اتخذتها سلطات الاحتلال وذلك بامتناع طلاب مدرسة الحقوق عن الحضور فى اليوم المحدد لزيارة السلطان فكان هذا الاضراب أشبه « بمظاهرة صامتة ضد الحماية » .

وقد تم فصل ٥٤ طالبا بحجة تزعمهم لهذا الاضراب ثم صدر بعد

ذلك عفو عن المفصولين والمحرومين من الامتحان ، باستثناء سبعة عشر طالبا الذين أثبت التحقيق أنهم كانوا المحرضين لزملائهم .

محاولة اغتيال السلطان :

تجاوز السخط على الحماية الى السخط على السلطان حسين الذى قبل هذا النظام وباركه وتولى سلطاته فى ظل الحماية الأجنبية وكان من مظاهر هذا السخط الاعتداء عليه مرتين ، الأولى بالقاهرة يوم الخميس ٨ ابريل سنة ١٩١٥ ، اذا أطلق عليه شاب مصرى يدعى محمد خليل تاجر خردوات من المنصورة عيارا ناريا حين مرور موكبه بشارع عابدين، فأخطأه وأصاب العربة التى كانت تقله وتم القبض على التاجر وحكم عليه من قبل مجلس عسكرى بريطانى بالاعدام شنقا ، ونفذ الحكم فى ٢٤ابريل سنة ١٩١٥ .

وبعد مرور شهرين على هذا الحادث وقع اعتداء آخر فى يوم الجمعة ٩ يوليو ١٩١٥ بينما كان السلطان سائرا بموكبه بالاسكندرية قبل ظهر ذلك اليوم حيث ألقيت عليه قنبلة من نافذة أحد المنازل المطلة على شارع رأس التين فسقطت على ظهر جواد ثم تدحرجت ولم تنفجر وقبض على تسعة من الشباب المصرى أدانت النيابة اثنين منهم وهما : محمد نجيب الهلباوى ، ومحمد شمس الدين وحكم عليهما بالاعدام شنقا وأبدل الحكم بالأشغال الشاقة بناء على طلب من السلطان حسين(٢١) .

وفى هذا السياق وقع حادث اعتداء علي أبراهيم فتحي وزير الأوقاف وهذه الحوادث مؤشر لرفض المصريين الحماية وسخطهم علي الحكام الذين باركوها وقبلوها دون أن ينظروا الى المستقبل بصورة أفضل حيث لم يتوقعوا يوما أن هذا الشعب يمكن أن يقوم بثورة عارمة وان سكونه هو ذلك السكون الذى يسبق العاصفة ، وأن السلطان وحكومته كانوا لا يقدرون استعداد الشعب المصرى للتضحية فى سبيل حريته

وكرامته(٢٢) وهل غاب عن أذهانهم ما سوف تنزله بريطانيا بمصر فى أثناء الحرب ؟ هذا ما سوف تكشف عنه الصفحات التالية .

ما أنزله البريطانيون بمصر خلال الحرب العالمية الأولى :

فى تقرير اللواء ملنر الذى رأس اللجنة البريطانية المعروفة باسمه والتى أوفدتها الحكومة البريطانية الى مصر بعد اشتعال ثورة ١٩١٩ وفى كتاب الأستاذ عبد الرحمن الرافعى (ثورة ١٩١٩) وغير ذلك مما كتبه المؤرخون المصريون والغربيون تفصيل لما أحدثه البريطانيون فى مصر خلال تلك السنوات التى شهدت الحرب العالمية الأولى وحديث المؤرخين يؤكد ما أصاب الشعب المصرى فى أرزاقه وأمواله(٢٣) :

استيلاء على المحصولات والدواب ، تسخير العمال فى الأشغال والحركات العسكرية ، استخدام المرافق العامة كالسكك الحديدية واستعمالها لدرجة العطل ، تحويل مبانى المدارس الى مستشفيات ، الخسارة الفادحة التى نزلت بالمزارعين بسبب التحكم فى أسعار أقطانهم ، ومزاحمة الأهلين فى غذائهم ونترك للأستاذ الرافعى تفصيل بعض هذه الأمور فقد كتب تحت عنوان حشد السلطة العسكرية للعمال وجمع الدواب والمؤن ، « أخذت السلطة العسكرية منذ بداية الحرب تجمع ما تستطيع من العمال والفلاحين بطريق الاكراه لارسالهم الى مختلف النواحى فى شبه جزيرة سيناء أو فى العراق وفلسطين والدردنيل وفرنسا للعمل فى ما تحتاجه اليه الجيوش .

وكان ظاهر الدعوة جمع هؤلاء العمال بطريق الاختيار والتطوع . ولذلك سموا « متطوعين » ولكن الحقيقة أنهم كانوا مكرهين ، يؤخذون بطريق التجنيد ، ووضعت الحكومة المصرية سلطتها وموظفيها رهن أوامر السلطة العسكرية البريطانية ، فكان الحكام الاداريون ، من المديرين الى عمد البلاد وخفرائها يقومون بعملية جمع الرجال قسرا وتجنيدهم فى هذه

الأعمال ،واغتنم كثير من العمد هذه الفرصة لسوق خصومهم الى هذا التجنيد الذى كان بمثابة النفى والاستهداف للأخطار ، وكان كثير منهم أيضا يتخذون الدعوة الى هذا « التطوع » وسيلة للرشوة يبتزونها من الأهليين لاعفائهم من هذا التجنيد واشترك فى الرشوة مع الأسف كثير من الحكام الاداريين • وبلغ عدد العمال والفلاحين والهجانة المصريين الذين أخذوا من مصر بهذه الوسيلة حتى نهاية تلك الحرب نيفا ومليون عامل (١ر١٧٠ر٠٠٠ سمو فرقة العمال والجمالة) ، وقد أوجب استيفاء هذا الجيش بهذا العدد استخدام نحو مليون رجل ، مات كثير منهم ، وكانوا عونا كبيرا لانجلترا فى ادراكها النصر •

« واستولت السلطة العسكرية على الدواب اللازمة لها ، فلم تبق على جمل أو حمار صالح للعمل الا استولت عليه بأبخس الأثمان ، وكذلك فعلت فيما الزمها من الحبوب والمؤن وعلف المواشى ، فانها أخذت ما أرادت منها بأسعار بخسة ، حتى لم يجد الناس ما يلزمهم لقوتهم الضرورى وعلف مواشيهم ، وكذلك استولت على معظم الأشجار الخشبية لتنتفع بأخشابها •

« هذا الى أن مصر قد اضطرت الى انقاص مساحة الأراضى المنزرعة قطنا لزيادة مساحة الأراضى المنتجة للحبوب ، وذلك لتموين الجيوش المتدفقة على مصر أو فى ميادين القتال وجملة القول أن جميع موارد مصر من الرجال والمهمات والمؤن والمواشى والحاصلات الزراعية والصناعية ، كانت تحت تصرف السلطة العسكرية البريطانية ، وصارت الحكومة بجميع فروعها تعمل بلا انقطاع لتقديم كل المساعدات اللازمة للجيوش البريطانية حتى ان بعض المصالح خصصت نفسها لهذا العمل مهملة شؤون وظيفتها الأصلية وأرهقت السكك الحديدية بحركات النقل الحربى وتلف بذلك عدد كبير من القاطرات والعربات والمهمات(٢٤) •

جمع الرديف :

« لم تكتف السلطة العسكرية بجمع العمال والمؤن والدواب ، بل طلبت الرديف من الجيش المصرى لتستخدمه فى الأعمال الحربية وذلك على أثر هزيمة قوات الحلفاء فى الدردنيل ، ففى ٢٠ يناير سنة ١٩١٦ أصدر اسماعيل سرى باشا وزير الحربية بناء على ترخيص مجلس الوزراء بطلب جميع الرجال الموجودين بالرديف للخدمة العسكرية ما عدا المستخدمين منهم بمصالح الحكومة ، وظاهر من مذكرة وزير الحربية الى مجلس الوزراء بشأن هذا القرار أن الباعث له هو الاستجابة لطلب قائد الجيش البريطانى بمصر ، « اذ كان هذا الجيش يعمل فى تنظيم فروع للتشهيلات اللازمة للدفاع عن قنال السويس ،وأن تنظيم هذه التشهيلات تجعله فى حاجة الى طائفة من العمال المتعودين على النظام العسكرى كالذين يمكن الحصول عليهم من أفراد رديف الجيش » وبلغ عدد من جمعوا من الرديف تنفيذا لهذا الاقرار ١٢٫٠٠٠ مجند »(٢٥) .

اعتداء الجنود الأجانب على المصريين :

تدفقت على مصر قوات عسكرية من مختلف الأجناس والألوان والمذاهب وأكثرهم من اليسوقة فى بلادهم ثم سوقهم الى مصر للقتال فى صفوف البريطانيين .ولقد وقعت من هؤلاء الجنود ولا سيما الاستراليين منهم اعتداءات وفظائع وأمور غير عادية ارتكبت فى أحياء القاهرة على سبيل المثال هذه الحادثة .

حيث اتفق جماعة من هؤلاء الجنود على الدخول الى بيت من بيوت البغاء فى وضح النهار ، ولم يلبث المارة والجالسون أن رأوا النساء يلقى بهم من نوافذ أعلى طابق من ذلك البيت الى الشارع وبعد قليل من الوقت أشعل هؤلاء الجنود النار فى البيت بمن فيه (٢٦) .

كان هؤلاء الجنود يعاملون المصريين بغلظة واحتقار كلما أنهم كانوا يكثرون من التعدى على الباعة ويأخذون بضائعهم غصبا بلا ثمن .

ويكفى شهادة بريطانية هى « دور هارم » التى كانت من المتطوعات للعمل فى ميادين القتال ابان الحرب وكانت بمصر من نوفمبر سنة ١٩١٥ الى ابريل سنة ١٩١٦

« .. لا جدال فى أن السلطات المسئولة ملومة كل اللوم فى ارسال جنود من جنود المستعمرات الى مصر دون أن يبينوا لهم الطرق التى يجب أن يعاملوا بها الأهالى . فان الكثير من هؤلاء كان جاهلا جهلا فاضحا لدرجة أنهم كانوا يتصورون أن مصر بلد انجليزيا » .

ولقد عاملوا الأهالى بقسوة واحتقار . فلقد رأيت فى الكنتين الذى كنت أشتغل فيه خادما مصريا من خيرة الخدم انهال عليه جندى بالضرب بقدمه لشىء تافه وهو أنه لم يفهم أمرا أصدره اليه . ولقد ضرب أحد الجنود رجلا متعلما مهذبا من المصريين وسلب منه عصاه الغالية الثمن بلا أدنى سبب ولقد صرح لى كثير من الجالية البريطانية أنه يجب أن تمر سنوات عدة لنستطيع محو الأثر السىء لما اقترنه الجيش من الرذائل فى هذه البلاد .

وتمضى هذه البريطانية فى مقالها المنشور بجريدة الديلى نيوز بتاريخ ٢ ابريل ١٩١٩ قائلة « ولقد روى لى - ولست أدرى مبلغ هذه الرواية من الصحة - أن بعض الجنود السكارى نزعوا البراقع عن وجوه بعض السيدات المسلمات ... الخ فلا عجب اذا كان المصريون يخافوننا ويحقدون علينا » (٢٧) .

هذا قليل من كثير فكم أهانوا من المصريين ، وكم سلبوا الناس

ما فى جيوبهم وبيوتهم بحجة التفتيش عن أوراق مشـــتبه فيها ، وكم أحرجوا نساءا مخدرات وكم وكم مما لا يدخل تحت حصر .

وهكذا يتضح لنا ما فعله الأجانب بمصر فى أثناء الحرب ، يضاف الى هذا الجراح التى أصـــابت الناس فى عزتهم وكرامتهم وأمنهم رأى المصرى نفســـه غريبا فى بلاده ، ورأى هـذه البلاد تتحول الى معســـكر هائل تحشد فيه أخلاط الناس من احمر وأصفر وأبيض ورأى نفســـه وما يملك مســـخرا لخدمة هذا المعســـكر ، ورأى أن بلاده قد أصـــبحت قاعدة الغـزو والتســلط تحركت منها حملة غاليبولى لاقتحـام مضـيق الدردنيـل والاســتيلاء على القـاعدة الاســلامية الـكبرى ، اســلامبول وتحركت منها حملات أقلام المخابرات والدعاة لاثارة العرب على دولتهم الاسلامية الكبرى ، وتحركت منها بعد ذلك الحملات نحو فلسطين والشام شرقا ونحو ليبيا غربا . وانطوى المصريون على أحزانهم وآلامهم ، فالرقابة على النشر شديدة ، اختفت فى ظلها الصحافة الوطنية صحيفة بعد صحيفة وحظر الاجتماعات قائم والاعتقالات والنفى والتشريد تقع بمجرد الشبهة أو الوشاية وسماسرة الاحتلال القدماء ومأجوروه من الآفاقين يمنون على الشـــعب المصرى ما ينفقـــه عســـاكر الامبراطورية فى مواخـير الدعـارة والخمامير (٢٨) .

ويســـتطيع المراقب لتطورات الأمور فى مصر فى ذلك الوقت ان يلاحظ كثيرا من الامارات التى تدل على ضيق المصريين بالانجليز ضـــيقا يوشك على الانفجار وينبىء عن استعدادهم للثورة الشعبية اذا وجدت الزعيم الذى يقود ويخطط ويوجه .

وقد كان معظـم الضـيق يعود الى أن اعلان الحمـاية وما تلاها من تطورات أدت الى وضع شعب مسلم تحت سيطرة دولة مســـيحية وقد تجاوز سخط المصريين الانجليز الى السلطان حسين لاستمداده ولايته من

دولة مسيحية بعد أن كان يستمدها من الخليفة المسلم فى استانبول ، ولقبوله منصب السلطنة بخطاب من القائم بالأعمال البريطانى بعد أن كان ولاة مصر يرتقون العرش بفرمان سلطانى يحمله مندوب خاص من عاصمة الخلافة وعبر المصريون عن هذا السخط - كما ذكرنا - باضراب طلاب مدرسة الحقوق ومحاولات الاعتداء على السلطان حسين كامل وبعض وزرائه كما أن منشورات تهدد السلطان قد وجدت طريقها الى قصر عابدين الذى حاول البعض احراقه انتقاما من قبول الحكومة المصرية للحماية . ومنها أن بعض قبائل العربان قد رفضوا أن يقسموا يمين الطاعة للانجليز ، وأن بعض الضباط والجنود المصريين فى الاسماعيلية رفضوا اطلاق النار على اخوانهم الأتراك (٢٩) .

كان المصريون يعبرون عن شعورهم الاسلامى واستجابتهم لدعوة الخليفة الى الجهاد كلما سمحت الظروف بذلك فقد قام جماعة من علماء الأزهر بحركة ضد الاحتلال لتأييد عباس الأول فى أوائل سنوات الحرب ، ثم نصحهم رشدى باشا بالخلود الى السكينة . وهتف بعض طلاب الأزهر للخديو عباس حلمى الثانى حين شاهدوا أخاه محمد على يؤدى صلاة الجمعة فى الأزهر الشريف . وتكونت فى مصر جماعات سرية فى سنة ١٩١٨ تهدف الى الاتصال بالسنوسيين للهجوم على الانجليز فى مصر ، وكانت المنشورات التى تلقيها الطائرات التركية والألمانية تغذى هذا الشعور وتثير فى المصريين الحمية وتذكرهم بعدوان الانجليز عليهم وعلى اخوانهم المسلمين (٣٠) .

مساوىء الحكومة المصرية برئاسة رشدى باشا :

كان رشدى باشا رئيس وزراء مصر فى ذلك الوقت غير مقدر للمسئولية حيث قبل الحكم فى ظل الحماية دون أن يحصل على ضمانات كافية تضمن لمصر حقوقها فى المستقبل (٣١) .

وعلى الرغم من أن رشدى كان يرى فى هذا التعاون ما يكسر من حدة الموقف ويخفف من غطرسة العسكريين البريطانيين وجنوحهم الى استخدام وسائل العنف الا أنه من المؤكد أن الحكومة البريطانية استغلت ضعف رشدى طوال مدة الحرب حتى نالت منه ومن مصر ما لم يخطر لها على بال ، فوثقت به واطمأنت اليه واعتمدت عليه فى تنفيذ سياستها .

وقد بلغ من تفانى رشدى وحكومته فى خدمة الاحتلال أنه ارتكب الأعمال الآتية نسوقها على سبيل المثال لا الحصر :

١ - نشرت الحكومة فى ١٥ نوفمبر ١٩١٥ بلاغا تعلن فيه تداخلها فى شراء الحبوب والدريس للجيش البريطانى بمصر واعتراف منها بتقديم كل ما استطاعت من المساعدات للجيش البريطانى فى مصر .

٢ - التبرع لجمعية الصليب الأحمر وفرسان القديس يوحنا البريطانية حيث أذاع القائد العام للجيوش البريطانية فى مصر اعلانا يدعو فيه الناس للتبرع لجمعية الصليب الأحمر وفرسان القديس يوحنا فى ٣٠ أكتوبر ١٩١٥ وبعدها بدأت الحكومة المصرية تقيم الحفلات فى المدن تحت رياسة المديرين والمحافظين والمأمورين وتسابق المنافقون - بايعاز من الحكومة - الى التبرع لهذه الجمعية حتى كانت مصر ثانية الدول فى قيمة ما تم التبرع به .

وقد بلغت جملة التبرعات ١١٥٣٤ جنيها والناس - كما لايخفى - من سوء الحال وضيق العيش .

٣ - فى ٢٠ أكتوبر سنة ١٩١٧ استصدرت الحكومة مرسوما بامضاء السلطان فؤاد - الذى قررت بريطانيا تعيينه بعد وفاة حسين كامل - دعا فيه الناس الى التطوع فى خدمة السلطات العسكرية البريطانية وعرض عليهم امتيازات تحثهم على هذا التطوع وعلى أثر ذلك

زادت حركة مصادرة الابل والدواب على اختلاف أنواعها فى جميع القرى والمراكز .

٤ — فى ٩ مارس سنة ١٩١٨ جمع رشدى مجلس وزراته واستصدر قرارا غريبا وعجيبا يقضى بأن تقدم حكومة مصر منحة قدرها ثلاثة ملايين ونصف المليون جنيه الى الحكومة البريطانية والأغرب من ذلك التفسير الذى ساقه لتبريرها حيث جاء فى القرار « أن المنحة اعتراف بالجميل لبريطانيا العظمى التى حمت البلاد من خطر الغارات » (٣٢) .

ويعنى هذا ببساطة شديدة أن الحماية التى أذلت البلاد هى نعمة وبركة فى نظره وأنها لمصيبة كبرى أن يكون الانسان مظلوما مغلوبا على أمره ولا يعرف ظالمه وآثامه ثم هو بعد ذلك يثنى عليه ويظهر له الحب والاعجاب وتغدق عليه مكافأة على تصرفاته الجائرة .

ولو أن رئيسا للوزراء أقوى وأخلص من رشدى فى مكانه لعمد الى المساومة ولكنه لم يشترط شرطا واحدا وساءت العاقبة بمصر من جراء هذا الاهمال(٣٣) .

وفاة السلطان حسين كامل :

فى أوائل شهر أكتوبر سنة ١٩١٧ اشتد المرض بالسلطان حسين فلقى ربه فى التاسع من أكتوبر عام ١٩١٧ وقد كانت وفاته مناسبة لهذا الشعب لاظهار عنصره الأصيل وغريزته التى لا تخطىء والتى أحست أن السلطان فى آخريات أيامه بدأ يبحث عن مصالح الأمة وحريتها حيث كلف رئيس وزرائه أن يشرع فى مساءلة الانجليز ما الذى سيفعلونه من أجل مصر وتطورها بعد هذه التضحيات التى قدمتها ، ولكن المنية عاجلته قبل الشروع فى هذا الاجراء .

وعرض منصب السلطنة على ابنه كمال الدين حسين ولكنه رفضها باصرار وقد سجل رفضه فى خطاب أرسله الى والده يوم ٨ أكتوبر أى قبل يوم واحد من وفاته وجاء فيه :

« يا صاحب العظمة السلطانية :

ذكرتمونى عظمتكم بما اتفقتم عليه مع الحكومة البريطانية الحامية وفى ارتقاء عظمتكم عرش السلطنة المصرية من تأجيل وضع نظام وراثة العرش ... وانى لاذكر لعظمتكم هذه المنة الكبرى لما فى هذه الرغبة من التشريف لى على أنى مع اخلاصى التام لشخصكم الكريم وحلمكم الجليل مقتنع كل الاقتنـــاع بأن بقائى على حالتى الآن يمكننى من خدمة بلادى بأكثر مما يمكن أن أخدمها به فى حالة أخرى .

« لذلك أرجو من حسن تعطفاتكم أن تأذنوا لى أن أتنازل عن كل حق أو صفة أو دعوة كان من الممكن لى أن أتمسك به فى عرش السلطنة المصرية بصفتى ابنكم الوحيد ... » .

وفى نفس يوم وفاة حسين كامل كانت بريطانيا قد أعلنت اتفاقها مع أحمد فؤاد ليصبح سلطانا على مصر (٣٤) .

مصر فى أخريات سنوات الحرب :

بحلول عام ١٩١٨ كان قد مضى على الحرب العالمية الأولى قرابة أربعة أعوام وكانت الدول المتحاربة قد وصلت الى درجة من اليأس فى الحصول على انتصار من أى نوع كان ولم تعد الحرب تعنى بالنسبة للشعوب الا الخراب والتـدمير ومقتل الملايين من بنى البشر ، وقتـل الجـوع مئـات الآلاف وكان المـألوف رؤية البعض يبحثون فى مسـتودعات القمامة عن فضـلات يقتاتون بهـا . وقد اعتـاد النـاس هـذه الويلات من كثرة معايشتهم لها .

واذا كانت روسيا بعد الانقلاب الشيوعي قد انسحبت من الحرب فان الولايات المتحدة قد دخلت بنشاط جديد مما عجل بنهاية الحرب وكانت مبادىء ويلسون الأربعة عشر ومنها حق تقرير المصير ، وعدم حصول المنتصر على أراضى جديدة وحرية البحار وحرية التجارة وغير ذلك من المبادىء وقد أعلن الرئيس الأمريكى فى ٨ يناير ١٩١٨ أن الولايات المتحدة قد دخلت الحرب لتحقيق المبادىء التى أعلنهـا ومنهـا « وجوب انشاء جمعية أمم بوضع الكفالات لضمان الاستقلال السياسى وسـلامة الأملاك لجميع البلدان كبيرها وصغيرها » .

أما فى مصر فباستثناء حالة الغلاء التى لم يألفها المصريون والتى كانت مثار الشكوى بطبيعة الحال كانت النفوس مهيأة للحصـول على الاستقلال لاسيما ومبادىء الرئيس ويلسون قد بدأت تعطى المصريين آملا فى تقرير مصيرهم وانتهاء سنوات الاحتلال بكل مرارتها وقسوتها ، ولكن بدأت بريطانيا تكشف عن نواياها الحقيقية بعزمها على تنظيم الحمـاية لا الغائها فأوعزت الى مجلس الوزراء المصرى بتشكيل لجنة لوضع التعديلات التى يستدعى ادخالها فى القوانين والنظم القضائية والادارية ماكان محتملا من زوال الامتيازات الأجنبية فى ظل الحماية البريطانية ، وقد سميت لجنة الامتيازات الأجنبية وكان الســير وليم برونيت ، المستشار المالى بالنيابة العنصر الفعال فى اللجنة .

وضعت اللجنة عدة مشروعات قوانين : قانون العقوبات ، قانون تحقيق الجنايات ، قانون المرافعات ، وبعض فصول من القانون المدنى التجارى .

وضــع برونيت كذلك مشروع قانون نظامى لمصر (أى دستور ؟ ويتلخص فى انشـاء مجلس نواب مصرى ، مؤلف من المصريين ، ولـكنه استشارى محض وبجانبه مجلس شيوخ ، يملك وحده السلطة التشريعية

ويؤلف من أعضاء رسميين وهم الوزراء المصريون والمستشارون الانجليز، ثم من أعضاء منتخبين ، منهم ثلاثون مصريا ، وخمسة عشر أجنبيا (٣٥)

وما كاد هذا المشروع يذاع فى أواسط نوفمبر سنة ١٩١٨ حتى تم السخط على السياسة البريطانية وعلى النيات التى كانت تضمرها للمصريين .

وعاد الوجوم يسيطر على المصريين ومعظمهم ما بين حانق وغاضب وساخط وبائس ويائس ، ولم تعد الثورة فى حاجة لكى تخرج من الكبت والكتمان الى الانفجار وكانت الشرارة بقاء الأحكام العرفية ، ومشروع برونيت ، ورفض بريطانيا التصريح باستقلال مصر ، ثم كان اعتقال سعد وصحبه لتبدأ مرحلة جديدة فى تاريخ مصر المعاصر تمخضت عنها أحداث الحرب العالمية الأولى (٣٦) .

السودان فى الحرب العالمية الأولى :

كان السودان منذ توقيع اتفاقية الحكم الثنائى عام ١٨٩٩ يخضع لنظام حكم يعتبر فريدا من نوعه ، حيث كان السودان شكلا يخضع للحكم المصرى البريطانى وعمليا مصر والسودان تحت السيطرة الفعلية لقوات الاحتلال البريطانية ، كما أن الجيش المصرى الذى أشرفت بريطانيا على تدريبه بعد الاحتلال كان مسئولا عن الدفاع عن السودان وقد عسكرت منه قوة كافية لحفظ الأمن والدفاع بالسودان .

وكان سردار الجيش المصرى هو الحاكم العام للسودان فى ذات الوقت وقد عين كتشنر أول حاكم عام للسودان وقد اختاره كرومر لأنه قائد حملة الاسترجاع ولثقته التامة فى أنه سيكون أفضل منفذ لنظامه فى حكم السودان ، كما أن كتشنر عرف السودان وخبر أحواله عندما كان ضابط اتصال بين غوردون وحملة الانقاذ ، وعندما كان محافظا لسواكن .

ولعب أثناء تجهيز الحملة المذكورة دورا كبيرا فى ادارة الاستخبارات العسكرية المصرية ٠

وكان اختيار كرومر لكتشنر كاول حاكم عام بالسودان مؤشرا لما ستكون عليه علاقة السودان بانجلترا فى ظل الحكم الثنائى ، ولذلك بادر كرومر عند تعيينه الى تسليمه تعليمات عليه اتباعها فى ادارة السودان وتدل هذه التعليمات على أن أمور السودان الهامة تتقرر فى لندن حيث كان كرومر ينفذ سياسة وزارة الخارجية البريطانية ولم يستمر كتشنر كحاكم للسودان فترة طويلة ، فقد احتاجت بريطانيا لخبرته فى حروبها ضد البوير فى جنوب أفريقيا فغادر السودان الى هذه البلاد فى بداية عام ١٩٠٠ ليخلفه وينجت الذى ظل يتولى ادارة السودان لمدة سبعة عشر عاما من سنة ١٩٠٠ الى ١٩١٦ ، ولذا يرجع اليه أمر وضع القواعد والأسس التى جرت عليها سياسة بريطانيا فى ادارة السودان ٠

وعندما حاول السير ريجنالد وينجت الذى خلف كتشنر فى أخريات عام ١٨٩٩ اتخاذ سياسة مستقلة فى ادارة السودان واصدار القرارات أنبه كرومر بنوع من الحدة لعدم اتباع تعليماته وقد رد وينجت على هذا التنبيه باعتذار شديد ووعد بعدم الخروج على هذه القاعدة فى المستقبل (٣٧) ٠

وعلى الرغم من محاولات ، وينجت : استرضاء كرومر بتنفيذ التعليمات الصادرة منه الا أنه كان يتصرف فى ادارة السودان بسلطات واسعة كحاكم مقاطعة منحتها اياه السلطة المركزية مما جعل كرومر يبعث لوزير الخارجية البريطانية عندما هم بمغادرة مصر عام ١٩٠٧ بصفة نهائية أشار بأنه لاحظ على وينجت نزعة استقلالية لحكم السودان ، ولم يتفهم المبادىء الرئيسية التى توجه سياسته ويجهل المسائل المالية كجهل الأطفال ٠

ويلاحظ خلال فترة الادارة البريطانية فى عهد وينجت تزايد النشاط التنصيرى فى السودان بصورة كبيرة فتوافدت على جنوب السودان البعثات الكاثوليكية والبرتستانتية التى تتبع النمسا والولايات المتحدة وبريطانيا تلك البعثات التى استخدمت وسائل متعددة لممارسة نشاطها الهدام كبناء الكنائس وتقديم الخدمات الطبية والتعليمية بهدف تحويل سكان جنوب السودان أو ادخالهم فى النصرانية (٣٨) .

وقد امتد هذا النشاط التنصيرى الى شمال السودان كذلك مما جعل الزعيم مصطفى كامل يشن حملة كبيرة فى جريدة اللواء على سياسة بريطانيا فى السودان ويركز على « النشاط التبشيرى » فى الجنوب واخطار هذا النشاط ، كما أن أحد أعضاء مجلس العموم البريطانى شن حملة على هذه السياسة وقدم استجوابا الى السير ادوارد جراى عام ١٩٠٧ مطالبا الحكومة بالامتناع عن تشجيع البعثات التنصيرية فى الجنوب حتى لا يؤدى الى انقسام شعب السودان الى قسمين متناقضين وحتى يمكن تجنيب هذا الشعب مخاطر الانقسام والصدام الدموى المرتقب وقد وعدت الحكومة بدراسة الموقف ولكنها مع ذلك لم تحرك ساكنا وظل هذا النشاط يتزايد حتى تحقق فى أيامنا هذه ما حذر منه مصطفى كامل وكذلك المستر « روبرتسون » عضو مجلس العموم حينذاك .

وما محاولات الانفصال التى يقوم بها المتمردون فى جنوب السودان الا نتيجة طبيعية لهذا النشاط المكثف لبعثات التنصير فى السودان (٣٩)

ثورات السودانيين ضد الاحتلال :

لم يمض أكثر من عام واحد على اعلان الحكم الثنائى حتى ظهر تذمر الضباط والجنود السودانيين فى الفرق المشكلة بالسودان تحت قيادة ضباط بريطانيين وتأثير ضباط مصريين ، بسبب ما قام به الجنرال « ماكسويل » قائد القوة المعسكرة فى الخرطوم فى يناير ١٩٠٠ من جمع الذخيرة التى فى أيدى الجنود ، فوجد من الضباط المتحمسين من حفز الجند على العصيان والامتناع عن تسليم الذخيرة .. وامتنعت الأورطة الرابعة عشرة عن تنفيذ الأوامر الصادرة اليها واستولت على كل الذخيرة وفقد الضباط الانجليز كل سيطرة عليهم وقد استمرت ثورة هؤلاء الجند حتى مجىء وينجت الذى استطاع بعد الاستعانة ببعض الضباط السودانيين من تهدئة الموقف بعد وعده للجنود الثائرين بالعفو عنهم .

وقد عوقب سبعة من الضباط السودانيين بالفصل من الخدمة وعلى آخرين بالتوبيخ وعلى عدد من الضباط المصريين بعقوبات مختلفة لدورهم فى تحريض هؤلاء الجند .

وعلى الرغم من أن حكومة السودان ظلت فترة طويلة توجس خيفة من كافة التجمعات أو الحركات الدينية . اذا كان الخوف يساورها من معاودة تجدد حركة الدراويش أو حركات مماثلة فقد ظهر أن بيئة السودان صالحة لأن تفرخ فيها مثل هذه الثورات ، وقد ظهرت بالفعل حركات محلية لكنها أخمدت فى مهدها لعل من أهمها :

١ ـ حركة على عبد الكريم عام ١٩٠٠ والتى قامت فى أم درمان متأثرة الى حد كبير بالمهدية حتى ان قائد هذه الحركة كان من اقارب المهدى ومن القائلين بأن روح المهدية لم تمت بموت صاحبها أو خليفته . وكانت تنادى بآراء غريبة عن قرب ظهور نبى الله عيسى عليه السلام وقد

استصدرت الحكومة قرارا من هيئة كبار العلماء باعتبار هؤلاء خطرا على العقيدة الاسلامية وقبض عليه وعلى أتباعه لتنتهى تلك الحركة فى مرحلة مبكرة والا لو تركت فترة قصيرة لاتسع مداها واستفحل خطرها(٤٠) .

٢ - حركة الشريف محمد الأمين البرناوى (١٩٠٣) الذى رحل الى مكة وعاد منها يحمل وثيقة تثبت انتسابه لآل البيت واستقر بجبال تقلى بشرق كردفان وأعلن نفسه مهديا فى ابريل ١٩٠٣ وانضمت له قبائل الحوازمة والمسيرية . وكانت محاولته عظيمة الخطر حيث ازداد أتباعه بصورة كبيرة لكن الحكومة جردت عليه حملة عاجلة قادها الكولونيل « ماهون » مدير كردفان الذى داهم مقر الحركة وقبض على كثيرين منهم محمد الأمين الذى أعدم شنقا بعد محاكمة عسكرية عاجلة فى ٢٣ مارس ١٩٠٣ وقد قامت ثورات مماثلة فى سنجه ، وتالودى ، والقضارف ، ومدنى قضى عليها بنفس السرعة(٤١) .

حركة عبد القادر ود حبوبه (١٩٠٨) :

قامت هذه الثورة فى الجزيرة وزعيمها من الأنصار من قبيلة الحلاوين فى المسلمية وكان من المشتركين فى جيوش النجوى فى معركة توشكى ومن أكثر المتحمسين للمهدية وقد جمع حوله عددا كبيرا من أتباعه وبعد أن شعرت الحكومة بخطورته لاسيما بعد مقتل أحد البريطانيين (سكوت) والمصريين « اليوزباشى محمد شريف » على يديه أرسلت قوة كبيرة نجحت فى القبض عليه وحوكم مع بعض أتباعه أمام محكمة رأسها ضابط بريطانى وقد حكمت عليه بالاعدام ومصادرة ممتلكاته ، كما حكم على ١٢ رجلا من أصحابه بالاعدام كذلك ونفذ الحكم فى سوق الحلاويين أمام الأهالى مما جعل صحيفة اللواء تصف المحاكمة وما شابها على أنها دنشواى أخرى فى السودان(٤٢) .

قيام الحرب العالمية الأولى وأثره :

بعد اعلان الحكومة البريطانية فى ١٨ ديسمبر ١٩١٤ وضع مصر تحت (الحماية البريطانية) واتخاذ العديد من الاجراءات التى سبق الحديث عنها من اعلان الأحكام العرفية واعتقال كثير من الوطنيين وتعطيل الصحف وغير ذلك من الاجراءات خشيت السلطات البريطانية أن تؤثر هذه الأحداث والاجراءات التى اتخذتها على السودان خاصة للرابطة الدينية التى تربطه بالعمثانية ، وما كان للسلطان من مكانة باعتباره خليفة المسلمين ٠

ولذلك قام حاكم السودان العام بالطواف فى الأقاليم السودانية يكاتب زعماء القبائل والشخصيات الدينية يدعوهم لتأييد السياسة البريطانية ويوضح بطلان دعوة الألمان والعثمانيين للجهاد وأن العثمانيين لم يدخلوا الحرب دفاعا عن الاسلام ولا غيرة على الدين ، وانما تبعية للألمان كما يؤكد على احترام بريطانيا للاسلام والمسلمين ويناشد السودانيين تأييد بريطانيا وحليفاتها(٤٣) ٠

ومن ناحية أخرى عقد « وينجت » اجتماعا عاما دعا اليه أعيان السودان والعلماء وذوى النفوذ والهيبة وتحدث طويلا عن دخول بريطانيا الحرب « دفاعا عن الأمم الضعيفة » وكرر ما سبق فى لقائه بزعماء القبائل من أن تركيا لا تدافع عن الاسلام وانما تنساق الى جانب الألمان لتحقيق أهداف استعمارية ٠

وقد أصدر وينجت عدة أوامر لمراقبة رعايا الدول الأجنبية التى أعلنت بريطانيا الحرب ضدها وحذر السودانيين من التعامل معهم وفى ١٤ نوفمبر ١٩١٤ أصدر وينجت منشورا باعلان الأحكام العرفية فى السودان(٤٤) ٠

وكما حدث فى مصر حدث كذلك فى السودان أجبرت السلطات العسكرية السودانيين على الاسهام بنصيب كبير فى الحرب سواء فى تموين جيوش انجلترا وحلفائها المرابطة فى مصر أو الشام وسد حاجة هذه القوات من الماشية والأغنام والحاصلات السودانية أو الاسهام الفعلى فى الحرب خاصة فى الحملة السورية ٠

وحتى تضمن الحكومة البريطانية ولاء السودانيين حاولت اكتساب مشايخ الطرق لما لهم من تأثير كبير على أتباعهم وكان أول من أيدوا بريطانيا وأعلنوا فى نفس الوقت ادانتهم للحكومة العثمانية السيد على الميرغنى الذى أرسل بعد قيام الحرب الأولى برقية من كسلا حيث كان يقيم يعرب فيها عن ولائه للحكومة وقد حذا حذوه العديد من أتباعه ٠

ولم تكتف الادارة البريطانية بذلك بل حاولت استمالة السيد عبد الرحمن المهدى وسمحت له بالعودة الى جزيرة آبا التى بدأت منها الشرارة الأولى للثورة المهدية على يد والده ، ولعل بريطانيا كما يرى الدكتور شوقى الجمل أدركت أن المهدية بطبيعة الحال معادية للأتراك وأنه من الخير أن تعقد معها صلحا لتضمن ولاء المهديين وتستند عليهم فى مقاومة الدعاية التركية واعلانها الجهاد ٠

وأخذت سياسة الادارة البريطانية تتغير تجاه الأنصار فى تلك الفترة وعمدت الى تقديم التسهيلات للسيد عبد الرحمن المهدى لتنمية موارده الاقتصادية ليكون ندا ومنافسا للسيد على الميرغنى وقد جاء على لسان السيد عبد الرحمن المهدى :

« ٠٠ كانت الحكومة البريطانية ترى أن محاربة المهدى للأتراك فى الماضى تدعم قضيتها ضد تركيا فى السودان ولهذا بدأت الحكومة تلطف سياستها وتتسامح فى ذكر اسم المهدى ٠٠ » ٠

ويمضى قائلا « بالرغم من القيود على تحركاتى فان أعمالى الزراعية قد حظيت بتوسع متواصل . ومثلما كان للحرب من أثر ملموس على سياسة الحكومة نحونا فقد كان لها أثرا أيضا فى أحوال البلاد وفى أعمال الخاصة » .

وأما عن أثر هذه السياسة على المهديين فيقول عبد الرحمن :

« .. وقد كانت اليد العاملة الى تنفيذ ذلك التوسع هى يد المحبين الذين هاجروا من شتى القبائل والأقاليم خاصة من الغرب ليكونوا بصحبة ابن المهدى وقد كان قصدهم الهجرة والجهاد فى سبيل الله أسوة بما فعل آباؤهم مع الامام المهدى فوجهت روحهم الفدائية القوية نحو العمران وذلك لتقوية أمرنا فى احياء تراث المهدى ورفع شأن الدين بأسلوب يلائم ظروفنا عصرنا » .

وكان هدف انجلترا من تشجيع بعض الاتجاهات ايجاد الفرقة بين أبناء الوطن كما فعلت فى مصر حين شجعت الحزبية وذكت الخلافات والتشاحن بين الأحزاب وقد ظلت هذه السياسة متبعة فى السودان طوال سنوات الحرب وبعدها حتى حصوله على الاستقلال(٤٥) .

ثورة السلطان على دينار :

على دينار من أسرة سلاطين دار فور الذين حكموا هذه المنطقة قبل امتداد الادارة المصرية اليها فى عهد الخديو اسماعيل وقد أعلن على دينار ولاءه للمهديين لكن عبد الله التعايشى شك فى ولائه فاستدعاه الى أم درمان وبعد معركة « أم درمان » انتهز على دينار الفرصة فعاد الى دار فور فى مجموعة من رجاله حيث تغلب على منافسة « ابراهيم على » الذى يمت بصلة قرابة للأسرة المالكة فى دار فور .

وكانت هناك صعوبات أخرى واجهت على دينار فى البداية منها رفض بعض القبائل الاعتراف بزعامته ، كما أن بعض خصومه قد انتقلوا الى كردفان وصاروا يشكلون خطرا على سلطنته ، كما أن الحاكم العام البريطانى كان يرغب فى وضع على دينار تحت سيطرته واشرافه فى الوقت الذى يرغب فيه الى السلطان تدعيم سلطته واستقلاله فى دارفور ومدها لتشمل كردفان كذلك .

ونظرا للصعوبات التى واجهت الادارة البريطانية فى السودان فقد أقرت على دينار على حكم دار فور على أن يدفع مبلغا من المال قدره ٥٠٠ جنيه سنويا وأن يرفع العلمين المصرى والبريطانى على عاصمته وأن يستعين فى ادارته بالمستشارين الحكومين .

وعندما قامت الحرب العالمية الأولى وجدها على دينار فرصة سانحة للتخلص من هذه القيود فبدأ يعد العدة للثورة(٤٧) .

وقد حاولت الادارة البريطانية أن تكسب ولاءه فأرسل له الحاكم العام خطابى الولاء من السيدين على الميرغنى ويوسف الهندى بالاضافة الى رسائل من الحكومة المصرية .

كما حاولت الدولة العثمانية من جانبها ضم سلطان دارفور وأخذت تضرب على وتر الجهاد المقدس والتخلص من الاستعمار الأوروبى وقد أجاب على دينار العثمانيين وأعلن استجابته لنداء الجهاد وتوحيد صفوف المسلمين ، وأبدى استعداده للدخول فى عمليات حربية ضد البريطانيين فى السودان وطلب من العثمانيين امداده بالسلاح عبر الحدود الليبية لينهى الحكم الثنائى فى جميع أجزاء السودان(٤٨) .

ولم يكتف على دينار بذلك ولكنه أعلن عداءه للادارة البريطانيه صراحة وامتنع عن دفع الجزية السنوية وأرسل الى حاكم السودان يندد

بتهديداته له ويعلن أنه سوف يحارب أعداء الاسلام حتى يردهم على أعقابهم خاسرين ودلت تقارير المخابرات البريطانية أن على دينار قد اتصل بالسنوسية بغية الحصول على الذخائر لقواته عبر ليبيا ، كما اتصل أكثر من مرة بالعثمانيين وغيرهم لتوحيد المقاومة وبدأ يعد قواته للزحف على كردفان(٤٩) ٠

خطة بريطانيا للقضاء على الثورة :

قامت خطة بريطانيا للقضاء على ثورة على دينار قبل استفحالها وقبل أن يهاجم كردفان ورأت نظرا لظروف الحرب العالمية وعدم توفر القوات الكافية أن تؤلب عليه القبائل الأخرى وتشغله بالفتن والحروب الداخلية ، كما رسمت خطتها على أساس استخدام الأسلحة الحديثة والمتطورة مثل الطائرات والمدافع وأعدت وحدات سريعة الحركة خصيصا لهذه الحملة ٠

وبدأت السلطات البريطانية تعمل على امتداد الخط الحديدى الى الأبيض بما يقرب من قوة الحكومة من الفاشر عاصمة دار فور وكلفت القائد الانجليزى « هولبستون » بقيادة قوة كبيرة مسلحة بالمدافع الرشاشة فى عام ١٩١٦(٥٠) ٠

وفى فبراير من ذات العام كانت القوات تتأهب للزحف ٠ وعند (أم شنقة) التحمت القوات الزاحفة مع قوات على دينار وقاوم أنصار السلطان ببسالة وشجاعة لكن بأسلحة تقليدية مما جعل هذه القوات البريطانية تنجح فى حسم المعركة لصالحها وتضع نهاية الثورة اسلامية كبيرة كان من الممكن لو قدمت لها المساعدات ووصلتها الأسلحة التى وعد بها الأتراك لغيرت تاريخ السودان فى تلك الفترة ٠

وكان القضاء على ثورة على دينار بهذه السرعة من العوامل الهامة التى ساعدت على استقرار الأوضاع فى السودان الى حد كبير خلال فترة الحرب العالمية الأولى(٥١) ٠

حواشى الفصل الرابع

مصر والسـودان

(١) د. عبد الخالق لاشين : سـعد زغلول ودوره فى السـياسة المصرية ، مكتبة مدبولى ، ١٩٧٤ ص ٢٠ ـ ٢١ .

(٢) د. السعيد رزق حجاج:دراسات فى تاريخ مصر الحديث ص٦٤

(٣) محمد نجيب : ذكريات فى السياسة المصرية ص ٨ .

(٤) د. عبد العظيم رمضان : تطور الحركة الوطنية فى مصرص٥٨

(٥) عبد الرحمن الرافعى : محمد فريد ص ٤١٣ .

(٦) د. أحمـد عزت عبـد الـكريم : ٥٠ عاما على ثـورة ١٩١٩ ، الأهرام ص ٥٦ .

(٧) المصدر السابق ص ٥٧ .

(٨) د. عبد الخالق لاشين ، مرجع سابق ص ٢٢ .

(٩) أحمد شفيق : حوليات مصر السياسية ، التمهيد جـ ١ ص٥٢، كيرزى : العمليات الحربية فى مصر وفلسطين ، ترجمة محمد على فهمى وآخر ص ٩ .

(١٠) ٥٠ عاما فى ثورة ١٩١٩ ، مصدر سابق ص ٦٧ .

(١١) المرجع السابق ص ٦٨ .

(١٢) الرافعى : محمد فريد ، مرجع سابق ، ص ٤١٥ ـ ٤١٦ .

(١٣) أحمد شفيق ، مرجع سابق ص ٥٦ ـ ٥٧ .

(١٤) الرافعى : محمد فريد ، سابق ص ٤١٨ .

(١٥) د. مصـطفى النحاس جبر : سـياسة الاحتلال تجاه الحركة الوطنية ، الهيئة المصرية للكتاب ، ١٩٧٥ ، ص ٢٠٦ .

(١٦) المرجع السابق ص ٢٠٦ .

(١٧) د. محمود صالح منسى : حركة اليقظة ، مرجع سابقص٢١٢

(١٨) أحمد شفيق ، حوليات ، مرجع سابق ص ٨٦ .

(١٩) محمد على فهمى : العمليات الحربية ، سابق ص ١٥ ٠

(٢٠) د٠ عبد العظيم رمضان : مرجع سابق ص ٥٨ ٠

(٢١) الرافعى : ثورة ١٩١٩ ، ج ١ ص ٣٣ ـ ٣٤ ٠

(٢٢) محمد شفيق غربال : تاريخ المفاوضات المصرية البريطانية ج ١ ص ٤٥ ٠

(٢٣) السعيد رزق حجاج : لجنة ملنر ونفاق السياسة البريطانيه فى مصر ، ص ٦٢ ٠

(٢٤) الرافعى : ثورة ١٩ ، ج ١ ص ٤٠ ٠

(٢٥) المرجع السابق ص ٤١ ٠

(٢٦) أحمد شفيق ، مرجع سابق ص ٨٤ ٠

(٢٧) المرجع السابق ص ٨٦ ٠

(٢٨) محمد شفيق ، تاريخ المفاوضات ، مرجع سابق ص ٤٥ ـ ٤٦

(٢٩) أحمد شفيق : مذكراتى فى نصف قرن ص ٢٨ ـ ٣٠ ٠

(٣٠) المرجع السابق ص ٣٠ ٠

(٣١) د٠ عبد العزيز رفاعى : ثورة ١٩١٩ ص ٤٥ ٠

(٣٢) محمد كامل سليم ، ثورة :١٩١ كما عرفتها ، ١٩٧٤ ص ٤٢

(٣٣) المرجع السابق ، ص ٤٣ ٠

(٣٤) الرافعى : ثورة ١٩١٩ ، مرجع سابق ص ٤٥ ٠

(٣٥) د٠ السعيد رزق حجاج : تاريخ مصر ، مرجع سابق ص ٦٨ ٠

(٣٦) محمد شفيق غربال ، مرجع سابق ص ٤٧ ، محمد كامل سليم ، ج ١ مرجع سابق ص ٤٢ ٠

(٣٧) الصادق المهدى : جهاد فى سبيل الاستقلال ، بدون تاريخ ص ١٦ ـ ١٧ ٠

(٣٨) د٠ رأفت غنيمى الشيخ : مصر والسودان فى العلاقات الدولية ، ١٩٧٩ ، ٢٥٦ ٠

(٣٩) المرجع السابق ص ٢٥٧ ٠

(٤٠) د٠ شوقى الجمل : تاريخ سودان وادى النيل ، جـ ٣ الأنجلو ١٩٨٠ ، ص ٢١٤ ـ ٢١٧ ٠

(٤١) د٠ غنيمى الشيخ ، مرجع سابق ، ٣٦١ ٠

(٤٢) د٠ شوقى الجمل ، مرجع سابق ٢١٦ ٠

(٤٣) الصادق المهدى : سابق ص ١٧ ٠

(٤٤) د٠ الجمل ، مرجع سابق ٢٣١ ٠

(٤٥) الصادق المهدى : مرجع سابق ص ١٩ ٠

(٤٦) د٠ شوقى الجمل ، ص ٢٣٠ ، المهدى مرجع سابق ص ١٩ ٠

(٤٧) محمد جلال كشك : رحلة فى منابع مايو ، القاهرة ١٩٧٧. ص ١٢٨ ٠

(٤٨) المرجع السابق ص ١٢٨ المهدى ص ١٩ ٠

(٤٩) د٠ شوقى الجمل جـ ٣ مرجع سابق ص ٢٣١ ٠

(٥٠) د٠ غنيمى الشيخ ، مرجع سابق ص ٣٦٢ ٠

(٥١) المرجع السابق ص ٣٦٣ ٠

الفصل الخامس

شرقى أفريقيا فى الحرب العالمية الأولى

تأثرت شرق أفريقيا لا سيما المناطق الاسلامية منها بالحرب العالمية الأولى أكثر من أى جزء آخر من أجزاء القارة ، ولم تتجاوز مدة حكم الأوربيين للمنطقة فى ذلك الوقت خمسة وعشرين عاما ، ولذا فان الحرب اندلعت فى مرحلة حاسمة من مراحل تطور الشعوب الافريقية فى هذه المنطقة . وظلت القوات الألمانية بقيادة الجنرال يول فون لبتو فوربك تقوم بشن هجماتها داخل شرق أفريقية مدة أربع سنوات على الأقاليم المجاورة وكان الجنرال الانجليزى سمطس يطارد هذه القوات بجيشه الذى كان يتألف من وحدات عسكرية من كل جنوب أفريقية وروديسيا وأوغنده وشرق أفريقية البريطانية (كينيا) وزنجبار(١) .

ولم يقتصر الأمر على القوات المتحاربة من الجانبين والالهان الأمر ولكن أرغم كل من البريطانيين والألمان أبناء أفريقيا الشرقية على الوقوف دفاعا عن مصالح الاحتكارات الأجنبية ، فجندوا عشرات الألوف من الافريقيين وألحقوهم بجيوشهم وكتائب العمل ، مما أسفر عن مصرع عدة آلاف من أبناء البلاد .

تقرير لجنة أورمسبى جور

عانى سكان أفريقيا الشرقية الألمانية بشدة من الحرب العنيفة التى دارت رحاها فوق أراضيهم حتى أن لجنة أورمسبى ـ جور البرلمانية التى تشكلت عام ١٩٢٤ لفحص وتقصى أحوال شرق أفريقية قد كتبت تقول انه ما من منطقة فى القارة الأفريقية قد عانت من الخراب والدمار أبان الحرب العالمية الأولى مثلما عانت تنجانيقا . فقد جرت فوق معظم أراضيها معارك حربية متصلة لمدة أربع سنوات ، مما نجم عنه حدوث خسائر جسيمة فى أرواح سكانها وممتلكاتهم .

وفضلا عن ذلك فقد عانى أبناء أفريقية الشرقية خلال الحرب الأولى مزيدا من القهر السياسى والاستغلال الاقتصادى يفوق ما كانوا يعانونه قبلها • ففى محمية أفريقية الشرقية البريطانية (كينيا) مثلا عدل عام ١٩١٥ قانون أراضى التاج الصادر عام ١٩٠٢ فأصبحت مدة التأخير ٩٩٩ عاما بدلا من ٩٩ عاما ، وذلك لمن لا تزيد أراضيهم عن خمسة آلاف فدان ونص قانون عام ١٩١٥ على أن أراضى التاج سوف تضم من الآن فصاعدا المعازل الوطنية أو الافريقية ، أى المناطق المخصصة لاقامة الافريقيين • وبذا أصبح الافريقيون الذى كانوا يعيشون فى أراضى هذه المعازل مجرد مستأجرين لها ، ومن حق الحكومة أن تنقلهم من مكان الى آخر فى أى وقت تشاؤه •

كذلك أصدرت السلطات الاستعمارية سلسلة من القوانين عرفت عند الافريقيين باسم « قوانين العمل الشريرة » وبدأت هذه عام ١٩١٥ باصدار مرسوم يلزم كل أفريقى بلغ السادسة عشر من عمره بتسجيل اسمه وكان هدف هذا المرسوم فرض مزيد من الضرائب على السكان ولجأت السلطات الألمانية الى الاستيلاء على المحاصيل بالقوة من الأهالى وكذلك قطعان الماشية واستخدموا كافة أساليب القسوة والوحشية للقضاء على معارضة الأهالى •

وفى أوغندا وكينيا كونت الحكومة البريطانية الفرقة الافريقية من الحرس الملكى لكبت الحركات المعادية لها فى شرق أفريقيا ويمكن القول بصفة عامة ان الأفريقيين عانوا خلال هذه الحرب من القهر والاستغلال ما يفوق معاناتهم قبلها بمراحل •

زنجبار خلال فترة الحرب ١٩١٤ ـ ١٩١٨ :

بعد قيام الحرب العالمية الأولى وانضمام تركيا الى جانب المانيا والنمسا كان من المنتظر وقوف المسلمين فى زنجبار وغيرها من المناطق الاسلامية الأخرى الى جوار السلطان العثمانى المسلم وبخاصة أن الدولة

العثمانية أعلنت الجهاد - كما أسلفنا - لاستخدامه سلاحا ما تواجه به الدول المتحالفة ولكن فى زنجبار كان الوضع يختلف تماما فهى دولة محمية أو بمعنى أدق مستعمرة وليس لسلطانها من الأمر شىء وكانت بريطانيا تنفذ فيها - كما نفذت فى مصر - سياسة « النصائح الملزمة » ولذلك فى اليوم الثانى بعد اعلان بريطانيا الحرب على ألمانيا أعلن السلطان السيد خليفة هو الآخر الحرب على ألمانيا وأعلن أيضا أن بلاده مرتبطة ومشتركة فى مصير واحد مع بريطانيا دون تردد ·

ولم يكتف السلطان ببث الدعاية لتأييد بريطانيا فى زنجبار فقط ، بل بدأ فى ارسال منشورات الى جميع أنحاء أفريقية الشرقية ، يحض رعاياه على الولاء الكامل للتاج البريطانى ·

وفى السادس من نوفمبر ١٩١٤ عقد السيد خليفة مؤتمرا عاما لاظهار تأييده بطريقة أكثر وضوحا وألقى خطابا فى المؤتمر هذا نصه(٢):

« الحمد لله ، والصلاة والسلام على رسول الله ، أبدى لكم أيها السادة الشكر على حضوركم الى هذا المجلس ، وأجد أن ألقى اليكم كلاما وجيزا بقصد التذكار فى ثلاثة أمور ، لا يخفى عليكم ما وقع فى العالم من الفتنة التى عم شرها فى جميع العالم والموقظ لهذه الفتنة دولة ألمانيا فى أملاكها وأحكامها الشنيعة ، من الشنق وغيره من أنواع العذاب ، ومؤاخذة الرعايا بأدنى ذنب ·

فانى وكافة المسلمين بزنجبار نظهر اخلاصنا لجلالة الملك جورج الخامس والملكة كوين مارى ، صاحبا ممالك بريطانيا المتحدة وأيرلندا وما وراء البحار من الممالك الانجليزية ملك وامبراطور الهند ، الحامى للأديان (كذا) ولورثته وحلفائه وخلفائه ·

واننا نشكر الله تعالى أن عصم هذه المملكة الزنجبارية من تلك الأحكام الشنيعة ، وأنقذ أهلها من تلك العقوبات الفظيعة، بأن صارت فى حماية الدولة البريطانية العظمى ، ولم تزل فى جلب الراحة والأمان للرعايا ، وتنظيم المملكة وترقيتها ، مؤيدة للأحكام الشرعية بواسطة قضاة المسلمين فى المحاكم التى تحت ملاحظتها والعدل والانصاف فى هذه المملكة المحروسة ٠

والم تقهر أحدا من أهالى زنجبار على حمل السلاح والدخول فى الحرب فى بر افريقية ، كما فعلت ألمانيا ودولتها فى الساكنين فى ممالكها من عرب وغيرهم ، بل عادة هذه الدولة البريطانية الرفق واللين ، كما هو مشاهد وقد رضيت أن تقوم المصاعب والمتاعب ، وتبذل الأموال والأرواح لحماية هذه المملكة وانقاذ أهلها من كل ما تخشاه ٠

فنحن ندعو الله أن يديم لها نعمته ، ويؤمن البلاد والعباد بعناية الدولة البريطانية ونشكر المعتمدين فيها ، والباذلين جهدهم فى اصلاح الأمور ، ليكن معلوما لديكم أن الدولة التركية تعتبر ركنا فى العالم الاسلامى ، غير أنها قد أضاعت سياستها وحطت سيادتها بتدخلها فى حرب أوربا ، منذ جنحت الى تكثير سواد ألمانيا وساعدتها بعد أن أنذرها على ذلك أولو الأبصار والآراء الصائبة من علماء وأكابر ممالكها ، الناظرين بعين البصيرة الى عواقب الأمور وأشاروا عليها بملازمة الحياد وكذلك جميع المسلمين على اختلاف مذاهبهم فى أرض الهند ، فقد بالغوا فى نصحها بأن تلازم الحياد أو تكون مع الانجليز ، لأن أكثر المسلمين فى هذه الممالك الشرقية سيما فى الأقطار الشرقية والممالك الهندية مستظلون تحت ظل حماية الدولة البريطانية مشمولين (كذا) بعواطفهم ٠ فمعاداة الانجليز مضرة حينئذ لدولة الترك ، ويسىء ذلك أكثر المسلمين وبتقليدها هذه العداوة تسقط مرتبتها من قلوب المسلمين فياحبذا لو لازموا الحياد ٠!

وأما فى حرب ايطاليا الماضية ، فقد اظهر المسلمون فى انجلترا حماية دينية للتركيا لما تعدى عليها الطليان ، ولم يكن لهم حق ، وفعلوا ما فعلوا فى طرابلس .

أما الآن فلاحق للترك أن يتدخلوا فى هذه الحرب ولا حاجة لذلك بل الذى ينبغى له أن يكثر سوادا من كان حاميا لأكثر المسلمين ، وهم الانجليز ، و يلازم الحياد .

وهذا هو الذى يرضاه العقل والانسانية ، ما فعلوه من التهور بمساعدتهم لدولة ارتكبت الفضائح .

وحيث صممت تركيا على مساعدة ألمانيا فقد رفض الأتراك نفس العلاقات بينهم وبين المسلمين الساكنين فى الهند وفى المستعمرات البريطانية ، وهذا هو الذى يعتقده الحاضرون والغائبون فى هذا المجلس.

واننى والمسلمين وكافة رعايا زنجبار نعلن بأننا متمسكون بروابط الاتحاد مظهرون الولاء والاخلاص المخلص لجلالة الملك جورج والملكة مارى نوالى من والاه ونعادى من عاداه ، والأمل وطيد أن يكون منصورا على أعدائه ، قابضا على أزمة السيادة العمومية ، خافقا لواؤه على جميع الأقطار ، والسلام »(٣) .

وباستعراض هذا المنشور الذى ألقاه السلطان أمام حشد بين أعوانه نرى ما يتضمن من ولاء مطلق وتأييد غير محدود لبريطانيا يغنى عن أى تعليق فلو تبارى بريطانيان فى حفل خطابى لتأييد الحكومة البريطانية ومؤازرتها فى الحرب العالمية الأولى ما أظهرا بعضا من هذا الود لبريطانيا وحملا على العثمانيين والألمان بهذه الصورة التى تظهر فى خطاب السيد خليفة ، ولكن ليس هذا الأمر مستغربا فى دولة تخضع للحماية

وتأتمر بأمر المقيم العام البريطانى ، ولسنا نذهب بعيدا فقد حدث فى مصر ابان نفس الفترة ما هو أغرب من هذا من حسين رشدى حيث أعلن تبرع حكومته بثلاثة ملايين من الجنيهات للحكومة البريطانية « ردالجميلها فى الدفاع عن مصر خلال سنوات الحرب » ونسى ما قامت به سلطات الاحتلال من قهر واستعباد وسوق آلاف المصريين الى ميادين القتال للعمل فى خدمة قوات الحلفاء وغير ذلك من الاجراءات التى حدثت فى ريف مصر ومدنها مما أفاض فى الحديث عنه الكثير من المؤرخين وما سبق الحديث عنه فى الفصل السابق ·

آثار الحرب فى زنجبار :

بعد اعلان السلطان الحرب على ألمانيا ونظرا لوجود القوات البريطانية فى زنجبار والقوات الألمانية فى تنجانيقا فقد أصبحت تلك المنطقة مسرحا للعمليات الحربية طيلة أربع سنوات وقامت البوارج الألمانية بقصف زنجبار أكثر من مرة ، وهرع السلطان للاقامة فى الريف حتى تنتهى الحرب فنزح هو وعائلته الى جهة « مويرة » ·

ومن ناحية أخرى ارتفعت الأسعار في البلاد بصورة كبيرة وأجبرت السلطات البريطانية الأهالى على تقديم الحبوب والمواد الغذائية للقوات البريطانية والهندية والاسترالية المشاركة معها فى الحرب ·

وليت الأمر اقتصر على ارتفاع الأسعار فقط ولكن الأسوأ من ذلك اجراءات القهر والاستغلال التى اتخذت خلال سنوات الحرب باعتبارها اجراءات وقائية حتى تضمن لسلطات البريطانية هدوء الأهالى بعد أن تأكدت تماما من ولاء السلطان ·

وقد جندت السلطات البريطانية بضعة آلاف من الأهالى للعمل فى مؤخرة القوات البريطانية المحاربة فى شرق أفريقيا وقد لاقى الكثيرون منهم حتفهم دفاعا عن مصالح الاستعمار البريطانى(٤) ·

تنجانيقا :

حرصت ألمانيا منذ البداية على التمكين لنفسها فى تنجانيقا وقد واجهت ثورات العرب التى لم تهدأ على الرغم من استخدام القوات الألمانية لكل الوسائل الوحشية فى قمع هذه الثورات من احراق للقرى والمحاصيل وقطعان الماشية الى قتل الآلاف من السكان حتى بلغ عدد القتلى فى ثورة واحدة أكثر من ١٢٠ ألف من أهالى البلاد كما ذكرنا وفى سنوات الحرب تحولت تنجانيقا الى مسرح دارت فوقه الصدامات الوحشية الاستعمارية وحاصر الأسطول الانجليزى سواحل شرق أفريقيا ، وعانى السكان الأمرين من جراء الحرب حيث ارتفعت الأسعار ولحقت بهم الخسائر الفادحة ويكفى أن المعارك الحربية التى دارت فوق أراضى تنجانيقا استمرت متصلة لأربع سنوات كانت لها نتائج مدمرة .

وكما فعلت بريطانيا فى زنجبار حدث نفس الشىء فى تنجانيقا من جانب الألمان وذلك بتجنيد أعداد كبيرة للعمل مع القوات المحاربة .

خالد بن برغش ومساندته لألمانيا :

اذا كان السيد خليفة فى زنجبار قد دعا العرب والافريقيين لمساندة الحكومة البريطانية فان الأمير خالد بن برغش الذى لجأ الى ألمانيا بعد فشل ثورته فى زنجبار طالب هو الآخر العرب معاهدة ألمانيا فى الحرب ضد انجلترا والدول المتحالفة معها . وقد اشترك بالفعل أعداد من العرب فى الحرب وأبلوا بلاء حسنا وشهد الألمان ببطولتهم الفائقة ومن الأسماء التى تحدثوا عنها باستفاضة مساعد بن مسعود وعلى بن مرشد البحرى.

وهناك أعداد أخرى من أهالى تنجانيقا جندوا فى جيش ألمانيا الذى كان يحارب فى الميادين الأخرى(٥) .

واذا كان اشتراك المسلمين بهذه الصورة فى جيوش الدول الأخرى فى حرب استعمارية كان الغرم فيها على العالم الاسلامى أكثر من اى منطقة أخرى ، كما أن هناك مئات الألوف من الضحايا من بينهم لكن كثير من الأفريقيين اكتسبوا خبرة عسكرية من الخدمة فى الجيوش الاستعمارية وازداد عدد المهاجرين من القرى الى المدن فى سنوات الحرب واتصل الافريقيون من مختلف البلاد بعضهم بالبعض الآخر وكان لذلك أثره الكبير على اشتعال نار السخط والثورة على الاستعمار فى نهاية الحرب(٦)

الامبراطور المسلم ليج أياسو يحكم أثيوبيا (١٩١٣ ـ ١٩١٧) :

قليل من الباحثين هم الذين كتبوا عن هذا الامبراطور المسلم الذى قاد انقلابا فى أثيوبيا جعلها تحكم لأول مرة فى التاريخ الحديث على يد حاكم مسلم ، كما كان له موقفه الرائع ابان سنوات الحرب العالمية الأولى حيث اتجه لاعلان الجهاد ومساندة الدولة العثمانية ودعا المسلمين للوقوف الى جانبها ولكن تحالفت ضده الكنيسة الاثيوبية ، والدول الأوربية فكانت نهاية حكمه عام ١٩١٦(٧) ٠

وخلافا للتقاليد المتبعة التى كانت تدفع الأباطرة فى الحبشة الى الادعاء بانحدارهم من نسل سليمان كى يوطدوا ملكهم ، فان ليج اياسو بادر ونفى عن نفسه أى صلة بالأسرة السليمانية ٠

وكانت كل تصرفاته حتى قبل توليته العرش تؤكد ميله للاسلام والذى لا شك فيه أن اعلانه الاسلام فى العام التالى لتوليته السلطة هو تأكيد على أنه ربى فى بيت ملك مسلم ينتمى لقبائل الجالا المسلمة وما اعلان

والده لاعتناقه المسيحية الا انصياعا لما هو مفروض على كل حاكم يهزم في الحرب التي لم تنقطع في بلاد الحبشة بين النصارى وزعماء المناطق الاسلامية ٠

وقد صادف اعلان اياسو الاسلام قيام الحرب الأولى عام ١٩١٤ مما اصاب رجال الكنيسة والقبائل المسيحية بصدمة كبيرة حيث أنه من المعروف أن أغلبية البلاد تدين بالاسلام وأن المسيحية كانت تعتمد على القوة ومساعدة الدول الأوربية فقط وسرعان ما تكاتفت الدول الاوربية وعلى رأسها بريطانيا مع رجال الكنيسة لعزل الامبراطور المسلم(٨) ٠

سياسة اياسو الاسلامية :

أعلن سياسة التسامح الديني في البلاد ، وبدأ في تعزيز الاسلام والمسلمين وأمر بانشاء عدد كبير من المساجد واتخذ لنفسه علما جديدا باضافة الهلال اليه ، وكتابة الشهادتين في وسطه ٠ كما أرسل الحكام المسلمين في الدول المجاورة طالبا منهم الاستعداد للجهاد الذي ينوي القيام به لنصر الاسلام والمسلمين ٠

ومن ناحية أخرى استقبل القنصل العثماني والقنصل الألماني في أثيوبيا وأعلن مساندته للدولة العثمانية واستعداده لجمع قوات كبيرة للحرب الى جانبهم ٠

ولكن دول الحلفاء - انجلترا وفرنسا وايطاليا - لم تقف مكتوفه الأيدي فمنذ اللحظة الأولى وهي تراقب الموقف وتجري اتصالاتها مع الكنيسة الأثيوبية ومع المطران المصري الذي كان له الاشراف على الكنيسه الاثيوبية ومن حقه أن يصدر قرار الحرمان ضد الامبراطور ٠

مؤتمر موسع للكنيسة الأثيوبية :

فى نهاية عام ١٩١٦ عقد مؤتمر موسع للكنيسة الأثيوبية أعلن خلاله أن اياسو خرج عن تقاليد البلاد وديانتها وتحالف مع الأعداء (تركيا وألمانيا) وأنهم فى حل من يمين الولاء له ، وقروا استخدام القوة لاعادة الأمور الى نصابها ، وأن اياسو من الآن قد عزل من منصبه وثم تتويج زاوديتو فى عام ١٩١٧(٩) .

موقف اياسو :

رفض قرارات الكنيسة وهاجمها ومضى طريقه يجمع أنصاره ويستعد للمعركة الفاصلة ولكن تدخلت بريطانيا بقواتها الموجودة فى بربره وفرنسا بقواتها العسكرية فى جيبوتى وايطاليا بما لديها من قوات فى مصوع .

وبعد انتهاء الحرب العالمية بهزيمة العثمانيين والألمان ازداد التدخل الأوربى فى أثيوبيا حتى تمت هزيمة اياسو وسجن حتى عام ١٩٣٢ ثم دبر أعوانه محاولة لاعادته الى السلطة ولكن قبض عليه مرة أخرى .

نهاية الامبراطور :

حاولت ايطاليا عندما احتلت أثيوبيا قبل الحرب العالمية الثانية الاستعانة باياسو لحكم البلاد نكاية فى هيلاسلاسى ولكن الأخير كان أسبق منها فدس السم لاياسو بواسطة أعوانه ليلقى ربه فى نهاية عام ١٩٣٥ وتطوى صفحة ذلك الامبراطور المسلم الذى جاءت محاولته وفى وقت اتسم بالتدخل الأوربى السافر فى شرق أفريقيا مما عجل بنهايته(١٠) .

والغريب فى الأمر أن كثيرا من المؤرخين تحاملوا على اياسو وألصقوا به الكثير من التهم . اما تأثرا بالمؤرخين الأوربيين أو تحاملا على هذا الامبراطور الذى أعلن الاسلام فى بلاده متحديا الكنيسة الأثيوبية .

وهذا مثال مما كتبه الدكتور زاهر رياض(١١) .

« .. ثم مات الملك فأعلن ليج اياسو امبراطورا . ولم يلبث ان انطلقت غرائزه وانصرف الى ملاهية يرتشفها أينما كان بل تحول عن المسيحية وأعلن أنه ليس سليلا لسليمان ولا ملكة سبأ بل اخترع له نسبا يصل به الى النبى صلى الله عليه وسلم .. الخ » .

والذى يعنينا فى هذا المقام أن هناك أسبابا عدة أدت الى فشل محاولة اياسو فى قيام الحكم الاسلامى فى أثيوبيا لعل من أهمها :

١ ـ أن هذه المحاولة جاءت فى وقت كان العالم يمر بظروف حرجة ولم يكن من المتوقع اطلاقا سكوت هذه الدول الأوربية المتحالفة عن مثل هذه المحاولة التى تدعم موقف ألمانيا وتركيا فى الحرب .

٢ ـ أن أياسو لم يعد العدة الكافية لانجاح خطته ولم يستمع الى نصح أبيه محمد على الذى طالبه مرارا بالتأنى واختيار الوقت المناسب ، كما كانت وفاة والده عام ١٩١٨ من العوامل الهامة الأخرى .

٣ ـ كان اياسو قليل الخبرة صغير السن يحتاج الى سنوات أخرى قبل أن يقدم على مثل هذه المحاولة الخطيرة فى بلد مثل الحبشة .

٤ ـ سلطان الكنيسة الأثيوبية وخوفها على مصالحها جعلها تستميت فى الدفاع عن هذه المصالح التى تتعارض مع اتجاهات هذا الامبراطور المسلم .

٥ ـ انتصار الحلفاء فى الحرب عجل بالقضاء على محاولة اياسو حيث كانت الدولة العثمانية فى حالة يرثى لها ، لا سيما وقد قسمت ممتلكاتها وأصبحت عاجزة عن الدفاع حتى عن حدودها الأصلية ومن هنا فقدت محاولة اياسو السند الذى كان من الممكن أن يدعمها .

ولكن تبقى هذه المحاولة دليلا جديدا على أن الاسلام فى الحبشة على الرغم من كل الصعوبات والمعوقات سيعود يوما الى مكانه الطبيعى لقيادة هذه البلاد ذات الأغلبية المسلمة ٠

الصومال فى الحرب العالمية الأولى :

فى أخريات القرن ١٩ بدأ التنافس الأوربى فى الصومال يصل الى أشده وقسمت أرض الوطن الواحد الى خمسة أقسام :

(أ) الصومال الايطالى وقد احتلته ايطاليا عام ١٨٩١ حتى قيام الحرب العالمية الثانية وفيها انتصرت الدول المتحالفة فاحتل البريطانيون الصومال الايطالى وأعلنوا ضمه الى الجزء الواقع تحت احتلالهم الى أن كانت سنة ١٩٥٠ فوضع مرة أخرى تحت الوصاية الايطالية لمدة عشر سنوات ٠

٢ - الصومال البريطانى :

وقد احتلته بريطانيا عام ١٨٨٣ وظل خاضعا للاحتلال الى أن استقل فى عام ١٩٦٠ ٠

٣ - الصومال الفرنسى :

وقد احتلته فرنسا عام ١٨٨٣ وعزلته عن العالم مدة طويلة بسبب معاهدات صورية وبحصار محكم لا منفذ اليه الا الميناء المركزى بمدينة جيبوتى وقد استقل هذا الجزء ويكون الآن دولة جيبوتى ٠

٤ - الصومال الاثيوبى :

وهى منطقة ملاصقة لحدود أثيوبيا وهى صومالية لحما ودما يشترك سكانها فى لغة واحدة ودينهم الاسلام وكانت ضمن الصومال الكبير حتى قبل عام ١٩٥٠ حيث سلمت بريطانيا قبل انسحابها من الصومال

الجنوبى هذه المنطقة للحبشة رغبة منها فى ارضاء الأحباش النصارى أولا، وخلقا لمشكلة معقدة بين البلدين ثانيا ، كما حدث فى فلسطين وكشمير وغيرها من المناطق التى خضعت للاحتلال البريطانى ٠

٥ ـ الصومال الكينى :

وهذه المنطقة تقع فى جنوب الصومال وملاصقة لحدود كينيا أهلها صوماليين شوافع وقد فعلت بريطانيا بهذا الاقليم ما فعلته بالاقليم السابق حيث ضم الى كينيا حيث كانت حينذاك مستعمرة بريطانية ولنفس الأسباب التى أوردنا فيما يتعلق بالصومال الاثيوبى ٠

ولا يزال الشعب الصومالى يكافح من أجل توحيد هذه الأقاليم التى تكون فى النهاية الصومال الكبير(١٢) ٠

ثورة السيد محمد عبد الله حسن ١٩٠٠ ـ ١٩٢٠ :

قامت الحرب العالمية الأولى وبلاد الصومال تموج بالثورة الاسلاميه التى قادها أحد الزعماء المسلمين فى الصومال والمعروف لدى الكثيرين بمهدى الصومال ويقتضينا الموقف الحديث عن هذه الثورة وتطوراتها ابان الحرب العالمية ٠

تعتبر ثورة السيد محمد عبد الله حسن « ثورة الدراويش » واحدة من الثورات التحررية الكبرى ضد الاستعمار الأوربى بعامة والبريطانى والايطالى فى الصومال بخاصة ، كما أنها ثورة اسلامية اتخذت الجهاد الدينى لمواجهة أعداء الاسلام شعارا لها ، مما كان له أكبر الأثر فى نجاحها الكبير فى ايقاظ الشعب الصومالى والوقوف فى وجه حملات التنصير المكثفة التى حاولت الدول الأوربية من خلالها القضاء على الاسلام والعروبة فى الصومال (١٣) ٠

نشأة السيد محمد عبد الله :

ولد من أبوين صوماليين فى منطقة قوب فردود « حوافر الخيل » فى محافظة (نجال) وكانت نشأته دينية خالصة حيث أرسله والده عندما بلغ الثامنة من عمره الى أحد علماء « الأوجادين » ليأخذ حظه من العلم والمعرفة ، فحفظ القرآن الكريم وتعلم مبادىء العلوم الدينية والعربية ولازم مجالسة العلماء فنشأ محبا للعلم والعلماء مكرسا وقته وجهده للاستفادة منهم ٠

وعندما كبر لمع اسمه بين علماء الصومال وصارت له مكانة كبيرة وعهد اليه بتدريس ما تلقاه وتعلمه ٠ وحاز لقب « الشيخ » وهو فى التاسعة عشرة من عمره وهو لقب كان لا يناله فى الصومال الا من حاز ثقة العلماء وكانت له ثقافة دينية رفيعة ومرتبة عاليه من التقوى ٠

قام بعدة رحلات الى المراكز الاسلامية الشهيرة مثل « هرر » ومقدشو ثم سافر الى السودان وكينيا الى أن قام برفقة عدد من العلماء بزيارة للأراضى المقدسة لأداء فريضة الحج ٠ وكان لهذه الرحلة التى التقى خلالها بالسيد محمد صالح أثر كبير فى حياته(١٤) ٠

وبعد عودته الى الصومال أفزعه النشاط الكبير لبعثات التنصير والارساليات البريطانية والايطالية وكذلك رؤية وطنه ممزقا بهذه الطريقة وسمع عن الأطماع الحبشية المتزايدة فصمم على الجهاد وبدأ يجمع ما أمكنه جمعه من السلاح والتبرعات العينية والنقدية ، وفى مارس ١٩٠٠ كانت بداية الثورة المسلحة فى الصومال (١٥) ٠

وفى الفترة ما بين ١٩٠٠ ــ ١٩٠٤ جرد الانجليز أربع حملات ضد الثوار كما قامت أثيوبيا بمساعدة بريطانيا وقدمت ايطاليا كذلك العون الملائم وبدأ هذا التحالف المدنس للقضاء على الثورة ٠

وقد أظهر المجاهدون الصوماليون شجاعة منقطعة النظير وأحرزوا انتصارات باهرة أجبرت الايطاليين على توقيع معاهدة مع السيد محمد عبد الله فى مارس ١٩٠٥ وكذلك وقع البريطانيون على المعاهدة ذاتها .

محاولات بريطانيا للقضاء على الثورة :

عجزت بريطانيا هى الأخرى عن القضاء على الثورة الصومالية فلجأت الى اتباع أسلوب جديد يتمثل فى محاولات الايقاع بينه وبين أتباعه واشاعة الفرقة بين المجاهدين مستغلة الصراعات القبلية التى كانت تنشأ بين حين وآخر وقد نجحت تلك المحاولات الى حد كبير مما جعل بعض المقربين الى الشيخ يعلنون انشقاقهم وبدأوا فى الاساءة اليه واتهامه بالجنون ولكن على الرغم من ذلك فقد ظل فى تزعمه للثورة وارتفعت مكانته فى المجتمع الصومالى(١٦) .

معركة دلمادوب :

أرسلت الحكومة البريطانية السير ريجنالدويجنت الى الصومال لدراسة المشكلة ومحاولة الوصول الى حل بعد الهزائم التى لحقت بالقوات البريطانية فى الصومال وعرض ويجنت على السيد محمد عبد الله حسن ملك الصومال من قبل بريطانيا لكنه رفض رفضا قاطعا وصمم على مواصلة الجهاد(١٧) .

وكانت نصيحة السيرويجنت تدعيم القوات البريطانية فى الصومال والتنسيق مع الايطاليين والأحباش واحضار فرق عسكرية من الهند وعدن وكينيا تنضم الى القوة الموجودة واعطاء القائد العام البريطانى فى الصومال « كورنفيلد » صلاحيات جديدة لمواجهة الموقف .

وبدأت الأحداث تتوالى سراعا الى أن كانت معركة « دلمادوب » فى ١٩ أكتوبر سنة ١٩١٣ وقتل فيها القائد العام البريطانى وتراجعت

القوات البريطانية مذعورة الى المناطق الساحلية وهى تضمد جروحها ، وتبكى قائدها الكبير الذى سقط مضرجا بدمائه .

وأعلنت وزارة المستعمرات البريطانية حدادا على الجنود والضباط وقائدهم الكبير الذين سقطوا فى المعركة .

وحملت الصحف البريطانية أنباء الهزيمة فى صفحاتها الأولى وكانت عنوانها « مأساة رهيبة لقواتنا فى الصومال » .

وعلى الجانب الآخر أعلن الصوماليون عن فرحتهم الكبرى بنصر الله لهم فسجدوا له شكرا ، كما غنموا كثيرا من الأسلحة والعتاد الحربى الذى أفادهم الى حد كبير فى معاركهم الأخرى ضد الاستعمار .

بريطانيا تعرض ملك الصومال مرة أخرى على السيد محمد عبد الله :

تأكد لبريطانيا أن سياسة القوة وحدها لا تجدى مع هؤلاء المجاهدين، فبعثت ببرقية الى القائد الجديد مفادها أن يرفع العلم الأبيض رمزا للسلام وأن يدخل فى مفاوضات مباشرة مع السيد عبد الله بحضور نائب ملك الهند ، وأن يمنحه الأمان ، ويحاول تقديم الهدايا والرشاوى لعدد من مساعديه .

ودارت المفاوضات وأدرك السيد محمد عبد الله حسن أن بريطانيا تهدف من وقف القتال الى القاء الدراويش أسلحتهم فى مقابل أن تعترف بريطانيا والدول الصديقة به ملكا على الصومال فى ظل الحماية البريطانية

ومع الهدايا القيمة وبريق المجد والسلطان فان هذا العالم المجاهد رفض باباء وأمر مرافقيه بالقاء الهدايا وقال كلمته المشهورة « انى لم أفكر فى أن أكون ملكا ، ولم يكن ذلك هدفى لا فى الحاضر ولا فى المستقبل

ولكن هدفى الوحيد هو أن أطهر بلادى من الاستعمار وأعيد اليها حقوقها المغتصبة ، وأطهرها من الشرك والنفاق ولست أبالى بعد ذلك أن أحيا أو أموت »(١٨) ·

العودة الى الجهاد فى الصومال :

بعد فشل المفاوضات قام السيد محمد بتوزيع القوات الصومالية على ثلاث جبهات ، جبهة لمحاصرة القوات الانجليزية على النطاق الساحلى وجبهة لمحاصرة منطقة بنادر لتحول دون تقدم أى فرقة ايطالية الى مدق أو مجرتينا ، وجبهة مرابطة داخل أراضى الأوجادين(١٩) ·

وكان مسلمو العالم فى مصر والبلاد العربية وفى الهند وتركيا يباركون هذا الجهاد العظيم لمسلمى الصومال ، وخشى البريطانيون أن يزداد الصوماليون قوة بتعضيد القوى الاسلامية فأسرعت بريطانيا الى عقد اجتماعات فى لندن وفى روما وفى أديس أبابا للتشاور فى مسألة الصومال ، وأخذت فى حشد كل امكاناتها للقضاء على الثورة لا سيما بعد قيام الحرب العالمية الأولى وحاجة بريطانيا الى تقوية مركزها فى الصومال وشرق أفريقيا لمواجهة ألمانيا وتركيا وبدأت خطتها بفرض رقابة شديدة على سواحل الصومال ومنافذها البحرية ومنع وصول أية مساعدات حربية أو تموينية الى المجاهدين الصوماليين(٢٠) ·

اتصالات السيد محمد عبد الله بالعثمانيين :

منذ بدأت الثورة الصومالية كانت هناك اتصالات بين السيد محمدعبدالله حسن والدولة العثمانية التى كانت تساند الصوماليين لمواجهة الاستعمار الأوروبى وبعد قيام الحرب العالمية الأولى أرسل السيد محمد وفدا صوماليا برئاسة الشيخ أحمد مشروع بن محمود الصومالى لاجراء اتصالات مع الحكومة التركية وعقد معاهدة حماية معهم ·

وهذا نص المعاهدة كما جاءت فى كتاب الصومال قديما وحديثا(٢١)

« بسم الله الرحمن الرحيم

حرر فى ٦ محرم الحرام ١٣٣٥ ه ٥ أكتوبر ١٩١٦ الموقع على هذه الحماية السنية بدولة « كذا » العلية العثمانية أيده الله بفتحه وبنعمته وبعزه الشيخ أحمد مشروع بن محمود الصومالى المندوب المفوض المطلق المأمور بالتوقيع على حجة الحماية السنية بدولة العلية العثمانيه من حضرة السيد محمد بن عبدالله حسن نور أمير قبائل الصومال بأفريقيا الصومالية .. النائب عن القائم مقامه بالنيابة المقبولة المعتمدة عن الأمير السيد المشار اليه وعن العلماء ومشايخ القبائل والتابعين لهم على العموم بقوله :

اننا نقر ونعترف لخليفة المسلمين السلطان الأعظم محمد رشاد خان الخامس وللدولة العلية العثمانية أيدها الله بالحماية المطلقه واليد الطولى القوية لأننا من التابعين لها ، المتمكن من عرش الجلالة الاسلامية العثمانية وسلاطينها من آل عثمان العظام أيدهم الله مدى الأزمان واننا لا نعترف لغير خليفة المسلمين بتبعية دينية ، أو علاقة سياسيه ونرفض رفضا كليا ما تزعم به دول الانجليز والطليان علينا ، أو على أراضينا من المزاعم الوهمية التى لا ظل لها من الحقيقة ، بل نعلن عليهما الحروب المستمرة . وقد زحزحنا جيوشهما فى الحروب السابقة المشهورة بيننا وبينهم ، واننا لا نعترف لهما بحق ، ولا غيرهما عنها ، والقائمين مقامها المستقلين بأرضنا النافذة فيها أحكامنا من دول الاستعمار فى أرضنا غير الدولة العلية العثمانية نحن النائبين فى حدودنا المعروفة الواقع مركزها غربى شمال من أفريقيا الصومالية من حدودها الأربعة : شرقا قبائل المجرتين من الصومال والبحر .. هذه حدود أرضنا المستقلين بها من قدم الزمان المحتوية على جبال ورمال ووديان وسهول ووعر ، شعوب وقبائل شتى من الصومال .

وبناء على اعلان خليفة المسلمين الجهاد المقدس فى هذه الحرب العموميه على دولة الانجليز والطليان والمتفقين معهما نعلن أيضا جهادنا الآن عليهما، ونوجب علينهما القيام التام بحقوق الدولة العثمانية ، وما وجب لها وعلى كل من قام بمخالفة خليفة المسلمين ، ومن الآن فصاعدا نلزم أنفسنا ونوجب عليها القيام التام بحقوق الدولة العلية العثمانية ، وما وجب لها دينا وسياسة من رفع أعلامها ، وموالاة من والاها ومعاداة من عاداها على حسب ما توجبه علينا ديانتنا الاسلامية بمقتضى الفتوى الشرعية ، وأن نراعى رضاها ونتجنب كل مداخلة أو مخالفة أو مصادفة أجنبية لا توجبها على التأمين .

هذا عنا وعن أبنائنا وأتباعنا ما دمنا ودامت الدولة العلية العثمانية أيدها الله اعلان حمايتنا ، ونشرها الى جميع الدول الأوربية ليعلموا حقيقة احتمائنا بالدولة العلية العثمانية ليؤيدوا ذلك ويثبتوه بواجب العدالة والحرية الواجبتين على كل دولة متمدنة . وقد أخذنا هذا على أنفسنا وارتضيناه واخترناه بأنفسنا ، ومما هدانا الله الى القيام به لقوله تعالى : « واوفوا بالعهد ان العهد كان مسئولا » .

ارتضاه وقبل العمل بمقتضاه(٢٢) .

الشيخ أحمد مشروع بن محمود :

بناء على حجة الحماية السنية بالدولة العثمانية أيدها الله وأعلاها تعهدنا نحن العثمانيين بالحج أمير اللواء على سعيد باشا المفوض من طريق الدولة العلية العثمانية للشيخ أحمد مشروع بن محمود الصومالى المفوض بالنيابة عن الأمير السيد محمد بن عبد الله حسن نور أمير قبائل الصومال المقيم بالمربعة الصومالية الغربية الشمالية والتابعين لأحكامه من العلماء ومشايخ الصومال على العموم بحماية أنفسهم وأتباعهم وأموالهم وأرضهم واعتساف من أى دولة كانت بعد حصول الصلح من هذه الحرب العمومية

سهولها ونجودها وما اشتملت عليه حدودها المذكورة أعلاه من كل عدوان من الدول ، وواجب تعهده على الدولة العثمانية أيدها الله القيام التام بحقوق الحماية حسب ما توجبه عليها قواعد الدول المتمدنة(٢٣).

قائد القوة العثمانية بلحج « ختم أمير اللواء على سعيد » .

غير أن هذه الاتفاقية لسوء الحظ وقعت فى يد البريطانيين على ساحل الصومال الشمالى بعد تفتيش الوفد الذى قام بالمفاوضة وكانت النتيجة تشديد الرقابة على كل المنافذ لمنع الامدادات الحربية والتموينية ولا سيما تلك التى كانت تصل الى المجاهدين الصوماليين عبر موانى الساحل الأفريقى(٢٤) .

وقد كان لهزيمة الألمان والعثمانيين الذين كانوا يساعدون السيد محمد وحصار انجلترا للساحل الصومالى ومنع وصول الأسلحة للدراويش عوامل مهمة فى القضاء على الثورة الصومالية بالاضافة الى تخلى كثير من العلماء والمشايخ الذين تمكنت السلطات البريطانية من استمالتهم وايقاع الفرقة بينهم وبينه وتحول بعض أنصاره والحاسدين له على نجاحه المتلاحق من مساندته الى جواسيس عليه ينقلون أخباره وتحركاته الى المستعمر كما لجأت بريطانيا الى حياكة سلسلة من الدعايات المضللة ضده فاتهموه بالشراسة ، وعدم الانسانية وحبه لسفك الدماء ، والميل الى المجون والعربدة واختطاف النساء الى أوكاره الخاصة ، ووصفوه بالملا المجنون الى آخر تلك الافتراءات ، كما نشروا رسالة نسبت الى الشيخ محمد صالح صاحب الطريقة الصالحية وفيها توجيه الى مسلمى الصومال التابعين لطريقته أن يهجروا السيد محمد عبد الله حسن لاتخاذه تعاليم تبعد عن روح الاسلام كشرب الخمر والمجون والعبث بالنساء وحب سفك الدماء ».

والحقيقة أن كل هذه افتراءات وأكاذيب دست على هذا الرجل العظيم الذى لم يتهاون لحظة واحدة فى دفاعه عن وطنه وعقيدته ، وفشلت

بريطانيا بكل قوتها فى القضاء عليه فلجأت الى ذلك السلاح الخطير الذى كان أشد فتكا من الاسلحة المتطورة(٢٥) .

ومن ناحية أخرى كان انتهاء الحرب عاملا على أن تضع بريطانيا كل ثقلها فى الصومال فحشدت الحشود وجمعت الفلول واستخدمت الطائرات لأول مرة فى الحرب الدائرة مع الصوماليين وشنت غاراتها بصورة وحشية لتقضى على كل أمل لهم .

وأخيرا ظهر وباء مميت بين القوات الصومالية المجاهدة ويذكر أكثر الرواة أن هذا الوباء قد حمل جراثيمه رجلان(٢٦) من عملاء البريطانيين وألقوا به فى آبار منطقة هروشكح التى يعسكر فيها المجاهدون الصوماليون ، ونتيجة لذلك كثرت الوفيات ، كما أصيب من جراء الغارات الجوية السيد محمد عبد الله حسن ليلقى ربه شهيدا متأثرا بجراحه فى عام ١٩٢١ بعد أن استنفذ كل أساليب المقاومة والقتال والتضحية ثم الفداء(٢٧) .

وبهذا تنتهى حياة مجاهد كبير وقف فى ميدان القتال خمسة وعشرين عاما منها سنوات الحرب العالمية الأولى ثم كان تحديه لبريطانيا بعد الحرب وقد خرجت منها منتصرة وقد دافع هو وجنوده ببسالة وشجاعة وواجه الاستعمار الايطالى والبريطانى والاثيوبى كما واجه أساليب المهادنة والخداع وكيد المنافقين .

وفى نهاية هذا الفصل نرى أن شرق أفريقيا ابان الحرب العالمية الأولى كانت مسرحا للقتال بين دول الحلفاء والمانيا وتركيا ، كما أن آلاف من المسلمين دفعوا حياتهم ثمنا لهذا الصراع الاستعمارى ومن ناحية أخرى شهدت تلك المناطق ثورات لو قدر لها النجاح لغيرت معالم تاريخ تلك المنطقة لا سيما محاولة ليج اياسو الامبراطور المسلم فى الحبشة والسيد محمد عبد الله حسن مهدى الصومال .

حواشى الفصل الخامس

شرق أفريقيا فى الحرب العالمية الأولى

(١) دونالد ل . وايدنر : تاريخ أفريقيا جنوب الصحراء ، ترجمة د. شوقى الجمل ص ٤٦٣ .

(٢) سـعيد بن على المغيرى : جهينة الأخبـار ، تحقيق عبد المنعم عامر ، ص ٣٦٨ .

(٣) المغيرى : مرجع سابق ص ٣٦٩ ـ ٣٧٠ .

(٤) براحينسكى ، لو كوتين ، تاريخ حركة التحرر فى شرق أفريقيا ترجمة محمد خليل قاسم ص ٤٦ .

(٥) المغيرى ، مرجع سابق ص ٣٧٠ .

(٦) فتحى غيث : الاسلام والحبشة ، ص ٣٥٤ ـ ٣٥٥ .

(٧) ليج اياسو تعنى قلب يسـوع وهو الاسـم الذى اختاره جده منليك الثانى أعظم ملوك الحبشة فى العصر الحديث (١٨٦٥ ـ ١٩١٣) . وأما والد ليج اياسو فهو محمد على حاكم مقاطعة « وللو » ذات الأغلبية المسـلمة والتى تعرضـت لحربٍ شرسة على يد الامبراطور منليك وبعد احتلالها خير حاكمها « محمد على » بين الموت أو التنصر فاختـار الثانيـة وتسمى باسم « ميكائيل » وتزوج من ابنة منليك المسماة « أرقاش » وهى التى أنجبت ليج اياسو فى عام ١٨٩٦ .

وقد حرص منليك الثانى على تربية « ليج » تربية كنسية وعهد به الى أحد الأساقفة الذين تثق بهم ، ولكن والده فى ذات الوقت كان يلقنه مبادىء الاسلام ويباعد بينه وبين الجو الكنسى الذى أجبر على العيش فيه

وفى عام ١٩٠٨ أصيب الامبراطور منليك بالشلل التام بدأ البحث عن ولى للعهد لأنه لم ينجب ذكرا ، وكان الصراع على أشده بين «زاوديتو» ابنة الامبراطور « وباديتو » زوجته . ولكن كانت المفاجأة للجميع اختيار

منليك لحفيده ليج اياسو ليخلفه على العرش وقد أيدت الكنيسة مخاوفها وشكوكها خشية أن يؤثر أصله الاسلامى على مسلكه بعد توليته الحكم، وبذلت محاولات عديدة لاثنائه عن رغبته لكن الامبراطور صمم على توليه اياسو الذى أصبح امبراطورا فى عام ١٩١٣ واتبع فى أيامه الأولى سياسة قائمة على التسامح .

ثم أعلن اسلامه فى العام التالى ١٩١٤ أى فى نفس العام الذى وقعت فيه أحداث الحرب العالمية الأولى ، وقد اتصل بالقنصل العثمانى فى بلاده وأعلن الجهاد الى جانب العثمانية ، كما غير من علم أثيوبيا ووضع فى وسطه الشهادتين ، وبدأ يعد قواته لمساندة العثمانيين . وكانت النتيجة المتوقعة هجمات أوربية شرسة على سياسته وتكتيل استعمارى بريطانى فرنسى ايطالى ومهاجمة قوات اياسو بالطائرات وكافة أنواع الأسلحة ، وأسر اياسو بعد أن ظل يقاوم حتى عام ١٩٢١ ، وفى سجنه بذلت محاولة من جانب أنصاره لاعادته الى الحكم ولكن المحاولة فشلت ليعاد مرة أخرى الى سجنه الى أن كانت نهايته فى عام ١٩٣٥ على يد هيلا سلاس أ.هـ فتحى غيث : مرجع سابق ، ص ٣٥٤ ترنجهام : الاسلام فى أثيوبيا ص١٣٠.

(٨) أمين شاكر وآخرون : أضواء على الحبشة ص ١٣٩ .
(٩) ممتاز العارف : الحبشة بين مأرب وأكسوم ص ٢٣٤ .
(١٠) فتحى غيث : مرجع سابق ص ٢٥٩ .
(١١) زاهر رياض : مصر وأفريقيا ، الأنجلو ١٩٧٦ ص ١٦٩ .
(١٢) د. السعيد رزق حجاج : الصومال فى العصر الحديث ١٩٨٥ ص ٢٩ .
(١٣) المرجع السابق ص ٣٠ .
(١٤) حمدى السيد سالم : الصومال قديما وحديثا ص ٢٣١
(١٥) د. محمد المعتصم : مهدى الصومال ص ١١ .
(١٦) د. حمدى الطاهرى : قصة الصومال ص ٤٣ .

(١٧) المصدر السابق ص ٤٤ ٠

(١٨) د٠ محمد المعتصم : مهدى الصومال ، مرجع سابق ص ٤٩

(١٩) د٠ السعيد حجاج : الصومال ، مرجع سابق ص ٩٣ ٠

(٢٠) حمدى السيد سالم ، مرجع سابق ص ٢٥٤ ـ ٢٥٥ ٠

(٢١) د٠ محمد المعتصم : مهدى الصومال ص ٤٢ ٠

(٢٢) حمدى السيد سالم ، مرجع سابق ص ٢٥٤ ٠

(٢٣) المرجع السابق ص ٢٥٦ ٠

(٢٤) د٠ حمدى الطاهرى : قصة الصومال ص ٥٤ ـ ٥٥ ٠

(٢٥) د٠ السعيد حجاج : مرجع سابق ص ٩٥ ٠

(٢٦) حمدى السيد سالم ج ٢ ، مرجع سابق ص ٢٦٠ ٠

(٢٧) د٠ محمد المعتصم : مرجع سابق ص ٥٠ ـ ٥١ ٠

الفصل السادس

شبه الجزيرة العربية

ومنطقة الخليج

عندما بدأت أحداث الحرب العالمية الأولى تطلعت بريطانيا الى منطقة الخليج وشبه الجزيرة العربية باعتبار الأولى من المحاور الأساسية للصراع الدولى ، فعليها منذ القدم تصارعت القوى الكبرى الطامعة فى السيطره عليها ، وتوالت الغزوات على منطقة الخليج العربية ، مثلما تواترت على سائر الأقطار العربية الأخرى حتى استقر الحكم الوطنى العربى فيها بعد الاسلام وظلت كما يقول المؤرخ البريطانى آتشيسون غير خاضعة لأى سيطرة أجنبية منذ القرن الحادى الى القرن السادس عشر . ومنذ القرن ١٦ تعرضت لصراع استعمارى عنيف تداول فيه السلطان عليها البرتغاليون والفرس وتدخل فيه الهولنديون حقبة من الزمان ، ومن بعده بسط العثمانيون سلطانهم عليها ، لكى يخلفه فيهما وفى المشرق العربى الاستعمار البريطانى .

وفى مطلع القرن العشرين زادت مكانة المنطقة عسكريا واقتصاديا واتجه اليها الاستغلال الأوروبى الأمريكى للبترول يشارك الاستغلال البريطانى راعى الاستغلالات الأجنبية ويتطلع اليها فى نفس الوقت نظر روسيا القيصرية والشيوعية وغيرها .

وكان علماء الجغرافيا السياسية يضعون الخليج فى أهم مواقع الطوق الساحلى المحيط بقلب الأرض ، ويذهبون الى أن من يسيطر على هذا الطوق يسيطر على العالم طرا(١) .

وأما شبه الجزيرة العربية فهى القلب للعالم الاسلامى وكان موقفها فى الحرب العالمية الأولى له أهمية كبيرة عند الجانبين المتحاربين وقد رأينا

فى الفصل الخاص بالثورة العربية كيف سعت بريطانيا الى قيام ثورة ضد الأتراك فى الشرق العربى الآسيوى لتستطيع ارغام تركيا على الاحتفاظ بجانب كبير من قواتها فيها وبذلك لاتساهم فى جبهات القتال الرئيسية الأخرى وخاصة الجبهة الروسية كما أن الثورة فى شبه الجزيرة العربية من شأنها أن تقطع الصلة بين القوات العثمانية الرئيسية المتمركزة فى الشام والفرق العثمانية فى جنوب شبه الجزيرة العربية كاليمن وعسير (٢) ٠

والى جانب ذلك فقد كان من المعروف أن ألمانيا ستحاول الاستفادة من تحالفها مع تركيا فى العمليات العسكرية بايجاد جسر يوصل بين المستعمرات الألمانية فى شرق أفريقيا وبين ألمانيا عن طريق ممتلكات تركيا فى شبه الجزيرة العربية ، ولو قامت هذه الصلة لأصبح فى استطاعة ألمانيا أن تهدد مصالح بريطانيا فى المحيط الهندى ولكن لو قامت ثورة عربية فى شبه الجزيرة العربية ابان الحرب العالمية الأولى وقد مر بنا كيف نجحت بريطانيا فى استمالة الشريف حسين ودفعه الى اعلان ماعرف باسم الثورة العربية الكبرى ٠

بريطانيا وعبد العزيز آل سعود فى الحرب العالمية الأولى :

تمكن الأمير عبد العزيز آل سعود من دخول الرياض عام ١٩٠٢ وبحكم المدة التى قضاها فى الكويت استطاع بحكمته ودهائه أن يعرف الكثير بالنسبة لعلاقة الدول الكبرى آنذاك بالأحداث فى شبه الجزيرة العربية ولقد عرف أن لبريطانيا دورا كبيرا بالنسبة للأوضاع السياسية فى منطقة الخليج العربى وذلك لكون بريطانيا تعتبرها حلقة وصل مع شبه القارة الهندية والتى كانت تحت الحكم البريطانى ولكون بريطانيا تعتبر المنافس الكبير للدولة العثمانية فى تلك المنطقة لذلك رأى الأمير عبد العزيز أنه من الأفضل الاتصال بالانجليز لمعرفة حقيقة نواياهم ٠

وكانت البداية ارسال عبد العزيز مندوبا قبله هو عبد الرحمن بن سلمان لمقابلة المندوب البريطانى فى البحرين واخباره رغبة الأمير فى ضم الاحساء باعتبار أنها كانت جزءا من الدولة السعودية الأولى والثانية وله حق شرعى وتاريخى فيها ، كما أن سوء ادارة السلطات العثمانية فى الاحســـاء جعل المواطنين فيها يتذمرون ويطلبون ضـــمها الى الدولة السعودية (٣) .

وعلى الرغم من تعاطف حكومة الهند البريطانية وتشـجيعها لتلك الخطوة الا أن حكومة لندن كانت ترى أن مصالح بريطانيا لا تتعدى الخليج العربى وسواحله واكتفت بعدم تشجيع عبد العزيز فى خطوته تلك وذلك خوفا من اثارة مشكلات مع تركيا وبدأ ابن سعود يحقق انتصارات متلاحقة وأصبح فى مكنته ضم القطيف والاحساء بعد نجاحه فى ضم القصيم وهزيمه القوات العثمانية هناك وترحيلها الى المدينة المنورة (٤) .

وفى مقابلة أخرى جرت بين عبد العزيز والكابتن البريطانى شكسبير عام ١٩١١ وكانت زيارة المبعوث البريطانى لتقصى الحقائق ومعرفة مقدرة وقوة الأمير عبد العزيز ومدى تطلعاته بالنسبة للخليج العربى وقد عبر الأمير أثناء المقابلة عن تصميمه على ضم الاحساء والحصول على منفذ بحرى على الخليج العربى وفى توقيت مناسب وسرية تامة كان الهجوم المفاجىء على الاحســاء وهزيمـــة القوات التركية التى انسحبت الى البحـــرين فى مايو ١٩١٣

وكانت عملية ضم الاحساء سعودية مائة بالمائة ســـعودية التنفيذ سعودية الهدف والمصير (٥) .

الاتفاق « الانجلو — تركى » يونيو ١٩١٣ :

وقع هذا الاتفاق بين الحكومتين التركية ممثلة فى « ابراهيم حقى

باشا » والبريطانية ممثلة فى وزير خارجيتها سير « ادوارد جراى » على أن يتم التصديق على المعاهدة خلال ٣ شهور ٠

وهذا الاتفاق يحدد المصـــالح المتبـادلة بين الطرفين فى الكويت والبحرين والساحل المتصالح ٠

واتمـاما لهذه المعـاهدة عقـد فى ٩ مارس ١٩١٤ اتفاق آخر بين الحكومتين وصدق عليه فى ٣ يونيو وبنود الاتفاقية تنص على تقسيم الجزيرة العربية بين الحكومتين ، يرسم خط مستقيم يبدأ من قطر عبر الصحراء ليلتقى مع خط الحدود بين عدن واليمن الذى رسم عام ١٩٠٢ ومعنى ذلك أن كل ما يقع شمال هذا الخط بما فيه الأحساء ، بل ونجد داخل السـيادة التركية ولا يعرف كيف كان الأتراك يدبرون اســترداد الأحساء بمعونة بريطانيا أم بمجرد موافقتها (٦) ٠

وأما بريطانيا فكانت تفاوض تركيا فى ذات الوقت الذى أرسـلت شكسبير الى الأمير عبد العزيز يبدى صداقته وصداقة بلاده والحقيقة التى لا جدال فيها أن السياسة البريطانية كانت قائمة على التعاون مع الأتراك للتخلص من ابن سعود وقد أكد ذلك بوضوح ما جاء فى رسالة الســفير البريطانى فى اسطمبول تعليقا على اتفاقية ٢٦ يوليو ١٩١٣ التى اعترفت « بنجد والحسا » مناطق تركية ٠ قال السفير البريطانى : « ان سياسة بريطانيا قد تحددت فى ثلاثة أهداف هى بالتحديد » :

١ ـ ضـمان حرية انتقال الرعايا البريطانيين وحسن معاملتهم فى نجد وخاصة فى الأقاليم الساحلية ٠

٢ ـ تجنب أية تطورات فى تلك المنطقة قد تؤدى الى تعكير السلام العام فى الخليج وأداء بريطانيا لمسئولياتها هناك (لم يكن لتركيا أقاليم ساحلية فى الخليج الا الاحساء) ٠

وأكد السفير أن مصلحة بريطانيا تلتقى مع السيادة التركية وليس فى الاعتراف بابن سعود ومن هنا يتأكد لنا أن ابن سعود استرد الأحساء ضد الارادة البريطانية وأنه حتى نشوب الحرب العالمية الأولى كان خارج الاستراتيجية البريطانية بل يشكل عنصرا معاكسا لها .

وعند بداية الحرب العالمية الأولى كان الأمير عبد العزيز يعتبر حاكما فى الجزيرة العربية ، فمنذ تمكن من ضم معظم منطقة الأحساء والحصول على منفذ بحرى على الخليج العربى بدأت بريطانيا تشعر بضرورة تغير سياستها نحوه بعد أن أصبح من الصعب اغفال أهمية ومكانة عبد العزيز بالنسبة للأحداث داخل الجزيرة العربية (٧) .

وفى ٢ أكتوبر ١٩١٤ قامت الحكومة البريطانية بارسال الكابتن شكسبير الى الرياض فى محاولة لكسب الأمير الى جانبها ضد الأتراك وهذه الخطوة تعتبر تحولا كبيرا فى السياسة البريطانية حيث كانوا فى السابق يعتبرونه حاكما داخليا والحاقا لزيارة شكسبير قام الميجر كوكس Knox المقيم البريطانى فى الخليج باتخاذ خطوة أخرى بأن أرسل خطابا الى ابن سعود يطلب منه التعاون مع شيخ الكويت والمحمرة فى احتلال البصرة مقابل تعهد الحكومة البريطانية بصد أى اعتداء يقوم به الأتراك سواء عن طريق البحر أو البر بالاضافة الى الاعتراف به كحاكم مستقل فى نجد والأحساء ومن ثم ابرام معاهدة معه تثبت رسميا تلك المقترحات ولكن ابن سعود لم يقم بأى عمل حربى لاحتلال البصرة واتخذ جانب الحياد وبدأ يقوى نفسه داخليا لأنه ليس على استعداد للتضحية بما أنجزه ارضاء للبريطانيين (٨) .

معاهدة القطيف صفر ١٣٣٤ (أواخر عام ١٩١٥) :

عند اعلان بريطانيا الحرب على تركيا فى أكتوبر ١٩١٤ بدأ الانجليز يفكرون فى الحصول على تأييد من الأمراء العرب فى الجزيرة العربية

ويبدو أن انهزام الجيش البريطانى (قلى بولى) Gallipoliy دفع بريطانيا بوعد العرب بايجاد حكومة مستقلة لهم ٠

وبينما كان المسئولون البريطانيون يجسون نبض الشريف حسين وأبنائه ، بالمواربة فى أغلب الأحيان ، كانت حكومتهم تدرس امكانات التعاون مع الأمراء الآخرين فى شبه الجزيرة العربية ، اذ أنها لم تكن قد وصلت بعد قرار نهائى فى الموضوع ٠ وقد استمر ارتباكها وترددها حتى أواسط العام ١٩١٦ ٠ اى أنها واصلت مباحثاتها مع الشريف حسين وتبادلت معه الرسائل وهى تفكر بالاستغناء عنه والاعتماد على بعض خصومه اذ وجدتهم أقرب منه الى مخططاتها ٠ ففكروا بالادريس فى عسير وخزعل فى المحمرة ومبارك الصباح فى الكويت وابن رشيد فى حائل ويحيى فى اليمن ٠ ولكن لم يكن بين هؤلاء من له القدرة على تحقيق المهمة الخطيرة التى كانت تتطلب نفوذا فى شبه الجزيرة وخارجها ، وشهرة فى العالمين العربى والاسلامى أكثر مما تتطلب قوة فى الرجال والسلاح ٠

كان الثلاثة الأولون مرتبطين بعلاقات صداقة مع بريطانيا من قبل نشوب الحرب ، وكان الأميران الأخيران أوسع نفوذا ٠ ولكنهما كانا موالين للأتراك ، وظلا على ولائهما طيلة الحرب ، على الرغم من المحاولات الانجليزية لاستمالتهما ، ومن ثوراتهما السابقة على الأتراك (٩) ٠

تفوق على هؤلاء كلهم ، بالقوة والسطوة والنفوذ ، حاكم عربى واحد غير الشريف حسين وكان منافسا خطرا لدولهم ٠ انه عبد العزيز آل سعود أمير نجد الذى كتبت عنه جريدة التايمز فى صيف ١٩١٤ « انه اليوم أبرز شخصية وسط الجزيرة العربية ٠ لكن فضيلته التى رفعته الى سيادة قومه ، ثم سيادة شبه الجزيرة كانت الحائل بينه وبين المهمة التى أراد الانجليز أن ينفذها » من هنا وجدت بريطانيا نفسها مضطرة لعقد معاهدة دارين أو القطيف أو العقير فى ٢٦ ديسمبر ١٩١٥ والتى

اعترفت فيها بريطانيا بالأمير عبد العزيز أميرا على نجد والأحساء وتقديم مساعدات مالية وعسكرية شريطة أن لا يقوم عبد العزيز بالاتصال بدول أخرى أو عقد معاهدات الا بعد موافقة بريطانيا (١٠) .

وقد اختلفت آراء المؤرخين حول هذه المعاهدة اختلافا كبيرا فبعضهم يرى أنها معاهدة غير مشرفة لا تختلف عن معاهدات الحماية فى الخليج وأن هذا يرجع الى جهل المستشارين الذين تفاوضوا بشأنها .

ويقول خير الدين الزركلى « وفى جزيرة دارين » المواجهة للقطيف عقدت بين عبد العزيز وبرسى كوكس « معاهدة دارين » .. وهى على غرار المعاهدات التى كان الانجليز يعقدونها مع امارات الخليج ، نعتها فؤاد حمزة بأنها « معاهدة جائرة سقطت قيمتها قبل الغائها بسنوات عديدة » ، وقال حافظ وهبة : « تجلى فى هذه المعاهدة قصر نظر مستشارى ابن سعود بما يجرى فى العالم والاستفادة من الفرص » .

ويؤكد البعض الآخر أن المعاهدة جاءت بعد دراسة دقيقة وقرئت حرفا حرفا من قبل مستشارين يعرفون معنى كل كلمة ولكن المعاهدات لم تعكس أبدا فى أى زمان أو مكان مهارة أو ذكاء او ثقافة الطرفين المتعاهدين ، بل هى انعكاس لتفاوت القوى » .

وأن ما جاء من قيود فى معاهدة ١٩١٥ لم يكن غفلة من المستشارين أو خطأ من عبد العزيز أصلح فى معاهدة ١٩٢٧ ، بل كان نتيجة وضع عالمى وحاجة محلية تغيرتا تغيرا كاملا بانتصار ابن سعود وسيطرته على كل الجزيرة ، وباعلان استقلال مصر والعراق ، ومن ثم لا الوضع العالمى ولا العربى ولا السعودى ظل كما كان عليه الحال فى عام ١٩١٥ ولا ابن سعود هو أمير نجد حتى عام ١٩١٨ (١١) .

والذى يهمنا أن بريطانيا بعد توقيع المعاهدة أمدت عبد العزيز

بمعونات مالية وعسكرية وكانت تنتظر منه مهاجمة الأتراك لكن عبدالعزيز كان رجلا تمثلت فيه كرامة العربى وشهامته فعلى الرغم من قناعته بأن جماعة الاتحاد والترقى ليست الا جماعة يهودية معادية للاسلام ، العوبة فى يد القوى المعادية للاسلام والعرب وقد عبر عن رأيه هذا فى أكثر من مناسبة الا أنه رفض مقاتلة الأتراك المسلمين من أجل الانجليز ، وقال قولته المشهورة : « لا أطعن دولة تحمل اسم الخلافة فى محنتها » وفضل عبد العزيز تدعيم مكانته فى شبه الجزيرة بمقاتلة ابن الرشيد وهو ما يعتبره الحلفاء دعما لهم حيث أن ابن الرشيد كان مساندا للأتراك .

وعندما تبين للبريطانيين أن انتصارهم على الأتراك بات وشيكا أو فى حكم المؤكد بدأوا يقللون من تأييدهم للأمير عبد العزيز فى حصاره لحائل وذلك بقصد ابقائه خارج نطاق حكمه عليهم فى المستقبل يستطيعون استغلاله ضد الأمير عبد العزيز فيما لو فكر فى ضم الحجاز ، لكن عبد العزيز كان متيقظا لهذه السياسة فسارع فى تشديد الحصار على حائل حتى يفوت الفرصة على مخطط الانجليز والذين كانوا يسعون من ورائه الى تقسيم الجزيرة العربية الى دويلات صغيرة يمكن فى المستقبل السيطرة عليها حيث أنه فى رأيهم لو تمكن من ضم تلك المناطق الى دولته فان هذا سوف يشكل تهديدا مباشرا لمصالحهم فى الخليج ومنطقة الرافدين وسوريا وفلسطين ، ولهذا نرى أن الانجليز لم يكونوا متحمسين لانتصارات عبد العزيز فى حائل خوفا من أن تتحول أنظاره بعد ذلك الى الحجاز (١٢) .

ولكن على الرغم من ذلك فقد واصل عبد العزيز انتصاراته الرائعة ولم يأبه بعد ذلك بالتحيز البريطانى الواضح للشريف حسين وقد تمكن فى أغسطس ١٩٢١ (١٣٤٠هـ) من ضم حائل وبعدها بثلاث سنوات فقد أصبح ابن سعود سيد الجزيرة وكانت الخريطة البريطانية التى أقرت فى مؤتمر القاهرة عام ١٩١٩ هى :

« مملكة الحجاز وعليها الشريف ، مملكة أو امارة عسير ويمكن أن توضع تحت السيادة الهاشمية بصورة أو باخرى ، منعا لتآمر حكامها مع الطليان ، سلطنة نجد - مع اضعافها الى أقصى حد لمنع الخطر الوهابى - ثم امارة شمر الحاجز بين ابن سعود وعروش الهاشميين فى الأردن والعراق مع امكانية تمديد الكويت على حساب ابن سعود واقامة دويلة جديدة فى العمارات بين نجد والعراق » .

وكانت كل الأطراف العربية المعنية تبدو موافقة على هذا ، الا عبد العزيز وحده الذى مزق الخريطة ورسم خريطته هو : « مع تحياتى وصداقتى أنا وأجدادى للحكومة البريطانية » (١٣) .

المعاهدة مع الادريس فى عسير :

نظرت بريطانيا الى الادريسى فى عسير وتبين لها أنه يستطيع اثارة الصعوبات فى وجه المواصلات التركية بين الحجاز واليمن ، وتهديد الترك من الخلف فى حالة هجومهم على عدن علاوة على امكانية الحيلولة دون استخدام ساحل عسير كقاعدة لعمليات بحرية ضد الحلفاء (١٤) .

وكذلك من أجل استخدام عسير ضد الامام يحيى الذى ظل مواليا للترك ونجحت بريطانيا ممثلة فى جنرال « شو » المقيم السياسى البريطانى فى عدن فى ابرام معاهدة فى الثلاثين من ابريل عام ١٩١٥ (١٥ جمادى الثانى ١٣٣٣ هـ) ووقعها عن الادريسى السيد مصطفى بن السيد عبد العلى ، لتقوية أواصر التحالف بين الطرفين ، كما تعهد الادريسى بمهاجمة الترك ومحاولة اخراجهم من مراكزهم فى اليمن . وفى مقابل ذلك تعهدت بريطانيا بحماية منطقة نفوذ الادريسى ضد الهجوم من جانب أى عدو ، وحماية وضمان استقلاله فى بلاده .

وبعد انتهاء الحرب تتعهد بريطانيا باستخدام نفوذها لتسوية المنازعات بين السيد الادريسى والامام يحيى أو أى منافس آخر .

وعلى الرغم من أن غرض الحكومة البريطانية من هذا التحالف مع الادريس كان غرضا محليا محددا فانه لم تحدث عمليات عسكرية بين الترك والادريسى كما استفاد الادريسى اقتصاديا من هذا التحالف فقد ظلت موانيه مفتوحة بينما حوصرت الموانى اليمنية (١٥) ٠

اليمن :

مع بدايات الحرب العالمية الأولى وجد الامام يحيى نفسه فى موقف لا يحسد عليه فالوجود البريطانى فى عدن مصدر تهديد دائم له فى الشمال كما أن العثمانيين تعاونوا معه قبل ذلك بامداده ببعض الأسلحة وبناء مستشفى فى صنعاء وهم أولا وأخيرا اخوة له فى الدين ومركز الامام الدينى يمنعه من الانضمام للقوى غير الاسلامية من هنا أعلن الامام الحياد فى الصراع العثمانى البريطانى الا أنه كان أميل الى العثمانيين بحكم الرابطة الدينية كما أن تحالفه مع العثمانيين ١٩١١ كان يقيده ولو نظريا ويمنعه من الوقوف ضدهم ٠ وقد تطوع بعض اليمنيين فى جيش سعيد باشا الذى توغل فى المحميات البريطانية بالجنوب ٠

وحينما طلب الى القوات العثمانية فى اليمن التسليم تطبيقا لهدنة مدروس أجاب محمود نديم باشا القائد العام التركى بأنه يتشاور فى هذا الأمر مع الامام يحيى حسب المعاهدات السابقة ، وقد اتفق الرجلان على أن يسلم الجيش التركى صنعاء وأن يبقى محمود نديم فى خدمة الامام ليساعده على ادارة البلاد (١٦) ٠

ولقد كان موقع اليمن وظروفه فى هذا الوقت من الأمور التى حددت الموقف الذى اتخذه الامام ، فقد كان يخشى الفرق العثمانية الجاثمة فوق أراضيه ، ويعتقد أن نشوب الحرب بينه وبين العثمانيين سيؤدى الى انكماش نفوذه ولن يكون هذا الا فى مصلحة منافسه وعدوه الادريسى الذى يزاحمه فى جزء من ممتلكاته ٠

وقد انتظر الامام يحيى ليعرف موقف البريطانيين وما سيتمخض

عنه الصراع بينهم وبين العثمانيين ، ومراقبة الأحداث وسيرها وهو بعيد عنها ودون أن يشارك فى أحداثها مشاركة فعالة (١٧) ٠

أما العثمانيون فقد استعدوا منذ بداية الحرب العالمية وعلى وجه التحديد قبل أن تعلن حكومتهم انضمامها لدول وسط أوربا ٠ ونشطت عمليات الاستعداد لدى الحامية العثمانية المرابطة فى اليمن على مقربة من عدن فى ذلك الوقت ضمن خطة الاستعدادات العامة فى الدولة ٠فاشترى العثمانيون هناك كميات من الأسلحة والذخيرة من ميناء « جيبوتى » على الساحل الغربى للبحر الأحمر والذى كانت تحتله فرنسا فى ذلك الحين وتمكن وكيل العثمانيين فى عدن من نقل هذه الكميات الى الحديدة على احدى السفن المحلية فضمت الى كميات الأسلحة والعتاد التى اكتظت بها اليمن فى ذلك الوقت نتيجة للحروب الكثيرة التى خاضها العثمانيون لتدعيم حكمهم هناك ٠

وقد قدرت قوة الجيش العثمانى فى اليمن فى شهر ابريل سنة ١٩١٤ بحوالى خمسة آلاف جندى وذلك بعد أن نقلت قوات كبيرة منها الى ميادين الحروب الأخرى التى خاضتها الدولة العثمانية فى أوربا وآسيا الصغرى خاصة بعد عقد « صلح دعان » مع الامام يحيى فى سنة ١٩١١

أما عن توزيع القوة العثمانية المرابطة فى اليمن فقد كان يتغير من وقت لآخر حسبما تقتضيه طبيعة الأحوال السياسية وتصورات الأحداث المحلية ٠ وبصفة عامة كان يعسكر فى صنعاء العاصمة جزء كبير من القوة العسكرية العثمانية المرابطة فى الحديدة تقل عن سابقتها تبعا لوقوع الحديدة فى المرتبة الثانية من ناحية أهمية مركزها الحربى ٠ وكانت تخرج من الحديدة فرق عثمانية منظمة للمحافظة على « اللحية » وعلى المراكز الواقعة بين « اللحيــة » و « زهران » التى تمتد على طول الحدود

العسيرية • أما فى « مناخة » التى تمتاز بمناعتها الطبيعية فقد كان يعسكر فيها طابور عثمانى موزع بين القلاع والمراكز التى عرفت بحصانتها والتى كانت تخرج منها السرايا الى كل من منطقة « حراز » و « حجيلة » لضبط الأمن واخماد حركات التمرد ومرافقة محصلى الضرائب وتدعيم الادارة العثمانية هناك • هذا بينما وضعت باقى الفرق العثمانية فى المدن اليمنية الرئيسية سواء كانت فى نهاية أو فى وسط الهضبة • وفضلا عن ذلك فقد كان هناك مركز تركى قوى فى « الشيخ سعيد » فى الطرف الجنوبى الغربى للجزيرة العربية ، كما كان هناك خط دفاع يمتد من « مخا » عبر « تعز » و « ماوية » ويصل الى « قعطبة » وكان الترك يعسكرون فيه وتعبره دورياتهم بصفة دائمة فى طرق ممهدة تربط هذه المراكز بعضها ببعض • ولقد زادت هذه القوات المرابطة فى اليمن عندما اشتعلت نيران الحرب العالمية الأولى مما جعل «الكولونيل هارولد جاكوب» Harold jacob المساعد الأول للمقيم السياسى البريطانى فى عدن يذكر على لسان أحد الضباط الأتراك أنه يعسكر باليمن خمسة وثلاثون طابورا عثمانيا يقدرون بحوالى أربعة عشر ألفا من الرجال كان أغلبهم من السوريين المجندين فى جيش الدولة (١٨) •

وقد ازدادت هذه الاستعدادات الحربية بعد ذلك ، كما قام بعض الضباط من أركان حرب القوات العثمانية فى اليمن يرافقهم بعض مشايخ البلاد بالطواف على الحدود الممتدة والمتاخمة لمنطقة نفوذ بريطانيا فى جنوب اليمن لاستطلاع حقيقة الموقف هناك ومعرفة كل جديد ، كما قاموا بنقل عدد من المدافع من صنعاء الى تعز لتدعيم قواتهم فى الجنوب • هذا فضلا عن أن العثمانيين حصلوا على تعهد من بعض المشايخ اليمنيين وهم أحمد نعمان ومحمد ناصر والسيد أحمد باشا بحماية الحدود الجنوبية لليمن من أى عدوان بريطانى •

ومن ناحية أخرى بدأ العثمانيون نشاطهم ضد البريطانيين فى جنوب شبه الجزيرة العربية بمحاولة سلمية لجذب سلطان لحج اليهم ووسطوا

لذلك الامام يحيى • وقد ذهب مندوب الامام الى لحج فى ينــاير ١٩١٥ والتقى بالسلطان على الذى كان صديقا لبريطانيا وتمنحه مشاهرة كبيرة وتعترف به سلطانا • وعلى الرغم من أن المندوب ذكر للسلطان أن الامام لن يتمكن من الخروج على تعهده للترك الذين عقد معهم - كما أسلفنا هدنة لمدة عشر سنوات وذلك فى عام ١٩١١ ، فقد كان السلطان يرى أن قيام العثمانيين بعمليات حربية ضد عدن ســيعود بالضرر على أهل بر اليمن نتيجة الحصار البحرى الذى ستضربه بريطانيا على سواحل اليمن وأنه يجب على مشايخ اليمن تسكين حركات الترك على أن يقوم سلطان لحج باقناع حكومة عدن بعدم محاصرة سواحل اليمن وأن تعتبر ولاية اليمن أرضا عربية محايدة •

وكان الامام يحيى بسياسته هذه ينتظر الفرصة المناسبة للاستفادة من هذه الحرب بمقتضى تغير الأحوال ويقدر ما تسمح به الظروف • على حين كان البريطــانيين يرقبــون الموقف عن كثب من قاعدتهم فى عــدن تمهيدا للقيام بدورهم فى استقطاب الحكام العرب المحليين فى شرق البحر الأحمر للوقوف الى جانبهم ضد الترك الذين تحالفوا مع الألمان (١٩) •

سياسة بريطانيا فى الجنوب العربى :

دعمت بريطانيا منذ بداية الحرب قواتها العسكرية البحرية والبرية فى عدن وفى جزيرة بريم واشتركت مع الادريسى فى الاستيلاء على ميناء اللحية اليمنى فى يونية سنة ١٩١٥ فرد العثمانيون بضرب معســـكر « دير حسين » التابع للادريسى ونهبه والاستيلاء عليه •

وقد عانى الجيش والأهالى الكثير تحت وطأة الحصار الشديد الذى فرضــته بريطانيــا على اليمــن ولم يكن أمامهم من مخــرج الا الاندفاع سلطنة لحج الواقعة تحت السيطرة البريطانية للاقامة فيها والتزود من

خيراتها ، كذا الاقتراب من عدن وتهديدها وقد تم لهم ذلك فى يوليو سنة ١٩١٥ ولم تفلح محاولات بريطانيا لاخراجهم منها الا بعد انتهاء الحرب(٢٠).

وقد أصدر البريطانيون منشورا دعائيا تؤكد فيه حكومتهم احترامها للأماكن الاسلامية المقدسة وتلقى بالتبعة على تركيا وألمانيا فى اقحام هذه المنطقة فى الحرب وكان موقف بعض أهالى عدن من البريطانيين قد اتصف بالهدوء والسكينة · وقد ذكر «جاكوب» أنه ليس أدل على ذلك من مهاجمة السيد عبد الله عيدروس قاضى عدن وشيخها الأكبر للدولة العثمانية عندما ذكر هذا السيد أن الدولة العثمانية أقحمت نفسها فى حرب ضد بريطانيا التى وصفها بقوله « الصديق الحميم للمسلمين » الصديق الذى طالما قدم المعونة للباب العالى · كما قال « جاكوب » أن السيد عيدروس هذا قد أكد ان حكومة عدن البريطانية « أحسن وأعدل حكومة عملت من أجل الاسلام وأنهم (أى أهالى عدن اليمنيون) أصدقاؤها منذ احتلالها (اى احتلال بريطانيا) لعدن فى سنة ١٨٣٩ » ·

ومن الواضح كما يقول الدكتور فاروق أباظة « أن التحيز للبريطانيين بارز للغاية » فى رواية « جاكوب » هذه مما يجعلنا نميل الى القول بأن بعض أهالى عدن فقط هم الذين أيدوا هذا الاتجاه ضد دولة الخلافة العثمانية ، وهؤلاء البعض ممن اتفقت مصالحهم الشخصية مع أهواء بريطانيا · ويؤكد ذلك أن بعض سلاطين النواحى الجنوبية فى اليمن ومشايخها سرعان ما غيروا موقفهم هذا من بريطانيا بعد أن دخلوا تحت طائلة العثمانيين الذين جثمت قواتهم فوق أراضيهم · بينما كان موقف البريطانيين متميعا سلبيا ، ولم يقدم لأهالى البلاد المساعدات اللازمة فى الوقت المناسب لصد هذا الهجوم على الرغم من اتفاقيات الحماية المعقودة بينهم ·

ولا شك أن بريطانيا قد فوجئت بالهجوم العثمانى على لحج بعد أن

تعهدت لسلاطين النواحى بالحماية ، بينما لم تكن قواتها فى عدن تكفى للقيام بالتزاماتها ازاء تلك التعهدات • ولا أدل على ذلك من فشلها فى منطقة « الشيخ عثمان » عندما تراجعت أمام القوات العثمانية ولم تتمكن من استرجاع « الشيخ عثمان » الا بعد أن وصلت اليهـــا النجـدة من خارج عدن •

وعلى الرغم من نجاح العثمانيين وتحقيقهم لبعض الانتصارات فى جنوب شبه الجزيرة الا أن هذا النشاط لم تكن له نتائج عسكرية هامة نظرا لأنه لم يكن متسقا مع باقى العمليات العسكرية الأخرى التى كانت تقوم بها دول الوسط • ولذلك لم يقدر لها أن تؤثر على المجرى العام للحرب ، وبعد إسترجاع « الشيخ عثمان » اقتصرت العمليات العسكرية أمام عدن على مناوشات بين الجانبين ، ولكنها اضطرتهما الى ابقـاء قوات غير قليلة فى المنطقة كان من الممكن الاســـتفادة منها فى ميدان آخر ، واستمرت هذه الحال حتى اعلان الهدنة عام ١٩١٨ (٢١) •

وقد حاول البريطانيون تبرير عجزهم عن مواجهة العثمانيين بأنهم لم يكونوا مهتمين بميدان « الجنوب العربى » لقلة تأثيره فى ترجيح كفتهم فى الحرب الكبرى ، وأنهم شغلوا بالميادين الحربية الأخرى ذات التأثير الحاسم فى الحرب • وقد رأى البريطانيون أن الميادين الصغيرة يمكن أن يعالج أمرها فيما بعد،ولا يجب أن تبذل فيها جهود لن تعود عليهم بفوائد كبيرة فى ذلك الوقت • وكان القادة البريطانيون مطمئنين لعدم خطورة مثل هذه الميادين الصغيرة لانهم كانوا يسيطرون على البحار ، وخاصة البحر الأحمر وخليج عدن والخليج العربى ، كما كانوا واثقين من حصانة عدن وعدم مقدرة القوات العثمانية المهاجمة على اقتحامها وهذا فضلا عن أنهم رأوا العثمانيين فى اليمن وقد أصبحوا محصورين بين قوات بريطانيا وأسطولها من ناحيتى الجنوب والغرب وبين حلفائها فى الحجاز ونجد من ناحيتى الشمال والشرق • بل ان البريطانيين كانت لديهم الرغبة الملحة

فى الاجهاز على قوات العثمانيين المناوئة لهم فى جنوب اليمن ، غير أن انشغالهم فى ذلك الوقت أدى الى ارجاء تصفيتهم للنفوذ العثمانى فى المنطقة حتى يطمئنوا أولا على احراز النصر فى الميادين الحاسمة للحرب الكبرى ، مما يجعل هذه التصفية نتيجة حتمية لانتصار الدول المتحالفة على تركيا ومن تحالفوا معها ٠

وعندما انهارت مقاومة دول الوسط فى أوربا طلبت الدولة العثمانية بالهدنة فوقعت هدنة موندروس فى ٣٠ أكتوبر سنة ١٩١٨ وكان من بين شروطها استسلام الحاميات التركية فى الحجاز وعسير واليمن وسوريا والعراق واستلام الموانى التركية فى شمال أفريقيا ٠

الا أن محمود نديم والى اليمن العثمانى حاول ابراز شخصية الامام كوريث شرعى للحكم العثمانى فى اليمن ولكن المقيم السياسى البريطانى فى عدن رفض قبول توسط محمود نديم للاتصال بالامام يحيى بحجة أن الأخير لم يكن طرفا فى الحرب ٠ والجدير بالذكر أن ذلك الاختلاف بين وجهتى النظر البريطانية والعثمانية كان سببا مباشرا فى المشاكل التى أثيرت فيما بعد بين الامام يحيى والبريطانيين حول تحديد الحدود لفصل مناطق النفوذ بين الطرفين (٢٢) ٠

الكويت :

كان التنافس على الكويت شديدا بين العثمانيين والبريطانيين فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر بينما وقف أبناء الكويت وشيوخها صفا واحدا لمقاومة هذه المحاولات من كلا الطرفين ٠

وفى سنة ١٨٩٣ حشد المشير فيضى باشا رتلا من القوات التركية الموجودة فى البصرة مع فئة من أعراب ابن الرشيد ، وأرسل وفدا مؤلفا من السيد رجب النقيب نقيب أشراف البصرة والأميرالاى نجيب بك والى

البصرة ليبلغا الشيخ مبارك الصباح ارادة سنية من الدولة العثمانية تعرض عليه فيها ٠

١ - أن يترك الكويت ويذهب الى الآستانة أو الى حيث يشاء من ولايات الدولة العثمانية ٠

٢ - يعين له راتب شهرى من الدولة العثمانية يعيش به هو وأسرته

٣ - وفى حالة رفضه الخروج من الكويت ستصدر الأوامر الى المحلة السابقة بقيادة فيضى باشا لاخراجه بالقوة المسلحة(٢٣) ٠

ومن الطبيعى أن يعترض الشيخ مبارك على ما حمله له الوفد العثمانى وبعد مشاورات مع أعوانه ومساعديه قام بالاتصال بالحكومة البريطانية التى أرسلت له مدرعتين بريطانيتين وأخبره قائد القوة البحرية برفض الانذار العثمانى ، وأن هناك اتفاقا بين الدولتين (بريطانيا - الدولة العثمانية) بأن تبقى امارة الكويت بعيدة عن تدخل الحكومة العثمانية فى شئونها ، واذا حاولت قواتها الدخول الى الأراضى الكويتية عنوة يكون عندئذ من حق القوات البريطانية التدخل فى الأمر فورا ، وأما اذا سمحتم أنتم لها بذلك ، فستقصف مدينتكم وتدمر من قبل قواتنا المرابطة فى الميناء وقد بلغ الأمير مبارك نفس الحديث الى الوفد العثمانى وطلب منه ابلاغ الانذار البريطانى هذا الى المسئول التركى فى البصرة ، فخشى العثمانيون تفاقم الأزمة ورجع الوفد وألغيت الحملة ٠

ولقد استفز هذا الحادث الشيخ مبارك بعد أن لمس سوء نوايا العثمانيين وخشى أن يحرضوا خصمه ابن الرشيد لغزو الكويت بعد أن يمدوه بالسلاح لذلك رأى من مصلحته التقرب من البريطانيين وخطب ودهم

ونضيف هنا أن الشيخ مبارك وجد نفسه بين تهديد عثمانى وآخر بريطانى وأن امكانات الكويت لا تستطيع الوقوف أمام أى من هاتين القوتين ٠

من هنا فضل الاستعانة بالبريطانيين لأن فى مكنتهم مساندته اذا حاول العثمانيون القيام بعمل عدائى ضده (٢٤) ٠

وفى سنة ١٨٩٨ منح السلطان عبد الحميد الثانى ألمانيا امتياز خط برلين بغداد وبدأ الألمان يعملون لمد الخط الحـــديدى الذى يريدون أن يخترقوا به أراضى الدولة العثمانية من الشمال الى الجنوب ويســتغلوا المناطق الواقعة على جانبيه على أن ينتهى هذا الخط عند رأس كاظمة فيكون لهم فى هذا الخليج ميــــاء عظيم لبواخرهم ومرسى طبيعى أمين لبوارجهم يهددون به مواصلات الامبراطورية البريطانية ٠

ودارت مفاوضات مكثفة بين الوفدين الكويتى والبريطانى انتهتبتوقيع معاهدة حماية فى ١٠ رمضان ١٣١٦ هـ - ٢٣ فبراير ١٨٩٩ م وكان من أهم بنودها أن أمير الكويت يتعهد بألا يؤجر أو يمنح اى جزء من امارته لأية دولة غير انجلترا ورعاياها ، وأنه لا يقبل ممثلين للدول الأجنبية فى بلاده الا بعد موافقتها ، ومقابل ذلك تقدم له انجلترا معونة مالية وتحميه من هجمات أعدائه وتعتبر الكويت امارة مســتقلة فى شئونها الداخلية بمقتضى اتفاقية الحماية ، ويلاحظ من ناحية أخرى أن الاتفاق لم ينص صراحة على أن تمثل بريطانيا الكويت فى الخارج غير أن تطبيقه من الناحية العملية أدى بالكويت الى هــذا الوضــع لاســـيما بعد سقوط الدولة العثمانية (٢٥) ٠

وقد غضبت الدولة العثمانية من جراء ذلك على الشــيخ مبــارك ، وحاولت مساعدة ابن الرشيد أمير حائل فى هجماته المستمرة على الكويت وأمدته بأسلحة كثيرة وأرادت أن تؤازره بقواتها العسكرية ، ثم تراجعت عن محاولتها هذه أمام صمود الكويتين وتهديد بريطانيا ٠

ويحاول بعض المؤرخين تبرير عقد الشيخ مبارك لاتفاقية الحماية مع بريطانيا بأنه كان مضطرا الى ذلك لأسباب أهمها :

١ - طمع العثمانيين فى فرض سيطرتهم على الكويت ·

٢ - ارسال العثمانيين « مركب زحاف » الى الكويت لابعاد الشيخ مبارك ·

٣ - ارسال الدولة العثمانية حملة عسكرية لاحتلال الكويت وابعاد أميرها وقد وصلت تلك الحملة الى الفاو بالبصرة ·

٤ - مساندة العثمانيين لابن الرشيد وتشجيعه على مهاجمة الكويت

٥ - استيلاء بعض القوات العثمانية على أرض تابعة للكويت وهى جزيرة يوبيان وسفوان ، وأم قصر وأقامة المراكز العسكرية هناك تمهيدا لجعلها منتهى سكة حديد بغداد ·

٦ - الصعوبات الداخلية فى الكويت والمتمثلة فى الشيخ يوسف آل ابراهيم ورغبته فى الامارة ·

ويلاحظ أن الكويت قبل اعلان الحماية كانت امارة مستقلة على الرغم من الارتباط الروحى بينها وبين الدولة العثمانية مركز خلافة المسلمين فى ذلك الوقت وأن هذا الارتباط لم يتحول يوما الى ارتباط رسمى (٢٦) ·

معاهدة ٢٩ يوليو ١٩١٣ :

حاولت الحكومة البريطانية حل خلافاتها مع الدولة العثمانية من ناحية ومع ألمانيا من ناحية أخرى بسبب مشروع سكة حديد بغداد - برلين وبعد مفاوضات مكثفة مثل العثمانيين فيها حقى باشا ومثل البريطانيين

ادوارد جراى وزير خارجيتها ثم التوصل الى مسودة اتفاق سرى اعترفت بريطانيا فى مادته الأولى بعلاقة الكويت بالامبراطورية العثمانية · أما العثمانيون فقد اعترفوا من جانبهم بعدم التدخل فى الشئون الداخلية للشيخ مبارك بما فى ذلك مسألة الوراثة على أن يرفع الشـــيخ العلم العثمانى · وقد عين قائمقاما فى الكويت لتكون له السلطة لحماية الرعايا العثمانيين والمصالح العثمانية فى منطقته · وقد اعترفت الحكومة العثمانية كما جاء فى الفقرة الثالثة من الاتفاقية بالاتفاقيات البريطانية مع الكويت فى ١٨٩٩ ، ١٩٠٠ ، ١٩٠٤ · وقد تعهدت بريطانيا فى الفقرة الرابعة بأن لا تقوم باعلان الحماية على الكويت (٢٧) ·

وأعطى شيخ الكويت صلاحيات مطلقة (حسب ما جـــاء فى المادة السابعة) فى ميناء الكويت ومدينة الكويت ·

أما المنطقة المحيطة بالكويت والمحيطة بدائرة أخرى يمتد محورها من خور الزبير والى أم قصر وصفوان وجبل سنام ثم ينحرف بعد الباطن الى الجنوب الغـربى حتى حفـر الباطن ثم الى الصفاو الجرة والحمة والوربة وجبل منيفة على ساحل الخليج العربى فانها تابعة لشيخ الكويت ولكن قبائلها هم ضمن ولاية البصرة · وقد تعهدت الحكومتان بالتشـــاور مع بعضهما فى حالة امتداد سكة حديد بغداد الى الكويت حول مستقبل ميناء الكويت ·

الاتفاق البريطانى ـ الألمانى (٢٨) :

وفى ١٥ يونيو ١٩١٤ اعترف الانجليز بعد وصولهم مع الألمـان الى مسودة اتفاق حول سكة حديد بغداد ·· اعترفوا بأهمية سكة حديد بغداد للتجارة الدولية والتطور الاقتصـادى العالمى ووعدوا بمســاندة المشروع الألمـانى لمد سـكة حديد تمتـد الى البصرة (المـادة الأولى) وقد قبلت

الحكومة الألمانية قبول المساهمين البريطانيين فى مجلس ادارة شركة سكة حديد بغداد (المادة الثانية) . وقد اتفق الطرفان على أن تكون البصرة هى نهاية الخط وأن تتنازل الشركة عن حقها فى خط حديدي الى ساحل الخليج العربى كما جاء فى الفقرة الأولى من اتفاقية سنة ١٩٠٣ بين الحكومة العثمانية والبنك الألمانى . وقد وعد الطرفان بالقيام بمفاوضات خاصة لأجل مد سكة الحديد من البصرة الى الخليج العربى (مادة ٣) وقد تعهد الألمان بصورة خاصة بعد قيامهم بانشاء ميناء على الخليج العربى أو مساندة أية جهة أجنبية فى ذلك العمل .

وقد تعهد الطرفان بالتفاوض مع الحكومة العثمانية لتسهيل الملاحة فى شط العرب (المادة السادسة) .

وقد وعدت الحكومة التركية فى ٢٨ يونيو ١٩١٤ بمنح امتياز لشركة النفط التركية للتنقيب عن النفط فى ولايتى بغداد والموصل وكانت الشركة المذكورة شركة ألمانية بريطانية .

وهكذا تمكنت الدبلوماسية الألمانية من تحقيق أهدافها فى الزحف نحو الشرق . ولكن قيام الحرب العالمية الأولى قضى على جميع الآمال الألمانية التى بذلتها ألمانيا وأعلن الانجليز الحماية على الكويت متجاهلين اتفاق ١٩١٣ مع العثمانية و ١٩١٤ مع الألمان وبذلك أزالوا آخر المعاقل العثمانية فى الخليج العربى ثم بدأوا زحفهم من شط العرب الى البصرة فبغداد وحققوا آمالهم التاريخية فى السيطرة على أرض الرافدين فى وقت كان من المؤمل أن تسيطر عليه ألمانيا(٢٩) .

قيام الحرب العالمية الأولى وأثره :

لم تدخل الدولة العثمانية الحرب العالمية كما هو معروف الا بعد مضى ثلاثة أشهر من قيامها فى أوربا وفي خلال تلك المدة لم تغفل حكومة

الهند البريطانية بحث الاجراءات التى يجب اتخاذها فى منطقة الخليج العربى فى حالة خوض العثمانيين الحرب بجانب دول الوسط ضد الحلفاء وكان رأى بيرس كوكس المقيم العام فى الخليج هو ألا ترسل بريطانيا قوات عسكرية أمام المنطقة الا بعد وقوع الحرب فعلا ، وهدفه من ذلك هو ألا تظهر بريطانيا أمام السكان بمظهر المعتدى . ولم تأخذ حكومة لندن بهذا الرأى ومنذ شهر أكتوبر ١٩١٤ أى قبل اعلان العثمانيين الحرب أرسلت بعض القوات للمرابطة فى البحرين - وكان هدفها فى البداية حماية آبار النفط فى مسجد سليمان الواقعة فى اقليم الأهواز ، لحاجة البحرية البريطانية الى استخدامها فى الوقود ، وأصبح من الضرورات الهامة لكسب الحرب ولتأمين الآبار من احتلال منطقة شط العرب من جزء من أراضى ايران .

وكان البريطانيون يأملون فى الاتصال بحلفائهم الروس عبر أراضى الدولة العثمانية ، وبمجرد اعلان العثمانيين للحرب قامت السلطات البريطانية باعلان الكويت امارة مستقلة ٣ ديسمبر ١٩١٤ وأصدرت التبليغ الآتى الى الشيخ مبارك : « يجب على الرؤساء العرب التعاون مع الحملة البريطانية لتحرير البصرة من العثمانيين . ومهمة الشيخ مبارك هى القيام بمهاجمة المراكز العثمانية فى أم القصر وصفوان وجزيرة ببيان وتتعهد بريطانيا بحماية الكويت بحدودها الجديدة بعد ضم هذا الموقع ، والتعهد بحماية طرق المواصلات البريطانية . وفى مقابل ذلك توجه السلطات البريطانية الشكر الى حاكم الكويت ، وتتعهد بعدم رد البصرة الى العثمانيين وبحماية أملاكه فى شط العرب له ولورثته ، مع اعفائها من جميع الضرائب والاعتراف باستقلال الكويت تحت الحماية البريطانية .

وهناك نقطتان لهما دلالتهما فى هذا التبليغ .

أولاهما : الدعوة الى تحرير البصرة ، وهل كانت بريطانيا تريد اجتذاب هؤلاء الزعماء العرب الى مفهوم جديد للقومية على أساس فكرة العروبة ومعارضتها بفكرة التضامن الاسلامى تحت راية العثمانيين ؟

هناك شك كبير حول هذا الاحتمال ، اذ أن حكومة الهند التى أدارت حملة العراق كانت ضد بعث الحركات القومية فى الشرق بصفة عامة وقد اختلفت بهذا الصدد مع حكومة لندن حينما اتفقت مع الشريف حسين على أساس تزعم حركة قومية عربية مناهضة للعثمانيين .

الثانية : هى وصف الكويت بأنها دولة مستقلة تحت الحماية البريطانية ويفسر القانونيون هذا التناقض بالتمييز بين مصطلحى Pyotectorate أى محمية وهذه هى التى تفقد استقلالها أما الأقطار الموضوعة تحت الحماية n der protection فلا تفقد بالضرورة استقلالها وهذه هى حالة الكويت(٣٠) .

وقد تمكن الشيخ مبارك من التغلب على ميل غالبية السكان الى الدولة العثمانية وكان عليه أن يبرر موقفه أمام مواطنيه بأن العثمانيين اخطأوا بتحالفهم مع ألمانيا ومعاداتهم للحكومة البريطانية ، وكذلك حاول تفسير موقفه أمام الأقطار الاسلامية الأخرى ولجأ الى اغراء بعض الصحفيين بالمال لنشر مقالات تدافع عنه وتبرر تحالفه مع بريطانيا ومحاربة للعثمانيين وعلى كل فقد ذهب حاكم الكويت الى حد تأليف قوة صغيرة ساهمت بالقدر الذى يتناسب معها فى حملة العراق ومع ذلك لم يمر التعاون الكويتى البريطانى دون اثارة مشاكل عويصة فقد اشتد التدخل البريطانى - بحجة الحرب - فى شئون الكويت الداخلية كفرض الرقابة على الميناء لمنع الاتجار مع الأعداء مما جعل أهالى الكويت يشعرون بضيق شديد فقد عزت الأقوات وارتفعت أسعار السلع وتمنى الأهالى انتهاء الحرب(٣١) .

الشيخ جابر الثانى ١٩١٥ - ١٩١٧ :

فى نوفمبر ١٩١٥ توفى الشيخ مبارك وخلفه ابنه الأكبر جابر وكان حاكما مصلحا عادلا ، دمث الخلق ، طلق الوجه محبا للخير ، وقد استبشر الناس خيرا بتوليته الامارة نظرا لأن والده الشيخ مبارك قد أرهق الناس بالضرائب لتغطية نفقات الأعمال الحربية التى قام بها · ولذلك فقد افتتح الشيخ جابر عهده بتخفيض الرسوم التى وضعها والده على تجارة اللؤلؤ وباعفاء الناس من ضريبة الثلث على العقارات التى فرضها والده عليها وأرجع بعض البيوت المصادرة الى أهلها ، وبسط يده بالانفاق من خزانة الدولة فأحبه الناس وتعلقوا به ·

وقد نشطت التجارة فى المدة القصيرة التى تولى الحكم فيها حيث اتصل تجار الكويت بأسواق نجد والحجاز والشام والعراق والآستانة وأما عن علاقة الكويت ببريطانيا فى عهده فقد بعث نائب الملك لورد هاردنج الى الشيخ جابر مهنئا بولايته ومؤكدا أنه طالما يعمل وفق الترتيبات القائمة مع الحكومة البريطانية فانه سيعامل منها ذات المعاملة التى كان يعامل بها والده(٣٢) ·

ومن ناحية أخرى أبدى الشيخ جابر عطفا على العثمانيين فقابلت بريطانيا ذلك بتشديد الرقابة حتى أصبحت الكويت فى حالة حصار تقريبا ، مما أثار سخط الأهالى الذين يشتغلون بالتجارة واضطرت بريطانيا الى اتباع أسلوب الملاينة فوعدت التجار بالتعويض عما لحقهم من خسائر من جراء الحصار ومن الجدير بالذكر أن هذا التحول فى موقف حكام الكويت أتى بعد احراز الانجليز انتصارات هامة فى العراق ، بينما كان الشيخ مبارك قد انتقد سياسة التعاون مع بريطانيا أثناء تعثرها فى الحملة وتعرضها لهزيمة فى كوت العمارة(٣٣) ·

ويروى بعض المؤرخين أنه عقد فى الكويت سنة ١٩١٧ مؤتمرين

منها السير برسى كوكس الحاكم العسكرى فى العراق والملك عبدالعزيز آل سعود والشيخ خزعل خان والشيخ جابر الصباح لما يسمى توحيد العرب تحت راية زعيم منهم ضد الأتراك وكان مما قاله الشيخ جابر « نحن مسلمون ، واذا ما أجمع المسلمون على شخص فنحن له من الطائعين »

وأما موقف عبد العزيز فكان واضحا وثابتا وهو ألا يرفع سيفه فى وجه دولة اسلامية وفى وقت محنتها .

وقد توفى الشيخ جابر الثانى فى عام ١٩١٧ ليتولى الحكم فى الكويت أخيه الشيخ سالم بن مبارك الصباح (١٩١٧ - ١٩٢١) .

وكان تقيا عفيفا يجمع بين نباهة الذهن وسداد الرأى وعرف عنه القسوة الشديدة على أهل المنكر ، والعطف والحنو على أهل الأدب والعلم ، كما قام بخفض الرسوم الجمركية وألغى الرسوم على البضائع المصدرة .

وقد أكدت له بريطانيا ما سبق أن قالته للشيخ جابر ، كما فرضت على الكويت حصارا بحريا تجاريا لمراقبة البضائع الداخلة الى الكويت والخارجة منها ، خشية تموين الدولة المعادية لها فى الحرب العالمية الأولى بعد أن تأكد لها أن الكويت كانت مصدرا تجاريا لتموين هذه الدول خلال السنوات الأولى من الحرب . وقد رفض الشيخ سالم طلبها هذا فى بادىء الأمر ، مما جعل المقيم العام البريطانى فى الخليج العربى يهدده بأنه اذا لم تذعن مصممة على ذلك واذا لم تذعن لارادتها فسوف تمطر الكويت بوابل من القنابل ، فلم يزدد الا رفضا واباء . ثم عاد السير برسى كوكس فدعاه الى الموافقة على طلب بريطانيا فى رسالة دبلوماسية رقيقة مؤكدا له أن الموظفين الذين سيشرفون على تصدير البضائع سيكونون تابعين للشيخ سالم نفسه وأن هذا الأمر مؤقت وسيزول بانتهاء الحرب ، وستعوض بريطانيا الكويت عن النقص الذى سيلحق بها من جراء الحصار . وأمام تبدل لهجة بريطانيا والضمانات التى قدمتها على احترام سيادة الكويت ، وافق الشيخ سالم على طلبها . وتوالت الأحداث بصورة طبيعية

الى نهاية الحرب العالمية الأولى وحتى سنة ١٩٢١، حيث تولى الحكم الشيخ أحمد الجابر وفى عصره نقلت الكويت الى مرحلة جديدة(٣٤) .

مسقط وعمـان :

توجد الى الشرق من عدن سلطنة مسقط من القسم الساحلى للركن الجنوبى الشرقى من الجزيرة العربية غربى سلطنة مسقط وتشمل مناطق عمان الوسـطى والشرقية والجبل الأخضر ، وتضـم الجانب الأكبر من سلسلة جبال الحجر الطويلة وبعض السهول الواقعة بينهـا وبين الربع الخـالى .

وعلى الرغم من المنافسات الشـديدة حول هـذه المنطقة من جانب البريطانيين والفرنسيين والألمـان وغيرهم الا أن الحقيقة المؤكدة أن عمان كانت مستقلة منذ ألف ومائتى عام وأنها بسطت نفوذها على مسقط وقتا طويلا . ثم خضعت مسقط لبريطانيا من خلال عدد من الاتفـاقات التى وقعت بين عامى ١٧٩٨ -١٩٢٩ والتى بمقتضاها منح الرعايا البريطانيون امتيازات تقدمهم على غيرهم فى المعاملات التجارية وتقرر لهم فى مسقط مقيمين ووكلاء وضباط اقتصاديين وسياسيين عدا القناصل . وعلى الرغم من ذلك فقد كانت مسقط مستقلة استقلالا اسميا وأما عمان فقد احتفظت باستقلالها وسيادتها على مر العصور(٣٥) .

ومن المعروف أن الغالبية العظمى من سكان عمان على المذهب الاباضى وليس لهم فاصل بين الدين والدولة ويتمسكون بأن يكون الحكم بالقرآن والسنة وينتخبون اماما من بينهم يرعى شئونهم .

واذا كانت بريطانيا قد حاولت أثناء الحرب العالمية الأولى التدخل فى المنطقة للحفاظ على مصـالحها الا أن مواطنى هـذه المنطقة تمسـكوا باستقلالهم وأرسـلوا الى الحكومة البريطـانية تأكيدات بأنهم اعتادوا أن يديروا شئونهم بأنفسهم .

وهناك مراسلات بين الجانبين تؤكد أن العمانيين لم يعترضوا فقط على اجراءات مكافحة الرق وتجارة السلاح ، بل طالبوا كذلك بحرية الملاحة العربية دون خضوعها لاجراءات التفتيش المختلفة وبعد نهاية الحرب نشط الوكيل السياسى البريطانى رونالدونجت فى ايجاد تسوية للمشاكل الداخلية وذلك تمشيا مع السياسة البريطانية العامة والتى سادت حينذاك والتى تهدف الى تخفيض النفقات العسكرية فى الشرق الأوسط.

ومما يسترعى الانتباه أن وينجت فى احدى رسائله ألمح الى قوة بريطانيا وكيف أنها تمتلك نصف مليون جندى فى العراق لقمع الثورة التى اشتعلت هناك .

وقد انتهت تلك المحاولات الى ايجاد اتفاق عرف باتفاق السيب ٢٥ سبتمبر ١٩٢٠ وقد كفلت هذه التسوية الهدوء فى عمان لمدة طويلة .

وقد تضمنت معاهدة السيب ثمانية بنود أربعة منها تخص شعب عمان وأربعة تخص حكومة السلطان والتى تخص شعب عمان :

١ - لا يحصل من أى فرد أكثر من ٥٪ .

٢ - يتمتع العمانيون سكان السواحل بالأمن والحرية فى مدن الساحل .

٣ - رفع القيود عن تنقلات العمانيين .

٤ - عدم منح حكومة السلطان حق اللجوء لأى مجرم يهرب من عدالة عمان الداخلية ولا تتدخل فى شئونهم .

والشروط التى تخص حكومة السلطان هى :

١ - يتعين على كل القبائل وجميع الشيوخ أن يعيشوا فى سلام مع السلطان ولا يهاجموا مدن الساحل ، ولا يتداخلوا فى نشاط حكومة السلطان .

٢ - يتمتع بالحرية جميع الذين يذهبون الى عمان (الداخل) لأداء أعمال مشروعة أو نشاط تجارى ولا تفرض أى قيود على التجارة وينعمون بالأمن ٠

٣ - لا يحق لشعب عمان الداخل أن يعطى حق اللجوء الى كل من يرتكب عملا غير مقبول أو أى مجرم يهرب اليها ٠

٤ - ينظر فى مطالب التجار وغيرهم ضد شعب عمان الداخل ويتخذ بشأنها قرارات على أساس العدل ووفق قواعد الشريعة الاسلامية ٠

وقد تمت صياغة المعاهدة بطريقة غامضة ملتوية ، كما اعترف بذلك الوسيط البريطانى « ونجت » الذى قال : ان الفكرة من المعاهدات كانت دفع القبائل الى الاعتقاد بأنها تملك استقلالها وفى الوقت نفسه فان الحكومة البريطانية تستطيع أن تنفى أى اعتقاد لدى السلطان بأن هذه المعاهدة بشروطها المذكورة تنتقص شيئا من سيادته على شعب عمان كله وبلاده ٠

ونخلص من دراسة تاريخ المنطقة فى تلك الفترة الى عدة حقائق هامة

أولا : استقلال عمان منذ ألف ومائتى عام وبسط نفوذها على مسقط طويلا ، كذلك الدور العمانى الرائع فى شرق أفريقيا فى مقاومة الاستعمار البرتغالى وقيام سلطنة عربية فى زنجبار ومحاولات البريطانيين التدخل للفصل بين السلطتين ٠

ثانيا : يتمثل استقلال العمانيين واضحا فى انتخابهم لامامهم بمطلق حريتهم وارادتهم ومقتضى مصلحتهم ٠

ثالثا : اختلاف نظام الحكم فى مسقط وعمان حينذاك ، فبينما هو فى الأولى ملكى وراثى اذا به فى الثانية امامى اسلامى شورى ، يتولى فيه

الحكام والقضاة شئون الحكم والقضاء باسم الامام ويمارسونها حسب أحكام الشريعة الاسلامية .

رابعا : دعم معانى الاستقلال بالنصوص والدلالات التى تضمنتها معاهدة « السيب » لسنة ١٩٢٠ .

وقد اعترف المؤرخون الغربيون باستقلال عمان ولم يجد البريطانيون أنفسهم بدا من التسليم بهذه الحقائق .

حواشي الفصل السادس
شبه الجزيرة العربية ومنطقة الخليج

(١) د٠ سيد نوفل : الأوضاع السياسية لامارات الخليج العربى وجنوب الجزيرة ، الكتاب الثانى ، معهد البحوث والدراسات العربية ، ص ١٩ ص ٢٢ ٠

(٢) د٠ محمود صالح منسى : حركة اليقظة ، مرجع سابق ص ٢١٥

(٣) د٠ تركى بن محمد بن سعود : علاقة بريطانيا بالملك عبدالعزيز آل سعود ١٩٠٢ ـ ١٩٢٥ من بحوث المؤتمر العالمى عن تاريخ الملك عبد العزيز ، الدارة ، رجب ١٤٠٦ مارس ١٩٨٦ ص ٣٨ ـ ٣٩ ٠

(٤) المرجع السابق ، ص ٣٩ ٠

(٥) د٠ صلاح العقاد : التيارات السياسية فى الخليج العربى ، ١٩٨٣ ص ١٩٣ ٠

(٦) المصدر السابق ، ص ١٩٤ ، د٠ سيد نوفل ، ج ١ ، سابق ص ١٥٤ ، قدرى قلعجى ، سابق ص ٥٦ ٠

(٧) د٠ تركى بن محمد ، سابق ص ٤١ ٠

(٨) المرجع السابق ص ٤٢ ٠

(٩) محمد جلال كشك : السعوديون والحل الاسلامى ، الطبعة الرابعة ١٩٨٤ ، ص ٣٦٩ ـ ٣٧٠ ٠

(١٠) محمد رفعت : سابق ، ص ٢٨٢ ٠

(١٢) المرجع السابق ، ص ٢٨٣ ٠

(١٣) د٠ زاهية قدورة ، سابق ، ص ٢٢ ٠

(١٤) د٠ تركى بن محمد بن سعود ، سابق ص ٤٣ ـ ٤٤ ٠

(١٥) محمد جلال كشك ، المرجع السابق ص ٣٩٤ ـ ٣٩٥ ٠

(١٦) د٠ محمود صالح منسى : سابق ص ٢١٦ ـ ٢١٧ ٠

(١٧) د٠ فاروق عثمان أباظة : عدن والسياسة البريطانية فى البحر الأحمر ، الهيئة العامة ١٩٧٦ ، ص ٥٧٤ ـ ٥٧٨ ٠

(١٨) المرجع السابق ص ٥٧٧ .

(١٩) محمد رفعت ، سابق ، ص ٣١٠ .

(٢٠) د. فاروق أباظة ، سابق ص ٥٦٩ .

(٢١) المرجع السابق ص ٥٧٠ _ ٥٧١ .

(٢٢) د. أحمد عبد الرحيم مصطفى ، فى أصول التاريخ العثمانى ، ١٩٨٢ ص ٢٩٢ .

(٢٣) قدرى قلعجى : الكويت ، ص ٤٨ .

(٢٤) المرجع السابق ، ص ٤٨ .

(٢٥) د. صلاح العقاد : التيارات السياسية ، سابق ص ١٨٥ .

(٢٦) محمد رفعت ، سابق ص ٤٨١ .

(٢٧) قدرى قلعجى ، مرجع سابق ، ص ٥٦ _ ٥٧ ، د. صلاح العقاد ، سابق ١٩٤ .

(٢٨) د. محمود على الداود : الخليج العربى والعلاقات الدولية . معهد الدراسات والبحوث العربية ١٩٦٠ ، ص ٢٠٢ _ ٢٠٣ .

(٢٩) المرجع السابق ص ٢٠٣ .

(٣٠) العقاد سابق ، ص ٢٢٣ .

(٣١) قدرى قلعجى ، سابق ص ٨٢ .

(٣٢) قلعجى ص ٨٢ ، د. سيد نوفل ، ج ١ ص ١٤٨ .

(٣٣) د. صلاح العقاد ، التيارات السياسية ، سابق ص ٢٢٤ .

(٣٤) أضواء على تاريخ الكويت ، مرجع سابق ص ٨٤ .

(٣٥) د. سيد نوفل ، الكتاب الثانى ، مرجع سابق ص ١٢٢ .

(٣٦) د. صلاح العقاد ، مرجع سابق ، ٢٣٢ ، د. سيد نوفل ، مرجع سابق ص ٣٩ .

الفصل السابع

العراق فى الحرب العالمية الأولى

أ - العراق فى الحرب العالمية الأولى) :

كانت بريطانيا أكثر الدول الأوربية اهتماما بالعراق منذ القرن السابع عشر نظرا لموقعه الجغرافى وأهميته الاستراتيجية لحماية مركزهم فى الخليج العربى ولتأمين مواصلاتهم البحرية مع الهند ، ونظرا لأهميته الاقتصادية من حيث الزراعة والتجارة والبترول ، ولمحاذاته عبدان مركز أعظم مصافى بترول المنطقة ومركز تموين الأسطول البريطانى بالهند ٠

وكان تطلع بريطانيا أيضا الى العراق لاتساع رقعة أراضيه التى يمكن أن تستوعب أعدادا كبيرة من سكان الهند عندما تدعو الحاجة مما جعل بريطانيا منذ عام ١٧١٣ تمهد بأن يكون لها موطن قدم فى العراق لذلك عملت بريطانيا على استبعاد النفوذ الهولندى والفرنسى من الهند وفارس (١) ٠ وبسطت سلطانها على سواحل الخليج العربى وجزأته الى كيانات متعددة ونصبت شيوخا وأمراء ثم مدت نفوذها الى العراق التى كان بالنسبة اليها نقطة الثقل فى ميزانها الاستعمارى ٠ وكانت بريطانيا مدركة أن سلامة طرق المواصلات لامبراطوريتها مع الهند هى السيطرة على مراكز وادى الرافدين الاستراتيجية لا سيما منطقة شط العرب ٠ وقد لعبت الشركات التجارية دورا أساسيا فى ذلك ٠ وما أن كان أواخر القرن التاسع عشر حتى أصبحت بريطانيا فى طليعة الدول الطامعة فى العراق

ولم تكن بريطانيا وحدها وانما كان ينافسها فى هذا الميدان روسيا التى كانت هى الأخرى ترغب فى جعل بغداد عاصمتها فى الجنوب كما ظهرت الأطماع الألمانية مستترة وراء العثمانيين واذا كانت بريطانيا قد توصلت الى اتفاق مع روسيا عام ١٩٠٧ فقد حاولت بكل السبل الدبلوماسية مواجهة الخطر الألمانى (٢) ٠

فقد أثارت مشروعات ألمانيا الامبراطورية العثمانية تنفيذا لسياسة الاتجاه نحو الشرق Drang_Nahosten وخاصة سكة حديد بغداد قلق الحكومة البريطانية التى صارت تخشى وصول النفوذ الألمانى الى المحيط الهندى عبر العراق والخليج .

ولذلك فقد سارعت الحكومة البريطانية الى اغلاق الطريق فى وجه النفوذ الألمانى بابرام اتفاقيتها المعروفة مع شـــيخ الكويت فقد كانت بريطانيا تعتبر الوجود الألمانى أشد خطرا من الروسى .

وعلى الرغم من دعوة رءوس الأموال البريطـانية والفرنســية الى المساهمة فى مشروع سكة حديد بغـداد فقد رفض العرض باعتبـار أن المشروع يخدم المصالح الاستعمارية لألمانيا وحدها .

ولقد عبر لورد كيرزون عن حقيقة الأطماع البريطانية فى العراق فى تصريح أمام مجلس اللوردات عام ١٩١١ بقوله : « انه من الخطل ان نظن أن مصالحنا السياسية تنحصر فى الخليج انها ليست منحصرة فيه ولا بين بغداد والبصرة انها تتعدى ذلك حتى تصل الى بغداد نفسها » .

وكتبت جريدة ديلى ميل فى ٢٩ مارس عام ١٩١٥ : « ان حوض ما بين النهرين يجب أن يكون ملكا لبريطانيا ومنفذا طبيعيا للانتقال من الهند » وخطب اللورد كيرزون فى ١٥ ابريل من العام نفسه فى جمعية الفنون الجميلة يقول : « ان الأرض الواقعة شمال الخليج الفارسى ليست ملكا للأتراك انهم دخلاء عليها وان من واجب السياسة البريطانية أن تحرر هذه الأرض منهم وأن تعود تلك العلاقة الطيبة بين هذه البلاد وبين بريطانيا نتيجة لسياستنا التى اشتغلنا بها منذ خمسين عاما وان نفوذ الألمان يجب أن يأخذ حده ويختفى . وان خط حديد برلين ـ بغداد لن يكون له نفع ما لم يكن تحت رايتنا »(٣) .

واذا كان مشروع سكة حديد بغداد كان سببا من أسباب الحرب العالمية الأولى فان ذلك يرجع الى أهميته السياسية لا الاقتصادية ويقتضينا المقام الحديث بايجاز عن خط سكة حديد بغداد حتى تتضح الصورة أكثر من ذلك ٠

سكة حديد بغداد وسياسة الاتجاه نحو الشرق :

كانت سياسة « الاتجاه نحو الشرق » تمثل ركنا أساسيا فى السياسة العليا لألمانيا ٠ وكان من أهم المشروعات الألمانية التى انبثقت عن هذه السياسة واستحوذت على تفكير الامبراطور الألمانى ولهلم الثانى (١٨٨٨ ـ ١٩١٨) ووقته واهتمامه انشاء طريق للمواصلات الحديدية بين أوربا والشرقين الأدنى والأوسط حتى الخليج العربى،وبذلك يمكن تحويل جانب كبير من التجارة العالمية من طريق قناة السويس الى الطريق الجديد فضلا عن مزايا عديدة تحققها الدولتان العثمانية والألمانية ، ويقوم هذا المشروع على مد خط حديدى يربط ألمانيا باستانبول ثم الى أنقره وقونية فى آسيا الصغرى ثم الى شمالى الشام ثم يمتد شرقا الى الموصل فى العراق ثم جنوبا الى بغداد ، على أن يمد الى البصرة ثم الى موقع ما على الخليج العربى تتفق عليه الدولتان فيما بعد ٠

وأهم المزايا التى استهدفتها ألمانيا من هذا الخط :

أولا : اتخاذ ألمانيا من التسلل الاقتصادى فى الدولة العثمانية وسيلة لجعل ألمانيا قوة استعمارية عالمية فى منطقة الشرق الأوسط ٠ وهى منطقة شاسعة الأرجاء ذات أهميةعسكرية بالغة كان طريق بغداد ـ برلين أهم وأبرز ما يجسد تسللها الاقتصادى ٠

ثانيا : اسهام الخط الحديدى فى نمو واتساع وازدياد نفوذ مصلحة الدين العثمانى مثل البنك الألمانى والمؤسسات الاقتصادية مثل البنك

الألمانى وشركة سكة حديد الأناضول . وكانت مصلحة الدين العثمانى العام هى الأداة الحقيقية والفعالة للاستعمار المالى الأوروبى فى الدولة العثمانية .

ثالثا : تحويل المناطق التى يمر بها خط السكة الحديد المذكور فى الدولة العثمانية الى مناطق لانتاج المواد الخام والمحاصيل الزراعية التى تستخدم فى الصناعة الألمانية وخدمة الاقتصاد الألمانى .

رابعا : استغلال نفوذها السياسى فى الدولة العثمانية بوضع خطط تستهدف تحقيق الاستخدام الأفضل والأمثل للخط الحديدى فى الأغراض الحربية من ناحية ولزيادة امكانات انتاج المواد الخام والمحاصيل الزراعية وسرعة نقلها الى ألمانيا من ناحية أخرى .

خامسا : تحويل جزء من تجارة الشرق من طريق قناة السويس الى طريق . ب . ب كما أنه سيؤدى الى امتداد نفوذ ألمانيا امتدادا متصلا عبر البلقان والأناضول وأقاليم متعددة فى الشرق العربى الآسيوى الى الخليج العربى (٥) .

وأما أهداف العثمانيين من تنفيذ المشروع فيمكن ايجازها فى :

١ - محاولة السلطان عبد الحميد الثانى الاستفادة من الخبرات الألمانية ورءوس الأموال الألمانية بادخال اصلاحات حقيقية وملموسة يشعر بها رعايا الدولة وساسة أوروبا ويدرك الجميع أن الدولة العثمانية دخلت حقيقة عصر الاصلاحات والمشروعات الانتاجية .

٢ - رغبة العثمانيين فى الاستفادة من الوزن السياسى والثقل العسكرى لألمانيا فى أوربا كدولة صديقة . كما كان السلطان عبدالحميد واثقا فى ذات الوقت بقدرته على دفع جميع المخاطر التى قد تنشأ عن رغبة ألمانيا أو مطامعها فى السيطرة السياسية على الدولة العثمانية .

٣ - أدرك السلطان عبد الحميد أن تنفيذ المشروع يعود بفوائد جمة على الدولة من النواحى الاقتصادية والعمرانية والعسكرية والسياسية ويفسر بعض الباحثين اهتماما السلطان عبد الحميد بانشاء هذا الطريق تفسيرا تعسفيا ، حيث قالوا أن السلطان رأى فى هذا المشروع وسيلة عصرية لسحق أى ثورة قد تنشب فى ممتلكات الدولة فى غربى آسيا وبذلك يسهم هذا الخط فى دعم الحكم العثمانى المنهار فى الولايات العربية وغيرها . ويشبه هذا التفسير فى جملته وتفاصيله التفسير الذى ذكره البعض عن سكة حديد الحجاز مع اختلاف الأقاليم والمناطق التى يخدمها كل من الخطين الحديديين .

ويغفل هؤلاء الباحثون عن حقيقة هامة - كما يقول أستاذنا الدكتور عبد العزيز الشناوى وهى أن طريق ب . ب الحديدى هو مشروع ألمانى دما ولحما جاء وليد تفكير الامبراطور الألمانى ولهلم الثانى ومتمشيا مع السياسة العليا لألمانيا التى كانت تخوض وقتذاك بصفتها احدى دول التحالف الثلاثى تنافسا دوليا حادا ضد دول الوفاق الثلاثى وسرعان ما تتطور هذا التنافس الى صراع حربى رهيب فى الحرب العالمية الأولى وهو صراع لم تشهد الانسانية له مثيلا (٦) .

العراق فى الحرب العالمية الأولى :

عندما أعلنت الحرب العظمى كان البريطانيون يعتمدون فى تموين الأسطول البريطانى بالهند على بترول عبدان على رأس الخليج العربى ، وخشية أن يتعرض هذا المركز الحيوى لخطر من الأخطار وخاصة أنه كان قريبا من مراكز النفوذ العثمانية ولذلك رأت الحكومة البريطانية ضرورة احتلال البصرة تأمينا لمراكز البترول واحتفاظا بالسيطرة على الخليج .

ولم تكن القيادة العثمانية تولى شئون العراق العسكرية أهمية

تذكر باستثناء حاميتها فى البصرة ولولا اصرار والى بغداد على ضرورة الاحتفاظ بها لانسحب العثمانيون منها ٠

وكان انضمام العثمانيين الى جانب الألمان مبررا لقيام انجلترا بهجومها الكبير على العراق فقد بات مؤكدا أن العثمانيين سيدخلون الحرب ضد بريطانيا ان عاجلا وان آجلا وان مصالح بريطانيا فى نظر هؤلاء الساسة ستصبح مهددة بالخطر اذا لم يقوموا بحركة سريعة تحفظ لهم الخطوط الأمامية فى سهول الرافدين (٧) ٠

الهجوم البريطانى على العراق :

أرسلت انجلترا أول حملة عسكرية من بومباى فى ٢٩ أكتوبر ١٩١٤ بقيادة W . S . Delmain وقد اتجهت هذه الفرقة التى أطلق عليها رمز D أول حرف من اسم هذا القائد ٠ وقد وصلت الحملة الى البحرين ورابطت فيها وفى ٦ نوفمبر أطلقت مدافع الباخرة أودين Odin قنابلها على حصن الفاو الواقع على ضفاف شط العرب ثم تلاها نزول جماعة من الجيش البريطانى بقيادة الضابط روشر فكانت أول قدم انجليزية تنزل أرض العراق غازية معادية وطامعة فى تحقيق ما كانت تعمل له السياسة البريطانية منذ عشرات السنين فى هذا الجزء من بلاد العرب التابعة للامبراطورية العثمانية (٨) ٠

وكانت بريطانيا قد أصدرت فى ٣١ أكتوبر منشورا تحرض فيه القبائل على العثمانيين تحاول استمالتهم وتؤكد أن دخولها الحرب جاء بعد الحماقة التى ارتكبها العثمانيون بدخولهم الحرب بتحريض من ألمانيا وأن فى هذه الحرب ستكون نهايتها اذ يبدو أن الدولة العثمانية لا يمكن بقاؤها ٠

وأكد أن بريطانيا لن تهدد حرية العقيدة أو الشعائر الدينية وأنها

أبلغت باقى الشيوخ الذين يتمتعون بحماية بريطانيا بأن يحافظوا على السكينة ولا يسمحوا « للطائشين » من رعاياهم فى القيام بما يعكر الأمن ويضر بالمصالح البريطانية وأعلناهم أنهم اذا التزموا ذلك فسوف يخرجون من هذه الحرب أشد قوة وأكثر حرية من ذى قبل(٩) ٠

ثم أصـدر المقيم البريطـانى فى الخليج بيانا آخر يؤكد فيه احترام الشعائر الدينية والمحافظة على الأماكن المقدسة ٠

ولما شعرت القوات البريطانية بضعف العثمانيين أخذوا يتقدمون فى داخل البلاد دون صعوبات تذكر باستثناء ارتفاع الشاطىء فى البصرة وعلى الرغم من ذلك فقد تقدموا فى البصرة بعد انسحاب العثمانيين منها فى ٢٢ نوفمبر ١٩١٤ ، كما فشلت محاولة العثمانيين سد شط العرب باغراق بعض السفن التجارية فى مدخله لمنع تقدم السفن البريطانية ٠

وقد زار حاكم الهند البريطانى المناطق المفتوحة من جنوبى العراق وألقى نظرة على الثمرة الهينة التى سـقطت فى أيدى القوات البريطانية وألقى خطبة أثناء هذه الزيارة جاء فيها :

« لا يخفى أننا لا نقاتل وحدنا فى هذه الحرب العظمى فلا نستطيع رسم خطط للمستقبل من غير أن نتبادل الآراء مع الدول الكبرى ولكنى أؤكد لكم أن المستقبل يجلب الكم عهدا أفضل من ذى قبل » (١٠) ٠

وعلى الرغم من هذه الوعود التى قطعها القادة البريطانيون وأعلنوها قبل وبعد دخولهم العراق الا أنهم ما كادوا يضعون أيديهم على البلاد حتى نكثوا بكل هذه الوعود والعهود ، بل انهم كانوا مصممين مقدما على النكث ٠٠ كانت وعودهم كلها خداعا وتغريرا مقصودا ٠

انتصار العثمانيين فى سلمان باك :

بدأت المرحلة الثانية للهجوم البريطانى على العراق بفكرة الزحف الى بغداد اذ هاجم الانجليز العثمانيون بالقرب من (سلمان باك) وكان العثمانيون قد نجحوا فى اثارة الشعور الدينى لدى مسلمى هذه المناطق مما أدى الى وقوع اضطرابات فى جنوب ايران حيث تقع فى مصافى النفط فقطعت الأنابيب بالقرب من عبدان فأثر ذلك على البريطانيين تأثيرا بالغا.

وفى ١٢ ابريل ١٩١٦ شن العثمانيون هجوما عنيفا على الشعيبة بقيادة سليمان باشا وانسحب على اثره البريطانيون الى الكويت وتعقبهم القائد العثمانى نور الدين وحاصرهم حصاراً محكما لمدة خمسة أشهر تقريبا ، مما أجبر الانجليز على الاستسلام دون قيد أو شرط فى ٢٩ ابريل ١٩١٦ وكان لهذه الهزيمة أثر بالغ فى نفوس الانجليز غير أنهم لم يتنازلوا عن فتح بغداد لأنهم رأوا من الضرورى أن يتمسكوا به ويسيطروا عليه نظرا لأن الخطر الروسى بدأ يلوح من الشمال عن طريق الموصل .

ويمكن القول بأن العثمانيين لو دعموا قواتهم فى العراق بعد هذه المعارك الناجحة لتغيرت صورة الحرب ولكن أدى قيام الثورة العربية فى الحجاز بقيادة الشريف حسين الى تشتيت جهود العثمانيين وأضعف موقفهم مما كان له أثره الكبير على تطورات الموقف بعد ذلك .

أثر اعلان الجهاد فى العراق :

بعد اعلان العثمانيين للجهاد وصدور أكثر من فتوى بهذا الخصوص قام عدد من علماء العراق بالدعوة الشاملة للجهاد فى المساجد وفى الندوات التى عقدت لهذا الغرض وأصدروا الفتاوى التى تجعل الجهاد فرضا يقوم به كل قادر على حمل السلاح لمواجهة الاحتلال البريطانى للعراق كما أفتى علماء المسلمين فى العراق على اختلاف مذاهبهم باجابة أمر

الخليفة واعتبروا من يعصى هذا الأمر خارجا . وتسابق العراقيون لمساندة العثمانيين فى مواجهة هذا الزحف الأوروبى وبدأ العلماء يقومون بادارة شئون المجاهدين فأحسنوا الادارة وهيأوا الهم ما تيسر من الأموال والذخائر والمعدات الحربية معتمدين فى ذلك على ما يصلهم من المساعدات وتبرعات المحسنين وعلى ما قدمته الدولة العثمانية ، كما قام العلماء بالفصل فى الخصومات بين الأهليين وايقاف المعارك بين القبائل ونجحوا فى ذلك الى حد كبير (١١) .

ومن الأسماء التى برزت فى هذا الميدان السيد محمد سعيد الحبوبى الذى نجح ومن معه من المجاهدين فى تأخير الحملة البريطانية فى الشعيبة وكان عدد المجاهدين معه يتجاوز الثمانية عشر ألفا ، وفى الناصرية قام بدور لا يقل أهمية عن دوره فى الشعيبة .

وقد استشهد من العلماء الشيخ باقر حيدر ، والمرحوم الشيخ طاهر فرج الله . وأشار بعض المؤرخين الى حسن بلاء المجاهدين فى معركة مزيوغة .

وقد سجل بعض القادة البريطانيين اعجابه بقوة وشجاعة هؤلاء المجاهدين ومن هؤلاء القائد البريطانى (طاوزند) .

ولم تقف أعمال العلماء عند المعاونة فى القتال ، فقد ساهموا فى تعديل الخطط العسكرية بأن أفهموا القيادة العثمانية بضرورة حماية ميسرة الجيش فى (القورنة) بعد ما علموا بعزم الانجليز على احتلال العمارة من طريق الحويزة والأهواز فشكلت القيادة جيشا وفتحت جبهة ثالثة هى جبهة الحويزة ومعظم جيشها من المجاهدين تحت قيادة توفيق بك الذى عرف بالخالدى ثم أبدل بالقائد محمد فاضل الداغستانى وكان العامل الفعال فى فتح هذه الجبهة السيد عيسى كمال الدين الذى جلب

من الأهوز الكبار من زعماء القبائل فى الحويزة والأهواز بعد أن أعلنوا الجهاد والثورة ضد الانجليز وحليفهم الشيخ خزعل حاكم (عربستان) وتقدموا الى القيادة ببعث الجيش العثمانى الى أراضيهم وعشائرهم وقد ساندهم العلماء المرابطون فى العمارة بالاضافة الى عالمهم شريكهم فى الثورة والجهاد وهو السيد عيسى ، كما ذهب معهم من العلماء المرحوم الشيخ جعفر والشيخ راضى ، والشيخ مهدى الخالص والشيخ عبد الكريم الجزائرى .

وقد ازداد العلماء تصميما وإصرارا على القيام بفريضة الجهاد بعد هزيمة (الشعيبة) فهزيمة (القورنة) فسقوط العمارة فالانسحاب العام فى دجلة حتى (سالمان باك) فان بقية العلماء التحقوا بهم واحتشدوا فى الكاظمية جميعا (١٢) .

ومن الأعمال التى قا بها العلماء والعشائر فى معركة سالمان باك والتى تحقق فيها النصر :

١ - حلول السيد على الداماد ومن معه فى الشطرة للحيلولة دون زحف الانجليز من هذا الطريق لتخليص المحاصرين فى الكويت مدة خمسة أشهر ، فان وجوده أوجب تأليف العشائر لمنع مرور الانجليز عن طريق « الدجيلة » .

٢ - وجود الشيخ عبد الحسين مطر فى وسط المحاربين من قبيلتى (الأزيرج وخفاجة) الواقعتين بين الشطرة والناصرية أوجب فشل الحملات البريطانية المتتابعة للنفوذ الى الكوت مع كثرة الخسائر من الطرفين فى الأرواح والعتاد .

٣ - المجاهدون الذين استخدمهم السيد عيسى كمال الدين فى أواسط الأهواز وعمد بهم الى نسف أنابيب النفط وقد تعطل الخط يوما

كاملا وبالمجاهدين حارب عملاء الانجليز فى بهبهان واشتبك فى معركتين كان لهما أثر كبير .

معركة بغداد ١٩١٧ :

بعد أن تقدمت القوات البريطانية واستولت على البصرة : ثم على المثلث الواقع بين البصرة والعمارة والناصرية ، وأقامت حاكما سياسيا فى البصرة وأخذ فى اتباع سياسة التفرقة فى محاولة منها لتغزية النزعة الانفصالية ولكن سياستها باءت بالفشل .

ولم تلبث بريطانيا أن وجهت حملة أخرى للاستيلاء على بغداد وضم ولايتى بغداد والبصرة الى الادارة الهندية مباشرة ، ولكن الحمنة — كما رأينا — منيت بالفشل وحوصرت فى الكوت حصارا طويلا واضطرت الى التسليم دون قيد أو شرط(١٤) فى ٢٩ ابريل سنة ١٩١٦ .. ولكن بعد اتفاقية سايكس بيكو السرية سارعت بريطانيا لاتمام السـيطرة على المنطقة ما بين بغداد والبصرة وهى التى أصبحت من نصيبها بموجب هذه الاتفاقية ، وأعدت جيشا على رأسه الجنرال مود Maude أمكنه التقدم والاستيلاء على بغداد يوم ١١ مارس ١٩١٧ بعد انسحاب العثمانيين منها وكان الزحف على بغداد أمرا ضروريا تقتضيه مصلحة بريطانيا من جهات متعددة أولها الخوف من روسيا ، وثانيها مركز بغداد الحربى ، وثالثها أهميتها بالنسبة للعرب حيث يسهل الاتصـال بوجوه البلاد وأشرافها لتنظم قواهم فى اخراج العثمانيين وضمان مسـاندتهم للحلفاء وللتأكيد عليهم بأن هذه الحرب لا دخل لها بالدين وأن الجهاد المقدس الذى يدعو اليه الترك ضلالة .. ويكشف بيان القائد البريطانى « مود » عن أسلوب البريطانيين لخداع الأهالى فقد جاء فيه (١٥) : « اننا لم ندخل بلادكم أعداء فاتحين ، انما دخلناها محررين ، فلقد خضع مواطنوكم منذ أيام هولاكو لمظالم الغرباء فتخربت قصوركم وذوت بساتينكم وقاسى أسلافكم

من آلام الاستبداد مثلما قاسيتم وسيق أبناؤكم الى حرب لم تريدوها وسلبكم الظلمة ثروتكم وبعثروها فى الأرجاء البعيدة » ٠

لقد وعدكم الأتراك منذ أيام مدحت باشا بالاصلاح ولكن ألم يكن هذا الخراب والاقفار برهانا على كذب الوعود ٠

ان أمنية مليكى وأمنية شعوبه بل أمنية الدول العظمى المتحالفه مع جلالته أن تعودوا كما كنتم فيما مضى حين كانت أراضيكم مخصبة وكان العالم يرضع أفاويق المعرفة من آداب أجدادكم وعلومهم ويتعلمون منهم الحرف والصنائع حيث كانت بغداد احدى عجائب الدنيا ٠ لقد ارتبط قومكم بأقاليم جلالة مليكى المعظم برباط وثيق حيث يتبادل تجار بغداد وتجار بريطانيا العظمى بعضهم مع بعض المنافع والصداقة مائة عام ، أما الألمان والترك فقد نهبوكم واتخذوا بغداد مدة عشرين عاما مركزا يهجمون منه على نفوذ بريطانيا وحلفائها فى ايران والأقطار العربية فلم تصبر بريطانيا على هذه الأفعال ولم تتغافل عما حدث وسيحدث فى بلادكم حاضرا ومستقبلا ٠

يا أهل بغداد ان أعمالكم التجارية وادخال الطمأنينة والأمن فى بلادكم من غوائل الغزو والظلم من الأمور التى تستوجب اهتمام الحكومة البريطانية الى الأبد ٠٠ » ٠

ويمضى بيان الفريق أول « مود » القائد البريطانى فيحاول جذب العراقيين الى الانضمام الى ثورة الشريف حسين فيقول :

« لقد طرد العرب بغاة الألمان والترك من الحجاز ونادوا بعظمة الشريف حسين ملكا عليهم،وان عظمته يتمتع بالاستقلال والحرية ويحالف الأمم التى تحارب الترك والألمان وكذلك هو شأن أشراف العرب وأمراء

نجد والكويت وعسير معا ، ولقد ذهب كثير من أشراف العرب ضحية فى سبيل الحرية على أيدى الظلمة من الترك .

لقد عزمت بريطانيا والدول العظمى المتحالفة معها ألا يذهب ماقاساه أشراف العرب هباء منثورا وان أمل بريطانيا العظمى وأمل الأمم المتحالفة معها أن تعود عظمة الأمة العربية تارة أخرى وأن يسعى أبناؤها كتلة واحدة للوصول الى هذه الغاية بالاتحاد والوئام .

« يا أهل بغداد اذكروا أنكم تألمتم مدة تربو على ستة وعشرين جيلا وقاسيتم فيها آلام الظلمة الغرباء الذين سعوا بالفساد والايقاع بين البيت والبيت كى يستفيدوا من انشقاقكم انها سياسة مكروهة عند بريطانيا وحلفائها وانكم تعلمون أن السلام والفلاح لا يستقيمان فى أحضان العداوة وسوء الحكم وعلى ذلك كله فقد طلبت الى أن أدعوكم بواسطة أشرافكم وشيوخكم وممثليكم الى الاشتراك فى ادارة مصالحكم ومعاضدة ممثلى بريطانيا السياسيين المرافقين للجيش كى تنضموا الى اخوانكم شمالا وجنوبا وشرقا وغربا فى تحقيق طموحكم القومى .

الفريق الأول

مود

قائد القوات البريطانية فى العراق

ويتضح من هذا المنشور الذى أعلنه القائد البريطانى « مود » أنه أعد بعناية شديدة وبألفاظ مختارة على أيدى عدد من المستشرقين البريطانيين وعلى الرغم من المغالطات العديدة التى امتلأ بها المنشور الا أنه كان محاولة بريطانية لاجهاض الأثر المحتمل لاعلان الجهاد الاسلامى ومحاولة لخداع العراقيين واقناعهم بضرورة محاربة العثمانيين وطردهم والانضمام الى الثورة الحسينية حتى يكون من حقهم فى المستقبل الحصول على ثمار النصر واعطائهم الاستقلال .

ويذكر الدكتور عبد العزيز نوار وهو من كبار المتخصصين فى تاريخ العراق الحديث أن المسئولين البريطانيين اتصلوا بعزيز المصرى يدعونه على التعاون معهم ضد الأتراك فاشترط المصرى عليهم أن يعلنوا صراحة أنهم لن ينزلوا قواتهم فى البلاد العربية وأنهم لا يضمرون استعمار البلاد العربية . وأكد لهم أنه مستعد لطرد الأتراك من العراق لو نقلوه الى البصرة على ظهر سفينة بريطانية وأعطوه كميات من السلاح على ألا ينزلوا معه أرض العراق أى جندى بريطانى . وكان عزيز المصرى بعيد النظر حين قال لهم أنه اذا وجد نفسه فى هذه الحالة فى حاجة الى معونة أجنبية لتحرير العراق والشام من العثمانيين فانه سيطلب معونة فرنسية بالنسبة للعراق ومعونة بريطانية بالنسبة للشام لأن عزيز كان يعرف تمام المعرفة أن الفرنسيين لا يمكن أن يتركوا الانجليز يقيمون فى الشام ولا الانجليز يتركون العراق للفرنسيين ولكن الانجليز على أى حال رفضوا اعطاء أى التزامات لعزيز المصرى وبحثوا عن شخصية أخرى تقوم بالثورة على الأتراك وكان حسين بن على - شريف مكة - على استعداد للثورة عليهم ففاتحوه بالأمر .

ولكن لماذا قبل عزيز المصرى أن يتولى قيادة جيش الثورة العربية؟

والاجابة على هذا التساؤل أنه كان يرى أن العرب اذا أرادوا القتال فليقاتلوا الى جانب الأتراك ضد الانجليز الذين كانوا يستعمرون فعلا البلاد العربية ويتفق فى هذا مع الزعيم العراقى طالب النقيب الذى قال « ان الذى لا يرضى بحكم الأتراك اخوانه فى الدين حرى به أن يأبى حكم الانجليز » .

ولهذا عندما تولى عزيز المصرى قيادة جيش الحسين عزم على احداث انقلاب ضده ليتسلم الحكومة منه وليتعاون مع الأتراك ضد الانجليز .

ولكن فشلت المحاولة حيث اكتشف الانجليز أمره وعاد عزيز المصرى الى القاهرة(١٦) ٠

استكمال فتح العراق :

بعد استيلاء البريطانيين على بغداد فى ١١ مارس ١٩١٧ بعد انسحاب القوات العمثانية منها ، استمر تقدم القوات البريطانية بعد ذلك من الموصل ، ولكن القوات البريطانية تقدمت مع ذلك لاحتلالها على الرغم من هذه الهدنة ولم يأبه القائد البريطانى باحتجاج على احسان باشا القائد العثمانى الذى اعتبر هذا الاحتلال مخالفا لشروط الهدنة ٠ وقد أذعن أخيرا حين وصله الأمر من استانبول مؤذنا بالجلاء ، فتركها فى العاشر من الشهر ذاته بناء على أن الشروط التى عقدت فى مدروس Mudros احدى جزر اليونان بين بريطانيا والدولة العثمانية قد اشترطت أن تتخلى هذه الدولة عن مواقع حامياتها فيما بين النهرين وفى مناطق أخرى ٠ وأن تسلم ذلك للحلفاء (١٧) ٠ وهكذا احتلت بريطانيا مدينة الموصل وباحتلالها أصبح العراق جميعه تحت السيطرة البريطانية وقد كلفتها العمليات الحربية لهذا الاحتلال خسارة فادحة فى الأنفس والأموال تقدر بمائة ألف اصابة فى الأفراد ما بين قتيل ومفقود وجريح ومائتى مليون جنيه استرلينى ٠

وفى ٧ نوفمبر ١٩١٨ صدر التصريح الفرنسى الانجليزى المشهور الذى نص على أن غاية الدولتين هى « تحرير الشعوب التى رزخت تحت النير التركى تحريرا تاما وتأييد وتشجيع قيام حكومات وطنية فى كل من سوريا والعراق وقد حررهما الحلفاء فعلا »(١٨) ٠

على أن السياسة البريطانية الفعلية فى ذلك الحين كانت تسير فى طريق استعمار العراق ، وان انقسمت الى مدرستين : الأولى : هى المدرسة

الهندية ذات الارتباط الوثيق مع شركات البترول العاملة فى ايران والعراق وكانت تسعى لالحاق العراق بالممتلكات البريطانية ، وهى مدرسة الحكم المباشر .

والثانية : وهى مدرسة القاهرة المكونة من رجال القسم العربى فى دار المندوب السامى بالقاهرة الذى يشرف عليه كلايتون Clayton وهوجارت Hogarth ولورنس Lawrence وهى مدرسة الحكم غير المباشر .

وفى الفترة الأولى من الاحتلال كان ممثل بريطانيا فى العراق أرنولد ولسن الذى أصبح مندوبا عاما بالنيابة عن كوكس وكان من رأيه أن منح الاستقلال لدولة صغيرة يقل تعدادها عن ثلاثة ملايين يعد رجوعا الى الوراء بل هو خطوة نحو الفوضى وأن الوضع الأفضل للعراق – فى تصوره – قيام دولة محمية من نوع ما يمكن أن تندرج حتى تصل فى وقت غير بعيد الى وضع الرومينيون تحت التاج البريطانى وكان لذلك يرى أن يحكم العراق حكما مباشرا على أن يرتبط القسم الجنوبى فيه خاصة ارتباطا كليا بحكومة الهند أو على الأقل يبقى خمس سنوات تحت الحكم البريطانى المباشر . ولتنفيذ هذه السياسة أخذ يعمل على « تهنيد » العراق ، وخاصة القسم الجنوبى(١٩) عن طريق ادخال النظم والقوانين والمبادىء الادارية والقضائية الانجليزية المطبقة فى الهند ، وتركيز السلطات الأساسية فى يد الحكام السياسيين الانجليز ومعاونيهم وتعيين بعض العراقيين فى الوظائف الثانوية .

ونتيجة لهذه السياسة وسوء الادارة البريطانية بدأت مقاومة العراقيين لهذا الاحتلال حيث كان من الصعب تطبيق النظم الموجودة بالهند على شعب عربى عاش فى عهد العثمانيين فى حالة استقلال نسبى لم تخضع فيه عشائر العراق للسلطة المباشرة ولم تخضع لضروب الأعنات التى بدأ تطبيقها فى عهد الاحتلال البريطانى الجديد .

وكانت العراق تضم الى جانب قوة العشائر قوة أخرى أجل شأنا وأعظم تأثيرا . وهى قوة العلماء العراقيين فى النجف وغيرها وبدأ الانجليز يلتمسون الوسيلة لارضاء هاتين القوتين .

استفتاء العراقيين حول مستقبل الحكم فى العراق :

على الرغم من تحديد الحكومة البريطانية لنظامها الاستعمارى فى العراق الا أنها لجأت الى الحيلة لاستمالة العراقيين خصوصا بعد ثورة النجف التى اندلعت فى عام ١٩١٨ وقد أمرت الحكومة فى تصريح نشر فى لندن عن اجراء استفتاء عام يحدد فيه العراقيون اختيارهم لنظام الحكم مع التأكيد بأن الوضع النهائى للبلاد العربية سيقرر نهائيا فى مؤتمر الصلح فلم يرض ذلك العراقيين ومع ذلك صممت السلطات البريطانية على اجرائه وكان يدور حول ثلاثة أسئلة هى :

١ — هل ترغبون فى تأليف حكومة عربية مستقلة تحت الوصاية الانجليزية فيمتد نفوذها من أعالى شمال الموصل الى خليج البصرة ؟

٢ — هل ترغبون فى أن يرأس هذه الحكومة أمير عربى ؟

٣ — من هو الأمير الذى تختارونه لرياسة هذه الحكومة ؟

وجرى الاستفتاء على الرغم من معارضة العراقيين له وكانت النتيجة كما أعلنتها السلطات البريطانية .

النجف : « أن يكون للعراق الممتدة حدوده من شمال الموصل الى الخليج العربى حكومة عربية اسلامية يحكمها ملك عربى مسلم هو أحد أنجال الملك حسين على أن يكون مقيدا بمجلس تشريعى » .

وكان رد الكاظمين :

« نطلب أن تكون للعراق الممتدة أراضيه من شمال الموصل الى

خليج العرب حكومة عربية إسلامية يرأسها ملك عربى مسلم هو أحد أنجال جلالة الملك حسين على أن يكون مقيدا بمجلس تشريعى وطنى ٠ والله ولى التوفيق ٠

وكان رد كربلاء

« ٠٠ قد رأينا على أن تستظل بظل راية عربية اسلامية ، فانتخبنا أحد أنجال سيدنا الشريف ليكون أميرا علينا ، مقيدا بمجلس منتخب من أهالى العراق لتبيين الفوائد الموافقة لروحيات هذه الأمة وما تقتضيه شئونها » ٠

وأما بغداد فقالت :

« ٠٠ اننا ممثلوا الاسلام من السنة والشيعة من سكان بغداد وضواحيها ، بما أننا أمة عربية اسلامية ، فقد اخترنا أن تكون لبلاد العراق الممتدة من شمالى الموصل الى خليج العجم دولة واحدة عربية يرأسها ملك عربى مسلم هو أحد أنجال سيدنا الشريف حسين مقيدا بمجلس تشريعى وطنى مقره عاصمة العراق بغداد » ٠

ويظهر أن اليهود وبعض الذميين كانوا فى خوف من الحكم العربى الجديد فحاولوا أن يعارضوا هذه الرغبة الشعبية ٠ فأرسل أحد هؤلاء باسم أحد شبان كربلاء الى كبير مجتهدى الشيعة الشيرازى قال له فيه :

« ما يقول شيخنا وملاذنا حضرة حجة الاسلام والمسلمين آية الله فى العالمين الشيخ مرزه محمد تقى الشيرازى ٠٠ فى انتخاب أمير تستظل بظله وتعيش تحت رايته ولوائه ، فهل يجوز لنا انتخاب غير المسلم للامارة والسلطة علينا ، أم يجب علينا اختيار المسلم ؟ » ٠

فكان الجواب وجيزا قاطعا هو :

« ليس لأحد من المسلمين أن ينتخب ، ويختار غير المسلم للامارة والسلطنة على المسلمين » . والامضاء : الأحقر ـ محمد تقى الحائرى الشيرازى .

وهكذا اتحدت كلمة العراقيين وظهرت حجتهم ناصعة جلية .

وبعد لغط ومظاهرات ومتاعب أذاعت السلطات البريطانية بيانا قالت فيه « أنه تقرر جعل العراق حكومة مستقلة تضمن استقلاله عصبة الأمم وتوكل بريطانيا عن العراق ، وتكليف الحكومة البريطانية بحفظ السلم الداخلى والخارجى ، وتشكيل قانون أساسى (دستور) يستشار فيه الأهالى . وورد فى البيان أن انتداب الحكومة البريطانية ينتهى بعد أن تتمكن الحكومة الجديدة من السير بمفردها فى حكم ناجح .

وأما معاملة البريطانيين للشعب العراقى فكانت معاملة الغالب للمغلوب ، كما حكمت البلاد حكما عسكريا واتخذ الجيش أسلوبه فى تأمين حاجاته فأصدر الحاكم العسكرى أوامره وبياناته ونفذتها الشرطة العسكرية فيما يختص بالسيطرة على تحديد حرية الأشخاص ووسائل النقل البرية والنهرية وتفضيل الضباط البريطانيين والنساء الأوربيات وخدم الحكومة على الأهليين ، يضاف الى ذلك ما صدر من تعليمات تتعلق بحمل السلاح وتنظيم بيع السلع الضرورية والأدوية واستعمال مياه الأنابيب ولم يترد الجيش المحتل عن اخراج السكان قسرا من دور سكناهم وأراضيهم دون أن يدفع لهم شيئا . وكانت السخرة مألوفة حيث تساق جموع الفلاحين والعمال من حقولهم وبيوتهم قسرا الى العمل .

لقد استعمل المحتلون نظاما صارما فى حكم العراق لم يألفه السكان متجاهلين الشعور الوطنى والعادات والتقاليد العربية المتأصلة فى نفوس

السكان ، كما فرضت ضرائب مباشرة ثقيلة على المواطنين وبلغ مجمل ما تم جمعه فى سنة ١٩٢٠ ثلاثة أضعاف ونصف ما جمعه العثمانيون سنة ١٩١١ .

وهكذا ساقت هذه السياسة الاستعمارية البريطانية العراق الى ثورة شعبية فى النجف عام ١٩١٨ وثورة عراقية كبرى عام ١٩٢٠ وكانت أهم أسباب تلك الثورات شعور الجماهير العراقية بتوطيد النفوذالبريطانى فى البلاد بعد أن حصلت بريطانيا على حق الوصاية بموجب اتفاقية سان ريمو ١٩٢٠ .

ومن أهم هذه الجمعيات جمعية العهد العراقية وحرس الاستقلال وغيرهما من الجمعيات الأخرى .

وكان لموقف العلماء المسلمين فى العراق ومؤازرتهم للقوى الوطنية ودعوتهم لمقاومة الاحتلال أثر كبير فى قيام هذه الثورة .

واذا كانت ثورة النجف قد اشتدت فى ١٩ مارس ١٩١٨ وأدت الى مقتل الحاكم البريطانى الكابتن مارشال فقد حاصر البريطانيون النجف مدة وصلت الى أربعين يوما استولت بعدها القوات البريطانية على المدينة وقامت بسلسلة من أعمال القمع تمثلت فى نفى مائة شخص من وجهاء المدينة الى الهند دون محاكمة ، واحالة أربعين الى محكمة عسكرية من بينهم عضوان من الجناح السياسى لجمعية النهضة الاسلامية هما الشريف محمد على ، والسيد ابراهيم السيد باقر المعروف بالبهبانى وحكم بالاعدام على أحد عشر ثائرا من الجناح العسكرى لجمعية النهضة على رأسهم الحاج نجم الذى قاد الهجوم على دار الحكومة والذى أسفر عن مقتل الحاكم البريطانى .

وأما ثورة العشرين فقد استمرت أربعة أشهر و ٢٧ يوما من ٣٠

يونيو - ٢٧ نوفمبر ١٩٢٠) قبل أن تتمكن السلطات البريطانية من اخمادها وقد كبدت القوات البريطانية حسب احصاءاتها ٤٢٦ قتيلا ، و ١٢٢٨ جريحا ، و ٦١٥ مفقودا . كما كلفتها خسائر مالية قدرت ب ٤٠ مليون جنيه استرلينى أى أكثر مما صرف على الثورة الحسينية فى الحجا والدولة العربية فى الشام(٢١) .

حواشي الفصل السابع

العراق

(١) د· زاهية قدورة ، مرجع سابق ، ص ١٣٠ ·

(٢) د· محمود صالح منسى ، اليقظة ، مرجع سابق ، ص ٣٢٥ ·

(٣) د· محمد بديع شريف : العراق (من كتاب النهضة العربية) ص ٢٦٦ ·

(٤) د· عبد العزيز الشناوى : الدولة العثمانية ، جـ ٣ ص ١٣٥٤ ـ ١٣٥٩ ·

(٥) المرجع السابق ، ص ١٣٥٩ ، د· محمد بديع شريف ، ٢٦٨·

(٦) الدولة العثمانية ، جـ ٣ ، ص ١٣٥٦ ـ ١٣٥٨ ·

(٧) محمد رفعت : مرجع سابق ص ٢٣٤ ـ ٢٢٥ ·

(٨) د· زاهية قدورة ، مرجع سابق ١٣٠ ، د· محد بديع ، مرجع سابق ، ٢٦٩ ·

(٩) د· محمد بديع شريف ، مرجع سابق ، ص ٢٧٠ ، محمد رفعت ، مرجع سابق ، ص ٢٢٥ ·

(١٠) محمد صبيح ، مرجع سابق ، ص ٤٣٠ ·

(١١) محمد على كمال الدين ، ثورة العشرين فى ذكراها الخمسين ، ١٩٧١ ، ص ٦ ـ ٨ ·

(١٢) المرجع السابق ، ص ٧ ·

(١٣) د· محمد بديع ، سابق ص ٢٧١ ·

(١٤) د· عبد العظيم رمضان : مرجع سابق ص ٢٧٢ ·

(١٥) د· محمد بديع شريف : سابق ص ٢٧٢ ـ ٢٧٥ ·

(١٦) د· عبد العزيز نوار : مصر والعراق ، الأنجلو ، ٢٨٠ ـ ٢٨١

(١٧) د· عبد العظيم رمضان ، مرجع سابق ، ص ٢٧٢ ·

٢٧٥ .

(١٨) د. محمد بديع ، مرجع سابق ، ص ٢٢٦ - ٢٢٨ .

(١٩) محمد رفعت : التوجيه السياسى ، مرجع سابق ص ٢٧٥ .

د. رمضان ، مرجع سابق ، ص ٤٣٤ .

(٢٠) محمد صبيح ، ج ١ ، مرجع سابق ، ص ٤٣٤ .

(٢١) د. محمد بديع شريف ، ص ٢٧٦ - ٢٨٠ ، د. عبد العظيم رمضان ، ص ٢٧٩ - ٢٨١ .

الفصل الثامن

سوريا ولبنان ـ الأردن

(١٩١٤ ـ ١٩١٨)

في بداية الحرب العالمية الأولى كانت بلاد الشام تنقسم الى ثلاث ولايات وثلاث متصرفيات مستقلة . أما الولايات فهي :

١ ـ ولاية سوريا التي كانت تضم دمشق والأقضية التابعة لها ، ومتصرفيات حماه وحوران والكرك .

٢ ـ ولاية بيروت ، التي كانت تضم الى جانب بيروت والأقضية التابعة لها ، متصرفيات نابلس وعكا وطرابلس واللاذقية .

٣ ـ ولاية حلب ، وكانت تضم الى جانب حلب والأقضية التابعة لها ، متصرفية أورفة ومتصرفية مرعش .

أما المتصرفيات المستقلة فهي متصرفية دير الزور ، ومتصرفية القدس ومتصرفية لبنان(١) .

أما الأردن فقد كانت الأراضي الواقعة الى الشرق من نهر الأردن أيام الدولة العثمانية جزءا من ولاية سوريا ثم أصبحت تؤلف جزءا من المملكة العربية في دمشق بين نوفمبر سنة ١٩١٨ ويوليو ١٩٢٠ ولكنها لم تكن جزءا موحدا فمن ناحية الشمال كانت عمان والكرك تابعتين لدمشق ومن ناحية الجنوب كانت معان والعقبة تابعتين للملك حسين في الحجاز . وطالما كان الحسين يعتبر نفسه ملكا للبلاد العربية لم تكن مسألة الحدود مثار خلاف بين فيصل في دمشق وأبيه في مكة(٢) .

ومن الجدير بالذكر أن سوريا التى كانت مركزا للدولة العربية وعاصمتها دمشق فى العصر الأموى ، هى سوريا التى بدأت اتصالها بالغرب منذ أوائل العصور الحديثة ، هذا الاتصال الذى يرجع الى القرن السادس عشر حيث انشئت فى حلب شركة الشرق الأدنى للتجارة وهى شركة بريطانية مارست نشاطا تجاريا واسعا بين الشرق الأقصى وغرب أوروبا وحققت نجاحا مرموقا فى ذلك الميدان وبقيت سوريا — على الرغم من تبعيتها للحكم العثمانى — مرتبطة بالغرب بنوع من الاتصال فكانت الدول الكبرى تهتم بها بحجة رعاية مصالح الأقليات المسيحية التى تقيم فيها وكانت هذه الدول — فى ظل الامتيازات الأجنبية تعنى بافتتاح المدارس وبعث الارساليات اليها فكان هذا مصدر تنبيه للتطورات الفكرية والسياسية والقومية المناهضة للحكم العثمانى(٣) ٠

واذا كان العثمانيون قد حاولوا الاصلاح فى عصر السلطان عبد المجيد بصدور ما عرف باسم التنظيمات ثم فى عصر السلطان عبد الحميد الثانى (١٨٧٦ — ١٩٠٩) عندما حاول تخفيف الحكم المطلق وجعله مشروطا بالدستور الذى وضعه مدحت باشا ، وجماعة من المفكرين وسميت هذه الاصلاحات « بالمشروطية » وكان لسوريا نصيب من الاصلاح عندما عين واليا عليها عام ١٨٧٨ ، فانشأ المدارس ، منها مدرسة الصنائع ومدرسة الفنون ، وملجأ للأيتام وسهل المواصلات بفتح الشوارع وبناء القناطر ، كما أشاع الأمن والعدل والمساواة وأطلق حرية الفكر مما ساعد على ازدهار الحركة الداعية لاستقلال العرب ٠

وكانت محاولة السلطان عبد الحميد الهادفة الى اشتراك العرب فى ادارة شئون البلاد فأحاط نفسه بكثير من رجالات سوريا واستعان بهم فى حكم الامبراطورية ٠

وعندما جاءت حركة الاتحاد والترقى أتاحت للعرب فى البداية

بعض التمثيل فى برلمان منتخب كان يضم ١٥٠ عضوا من الأتراك ، و ٦٠ عضوا من العرب وضم مجلس الأعيان ٣١ عضوا تركيا وثلاثة أعضاء من العرب حين كان العرب يمثلون ثلاثة أخماس سكان الدولة العثمانية(٤)

وقد نشأت فى سوريا ابان العصر العثمانى بعض الجمعيات الثقافية التى اهتمت كذلك بالنشاط السياسى ومن أبرز هذه الجمعيات « الجمعية العلمية السورية » التى تأسست فى بيروت عام ١٨٥٧ و « جمعية النهضة العربية » التى تأسست بدمشق عام ١٩٠٣ وقد كان لهذه الجمعيات نشاط سياسى بالاضافة الى النشاط الثقافى فكانت تدعو الى دراسة تاريخ العرب وآدابها والى نقد التفرقة العنصرية والطائفية ومساوىء الحكم العثمانى ٠

وقد زار أحد الكتاب الفرنسيين سوريا عام ١٨٨٢ ولاحظ :

«ان روح الاستقلال تبدو فى الجو ٠٠ وخلال اقامتى فى بيروت كان الشاب المسلم مشغولا فى اقامة جمعيات تعمل لانشاء المدارس والمستشفيات وتعمل لبعث البلاد ، ومن الظواهر الداخلية لهذا النشاط غيبة الروح الطائفية » ٠

وقد أصدرت جمعية بيروت السرية منشورا فى مستهل عام ١٨٨٠ جاءت فيه هذه المطالب :

١ ــ منح سوريا الاستقلال متحدة مع جبل لبنان ٠

٢ ــ الاعتراف باللغة العربية لغة رسمية فى البلاد العربية ٠

٣ ــ رفع الرقابة والقيود التى تحد من حرية التعبير ونشر التعليم ٠

٤ ــ استخدام القوات المجندة من أهل البلاد فى المهام العسكرية الداخلية فيها فقط ٠

وكانت دعوة عبد الرحمن الكواكبى تأييدا كاملا لفكرة الوحدة الاسلامية فى نفس الوقت الذى دعا فيه الى الغاء حق السلطان فى لقب الخلافة وقد أسهمت دعوته الى حد ما فى تحويل قيادة الحركة العربية الى أيدى المسلمين وكان الكواكبى يكره من أعماق قلبه الظلم والاضطهاد ، كما كان يؤمن ايمانا عميقا بمستقبل الاسلام والعنصر العربى وقد عبر عن هذه الآراء فى كتابه (طبائع الاستبداد) و (أم القرى) ٠

واذا كان الكواكبى لم يستطع أن يذهب الى أكثر من القول باقامة خلافة عربية محل الخلافة العثمانية فان ذلك يعتبر خطوة جريئة بمقاييس الظروف التى كان يعيش فيها(٥) ٠

وأما عن الجمعيات السياسية التى قامت فى سوريا أو اشترك فيها سوريون فمن أهمها :

١ ـ رابطة الوطن العربى التى انشئت فى باريس عام ١٩٠٤ ٠

٢ ـ جمعية النهضة العربية التى أسست فى دمشق عام ١٩٠٦ ٠

٣ ـ جمعية الاخاء العربى العثمانى التى تأسست عام ١٩٠٨ فى دور الوفاق مع الحركة القومية التركية وقد أسست الجالية العربية فى باريس ٢ سبتمبر ١٩٠٨ وحضر الاجتماع الأول عدد من أعضاء جماعة الاتحاد والترقى ٠ وبعد اغلاق هذه الجمعية تم تأسيس المنتدى العربى ٠

٤ ـ الجمعية القحطانية والتى أنشئت عام ١٩٠٩ وكان من أبرز مؤسسيها عزيز على المصرى وسليم الجزائرى ٠

٥ ـ جمعية العربية الفتاة وقد أسسها الطلاب العرب فى باريس عام ١٩١١ ثم انتقل مركزها الى بيروت عام ١٩١٣ ثم الى دمشق وبقيت فيها لحوالى عام ١٩٢٠ ٠

٦ - حزب اللامركزية وتم تأسيسه بالقاهرة وأنشئت له فروع في كل من سوريا والعراق .

٧ - جمعية العهد التى أسسها عزيز المصرى وأنشأ لها فرعين فى الموصل وفى بغداد .

٨ - الجمعية الاصلاحية فى بيروت ١٩١٣ وقد ازعج منهجها الاتحادين فى استانبول مما كان سببا فى اغلاقها بعد ذلك بقليل(٦) .

مؤتمر باريس :

وجه حزب اللامركزية والعربية الفتاة الدعوة الى عقد مؤتمر فى باريس فى يونيو ١٩١٣ اشترك فيه ممثلون عن كافة الجماعات الوطنية العربية وحضره مندوبون عن الشام والعراق (وكان يمثله عضوان) وكذلك بقية الأقطار العربية(٧) .

وقد جاء فى الدعوة الى المؤتمر : « نصارح الدولة العثمانية بأن اللامركزية قاعدة حياتنا ، وان حياتنا أقوى حق من حقوقنا ، وان العرب شركاء فى الحرية ، شركاء فى السياسة . وأما فى داخلية بلادهم فهم شركاء أنفسهم » وقد صدر عن المؤتمر عدة قرارات لعل من أهمها .

١ - وجوب تنفيذ الاصلاح الحقيقى فى الدولة العثمانية .

٢ - وجوب تمتع العرب بحقوقهم السياسية واشتراكهم فى الادارة المركزية وفى الوزارة بعدد ثلاثة وزراء .

٣ - وجوب منح الولايات العربية ، الحكم الذاتى ضمن الامبراطورية العثمانية .

٤ - جعل اللغة العربية لغة رسمية محلية فى الولايات العربية ما عدا الحالات الاستثنائية .

٥ - أن تكون الخدمة العسكرية محلية فى الولايات العربية ماعدا الحالات الاستثنائية .

٦ - يوافق ويعطف المؤتمر على مطالب الأرمن العثمانيين بالنسبة للامركزية .

٧ - شكر المؤتمر الحكومة الفرنسية التى أفسحت له مجال الانعقاد فى أرضها ، كما شكر المهاجرين العرب على وطنيتهم وحياهم بواسطة ممثليهم .

وقد أظهر هذا المؤتمر بجلاء تصميم العرب على المطالبة بحقوقهم ، كما أكد من ناحية أخرى أن مرحلة الوفاق مع الاتحاديين قد انتهت وان على العرب الدفاع بأنفسهم عن حقوق بلادهم والمحافظة على مصالحهم .

ولسنا بصدد ذكر النتائج التى حققها هذا المؤتمر فيما بعد من فرض اللغة العربية وتعيين رجالات العرب فى بعض مرافق الدولة وغير ذلك من أمور ادارية حصل عليها العرب ، كما أن المؤتمر نبذ فكرة الطائفية وأثبت أن المسلمين والمسيحيين « يعتبرون أنفسهم أفراد امة واحدة هى الأمة العربية » .

ومن ناحية أخرى بدأ العرب يتجهون وجهة أخرى بعد ان رأوا عقم محاولاتهم لتحقيق التفاهم مع الأتراك وقبيل الحرب العالمية الأولى كان الموقف بين الطرفين ينذر بالصدام المرتقب والذى انتهى بقيام الثورة الحسينية وذلك للأسباب الآتية(٨) .

١ - أن الجانب التركى عجز عن تحقيق المبادىء التى اتفق عليها فى مؤتمر باريس .

٢ - ان الدول الأوربية كانت تسعى الى ايقاع الشقاق داخل نطاق الدولة العثمانية ، والدس بين الشعبين ، محاولة تحقيق أطماعها فى المنطقة العربية وكانت على حد تعبيرهم « رجل أوربا المريض » وكانت حركة الاستعمار فى ذلك الوقت فى أوج قوتها ، والتنافس بين الدول الأوربية على أشده للحصول على مستعمرات ومناطق نفوذ ٠

ثالثا : كانت الادارة العثمانية قد وصلت الى درجة كبيرة من التدهور وضيق الأفق وبالنسبة لسوريا بوجه خاص ، دخلها جمال باشا فى ٥ ديسمبر ١٩١٣ واليا وبدأ بخداع الشعب بالحديث عن احياء التراث العربى واللغة العربية والمجد العربى ، ولم يكن لذلك فى واقع الأمر أساس حقيقى فى معظم أعماله بعد ذلك أظهر تعصبه للقومية التركية وخوفه من اتجاهات العرب للاستقلال مما جعله يتتبع زعماء الجمعيات العربية ويتجسس على أعمالهم ، وقبض على الكثيرين منهم وقد مر بنا الحديث عن أعمال جمال باشا وما سببته سياسته من تفرقة بين العرب والعثمانيين ٠

ومن ناحية أخرى ظهرت فى تلك الفترة فى سوريا جمعيات ومنظمات سرية كانت تنشط بين الحين والآخر فتعمل على تفويض الحكم العثمانى ، واستمرت هذه الجمعيات والمنظمات السرية منها والعلنية تنشط بحزم للاطاحة بالحكم العثمانى (٩) ٠

الاتصالات بين الشريف حسين ورجالات الحركة العربية :

بدأت الاتصالات بين الشريف حسين وزعماء الحركة المعروفة بالحركة القومية فى البلاد العربية التى ستتألف منها الدولة العربية الكبرى مستقبلا ، وبخاصة السوريين والعراقيين ، على أن يدخل بعد ذلك فى مفاوضات مع بريطانيا لتحديد أسس الاتفاق وحدود وشكل الدولة العربية على أساس اتفاقه مع هؤلاء الزعماء العرب ٠

وكانت البداية حينما أرسلت جمعية « الفتاة » رسالة شفوية الى الشريف حسين يحملها رسول ، يتلخص مضمونها فى أن الزعماء القوميين فى الشام والعراق ومنهم الضباط العرب فى الجيش العثمانى ، يحبذون القيام بعمل لتحقيق استقلال العرب ، ويعرضون عليه قيادتها . وسرعان ما أرسل الحسين ابنه الأمير فيصل الى دمشق لاجراء الاتصال بالزعماء العرب بعد أن ثبت له تآمر الحكومة العثمانية لاغتياله ، وفى دمشق وصلها فيصل فى مارس سنة ١٩١٥ ، وهناك اجتمع بالأعضاء البارزين فى جمعية « الفتاة » كما اجتمع بأعضاء جمعية العهد ، المنظمة السرية لضباط الجيش وانتسب الى الجمعية ، وفى هذا اللقاء أعد الزعماء العرب بيانا بشروط التعاون مع بريطانيا ، التى عرفت ببروتوكول دمشق » وتقضى بالآتى :

أولا : اعتراف بريطانيا باستقلال البلاد العربية الواقعة ضمن الحدود التالية :

شمالا : خط مرسين ـ أضنه حتى درجة ٣٧ شمالا . ومنها على امتداد خط بريجبك ـ أورفه ـ ماردين مدبات ـ جزيرة ابن عمر عمادية حتى حدود فارس ، وشرقا : الحدود الفارسية حتى خليج فارس وجنوبا المحيط الهندى (خلا عدن ...) وغربا : البحر الأحمر والبحر المتوسط حتى مرسين .

ثانيا : عقد تحالف دفاعى بين بريطانيا العظمى والدولة العربية المستقلة .

ثالثا : منح بريطانيا الأفضلية فى الشئون الاقتصادية .

وتضم هذه الأراضى : سوريا وفلسطين والعراق وجميع الجزيرة العربية ما عدا عدن (١٠) .

والذى لا شك فيه أن هذه الجمعية لم تكن ترغب فى تغير الوجود العثمانى بالاستعمار الأجنبى ، وأعلن زعماؤها أنه اذا ظهرت أى مطامع للدول الأوربية فان جمعية العربية الفتاة سوف تنحاز الى جانب تركيا فى الحرب فتعرقل التقدم البريطانى الى هذه الولايات كما تعزز جانب تركيا لعلها تستطيع أن تنال الاستقلال بعد الحرب اضافة الى أنها سوف تغير مجرى الحرب ٠

وبعد أن تم التفاهم مبدئيا بين الحسين ورجال الحركة العربية فى سوريا التى كانت مركز الحركة العربية حينذاك تطورت الاتصالات بين الحسين وبين بريطانيا والذى يعنينا أن الوعود التى قطعت للعرب فى هذه المفاوضات لم تكن حقيقة بقدر ما كانت أسلوبا دعائيا لاجتذاب العرب ، وخدعة سياسية ٠ لأنه ما كادت تنتهى حتى ظهرت الاتفاقات السرية التى عقدت لتقسيم سوريا والعراق وأما الحسين الذى قاد هذه الثورة فمن المعروف أنه كان بعيدا عن الحركة العربية قبل عام ١٩١٥ ابتعادا كاملا وأنه اقتيد لها وهو شبه غريب عنها وتحمل مسئووليتها وهو يجهل حقيقتها ، فالظروف والانجليز فرضوه على ما سمى بالثورة العربية وعد محررا للعرب من استعمار خضع هوله ، وباعث نهضة لم يستوعب مدلولها ٠

وقد كان الحسين يعرف تماما أن « العرب » الذين يبغى زعامتهم من المحتمل أن يقابلوا اعلان ثورته على العثمانيين بدهشة عظيمة كاجراء لا يجب أن يكون الحسين هو صاحبه ، أو على الأقل كان يجب أن يكون الحسين هو آخر من يشترك فيه ويوافق عليه ٠

وذلك لأن الحسين وقت نشوب الحرب الأولى (أغسطس — نوفمبر ١٩١٤) لم يكن بحال من الأحوال معدودا زعيما للعرب أو للمسلمين أو من الذين اشتركوا مع أحرار العرب داخل الدولة العثمانية ، لانقاذ

الأقطـــار والشـــعوب العربية من اتجـاهات الاتحـادين الاســـتبدادية والعنصرية(١١) ٠

الاتفاقيات السرية بين الدول المتحالفة :

عقدت اتفاقيات سرية بين الدول المتحالفة كانت قائمة على مبدأ جوهرى هو تصفية الامبراطورية العثمـانية وتقسيم أملاكها بين الدول الأطراف فى هذه المعاهدات وهذه الاتفاقات هى معاهدات تقسيم صريحة روعى فيها توزيع أملاك العثمانية على الدول الأوربية التى كان معروفا من مدة طويلة أن لها « مصالح » استعمارية ، أو أنها تطمع فى امتلاك جهات معينة منهـا ٠

ومن أهم هذه الاتفاقات السرية :

١ ـ اتفاقية القسطنطينية فى ٨ ـ ١٥ مارس ١٩١٥ ٠

٢ ـ معاهدة لندن أو الأدريانيك السرية فى ٢٦ ابريل ١٩١٥ ٠

٣ ـ اتفاقية سازونوف ـ باليولوج ٢٦ ابريل ١٩١٦ ٠

٤ ـ اتفاقية سايكس بيكو ٩ ـ ٢٣ مايو ١٩١٦ ٠

٥ ـ اتفاقية سان جاندى‌مورين فى ١٨ أغسطس ١٩١٧ ٠

اتفاقية القسطنطينية(١٢) :

بمجرد أن بدأت العمليات العسكرية بين ألمـانيا والنمسا ثم الدولة العثمانية من جانب والدول المتحالفة من جانب آخر طلبت روســيا فتح جهة ثانية فى أوائل يناير ١٩١٥ لتخفيف الضغط العثمانى على جيشها فى القوقاز وكان هذا الطلب سببا مباشرا فى اثارة موضوع البت فى مصير العاصمة العثمانية وذلك بالصورة التى تكفل تعاون الحلفاء تعاونا كاملا فى الحرب ضد تركيا ومن هنا خرج الى حيز الوجود ما عرف باسم (اتفاق القسطنطينية) فى مارس ١٩١٥ ٠

وعلى الرغم من أن فرنسا كانت ترى أن استيلاء روسيا على القسطنطينية من شأنه أن يأتى بها الى البحر المتوسط ومن المحتمل أن يجعل منها دولة بحرية كبيرة ، مما يترتب عليه تغير شامل فى ميزان القوى فى أوروبا الا أن الضغط الروسى وتقديم روسيا ترضية لفرنسا بصدد مطالبها فى حدودها الشرقية على حساب ألمانيا ومطالبها فى بلاد الشام كل ذلك جعلها توافق على هذه الاتفاقية .

ولقد تعهد سازونوف وزير الخارجية الروسى من جانبه بعد أن تلقى موافقة حكومتى بريطانيا وفرنسا على مطالبه بأن تكون القسطنطينية ميناء حرا (ترانزيت) وباعلان حرية المضايق للبواخر التجارية الا فيما يتعلق بنقل البضائع المستوردة فعلا من روسيا أو المصدرة اليها .

وكانت الأراضى التى صارت من نصيب روسيا بفضل هذا الاتفاق تشمل القسطنطينية وكل أراضى الدولة العثمانية فى أوروبا حتى خط « اينوز ــ ميديه Enoz medh » ثم فى آسيا الصغرى امتدادا الساحل من نهر سفاريا الى نقطة عند خليج ازميت Azmet (أى الأقاليم المواجهة للقسطنطينية فى آسيا الصغرى) ثم الجزر الواقعة فى بحر مرمرة وكذلك جزيرتى تنيدوس وايمبروس فى بحر ايجه والواقعتين قرب مدخل الدردنيل .

ويعتقد بعض المؤرخين أن اتفاق القسطنطينية (٨ ــ ١٥ مارس ١٩١٥) كان بمثابة ثورة دبلوماسية خطيرة تخلت بمقتضاها بريطانيا عن مصالحها وسياستها التقليدية فى الشرق الأدنى والتى كان قوامها المحافظة على كيان الامبراطورية العثمانية وقبل كل شىء الحيلولة دون وقوع القسطنطينية والبوغازات فى قبضة روسيا .

معاهدة لندن أو الادرياتيك(١٣) (١٩١٥) :

فى ذات الوقت الذى حصل فيه اتفاق القسطنطينية كانت تجرى المفاوضات من جانب الانجليز وحلفائهم لاقناع ايطاليا بالانضمام اليهم ضد دول الوسط وبعد مفاوضات شاقة قررت ايطاليا الانضمام الى جانب الحلفاء فى الحرب الدائرة . ولذلك فقد صار ضروريا — من وجهة نظرهم — اشراكها فى الترتيبات الاقليمية المزمعة على حساب العثمانيين .

وقد وافق الطليان على تقسيم أملاك العثمانيين بما يتفق مع رغبات روسيا وانحصرت مطالبهم الاقليمية فى الاستيلاء على أجزاء من الأناضول وعلى طرابلس الغرب (ليبيا) وجزر الدوديكانيز على أن تكون حصة ايطاليا فى البلاد المنتزعة من الدولة العثمانية مساوية تماما لحصة كل من فرنسا وبريطانيا ولقد وافق الطليان كذلك على شروط روسيا الخاصة بتأمين حرية مرور السفن من المضايق وصاروا كذلك يؤيدون الفكرة الروسية القائلة بوجوب تأمين حرية طريق الحج ووضعه تحت حماية الدول المتعاقدة .

وبعد ابرام هذه المعاهدة بأسابيع قليلة أعلنت ايطاليا الحرب على حليفتها السابقة النمسا فى ٢٣ مايو ١٩١٥ ، ثم على تركيا فى ٢٠ أغسطس من السنة ذاتها .

على أنه يلفت النظر فى معاهدة لندن السرية أو الادرياتيك ، أنها تضمنت نصا فى مادتها الثانية عشرة أعلنت ايطاليا بمقتضاه أنها منضمة الى التصريح الذى صدر عن بريطانيا وفرنسا وروسيا بأن بلاد العرب والأماكن المقدسة فى البلاد العربية سوف تخضع لسلطات دولة اسلامية مستقلة تتأسس بها .

اتفاق سازونوف باليولوج ١٩١٦ :

بدأت مباحثات دبلوماسية بين الانجليز والفرنسيين منذ نوفمبر ١٩١٥ تهدف الى تعيين مطالب انجلترا وفرنسا الاقليمية ونصيبهما من أملاك الدولة العثمانية واتفاق سازونوف - باليولوج يقوم على نفس المبادىء التى استرشد بها الانجليز فى مباحثاتهم مع حلفائهم الآخرين وهم الفرنسيون وهى المبادىء التى حكمت علاقات بريطانيا مع الشريف حسين والزعماء العرب أو بمعنى أدق المبادىء التى قامت عليها سياستها فى الشرقين الأدنى والأوسط وقتئذ وأهمها تصفية الامبراطورية العثمانية وتأسيس مناطق نفوذ انجليزية وفرنسية فى البلاد العربية .

وقد تناول اتفاق سازونوف - باليولوج نفسه مطالب كل من الدول الثلاث الاقليمية تنص على « أن تمتلك روسيا ولايات أرضروم وطريزون ووان وبلقيس ومقاطعة كردستان الجنوبية - جزيرة ابن عمر عمادية - حدود ايران .

ثم تحدثت فى خطوط عريضة عن « مطالب » انجلترا وفرنسا الاقليمية فاعطى لفرنسا الأقسام الساحلية من سوريا وولاية أطنة وعلاوة على ذلك منطقة يحدها من الجنوب خط عنتاب - خربوط ، حتى الحدود الروسية ويحدها من الشمال خط آرضاغ - قيصرية - آق طاغ - بلديز - طاغ - زارا - أكين - خربوط - قليقيا .

ونالت بريطانيا بلاد ما بين النهرين (العراق) الجنوبية مع مدينة بغداد على أن تحتفظ فى سوريا بمينائى حيفا وعكا .

ثم نص الاتفاق على أن تتألف دولة عربية مستقلة أو اتحاد (حلف Federation) من دول عربية مستقلة فى المنطقة الكائنة بين

الأقاليم التى لفرنسا وانجلترا ، على أن يجرى تعيين حدود هذه الدولة العربية المستقلة بالاتفاق بين هاتين الدولتين ٠

ويلاحظ أن اتفاق سازونوف — باليولوج ، لم يلبث أن أخرج « فلسطين » من المنطقة المخصصة للدولة العربية المستقلة وذلك عندما نص على « اعتبار فلسطين والأماكن المقدسة خارجة عن الأماكن المقدسة وخارجة عن الأراضى التركية موضع الترتيبات السالفة الذكر ، وطلب بدلا من ذلك وضع هذه المنطقة تحت ادارة (نظام) خاصة وفقا لاتفاقية تعقد بين روسيا وفرنسا وانجلترا كضمان لصيانة مصالح الدول المتحالفة « الدينية » والمقصود بذلك فى نظر هذه الدول تأمين الحج الى الأماكن المقدسة المسيحية لرعاياها ٠ وفى مادة أخرى ، أعلنت الاسكندرونة ميناءا حرا ودوليا ٠

٤ — اتفاقية سايكس بيكو مايو ١٩١٦ وقد كشف عنها بعد الانقلاب الشيوعى عام ١٩١٧ وقد سبق الحديث عنها ويمكن الاشارة الى ما يتعلق منها بسوريا فقد كان من نصوص هذا الاتفاق أن تكون الادارة فى بلاد الشام متنوعة فيقوم فى سوريا الداخلية التى تضم ولايات حلب والشام والموصل حكومات عربية تكون بريطانيا صاحبة النفوذ فيها ولها الأفضلية الاقتصادية وحق تقديم المستشارين والموظفين فى القسم الجنوبى الشرقى من هذه المنطقة ، الذى تقع فيه شرق الاردن الممتدة الى حدود العراق ، وبعض أنحاء العراق الشمالية الواقعة فى نطاق الحكومات العربية ووصف هذا الاسم بمنطقة (ب) ٠

وتكون فرنسا صاحبة مثل ذلك فى القسم الشمالى منه الذى تقع فيه ولايات حلب والموصل والشام باستثناء منطقة شرق الأردن التى كانت متصرفية من متصرفيات بلاد الشام والتى تظل داريا تابعة لحكومة الشام ونفوذا لبريطانيا ، ووصف هذا القسم بمنطقة (أ) وتكون منطقة الساحل

الشامى التى تضم جبل لبنان وولاية بيروت مع قليقية التى تضم اذنه ومرسين ولواء اسكندرونة تحت الادارة الفرنسية المباشرة ووصفت بالمنطقة الزرقاء ، وتكون منطقة العراق التى تضم بغداد والبصرة مع ميناءى عكا وحيفا وساحلهما فى فلسطين تحت الادارة الانجليزية المباشرة ووصفت بالمنطقة الحمراء ، أما فلسطين فقد اتفق أن يكون لها ادارة دولية باستثناء حيفا وعكا وعرفت بالمنطقة السمراء(١٥) ·

وهكذا مزقت بلاد الشام والعراق بالمؤامرة الانجليزية الفرنسية الروسية أفظع تمزيق وأسوأه وتأكد لكل عربى أن الفصل بين العروبة والاسلام والسير فى طريق الاتجاهات القومية ووضع الثقة فى هذه الدولة أو تلك من الدول الأوربية لم يحقق منه العرب سوى الخسارة وضياع استقلال بلادهم كما كان له أسوأ الأثر على كثير من الأقطار الاسلامية كما سيتضح عند استعراضنا لنتائج الحرب العالمية الأولى ·

اتفاق سان جان دى موريين ١٩١٧ :

يعتبر هذا الاتفاق مكملا للاتفاقين السابقين: (سازونوف - باليولوج) و (سايكس - بيكو) بشأن تقسيم أملاك الامبراطورية العثمانية ·

وتعنى بذلك الاتفاق الذى حصل فى (سان جان دى موريين) San Gan De Mourien بين فرنسان وبريطانيا وايطاليا فى ١٨ أغسطس - ٢٦ سبتمبر ١٩١٧ (تاريخ تبادل المذكرات بينهما) ·

فانه بمجرد أن عرفت الحكومة الايطالية فى روما باتفاق (سايكس - بيكو) راحت هذه تطلب توضيحا لما جاء فى المادة الثانية من معاهدة لندن أو الادرياتيك السرية (المبرمة معها فى ٢٦ ابريل ١٩١٥) بخصوص حصتها فى تركية آسيا التى وعدت بها اذا حصل تقسيم أملاك الدولة العثمانية فى هذه الجهة وفى ١٩ أبريل ١٩١٧ تمكن انعقاد رؤساء حكومات

الدول المعينة فى احدى عربات السكة الحديد عند « سان جان دى موريين» وهى قرية جبلية على الحدود الايطالية الفرنسية .

وبعد مفاوضات مكثفة تم الاتفاق فى لندن فى ١٨ أغسطس ١٩١٧ بين الدول الثلاث: بريطانيا وفرنسا وايطاليا — «ومرهونا بموافقة روسيا» على أن تلتزم الحكومة الايطالية بملاحظة الشروط الواردة فى المادتين الأولى والثانية من الاتفاق الفرنسى البريطانى (سايكس — بيكو) فى ٩ ، ١٦ مايو ١٩١٦ ، ومن المعروف أن أولى هاتين المادتين متعلقة بانشاء الدولة العربية أو الحلف (الاتحاد) العربى المستقل فى منطقتى (أ) ، (ب) (١٦) .

وفى نظير التزام ايطاليا ، توافق بريطانيا وفرنسا على أن تأخذ ايطاليا المنطقة الملونة باللون والمنطقة المرقومة بحرف ... وفيما يتعلق بالمنطقة التى تعهد اتفاق سايكس — بيكو بانشاء ادارة دولية فيها (فلسطين) نص (اتفاق سان جان ..) على أن يتم تعيين شكل هذه الادارة (أو الحكومة) الدولية بالاتفاق مع ايطاليا .

وبصفة عامة كان هذا الاتفاق — يقوم على نفس مبدأ تقسيم الدولة العثمانية ولكن بعد أن يصبح رباعيا (بريطانيا — فرنسا — روسيا ايطاليا) كما أنه تضمن اقتراحا قدمه لويد جورج من أجل اعادة النظر فى تقسيم الدولة العثمانية اذا تبين عند الصلح أن من المتعذر اعطاء الدول المتعاقدة التقسيم المذكور يكون حينئذ المحافظة على توازن القوى فى البحر المتوسط موضع دراسة عادلة .

وتكشف هذه الاتفاقات بكل جلاء أنه ليس هناك فى التاريخ الحديث أمة خانها الحلفاء بعد الحرب العالمية الأولى وتنكروا لمواثيقهم معها كالعرب، فقد نقض الحلفاء عهودهم لهم وأخلوا بكل ميثاق أبرموه حتى استحال

العرب بعد الحرب الى شعوب ودول أو دويلات مشتتة أو مقطعة الأوصال يتسلط عليها الأجنبى ويتحكم فيها كيفما شاء . وقد كان العرب قبل الحرب على الأقل يعيشون تحت الحكم العثمانى فى ظلال شبه وحدة دينية ادارية وان كانوا قد عانوا من حكمهم الشىء الكثير . أما بعد الحرب فقد تحرر العرب من الحكم العثمانى وزالت عنهم السيادة والتبعية العثمانية ولكنهم ما لبثوا أن وقعوا تحت براثن دول أوربية باسم الحمايات والانتدابات وغير ذلك من المسميات ، وكأنما العرب قد خاضوا معارك الحرب الى جانب الحلفاء لا لينعموا بالاستقلال الذى وعدوا به بعد الحرب ولكن ليستبدلوا بحكم اخوانهم فى الدين حكما أجنبيا أشد وأقسى(١٧) .

المعارك الحربية فى بلاد الشام :

بعد أن اطمأن الشريف حسين الى قوته فى الحجاز أخذت باقى قواته تتقدم صوب الشمال وكانت قد انقسمت الى ثلاث فرق يقودها أولاد الحسين : على ، وعبد الله وفيصل الذى كان مسؤولا عن السير الى دمشق تقدمت قوات الثورة الحسينية واحتلت العقبة فى السادس من يوليو ١٩١٧ ، وبذلك انتقل ميدان المعارك من الحجاز الى بلاد الشام وأصبحت « العقبة » مقر القيادة العربية ، فانتقل فيصل اليها ، واتخذها مركزا له ولجيشه ، كما جاء اليها الجنرال أدموند اللنبى لمساعدة فيصل ، ووضع الخطط وتبعه عدد من الضباط الفرنسيين والانجليز ، كان أبرزهم الضابط لورنس الذى كان يرسله فيصل للاتصال بالقبائل وببعض الشخصيات العربية فى سوريا ، كما كان يقوم بتدريب بعض الأفراد على أعمال التخريب ، وقد اشترك بنفسه فى تلك العمليات ، من قطع الطرق ، ونسف القناطر والجسور ، خاصة سكة حديد الحجاز(١٨) .

وقد استطاع لورنس أن يصل الى ضواحى دمشق واختبأ فى قابون فى ممتلكات البكرى ، وأرسل واحدا من آل البكرى الى رضا باشا الركابى

وهو قائد عربى فى الجيش العثمانى وأحد أعضاء جمعية العهد ، فأسرع الركابى متخفيا فى ١٣ يونيو ١٩١٧ لمقابلة لورنس ، وسلمه الأخير رسالة علم أنها من الأمير فيصل وأنه ينوى التقدم الى الشام على مراحل وان المرحلة الأولى هى العقبة وأنه يريد من زعماء دمشق مساندة القوات العربية العاملة فى الجيش العثمانى على تركه والانضمام الى قواته فى العقبة (١٩)

ومن ناحية أخرى اشتركت القوات البريطانية مع الجيوش العربية فى السير نحو الشمال وأخذت تزيل الحاميات العثمانية ، فسقطت غزة والخليل ويافا ، وبيت لحم ، واحتل اللنبى القدس فى ٩ ديسمبر ١٩١٧. ثم تقدمت تلك الجيوش الى شرق الأردن ، فاحتلت معان وعمان بعد معارك عديدة ، وبعدهما درعا ، فدخلت جيوش الثورة دمشق أول أكتوبر ١٩١٨ ، ثم استمرت الكتائب العربية بزحفها فى الاتجاه البرى الى ماوراء دمشق ، حتى دخلت حمص وحماه وحلب من جهة،ومن جهة أخرى استمر الزحف الساحلى الذى بدأ فى حيفا وعكا ، الى صور ، وصيدا وبيروت وطرابلس وبذلك تم الاستيلاء على بلاد الشام وشكل فيصل بعد ذلك مباشرة حكومة عربية فى دمشق ورفعت الأعلام العربية على المدن السورية واللبنانية (٢٠) ٠

بدأ دخول فيصل دمشق وكأنه تحقيق لآمال رجال الحركة العربية فى الاستقلال ، وقوبل هذا الحدث بفرحة غامرة فى الأوساط العربية وقد أيدت بريطانيا هذا الحدث ، لهدف يختلف عن أهداف العرب لايمانها بأن حكومة عربية بقاعدتها القومية الواسعة كانت قادرة على امتصاص حماسة وتضحيات الثوار ، وجعلها مسالمة ٠

وفى هذه الاثناء ، أى بعد انتهاء العمليات الحربية مباشرة وقبل اقرار الأوضاع شرعيا ودوليا ، قسمت البلاد السورية الى ثلاث مناطق باشراف الجنرال اللنبى ٠ وكانت المنطقة الأولى الشرقية ، وتشمل شرق

الأردن ، دمشق ، حمص ، حماه ، حلب ، برئاسة الأمير فيصل والثانية كانت المنطقة الغربية وشملت لبنان وولاية بيروت (أى صور ، صيدا ، طرابلس ، واللاذقية) وقضائى انطاكية والاسكندرونة اللذين كانا تابعين لحلب ، وكانت هذه المنطقة تابعة للادارة الفرنسية . والمنطقة الثالثة شملت فلسطين وكانت تابعة للادارة البريطانية (٢١) .

ويرى بعض المؤرخين أن فيصل بعد أن دخل دمشق في الثالث من أكتوبر ١٩١٧ وسط ترحيب الأهلين صدم صدمة كبرى لأنه في اليوم نفسه أسرع اللنبى الى دمشق وقد أثارته الأخبار التى تلقاها من الشام ، واستبد به القلق نتيجة الرسائل التى وردت من القيادة العامة فى بير سالم ، ومن المعتمد البريطانى فى مصر ومن قنصل فرنسا العام فى مصر، ومن مسيو بيكو ، وخاصة تلك التى جاءته من وزارتى الحربية والخارجية البريطانيتين ، وكان مضمون هذه الأنباء والرسائل جميعا هو أن عليه وقف التيار العربى الجارف . وأن يسد الطريق أمام فيصل وأحلامه وأن يتذكر اتفاقية سايكس / بيكو . ولذلك فانه بعد دخول اللنبى دمشق بعث فى طلب فيصل وتمت المقابلة فى قاعة الاستقبال بفندق فيكتوريا بحضور لورنس ، وفى أثنائها أشار اللنبى الى أن الحرب لم تنته بعد وأن الأراضى التى احتلتها القوات التى تحت قيادته انما تعتبر من أراضى العدو ، وأن بريطانيا مسئولة عن ادارة هذه المناطق ، وأنه تلقى تعليمات بالسماح للفرنسيين بالسيطرة على المنطقة غربى دمشق وحلب والتى تتضمن بيروت ولبنان (أى المنطقة الزرقاء) وعندما اعترف لورنس أنه بحسن نية بعث شكرى باشا لامتلاك بيروت نيابة عن الملك حسين ملك الحجاز الذى يعتبر كل الشام ملكا له ، وذكر لورنس أن أى حقوق لفرنسا فى الشام سيكون لها عواقب وخيمة ، استاء اللنبى من كلامه وسأله اذا كان لايعلم شيئا عن الاتفاق مع الفرنسيين الذى تعهدت به بريطانيا بالاعتراف بالحماية الفرنسية على لبنان والساحل السورى ..

ثم التفت اللنبى الى فيصل وأخذ يشرح له أن المنطقة التى تضم دمشق وحمص وحماه وحلب (المنطقة أ) ستكون تحت حماية فرنسا التى تعهدت بأن تقيم فيها دولة عربية مستقلة ، وأنه على استعداد للاعتراف بادارة عربية تحت امرة فيصل كممثل لوالده الملك حسين ، وذلك فى الأراضى الواقعة شرقى نهر الأردن من العقبة الى معان ودمشق بما فيها المدينة الأخيرة وأنه سيعين ضابطى اتصال أحدهما بريطانى والآخر فرنسى وعن طريقهما يستطيع فيصل أن يتصل بالحكومتين البريطانية والفرنسية بخصوص مسائل الادارة العربية · وعندما احتج فيصل بشدة على أى سيطرة لفرنسا على الشام أصر اللنبى على ضرورة اطاعة أوامره وتنفيذها بصفته قائدا عاما وأنه يجب على فيصل قبول هذا الوضع لحين عقد الصلح

وهكذا — كما يقول استاذنا الدكتور محمود صالح منسى — أطلت اتفاقية سايكس / بيكو برأسها وعادت الى الظهور وألقت سحابة كثيفة على آمال الملك حسين والعرب الذين ساندوه بعد أن أغفل وجودها عن قصد خلال ثلاثة أيام « من ١ — ٣ أكتوبر ١٩١٧ »(٢٢) ·

الصعوبات التى واجهت الحكومة العربية :

فى يوم ٣ أكتوبر أعلن الأمير فيصل فى بيان الى الشعب السورى قيام « حكومة دستورية عربية مستقلة باسم الحسين ، شاملة جميع البلاد السورية » وعهد الى على رضا الركابى برئاسة هذه الحكومة ·

وكانت المدن الأخرى بالشام ، التى انسحبت منها القوات العثمانية قد أخذت فى تكوين ادارات وحكومات اعتبرت نفسها جزءا من الحكومة العربية الواحدة · ففى « حماة » تشكلت هيئة ادارية مؤقتة برياسة بدر الدين الكيلانى وعضوية بعض أعيان حماه · وفى « حلب » رفع العلم

العربى قبل أن تغادرها القوات العثمانية ، وشكل ابراهيم هنانو فى شمال سوريا حكومة وجيشا فى تخاريم ، (منطقة حلب) وفى منطقة « اللاذقية » أعلنت حكومة تمتد من حدود طرطوس الى حدود أنطاكية ، وتأسيس مجلس وطنى عهد برياسته الى رشيد طليع · وفى « بيروت » تكونت حكومة عربية برياسة عمر الداعوق ورفع العلم العربى فوق دار الحكومة ·

على أن الأخطار أخذت تهدد منذ اللحظة الأولى الحكومة العربية فقد عارضت الحكومة الفرنسية اقامة هذه الدولة فى منطقة كان من المفروض ان تكون تحت النفوذ الفرنسى بمقتضى اتفاقية سايكس / بيكو (كان نصيب فرنسا فى الاتفاقية يشمل الحكم المباشر فى الأراضى الساحلية من سوريا والحماية على ما وراء الساحل بما فى ذلك الموصل) وتحت التهديد باستخدام القوة اضطر فيصل الى سحب ممثليه فى بيروت · وقد أزاحت القوات البريطانية بنفسها الأعلام العربية وتنازلت حكومة الداعوق فى بيروت عن السلطة الى قائد القوات الفرنسية الذى عين حاكما عسكريا كما أبعد ممثلو الحكومة العربية فى المناطق الساحلية الأخرى التى أعلنت السيادة العربية ، واستبدلوا بحكام فرنسيين ، فاستدعى هنانو الى حلب وانسحبت قواته من أنطاكية وخارم وسلمت للفرنسيين كما نزلت القوات الفرنسية فى اللاذقية ، وأزيحت الأعلام العربية والتحق أعضاء حكومتها بحكومة دمشق (٢٣) ·

وهكذا ضاعت هباء تضحيات العرب فى بلاد الشام والذين احتملوا فى سنوات الحرب العالمية الأولى أفدح أنواع القمع والعذاب ومن المجاعات والأمراض والتضحيات بمئات الألوف من الأهليين ووقفوا الى جانب الدول المتحالفة ، وأدوا لها خدمة جليلة لنجاح العمليات العسكرية التى أدت الى اخراج العثمانيين من بلاد الحجاز وبلاد الشام وبذلك ضمنت بريطانيا

عدم استخدام سواحل البحر الأحمر الشرقية ضدها ، كما أن قتال العرب الى جانب الحلفاء جعل العثمانيين يحاربون فى أرض معادية ٠٠ وعلى الرغم من كل هذه المساعدات تمسك الفرنسيون والبريطانيون بتنفيذ الاتفاقات السرية لتقسيم ممتلكات العثمانيين بصفتها من وجهة نظرهم أرض كانت فى يد الأعداء (٢٤) ٠

فيصل والحلفاء :

أناب الشريف حسين ابنه فيصل ليمثله فى مؤتمر الصلح الذى عقد فى مستهل عام ١٩١٩ واضطر فيصل الى الذهاب الى لندن وباريس لمقابلة المسئولين فيها وعرض قضية العرب من جديد حتى تجىء قرارات مؤتمر الصلح وفق أمانى العرب ٠ وبعد اعتراضات من جانب فرنسا والحاح وتفسيرات من جانب بريطانيا سمح لفيصل بزيارة أوربا لا بصفته مندوبا عن العرب وانما بصفته كونه مندوبا عن والده ملك الحجاز أيام مؤتمر الصلح بفرنسا وقام فيصل الى أوربا لأول مرة على ظهر سفينة بريطانية فى يناير ١٩١٩ وكان فيصل فى مقتبل العمر طويل القامة مهيب الطلعة هادئا مسالما بطبعه ، لا علم له باللغات الأوربية ولا خبرة له بأساليب السياسة الغربية ، كما أنه لم يسبق له أن اتصل بأى بلد أوربى من قبل٠ ولذلك كان اعتماده فى جميع حركاته وتصرفاته ومفاوضاته وفق ما كان يشير به صديقه « لورنس » فلقد كان فيصل عظيم الثقة فى صداقة بريطانيا وحسن نياتها نحوه ونحو العرب عامة (٢٥) ٠

وكانت بريطانيا تعمل لتهيئة فيصل لقبول فكرتين أساسيتين كانتا فى نظرها هى الأساس الذى يقوم عليه استقرار الأمور فى الشرق الأوسط: الأولى فكرة الوطن القومى الذى وعدت به اليهود فى فلسطين ، والثانية تحسين العلاقات بينها وبين فرنسا فى المنطقة ٠ أما عن فكرة الوطن القومى لليهود فان الانجليز قد رتبوا لفيصل مقابلة مع حاييم وايزمان

زعيم الحركة الصهيونية وقد تم بينهما اتفاق بتاريخ ٣ يناير سنة ١٩١٩ كان أهم ما جاء فيه قبوله مبدأ تصريح « بلفور » بشأن الوطن القومى لليهود فى فلسطين واتخاذ الاجراءات لتشجيع الهجرة اليهودية الى فلسطين . ولكن فيصل اشترط كتابة عند توقيع البيان باللغة العربية « أن تنفيذ هذه الشروط مرهون بوفاء بريطانيا بعهودها مع العرب بشأن تحقيق استقلالهم ، والا فانه اذا حدث أى انتقاص أو اخلال بتلك العهود فانه لن يرتبط بأية كلمة جاءت فى هذا الاتفاق الذى يصبح بذلك لاغيا ولا صحة له البتة » .

وأما مؤتمر الصلح فقد خطب فيصل أمام المؤتمرين فى ٦ فبراير ١٩١٩ وطالب بحقوق العرب فى الحرية والاستقلال وأنهم يريدون دولة عربية متحدة ولكن الدول المجتمعة حاولت المماطلة والخداع فوعدت فيصل من جديد بأن يكون تقرير المصير عائدا الى السكان أنفسهم باستفتاء عام. وقد اقترح الأمير تمشيا مع المبادىء الجديدة التى أعلنها الرئيس الأمريكى ويلسون أن تقوم لجنة دولية للوقوف على آراء أهالى المنطقة فى مصائرهم من الوجهة السياسية . واتفقوا على أن تعين كل من بريطانيا وفرنسا والولايات المتحدة وايطاليا مندوبين اثنين وتتألف منهم لجنة تقوم توا بزيارة المنطقة والاتصال بأهلها . ولكن الدول الأوربية الثلاث تباطأت فى تعيين مندوبيها وانتهى الأمر فى النهاية كما سبق ذكره باقتصار اللجنة على المندوبين الأمريكيين « كنج وكرين » ذلك أن فرنسا اعتقدت أن من وراء اللجنة مؤامرة انجليزية أمريكية ترمى الى انتزاع النفوذ الفرنسى واقتلاعه بجذوره من المنطقة . هذا فضلا عن أنها كانت موقنة بأن عداء العرب لها وخاصة فى سوريا لن يجعلها تفوز بطائل من وراء الاستفتاء . اما انجلترا فكانت تعلم أن الرأى العام فى المنطقة سيغلب صوت أمريكا عليها،ولذلك فانها لم تتحمس للاستفتاء ، أماايطاليا فكانت قد دأبت على مسايرة الدولتين الأخيرتين فى سياستها (٢٦) .

المؤتمر السورى العام :

عندما عاد فيصل الى دمشق فى أوائل مايو ١٩١٩ كانت الحركة الوطنية قد نظمت نفسها تنظيما جيدا ٠ ولكن الأفكار كانت مضطربة حول ما هية القرار النهائى الذى ستنتهى اليه مداولات مؤتمر الصلح ولما كان مجلس الأربعة قد قرر ارسال لجنة تحقيق لاستطلاع رأى العرب من هنا نشأ الاقتراح بتشكيل مؤتمر وطنى يتكلم باسم الشعب السورى كله ، ويتكون من ممثلين عن المناطق الثلاث يتم اختيـارهم عن طريق الانتخابات الحرة وقد تم الاتفاق بين حزب الاستقلال والأمير فيصل على هذه الحركة وأشار فى خطابه فى دار البلدية يوم ١٤ مايو الى تأسيس مجلس منتخب عن كافة المناطق السورية يكون الوسيلة الوحيدة لاقناع اللجنة الدولية بشرعية المطالب العربية(٢٧) ٠

وقد جرت انتخابات سريعة فى المنطقة الشرقية ، ولكن المناطق الغربية والجنوبية الواقعة تحت السلطة الفرنسية والانجليزيه تم اختيار ممثليها بمضابط توكيل من الأعيان والزعماء لتعذر اجراء انتخابات ٠

وفى يوم ٦ يونيو ١٩١٩ اجتمع المؤتمر فى مقر النادى العربى وحضره ١٩ مندوبا فقط من مجموع ٨٥ انتخبوا لتمثيل سوريا وفلسطين نظرا لمنع السلطات الفرنسية بعض ممثلى المنطقة العربية من السفر الى دمشق وانتهت أبحاث المؤتمر بمجموعات من القرارات الهامة نقتطف منها

هذه المطالب التى رفعت الى الوفد الأمريكى :

« اننا نحن الموقعين أدناه بامضاءاتنا وأسمائنا اعضاء المؤتمر السورى العام المنعقد فى دمشق والمؤلف من مندوبى جميع المنطق الثلاث الجنوبية والشرقية والغربية الحائزين على اعتماد سكان مقاطعاتنا وتفويضاتهم من مسلمين ومسيحيين وموسويين قد قررنا فى جلستنا المنعقدة فى نهار

الأربعاء المصادف لتاريخ ٢ يوليو من سنة ١٩١٩ وضع هذه اللائحة المبينة لرغبات سكان البلاد الذين انتدبونا ، ورفعها الى الوفد الأمريكي المحترم من اللجنة الدولية .

أولا : اننا نطلب الاستقلال السياسى التام الناجز للبلاد السورية التى تحدها شمالا جبال طوروس وجنوبا (رفح) فالخط المار من جنوب (الجوف) الى جنوب (العقبة الشامية) و (العقبة الحجازية) وشرقا نهر الفرات فالخابور والخط الممتد شرقى (أبى كال) الى شرقى (الجوف) وغربا البحر المتوسط . وبدون حماية ولا وصاية .

ثانيا : اننا نطلب أن تكون حكومة هذه البلاد السورية ملكية ، مدنية ، نيابية ، تدار مقاطعاتها على طريقة اللامركزية الواسعة ، وتحفظ فيها حقوق الأقليات ، على أن يكون ملك هذه البلاد الأمير فيصل الذى جاهد فى سبيل تحرير هذه الأمة جهادا استحق به أن نضع تمام الثقة بشخصه وأن نجاهر بالاعتماد التام على سموه .

ثالثا : حيث أن الشعب العربى الساكن فى البلاد السورية شعب لا يقل رقيا من حب الفطرة عن سائر الشعوب الراقية ، وليس هو فى حالة أحط من حالات شعوب البلغار والصرب واليونان ورومانيا فى مبدأ استقلالها ، فاننا نحتج على المادة ٢٢ الواردة فى عهد جمعية الأمم والقاضية بادخال بلادنا فى عداد الأمم المتوسطة التى تحتاج الى دولة منتدبة .

رابعا : اذا لم يقبل مؤتمر الصلح هذا الاحتجاج العادل لاعتبارات لا نعلم كنهها فاننا بعد ما أعلن الرئيس ويلسن أن القصد من دخوله فى الحرب هو القضاء على فكرة الفتح والاستعمار ، نعتبر مسألة الانتداب الواردة فى عهد جمعية الأمم عبارة عن مساعدة فنية واقتصادية لا تمس استقلال بلادنا السياسى التام ، وحيث أننا لا نريد أن تقع بلادنافى أخطار

الاستعمار وحيث أننا نعتقد أن الشعب الأمريكى هو أبعد الشعوب عن فكر الاستعمار وأنه ليس له مطامع سياسية فى بلادنا ، فاننا نطلب هذه المساعدة الفنية والاقتصادية من الولايات المتحدة الأمريكية ، على أن لاتمس هذه المساعدة استقلال البلاد السياسى التام ووحدتها ، وعلى أن لا يزيد أمد هذه المساعدة عن عشرين عاما ٠

خامسا : اذا لم تتمكن الولايات المتحدة من قبول طلبنا هذه المساعدة منها ، فاننا نطلب أن تكون هذه المساعدة من دولة بريطانيا العظمى ، على أن لاتمس استقلال بلادنا السياسى التام ووحدتها ، وعلى أن لايزيد أمدها عن المدة المذكورة فى المادة الرابعة ٠

سادسا : اننا لا نعترف بأى حق تدعيه الدولة الفرنسـية فى أى بقعة كانت فى بلادنا السورية ، ونرفض أن يكون لها مساعدة ويد فى بلادنا بأى حال من الأحوال ٠

سابعا : اننا نرفض مطالب الصهيونيين بجعل القسم الجنوبى من البلاد السورية أى فلسطين وطنا قوميا للاسرائيليين ، ونرفض هجرتهم الى أى قسم من بلادنا لأنه ليس لهم أدنى حق ، ولانهم خطر شديد جدا على شعبنا ، من حيث الاقتصاديات والقومية والكيان السياسى ، أما سكان البلاد الأصليون من اخواننا الموسويين فلهم ما لنا وعليهم ما علينا ٠

ثامنا : اننا نطلب عدم فصل القسم الجنوبى من سـوريا المعروف بفلسطين والمنطقة الغربية الساحلية التى من جملتها لبنان ، عن القطر السورى ، ونطلب أن تكون وحدة البلاد مضمونة لاتقبل التجزئة بأى حال كان ٠

تاسعا : اننا نطلب الاستقلال التام للقطر العراقى المحرر ، ونطلب عدم ايجاد حواجز اقتصادية بين القطرين ٠

عاشرا : ان القاعدة الأساسية من قواعد الرئيس ويلسن التى تقضى بالغاء المعاهدات السرية تجعلنا نحتج على كل معاهدة تقضى بتجزئة بلادنا السورية أو كل وعد خصوصى يرمى الى تمكين الصهيونيين فى القسم الجنوبى من بلادنا ونطالب أن تلغى تلك المعاهدات والوعود بأى حال كان»

« هذا وان المبادىء الشريفة التى صرح بها الرئيس ويلسن لتجعلنا واثقين كل الثقة فى أن رغبتنا هذه الصادرة من أعماق القلوب ستكون هى الحكم القطعى فى تقرير مصيرنا . وان الرئيس ويلسن والشعب الأمريكى الحر سيكونان لنا عونا على تحقيقها ، فيثبتون للملأ صدق مبادئهم السامية وغايتهم الشريفة ، نحو البشرية بنوع عام ونحو شعبنا العربى بنوع خاص وان لنا الثقة الكبرى فى أن مؤتمر السلام يلاحظ أننا لم نثر على الدولة التركية التى كنا واياها شركاء فى جميع الحقوق التمثيلية والمدنية والسياسية الا لأنها تحاملت على حقوقنا القومية ، فيحقق لنا رغائبنا بتمامها ، فلا تكون حقوقنا قبل الحرب أقل منها بعد الحرب ، بعد أن أرقنا من الدماء ما أرقنا فى سبيل الحرية والاستقلال . ونطلب السماح لوفد يمثلنا فى مؤتمر السلام للدفاع عن حقوقنا الثابتة تحقيقا لرغباتنا هذه والسلام » . يوليو - تموز ١٩١٩

قرارات لجنة كنج كرين :

وصلت هذه اللجنة الى يافا فى ١٠ يونيو ١٩١٩ وقضت ستة أسابيع فى فلسطين وسوريا أجرت فيها تحقيقا واسعا ، انتهت فيه الى تقرير وضعته فى ٢٨ أغسطس ١٩١٩ ، أوصت فيه بوجوب توحيد سوريا وفلسطين تحت انتداب بريطانى أو أمريكى ، مع تحديد للوطن القومى اليهودى ، وأن تكون سوريا تحت حكم دستورى برياسة فيصل كما أبدت اهتماما بقوة حركة القومية العربية ورأت أن فرض انتداب فرنسى قد يؤدى الى مصاعب كبيرة .

أما بالنسبة للعراق فقد أوصت اللجنة بانتداب بريطانى عليه مع ضم الموصل على أن هذا التقرير الذى وضعته اللجنة لم ينشر فى حينه ، وظل أمره سريا بالنسبة لمؤتمر السلم نفسه ، واختفى فى ملفات وزارة الخارجية الأمريكية حتى نشر فى عام ١٩٢٢ وبذلك لم يكن له أى أثر فى تسوية القضايا التى عالجها (٣٠) ٠

معركة ميسلون :

دعت الحكومة البريطانية الأمير « فيصل » للحضور الى لندن لتهيئته لقبول الوضع الجديد فى سوريا ، ولما كانت انجلترا حريصة على الابقاء على اتفاقها مع فرنسا فما زالت به (فيصل) حتى أقنعته بضرورة التفاهم مع كليمنصو Clemenceau رئيس الوزارة الفرنسية ، وتمت المقابلة بين الاثنين فى نوفمبر ١٩١٩ واتفقا بصفة مؤقتة على أن ينتهى مؤتمر الصلح الى قرار بشأن المنطقة فحواه أن يعترف العرب باحتلال فرنسا للبنان والسواحل الغربية شمالا الى الاسكندرونة ، وأن تولى الحكومة العربية وجهها نحو فرنسا اذا ما دعتها الحاجة الى طلب العون من الخارج ، ومع أن الاتفاق مع فرنسا كان مؤقتا فان نبأه قد وصل الى الزعماء العرب ، فاعتبروه خروجا من فيصل على الحدود المرسومة له والمتفق عليها مع والده ٠

وقامت المظاهرات فى البلاد تهتف بالوحدة والاستقلال ومن وراء المظاهرات وقعت مصادمات بين العرب والفرنسيين شمالا عند طرابلس وبعلبك وجنوبا بمنطقة الاردن ، وحاول فيصل تهدئة الموقف لكنه لم يتمكن (٣١) ٠ وأخيرا اجتمع المؤتمر السورى للمرة الثانية فى دمشق مارس ١٩٢٠ وأكد على قراراته السابقة باعلان استقلال البلاد بما فى ذلك لبنان وفلسطين ٠

وسرعان ما اجتمع المجلس الأعلى للدول المتحالفة فى سان ريمو ١٩٢٠ واتخذ قراراته التى كانت حجر الزاوية فى بناء ذلك السد من الحقد والكراهية والسخط التى امتلأت بها قلوب العرب ضد الاستعمار بكافة أنواعه وأشكاله • وقد أقر المؤتمر تقسيم سوريا مبدئيا الى ثلاثة أقسام كبرى : لبنان ويوضع تحت الانتداب الفرنسى وسوريا بعد قص أطرافها غربا على ساحل البحر المتوسط توضع تحت الانتداب الفرنسى أيضا ، وتوضع فلسطين تحت الانتداب البريطانى مع تعهد خاص من بريطانيا بتحقيق مشروع الوطن القومى لليهود أما العراق فتركت كاملة تحت الانتداب البريطانى أيضا •

وكما هو متوقع رفض العرب فى سوريا والعراق قرارات سان ريمو ولكن القائد الفرنسى « جورو » تعلل ببعض حوادث الاشتباكات بين الفرنسيين والعرب وبعث فى يوليو ١٩٢٠ انذارا شديد اللهجة الى الأمير فيصل فحواه اما التسليم أو الحرب ، والغاء التجنيد العسكرى مع تخفيض قواتهم المسلحة ، وأن تسلم اليهم السكة الحديدية بين حلب وحمص وحماه ، كما طلبوا أن تتداول العملة الفرنسية ، وأن توقع العقوبات على المتهمين بالعدوان على الفرنسيين ، وقد حددوا أربعة أيام لاجابة هذه المطالب والا فان للفرنسيين مطلق الحرية فى التصرف(٣٢) •

وعلى الرغم من أن فيصل نصح بقبول بعض ما جاء فى الانذار ويفوت الفرصة على الفرنسيين الا أن القوات الفرنسية تحركت بجحافلها ومصفحاتها وطائراتها قاصدة دمشق وهب العرب من كل مكان يحملون السلاح ويزودون عن بلادهم ضد الفرنسيين • وقام القائد العربى « يوسف العظمة » وزير الحربية فى حكومة فيصل على رأس قوة من الوطنيين عند ميسلون وكافحوا كفاح الابطال وألحقوا بالفرنسيين خسائر فادحة ولكن دارت الدائرة عليهم واستشهد يوسف العظمة وعدد من رفاقه الابطال وبعد ميسلون دخل الفرنسيون سوريا ولبنان وأصبحت

فلسطين تحت الانتداب البريطانى واعتبر أهل الشام عام ١٩٢٠ عام « النكبة »(٣٣) ٠

ويمكن القول أن ما حدث فى سوريا فى هذا العام هو نتيجة طبيعية كانت متوقعة من بريطانيا وفرنسا ، كما أن الشريف حسين يتحمل نصيبا كبيرا فى تحمل النتائج التى أسفرت عنها هذه الأحداث لثورته على الأتراك من ناحية وثقته غير المحدودة فى وعود الحلفاء من ناحية ثانية ٠

وتعتبر معركة ميسلون من المعارك الفاصلة فى تاريخ سوريا ، فبعد دخول الفرنسيين قاموا بفصل لبنان نهائيا عن الوطن الأم ، حيث أصدر الجنرال جورو مرسوما بانشاء دولة لبنان الكبير على أن يشمل حدود لبنان القديم مضافا اليه بعض المدن الرئيسية مثل طرابلس وبيروت وصيدا وصور وبعلبك ومعها سهل البقاع الخصيب فاستطاع بهذا العمل فصل لنبان وتكوين حكومة خاصة بادارته ٠ ثم قسم سوريا بعد ذلك الى أربع دول منفصلة ذات أربع حكومات متمايزة وهذه الحكومات هى :

١ ـ حكومة اللاذقية : تشمل المنطقة الساحلية بين حدود لبنان ولواء الاسكندرونة ٠

٢ ـ دولة جبل الدروز وعاصمة السويداء : يشمل المنطقة الجبلية بين دمشق وحدود « شرقى الأردن » ٠

٣ ـ دولة سوريا وعاصمتها دمشق : تشمل بقية المنطقة تحت الانتداب ٠

٤ ـ دولة حلب وتشمل لواء الاسكندرونة(٣٤) ٠

الاردن :

الاردن جزء طبيعي من بلاد الشام الممتدة من جبال طوروس شمالا الى خليج العقبة جنوبا ، ومن حدود العراق شرقا الى البحر المتوسط غربا ويتألف معظم سكان الاردن في العصر الحديث من القبائل البدوية او من العشائر التي استقر وتحضر قسم كبير منها ، واخذوا باساليب الحضارة الحديثة . وبما ان الاردن جزء طبيعي من بلاد الشام فقد أمه كثير من سكان البلاد الشامية : فلسطين ، سوريا ، لبنان وقد امتزج هؤلاء بسكان الاردن وتفاعلوا في مجتمعه وشاركوا حياته العلمية والتجارية والثقافية.

وللأردن اهمية عظيمة في التاريخ القديم والوسيط . ويدلنا على ذلك المدن والآثار والحصون والقلاع التي لا تزال قائمة .

وكانت خلال الحكم العثماني متصرفية . تابعة لولايه سوريا وحاضرتها دمشق وعرفت باسم متصرفية « الكرك »(٣٥) .

وفي سنوات الحرب العالمية الأولى شهدت جانبا من الأحداث الهامة حيث راى الحلفاء انه من الضروري الاستيلاء على شرق الأردن لقطع الطريق على الجيش العثماني الذي كان يستعد للهجوم على مصر .

وفي عام ١٩١٧ دخل الكولونيل « لورنس » العقبة وفي العام الثاني دخل الأمير فيصل بقواته التي تمثل الثورة العربية الى العقبة وتمكن مع أعوانه من احتلال قسم كبير من الاردن ، وذلك بعد معارك عديدة منها تخريب خط سكة حديد الحجاز ، وزحف البريطانيون للقضاء على القوات العثمانية حتى احتلوا الاردن في ٩ ديسمبر ١٩١٩ (٣٦) .

وكانت بريطانيا تطمع في هذه المنطقة منذ البداية لمعرفتها بأهمية موقعها الجغرافي والاستراتيجي ، فهي ذات اتصال بالحجاز ونجد والعراق،

كما أنها فى امتدادها الى العقبة ذات أثر بعيد فى مينائها وخليجها فى البحر الأحمر ٠

من هنا كان حرص بريطانيا فى مفاوضاتها مع الفرنسيين وفى مؤتمر سان ريمو على أن تكون الاردن خاضعة لانتدابها ولما نصب فيصل ملكا على سوريا كانت الاردن تؤلف جزءا من المنطقة الخاضعة له لكن أمد الحكم العربى فى الاردن لم يدم طويلا فقد انتهى العهد الفيصلى فى يوليو ١٩٢٠ على يد فرنسا وتقدمت بريطانيا لتبسط نفوذها على هذه المنطقة كما بسطته فى فلسطين(٣٧) ٠

ولم يمض بعد انهيار حكومة فيصل سوى عام واحد أصبحت فيه أرض شرق الاردن نهبا للفوضى ٠ وهنا تقدم الأمير عبد الله بن الحسين بجيش صغير من البدو قاصدا « عمان » ومعتزما اثارة القبائل والانتقام لأخيه باعادة سوريا مرة أخرى الى الحكم العربى ٠

وكان « ونستون تشرشل » حينذاك وزيرا للمستعمرات البريطانية وأراد أن يتعرف على حقائق الأمور فى المنطقة فعقد فى مارس ١٩٢١ مؤتمرا بالقاهرة ، ثم قصد الى « القدس » ودعا الى الاجتماع به الأمير عبد الله والمندوب السامى لفلسطين و «لورنس » المغامر البريطانى الذى خطط وشارك فى محاربة العثمانيين فى بلاد الشام ابان الحرب العالمية الأولى ٠

وبعد اجتماع الأمير عبد الله بهؤلاء السياسيين اعترفت بريطانيا به أميرا على الاردن على أن تظل البلاد تحت الانتداب البريطانى ، وأن لا يسرى عليها الاتفاقات الخاصة بهجرة اليهود والوطن القومى فى فلسطين ولما كانت الصهيونية تبيت على احتلال هذه المنطقة فان اعلان قيام امارة « شرق الاردن » مع تحررها من شروط الانتداب التى ارتبطت بها بريطانيا مع اليهود قد أوغر صدورهم وأدى فى النهاية الى ظهور حزب

يهودى متطرف يطالب باعادة النظر فى هذا الجزء وضمه الى فلسطين ٠

ومما يذكر أن الاتفاق بين الأمير عبد الله وبريطانيا تضمن هذه النقاط:

١ ـ انشـاء حكومة وطنية شرق الاردن رئيسـها الأمير عبـد الله ابن الحسين ٠

٢ ـ أن تستقل هذه الحكومة استقلالا اداريا ٠

٣ ـ أن يتعهد رئيسها بالمحافظة على حدود فلسـطين وسوريا من هجمات البدو أو الحضر ٠

٤ ـ أن يتعهد بالمحافظة على مركزين للطيران الانجليزى أحدهما فى عمان والآخر فى الكرك ٠

٥ ـ أن تبـذل انجلترا وسـاطتها فى تحسـين العلاقات بين الأمير والسلطة الفرنسية فى سوريا ٠

بالاضافة الى موضوعات أخرى خاصة بالجمارك والقضـاء والمعارف والجيش يتم الاتفاق عليها بعد ذلك(٣٨) ٠

حواشى الفصل الثامن

سوريا ولبنان والأردن

(١) د٠ عبد العظيم رمضان : مرجع سابق ، ٢٥٦ ٠

(٢) محمد صبح ، مرجع سابق ، ٤٢٦ ٠

(٣) د٠ زكى المحاسنى : تاريخ سوريا ، ص ٤٠٦ ـ ٤٠٨ ٠

(٤) د٠ زاهية قدورة مرجع سابق ، ص ٢٣٢ ٠

(٥) د٠ توفيق اليوزيكى ، د٠ محيى الدين توفيق ، وآخر ، دراسات فى الوطن العربى ٠٠ ، ١٩٧٤ ، ص ٦٠ ـ ٦١ ٠

(٦) د٠ محمود صالح منسى ، حركة اليقظة ، مرجع سابق ، ص ١٣١ ـ ١٣٤ ٠

(٧) المرجع السابق ، ص ١٤٣ ٠

(٨) محمد جميل بيهم : العرب والترك فى الصراع بين الشرق والغرب ص ١٦٢ ـ ١٦٣ ٠

(٩) د٠ زاهية قدورة ، مرجع سابق ص ٢٣٩ ـ ٢٤٠ ٠

(١٠) د٠ زين الدين نور الدين ، أسباب الثورة العربية ، مرجع سابق ، ص ٥٩ ـ ٦٢ ٠

(١١) د٠ السيد رجب حراز ، الشرق العربى فى التاريخ الحديث ، النهضة العربية ، ص ٢٤٣ ٠

(١٢) د٠ حراز ، مرجع سابق ، ص ٣١٤ ـ ٣١٥ ٠

(١٣) المرجع السابق ، ص ٣٢٣ ٠

(١٤) د٠ حراز ، مرجع سابق ، ص ٣٢٦ ـ ٣٢٧ ٠

(١٥) محمد عزة دروزة ، مرجع سابق ، ص ٢٤٠ ٠

(١٦) د٠ حراز ، مرجع سابق ، ص ٣٤٨ ٠

(١٧) د٠ حسين فوزى : السياسة والاستراتيجية فى الشرق الأوسط النهضة ، ص ٣٨٢ ـ ٣٨٣ ٠

(١٨) محمد رفعت : مرجع سابق ، ص ١٤٠ ٠

(١٩) المرجع السابق ، ص ٩١ ٠

(١٩) د٠ محمود زايد : أحداث الثورة العربية الكبرى من اعلانها الى دخول فيصل دمشق ، (دراسات في الثورة) ، ص ٩٢ ـ ٩٦ ٠

(٢٠) المرجع السابق ص ٩٥ ٠

(٢١) د٠ زاهية ، مرجع سابق ، ص ٢٥٤ ٠

(٢٢) د٠ محمود صالح منسى : مرجع سابق ، ص ٣٧٤ ـ ٣٧٥ ٠

(٢٣) د٠ عبد العظيم رمضان : مرجع سابق ، ص ٢٥٣ ٠

د٠ ابراهيم العدوى مصر والشرق الاسلامى ، ص ٣٥ ، ٣٦ ٠

(٢٤) د٠ حسين فوزى ، السياسة والاستراتيجية ، مرجع سابق ص ٤٠٩ ٠

(٢٥) المرجع السابق ، ص ٤٠٩ ـ ٤١٠ ، محمد رفعت ، سابق ص ١٤٤ ٠

(٢٦) محمد رفعت : مرجع سابق ، ص ١٤٤ ـ ١٤٥ ٠

(٢٧) د٠ زكى المحاسنى : سوريا ـ (النهضة العربية) ، ص ٤١٠ ـ ٤١١ ٠

(٢٨) محمد رفعت : مرجع سابق ، ص ١٤٦ ـ ١٤٧ ٠

(٢٩) د٠ ذوقان قرقوط : قراءة فى تاريخ سوريا المعاصر ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ١٩٧٧ ، ص ٤١ ـ ٤٣ ٠

(٣٠) محمد رفعت : التوجيه السياسى ، مرجع سابق ص ١٣٧ ٠

(٣١) د٠ زاهية قدورة ، تاريخ العرب الحديث ، ص ٢٦٠ ـ ٢٦١

(٣٢) محمد رفعت ، مرجع سابق ، ص ١٣٧ ـ ١٣٨ ٠

(٣٣) د٠ توفيق سلطان وآخران ، مرجع سابق ، ص ٩٥ ـ ٩٦ ٠

(٣٤) المرجع السابق ، ص ٩٥ ٠

(٣٥) محمد رفعت ، مرجع سابق ، ٣٢٦ ٠

(٣٦) د٠ زكى المحاسنى : الأردن (النهضة العربية) ص ٤٥٨ ـ ٤٥٩ ٠

(٣٧) د٠ عبد الكريم غرايبة : الثورة الكبرى والعالم العربى ، مرجع سابق ، ص ١١٩ ـ ١٢٠ ٠

د٠ ضياء الدين الريس : فى التاريخ الاسلامى الحديث ، ص ٢٠٠

(٣٨) د٠ زكي المحاسنى ، مرجع سابق ص ٤٦٠ ٠

الفصل التاسع

العثمانيون فى اخريات ايامهم

عمرت الدولة العثمانية أكثر من آية دولة اسلامية أخرى على مر التاريخ وعاشت عمرا مديدا حققت خلاله من الانتصارات والأمجاد مايعد بحق مفخرة لهذه العشيرة النازحة من بلاد التركستان ، كما لحقت بها الهزائم وتحالفت ضدها الكثير من القوى الصليبية وعلى الرغم من ذلك ظلت تقاوم وتواجه وتتحدى تتعثر حينا وتنهض أحيانا الى أن كانت أحداث الحرب العالمية الأولى ودخلت ميادين القتال الى جانب دولتى الوسط (ألمانيا والنمسا) فوجدتها روسيا وبريطانيا وفرنسا فرصة سانحة لتجهز عليها وتتخلص الدول الأوربية من « كابوس » ظل يقض مضاجعهم مئات السنين .

والشيء الذى لا جدال فيه أن انتصارات العثمانيين منذ قيام دولتهم فى عام ٦٩٩هـ/١٢٩٩ عندما أعلن عثمان استقلاله التام بعد زوال دولة السلاجقة من آسيا الصغرى مكونا بذلك السلطنة العثمانية وحتى نهاية الحرب الأولى كانت باسم الاسلام ، كما أن التحالف ضدهم والعمل على زوال دولتهم كان كذلك أيضا لأنهم يمثلون الاسلام ويزودون عن حياضه ويربطون بين أبنائه برباط وثيق ، لا سيما وقد نجح العثمانيون في مد سلطانهم على بقاع لم تقتحمها أعلام الاسلام من قبل :

واذا كان العثمانيون قد ورثوا الخلافة ، فأحيوا شعائرها وبقيت الرباط الأكبر للعروبة فى اطار الدولة العثمانية وللمسلمين عامة فى كافة أرجاء الأرض من كان منهم خاضعا للدولة العثمانية أو لحكم آخر اذا استثنينا المسلمين الذين يعتنقون المذهب الشيعي تحت حكم الصفويين فى فارس لأنهم لا يعترفون بالولاء لخليفة سني .

واذا كان العثمانيون قد أخذوا الاسلام عن العرب ، كما ورثوا امبراطوريتهم الواسعة الا أنهم عجزوا عن تفهم جوهر الاسلام وأقاموا لهم دولة على نسق الامبراطورية الرومانية في دقة ادارتها وصرامة نظامها والكثير من عيوبها ومحاسنها(١) .

فالتركى قد اعتنق الاسلام وتمسك بشعائره وتعصب له ولكنه بقى بعيدا عن روح الاسلام الحقة فهو يحفظ القرآن ويردده دون أن يفهمه الا بقدر ما يؤدى به فرائض الدين وشعائره .

ولم يكن للأتراك العثمانيين من مرونة الطبع ومن سماحة الخلق ما للعرب فجمدت الحضارة الاسلامية على أيديهم ولم يدركوا روح الاسلام فى الحكم والسياسة تلك الروح التى تتمثل فى الاخوة الاسلامية فحكموا دولتهم فى كثير من الأحيان حكما امبراطوريا صارما بعيدا عن روح الاسلام والأخوة التى طبع بها المسلمين فى كافة أنحاء الأرض . حتى الخلافة الاسلامية قد أصبحت لديهم هى الأخرى بعض شعائر الدين فلم يعنوا بها الا بعد أن بدت حاجة الدولة اليها ورأوا فيها وقاءا لهم يجمع المسلمين حولهم فى مواجهة الضغوط الأوربية التى بدأت تنوش أطرافه وتسطو على حواشيه، ولم تكن فى هذا غير وسيلة سياسية كما كانت فى بداية عهدهم ولكنها وسيلة تنم عن الحاجة بعكس ما كانت عليه من قبل حيث كانت مظهرا سياسيا ينم عن التعالى والفخر الامبراطورى « لخليفة رسول رب العالمين وحائز الامامة العظمى ووارث الخلافة الكبرى » كما جاء فى « قانون نامه » من ألقاب السلطان أحمد الأول الى الامبراطور «ما تياس» « ظل الله تعالى فى الأرضين ، المتمكن على المقام الشريف انى جاعل فى الأرض خليفة .. حامى وحاكم السلطنة العلية ومقر الخلافة السنية .. » وهو كما جاء فى ألقاب السلطان عبدالحميد الثانى « سلطان البرين وخاقان البحرين وحامى حمى الحرمين »(٢) :

ويقتضينا المقام الحديث عن علاقات العثمانيين والعرب قبيل الحرب العالمية الأولى حيث حددت هذه العلاقة حقيقتان :

أولاهما أن العثمانيين لم يفرضوا على الولايات العربية التى دخلت فى حوزتهم أثناء توسعهم فيها ابان القرن السادس عشر ، القوانين والأنظمة العثمانية الصرفة ، بل كانوا يكتفون بفرض السيطرة العسكرية والسياسية ويتركون للشعوب العربية مؤسساتهم القديمة ، وحرية الاحتفاظ بلغتهم وعوائدهم وتقاليدهم .

والحقيقة الثانية : هى أن العثمانيين عندما كانوا يندفعون نحوالغرب فى موجة حروبهم وفتوحاتهم فى البلاد النصرانية ، كان المسلمون فى مختلف أنحاء العالم يعتبرون هذه الحروب جهادا فى سبيل الله وتوسيعا لرقعة الاسلام وأن العثمانيين حين دخلوا البلدان العربية فى أفريقية وآسيا لم يعتبروا هذا اعتداء على هذه البلاد ، بل انقاذا لها من جور المماليك فى مصر والشام ،، ومن الاعتداءات الصليبية فى شمال أفريقيا ، ولم يعد الأمر كونه استبدال سيد بآخر ، لكنه سيد أقوى وأقدر على الدفاع عن المماليك الاسلامية التى تعرضت للمحن ولا تزال هدفا للاطماع الأجنبية . لذلك ارتبط العرب بالعثمانيين الفاتحين ، منذ دخولهم هذه البلاد ، برابطة الاسلام وكان الدين الاسلامى هو القاسم المشترك بين العرب والترك ، وظل كذلك حتى مطالع العقد الثانى من القرن العشرين ، فلم يكن العرب يشعرون بأنهم يختلفون عن حاكمهم طالما كانت تجمعهم رابطة الدين ، بل كانوا يعتبرون أن الدولة دولتهم فهى دولة الاسلام ، وان السلطان المسلم هو الوارث الفعلى لرئاستهم الدينية وحامى حمى الاسلام ورافع لواء الجهاد ضد الكفر والكفار حتى أن تسمية عرب لم تكن تطلق عليهم فى الوثائق والكتب والمعاملات بل كانت تسميتهم الشائعة هى كلمة « مسلمين » هم والترك على حد سواء فى عصر كان الدين هو الفارق المميز بين الأجناس والقوميات (٣) .

غير أن الكراهية بين الاتراك العثمانيين والعرب ما لبثت أن أطلت برأسها فى غضون القرن التاسع عشر ، نتيجة لأسباب مختلفة ، من سرعة انتشار الفساد حتى عم كافة مؤسسات الامبراطورية ، وسرعة سير الدولة فى طريق الانهيار ، ،وتغلغل التأثيرات الغربية فى البلاد فى كلا الجانبين، العربى والعثمانى ، وتشجيع هذه التأثيرات لنمو الأفكار القومية ، ولتمايز الأجناس ، ولسير كل منهما فى طريق الوعى العنصرى القومى ، على أن أهم الأسباب هى النتائج التى أسفرت عنها حركة التنظيمات التى شرعت بها الدولة منذ مطلع القرن التاسع عشر والتى اصطبغت بالصبغة المركزية (٤) .

ومن الجدير بالذكر أن اليقظة التى ظهرت فى البلاد العربية والتى يطلق عليها البعض « الوعى » جاءت مختلفة عن القوميات الأخرى فى أوربا حيث اتجهت الى التحرر من فكرة الامبراطورية وسلطان الكنيسة والقضاء على النظام الاقطاعى الذى يفتت سلطة الدولة القومية وسيادتها، أما عند العرب فقد سارت فى اتجاهين مختلفين يعبران فى النهاية عن هدف واحد هو الابقاء على وحدة العروبة والاسلام .

وأول هذين الاتجاهين ما ظهر فى دعوة الشيخ محمد بن عبدالوهاب السلفية وما ظهر فى دعوة الكواكبى من تأكيد زعامة العرب للعالم الاسلامى بل ان أولهما قد شن حربا ضد الدولة العثمانية لحمايتها للخرافات والبدع واتجاهاتها فى تطبيق نظم غربية بعيدة عن النظام الاسلامى الصحيح القائم على الشريعة والسنة .

وأما الثانى فقد رسم الاطار العربى للعالم الاسلامى الجديد ورأى أن العرب ولى الناس بالخلافة وأن مصر مهيئة للقيام بدور قيادى فى العالمين الاسلامى والعربى (٥) .

والاتجاه الثانى هو ما بدا فى دعوة بعض المفكرين العرب من حرص،

على رابطة الاسلام ووحدة الخلافة فلم تتعد دعوتهم المطالبة بنوع من الحكم الذاتى للعرب داخل الدولة العثمانية وعبروا عن هذا الاتجاه بما سموه النظام اللامركزى فى الحكم ، بل ان قمة نشاطهم فى عام ١٩١٢ لم تتعد تكوين « حزب اللامركزية العثمانى » والدعوة لحكومة تؤسس على قواعد اللامركزية الادارية فى جميع ولايات الدولة العثمانية (٦) .

فاليقظة عند العرب ظلت فى بداياتها مرتبطة بالولاء للخلافة الاسلامية والوفاء لرابطة الاسلام والوحدة العربية وعلة ذلك كما نرى أن الأمة العربية قد عاشت تاريخها أمة واحدة فى ظلال الاسلام ، بل انها هى التى حملت فى البداية أعلام الوحدة الاسلامية وطبعتها بطابعها العربى الغلاب من الأندلس الى الهند وظل المسلمون طويلا يدينون بالولاء للخلافة العربية فى دمشق وبغداد ، وكانوا يرون أن مجد الاسلام من مجد العرب وقوته من قوة الخلافة الاسلامية وهذا ولا ريب غرس الاسلام الباهر حين قضى على العنصرية وحمل روح الأخوة الى كل المسلمين على اختلاف أجناسهم وعناصرهم ، ثم كانت غلبة الحضارة العربية وتفوقها والأساس المرن الذى وضعه العرب لحكم الدولة والعدالة العربية التى طبقت شهرتها الآفاق وجذبت الى حمى الاسلام دون قهر عددا من الشعوب تقبلت الاسلام مؤمنة به راضية عنه هانئة باعتناقه فكانت دولة الاسلام أول دولة فى التاريخ يشع فيها روح الأخاء الانسانى ولا نبالغ اذا قلنا انها آخر دولة فى هذا الميدان (٧) .

السلطان عبد الحميد الثانى والعرب :

كان السلطان عبد الحميد الثانى قويا فى الحق جريئا فى غير تهور يملك من الذكاء والذاكرة وقوة التأثير بشكل يحير العدو والصديق ؟ كما كان متدينا من غير تعصب ، عصاميا بكل ما فى الكلمة من معنى .

وفى عهده كان للدولة العثمانية ثلاثة جيوش قياداتها فى دمشق الشام وبغداد وصنعاء اليمن . لم تسترح هذه الجيوش قط . حيث تستمر الثورات والتحرشات ، وتتعرض المراكز للهجوم فيضطر الجيش للبقاء على استعداد دائم . هناك فى صحارى فلسطين واليمن والعراق مشيخات وامارات شبه مستقلة . وبعض القبائل تتحين الفرص للسلب والنهب وقد عرف السلطان كيف يعامل هؤلاء فارسل رشيد باشا حيث يقدم اليهم كل سنة هدايا السلطان ، كما افتتح مدرسة سماها مدرسة العشائر فى استانبول يدرس فيها أولاد الأعيان من العرب السوريون والعراقيون واليمنيون وغيرهم . واستطاع بعض من العرب أن يرقى الى أعلى المناصب فى الدولة . وشكل كتائب الزحوف العربية واتخذها حرسا خاصا للقصر وقد حازت هذه الكتائب اعجاب الأوروبيين ولما وقعت أحداث الانقلاب ضد السلطان كانت هذه الكتائب العربية أول من تقيد بالأوامر السلطانية فلم تشترك بأى حركة تسىء الى السلطان أو الى الدولة

وطوال حكم عبد الحميد لم تنقطع رواتب الأشراف من آل البيت حيث وصلت اليهم بانتظام بالاضافة الى ذلك كان موضع تقدير وتكريم من جانبه .

وكان هناك يوم خاص يحتفل فيه باستانبول بمناسبة ارسال سترة الكعبة الى الحج ومع السترة ترسل أعلام وهدايا ثمينة (٨) .

وفى عصر الاتحاديين الذين أعلنوا أنهم يهدفون الى محاربة استبداد عبد الحميد وتبجحوا بحب الدستور والتمسك به وبالحريات والاخاء والمساواة بين الشعوب التى تتكون منها الدولة العثمانية هؤلاء الاتحاديين لم يبرهنوا فى جميع مظاهر السلوك التى سلكوها الا عن فكرة التسلط والاستبداد بهذه الشعوب واخضاعها لارادتهم وسوقها أمامهم سوق القطعان ، وجربوا كل الوسائل للوصول الى هذه الغلبة من تزوير

للانتخابات وتسيير للحملات ، وايذاء للعباد حتى وصل الأمر بهم الى حرق البيوت بأهليها ومن اجتذاب للعملاء ، واثارة لمختلف النعرات ، وتأجيج نيران الأحقاد، والقضاء على الأحزاب الى غير ذلك من الأفعال التى ثارت عليهم الأحقاد فى الداخل ، وشجعت الدول الكبرى على اقتطاع أملاك السلطنة ، وكانوا السبب فى حرب البلقان التى أضاعت ما ينوف عن ثلث أراضى الدولة (٩) .

أما العرب فلم يكن موقفهم من العهد الدستورى الجديد الا موقف الاخلاص والولاء للرابطة العثمانيــة ، وقد حاولوا التكيف مع النظام الاتحادى معتقدين توفر الحريات والحقوق بشكل يرضى تطوير الأفكار فى البلاد العربية غير أن الاتحادين صـمموا على التعصـب لتركيتهم ، واعتبروا غيرهم أقل منهم مرتبة فاضطر العرب الى التشبث بوجودهم بعد فشـل محاولاتهم توثيق الروابط بينهم وبين الاتحـادين من منطلق اخوة الاسـلام وعندما أدركت الحركة التركية أن العـرب أقوى من ان يقضى عليهم عملت على مهادنتهم وتمثل ذلك فى قبول الأتراك لقرارات المؤتمر العربى الأول لكن الأمور ما لبثت مرة أخرى أن اتجهت الى الصدام بين الطرفين . كما نجحت الدول الأوروبية لاسيما بريطانيا فى الوقيعة بين العرب والأتراك وشجعت الحسين بن على ليقوم بثورته المعروفة باسم الثورة العربية الكبرى .

الاتحاديون والحرب العالمية الأولى :

بعد فشل الدولة العثمانية فى الوقوف أمام الخطر البلقانى المتزايد والمتمثل فى التحـالف الصربى اليونانى البلغـارى (١٩١٢) استطاعت مرة أخرى استرداد أدرنه بعد تحول الحلفاء البلقانيين الى أعداء .

وخلال هذه التحولات كان رجال جمعية الاتحاد والترقى يتجهون يوما بعد يوم الى التحالف مع ألمانيا ضد روسيا وفرنسا وبريطانيا لعلهم بهذا

التحالف يستردون ما سبق أن استولت عليه هذه الدول الأوربية (١٠)

وبعد قيام الحرب العالمية الأولى خشيت روسيا تهديد منافذها الى البحر المتوسط اذا سيطرت ألمانيا والنمسا على البلقان ولكنهم لم يتوقعوا انفلات زمام الأمور الى هذا الحد .

وكانت روسيا قد نهجت سياسة تقوم على التدخل فى شئون الدولة العثمانية آنذاك ، فما أن أخمدت نار الحرب البلقانية حتى قامت روسيا بتحريض الأرمن على الثورة كما أنهم طالبوا بمنح ولايات الأناضول الشرقية امتيازات كما هو الحال فى لبنان ، ومع ذلك فان الأتراك العثمانيين دخلوا فى مفاوضات معهم على هذا الأساس ولكن تدخل الألمان حال دون الحصول على نتائج تذكر . ومن بين الاتحاديين البارزين كان أنور باشا الذى كان شديد الاعجاب بالعسكرية الألمانية خاصة وقد أظهرت تطورات الحرب فى البداية تفوق ألمانيا التى اكتسحت بلجيكا واحتلت شمال فرنسا واقتربت قواتها من باريس .

وأراد الألمان حمل السلطة العثمانية على دخول الحرب مهما كانت السبل وبعد أخذ ورد بين الوزراء العثمانيين ومجادلات طويلة كانت الحكومة أثناءها فى ضائقة مالية شديدة فاضطرت الى أن تطلب من ألمانيا مبلغا قدره خمسة ملايين ليرة . واشترط الألمان دخول الدولة العثمانية الحرب الى جانبهم وقبل الباب العالى بذلك (١١) .

وعلى الرغم من أن كثيرا من الأتراك كانوا على يقين من أن الدولة ليست فى حالة تؤهلها للقيام بجهد حربى كبير بعد تلك السلسلة من الحروب التى أرهقت السكان ومالية الدولة وقواتها المسلحة ، فان معظم الاتحاديين - والرأى العام - كانوا يحسون بأنهم أقرب الى فرنسا وبريطانيا منهم الى ألمانيا ، لاسيما وأن العسكرية الألمانية لم تجد صدى

الا لدى أنور وبعض الضباط الذين تلقوا تدريبا عسكريا فى ألمانيا . ولكن أثر دؤلاء كان ضعيفا خاصة وأن جمال باشا وضباط البحرية كانوا أميل الى دول الوفاق ان لم يكن الى الحياد ، الا أن أنور كان يرى أن الانضمام الى دول الوفاق لن يعود على الدولة بأى فائدة فى حالة النصر خاصة وأن روسيا العدو التقليدى الطامع فى أراضى الدولة كانت احدى دول الوفاق فى حين أن ألمانيا لم تكن تظهر أطماعها فى ولايات الدولة العثمانية ، وأن مصلحتها كانت تقتضى التصدى للتوسع الروسى (١٢) .

ولما كان التحالف مع ألمانيا لا يلقى ترحيبا على هذا الأساس من معظم المسئولين والرأى العام ، فقد أجريت المفاوضات سرا ولم يشترك فيها مع أنور سوى سعيد حليم (الصدر الأعظم ووزير الخارجية) ولم يعلم باقى الوزراء بالحلف الا بعد توقيعه ، فاضطروا الى الموافقة على مضض ، وكان أنور يعتقد أن الحرب لن تطول وأن على تركيا - اذا كانت تود أن تشترك فى جنى ثمارها - أن تدخلها دون ابطاء .

وقد وضع وزير الحربية أنور باشا فى اعتباره قيام مواجهة عسكرية بين القوات العثمانية والروسية فى شرقى الأناضول حيث توجد الولايات الست التى يسكنها الأرمن وذلك قبل نشوب الحرب العالمية التى دخلتها الدولة العثمانية فى ٥ من نوفمبر سنة ١٩١٤ منضمة الى جانب دولتى الوسط ، ألمانيا والنمسا ضد دول الوفاق الثلاثى بريطانيا وفرنسا وروسيا(١٣) .

ولذلك أبدى أنور اهتماما ملحوظا بالجبهة الشرقية فى الأناضول وضع فى اعتباره احتمالا قويا جدا فى أن ينضم فريق من الأرمن العثمانيين الى القوات الروسية ، بينما يقوم فريق آخر منهم بثورة داخلية على الحكم العثمانى .

وقد أثبتت الأحداث صدق ما توقعه وزير الحربية العثمانى حيث قام الأرمن بالانضمام الى القوات الروسية ، وتدفقوا من ولايات شرقى الأناضول « ليسهموا بجهودهم وليبذلوا أرواحهم رخيصة في سبيل نصرة القوات الروسية حتى يرفرف العلم الروسى خفاقا عاليا فوق البوسفور والدردنيل » .

وجاء فى أقوال زعماء الأمن للقيصر نقولا الثانى « دع ، يا صاحب الجلالة القيصر ، الشعوب المتبقية تحت نير الحكم العثمانى تسترد حريتها ودع الشعب الأرمنى الخاضع للدولة العثمانية والذى عاش متمســكا بالعقيدة المسيحية يبعث من جديد ويعيش حياة جديدة حرة تحت سماء انروسيا » (١٤) .

وكان الروس أول من بدأ المعارك مع العثمانيين . واجتازت فرقة من جيشهم الحدود فى ١١ نوفمبر فأرغمتهم القوات العثمانية على التراجع بعد أن ألحقت بهم خسائر كبيرة .

وفى ٢١ ديسمبر ١٩١٤ تولى أنور باشا بنفســه قيادة الجيش الثالث فى هجوم مضاد مستهدفا قطع خطوط مواصلات العدو بين القوقاز وقاعدة الروس الرئيسية فى قارص واحتلالها مع أردهان وباطوم كخطوة أولى لغزو عثمانى يستهدف منطقة القوقاز ولكنه منى بهزيمة ساحقة عند ساريكامس (اقليم فى جبال أرمينية) فى يناير سنة ١٩١٥ وفقد اكثر من ثلاثة أرباع قواته سواء فى المعركة أو فى تقهقر هذه القوات وهبطت الروح المعنوية للعثمانيين فى الجبهة الروسية ونالت الهزيمة من سمعتهم العسكرية ، وكانت نتيجة هذه الكارثة العسكرية أن ترك أنور باشا فى منتصف شهر يناير ١٩١٥ قيادة القوات المتبقية من الجيش الثالث الى قائد آخر وعاد الى القيادة العامة للقوات المسلحة فى استانبول (١٥) .

وبعد الهزيمة الساحقة للعمثانيين فى ساريكامس انفتح الطريق أمام الروس للقيام بهجوم آخر على شرقى الأناضول • وزاد من حرج مركز العثمانيين أن الهجوم الروسى المضاد قد صحبته ثورة داخلية عارمة قام بها الأرمن فى ولايات الأناضول ضد العثمانيين • وبذلك تحقق الشطر الثانى من تنبؤات أنور باشا •

والحقيقة التى لا مراء فيها أن أنور باشا يتحمل مسئولية كبيرة فى هذه الهزائم حيث أنه كان من أكثر المتحمسين للحرب الى جانب الألمان ، كما أنه كان البادىء بالهجوم على الروس حين أعطى تعليماته للاسطول العثمانى فى البحر الأسود ببدء الأعمال العسكرية ضد الروس ، وهو يعلم جيدا أن ذلك كفيل بادخال الدولة العثمانية الحرب الى جانب ألمانيا وفى ٢٩ أكتوبر قصف الأسطول العثمانى موانى أودسا وسمباستبول ونوفوروسك وأغرق عددا من السفن الحربية الروسية •

وكان الأثر المباشر لدخول العثمانيين الحرب اعلان بريطانيا حمايتها على مصر وضمها لجزيرة قبرص • وبدأت أساطيل الحلفاء فى مهاجمة قلاع الدردنيل الخارجية كما قصفت البحرية البريطانية ميناء العقبة — ولأول مرة فى التاريخ تدخل بريطانيا حربا مباشرة ضد الدولة العثمانية (١٦)

انتصارات العثمانيين فى الدردنيل :

كان أكبر نصر أحرزه العثمانيون فى ميادين القتال هو ذلك النصر الذى حدث نتيجة لنجاح العثمانيين فى صد حملة الدردنيل التى أرسلتها بريطانيا وفرنسا بهدف اقتحام الدردنيل والبوسفور حتى يتم التخفيف عن روسيا التى كان الألمان يوجهون اليها ضربات شديدة فى الجبهة الشرقية ومن أجل اخراج العثمانيين من الحرب •

وقد تكاتف العثمانيون والألمان فى صد الهجوم البريطانى الفرنسى مما اضطرهم الى الانسحاب فى ديسمبر ١٩١٥ مخلفين وراءهم ١٢٠ ألف من القتلى والجرحى ولو أن هذه الحملة نجحت فى مهمتها لغيرت سير الحرب ولأمكن التأثير على دول البلقان وعزل العثمانيين (١٧) عن حلفائهم بل لأمكن امداد الحلفاء بقمع روسيا ويمكن القول بأن أهم نتيجة حربية لحملة الدردنيل هى أنها أبقت روسيا تقاتل الى جانب الحلفاء كما أنها شغلت خير فرق الجيش العثمانى وأرهقت قواها(١٩) .

محاولة اغراء اليونان بدخول الحرب :

فى أوائل عام ١٩١٥ حاولت الدول المتحالفة اغراء اليونان بدخول الحرب الى جانبهم فى مقابل الاستيلاء على بعض أراضى الأناضول . وقد قبل فنزيلوس - رئيس الوزراء اليونانى عروض الحلفاء تحقيقا لأطماعه فى قيام بلاد اليونان الكبرى التى تشمل كل المناطق التى سادها الطابع الهلينبى عبر التاريخ . ولكن هذه الخطة لم تنجح بسبب اقالة فنزيلوس الذى دخل الحرب فى عام ١٩١٧ على أساس الاتفاق السابق حين عاد الى الحكم (٢٠) .

احتلال الروس شرق الأناضول :

على الرغم من نجاح العثمانيين فى صـــدهم لحملة الدردنيل التى أرسلتها بريطانيا وفرنسا وكان الهدف منها اقتحام الدردنيل والبسفور من أجل التخفيف عن روسيا التى كان الألمان يوجهون لها ضربات شديدة فى الجبهة الشرقية وكذلك انتصارات العثمانيين فى رفع الحصار عن كوت أوكوت الامارة كما كانت تسمى وقتذاك وهى تقع على نهر دجلة جنـوبى بغداد فى ٢٩ ابريل ١٩١٦ لم يكن فى مقدورهم ضرب الثورة الحسينية التى قادها الشريف حسين بن على فى ٥ يونيو ١٩١٦ وذلك أن القوات الروسية قامت بحملة مزدوجة صوب الولايات الست فى شرقه

الأناضول منذ مطلع سنة ١٩١٦ اتجهت القوة الأولى جنوبا حول بحيرة تمان وفى اتجاه موشى بيرما اتجهت القوة الثانية شمالا وتقدمت مباشرة من قارص نحو أرضروم التى استولت عليهـا فى ١٦ فبراير ١٩١٦ اذا اضطر أكثر من مليون مسلم من الفلاحين ورجال القبائل الى الهرب مما قطع الطريق أمام آلاف آخرين فى محاولتهم اللحاق بالجيش العثمانى فى تقهقره نحو ارزنكان وقد تعرض كثير من الفلاحين العثمانيين لعمليات الذبح من جانب القوات الروسية أو الأرمن المنضمين اليها أو من الأرمن المحليين .

أما فى الجنوب فقد كان العثمانيون أوفر حظا ، اذ استطاعوا أن يلحقوا بالقوات الروسية هزيمة عند بحيرة ثمان على الرغم من أنهم تكبدوا خسائر فادحة فى الأرواح والعتاد . وقد استمرت الحرب بعد ذلك سجالا ولم يتمكن العثمانيون من طرد الروس من شرق الأناضـول واستقرت دعائم الاحتلال الروسى لها ثم كان الانقلاب الشيوعى فى عام ١٩١٧ وبدأ انسحاب القوات الروسية من شرق الأناضول (٢١) .

الانقلاب الشيوعى فى روسيا والانسحاب من الحرب :

فى ابريل عام ١٩١٧ كانت روسيا القيصرية على وشك الخروج من الحرب وقد ساءت الأحوال الاقتصادية ابان فصل الشتاء لدرجة كبيرة ونقصت الأغذية وتوالت الهزائم المنكرة فى الجبهة ، وفسـدت الادارة الحكومية والقيادة العسكرية وبتأثير المبادىء الشيوعية الجديدة رفض بعض القوزاق مساندة الحكومة القيصرية وسيطر الثائرون على بطرسبورج وألقى القبض على القيصر « نيقولا الثانى » وهو يحاول العودة من مقر اقامته الى هناك . وأعاده موظفو السكة الحديدية الى مقر الأركان وهناك تشاور القادة ونصحوه بالتنازل عن العرش وحدث هذا فعلا .

عند ذلك تسلم مقاليد الأمور مجلس مؤلف من الجنود والعمال أطلقوا على أنفسهم « سوفيت » وعهد الى حكومة جديدة برئاسة كيرنسكى وهو محام بارز عرف باعتداله ودفاعه عن الكثير من العمال وخاصة فى التهم السياسية التى وجهت اليهم فى عهد القيصر وقد ظل فى منصبه حتى أكتوبر ١٩١٧

وقد حدثت هذه الأمور فى روسيا وهى لم تنسحب بعد من الحرب وهلل البريطانيون والفرنسيون لهذا الانقلاب واستبشروا بقرب سحق ألمانيا ولكن على الرغم من ذلك فقد استمر الموقف غامضا ووصل لنين الى بطرسيورج وكان من وجهة نظر الشيوعيين المتطرفين البطل الملهم على الرغم من أن خصومه قد نعتوه « بمعاناة مركب النقص الذى أدى به الى العنف وأنه يهودى متنمر ، فى طبعه شراسة اليهود وحقدهم ، وأدى به ذلك الى القضاء على خصومه بطريقة عنيفة وأراق الدماء أنهارا وأعلن الانسحاب من الحرب عن جبن وخوف من قيام ثورة مضادة للشيوعية ، لا حبا فى السلام وحقنا للدماء التى أزهقها فى شوارع وأرياف روسيا » (٢٢) ٠

وقد مضت بضعة أسابيع فى بطرسبورج والقوة الفعلية بيد الشيوعيين ، بينما كانت ظاهريا ورسميا بيد حكومة كيرنسكى ٠

وحينما وضعت خطة لاستيلاء على الحكم ٠ وتسلم الشيوعيون المؤسسات شيئا فشيئا ووقع الصدام بينهم ومن كيرنسكى احتل الحرس الأحمر المواقع الهامة فى العاصمة وألقى القبض على أعضاء حكومتى كيرنسكى واجتمع فى مساء اليوم ذاته مجلس السوفيت وشكل وزارة برئاسة لينين ٠

وفى ٨ نوفمبر ١٩١٧ قرأ لينين منشور السلام القاضى بوقف اطلاق النار فورا فى جميع الجبهات ٠ وبادر لينين منفردا الى عقد صلح مع ألمانيا

وتم التوصل الى صيغة اتفاقية لوقف الحرب بين الطرفين فى ١٥ ديسمبر ١٩١٧ وأصبحت فرنسا وبريطانيا عدوتين لروسيا مما أدى الى فضح الشيوعيين لاتفاقياتهم السرية والتى كان من أهمها اتفاقية سايكس بيكو التى أكدت التحالف البريطانى الفرنسى القيصرى ضد الدولة العثمانية (٢٣) .

الموقف فى الأناضول بعد الانسحاب الروسى :

تمشيا مع السياسة العليا للحكومة الشيوعية برئاسة لينين عقدت هدنة مع الدولة العثمانية وتم التوقيع عليها فى ١٨ ديسمبر ١٩١٧ ، ولكن هذه الهدنة لم تلق ترحيبا من جانب الأرمن الذين قاموا بمذابح جماعية بين من تبقى من المزارعين العثمانيين المسلمين فى جنوبى القوقاز وشرقى الأناضول وأصبح فيهما أكثر من ٦٠٠ر٠٠٠ لاجىء من بين مجموع سكانها السابقين قبل الغزو الروسى لشرق الأناضول فى سنتى ١٩١٦ ، ١٩١٧

وقد أجاب أنور باشا على انتهاك الأرمن لأحكام اتفاقية الهدنة بالقيام بهجوم ضاغط اشتركت فيه قوات عثمانية يقودها على احسان صائب وكاظم قره بكير وقد نجحت هذه القوات فى طرد جميع الأرمن من ارزنكان ثم اتجهت القوات العثمانية لاحتلال قارص ، وأردهان ، وباطوم بعد انسحاب الروس منها ، ثم أوقع كاظم قرة هزيمة أليمة بالأرمن واستولى على أرضروم فى ١٢ مارس ١٩١٨ (٢٤) .

دخول الولايات المتحدة الحرب :

على الرغم من إعلان الرئيس الأمريكى ولسون مبادىء السلام الشهيرة الا أنه اتخذ بنفسه قرار الحرب الى جانب دول الوفاق وذلك بعد توسع الألمان فى حرب الغواصات المطلقة من كل قيد وذلك من أول فبراير

١٩١٧ ٠ وكان معنى هذا القـرار أن للغواصـات الحق فى أن تغرق ايه سفينة تجارية دون انذار ، وكانت ألمانيا قد أغرقت قبل ذلك بسنتين سفينة الركاب لوزيتانيا على مقربة من ساحل ايرلندا ، فاستفز هـذا العمل فى حينه حكومة واشنطن وكاد أن يدفع بها الى الحرب ٠

وفى أوائل عام ١٩١٧ حاولت ألمانيا اغراء المكسيك على مهاجمـة الولايات المتحدة ، فى مقابل وعدها بضم تكساس والمكسيك الجـديدة وأريزونا اليها ٠

وقد دفعت هذه الحادثة وغيرها الرئيس ولسن لاعلان الحرب فى ٦ ابريل ١٩١٧ محققا بذلك رغبة الكثيرين من زعماء الحزب الجمهورى فى الولايات الشرقية الذين كانوا يريدون دخـول الحـرب منذ البداية متعاطفين مع وطنهم الأول وأسلافهم القدماء الذين خرج من صلبهم الشطر الأكبر من الأمة الأمريكية ٠

وقد أثبت دخول الولايات المتحدة الحرب أنه ذو نتائج حاسمة فقد صار الحصار البحرى المضروب على ألمانيا أحكم وأضيق بفضـــل عون الأسطول الأمريكى ٠

وهكذا تزامن اعلان الولايات المتحدة دخول الحرب مع قيام الثورة فى روسيا ضد القيصر نيقولا الثانى مما كان له نتائج خطيرة على الحرب العالمية فى عامها الأخير (٢٥) ٠

هدنة مد روز :

أدى دخول الولايات المتحدة الحرب الى ترجيح كفة الحلفاء على الرغم من انسحاب روسيا منها ، وحين بدأ مجرى الحرب يتحول لصالح الحلفاء انضم طلعت الى الألمان فى محاولة التوصل الى الهدنة بمساعدة الرئيس الأمريكى « ولسن » استنادا الى مبادئه الأربعة عشر

وأخيرا تقدمت السلطات التركية بطلبها الى الأميرال «كالثروب Calthorpe» قائد الأسطول البريطاني في البحر المتوسط الذي كان يحاصر الدردنيل، نوجه الى مدروز الواقعة على جزيرة « لمنوس » في ١١ أكتوبر ١٩١٨ لاتخاذ الاجراءات النهائية . وقد صرح كالثورب بقوله : ان خطتنا الثانية ألا تظهر أي مجاملة مهما كانت ضئيلة لأي تركي وقد منعنا منعا باتا جميع أفراد قوات الاحتلال من أن يتبادلوا التحية مع الأتراك أو قيام أي صداقة أو غير ذلك من أنواع السلوك الاجتماعي معهم ، حينئذ كان طلعت باشا - الذي تولى مجلس الوزراء - قد استقال هو وزملاؤه وقام بمهام السلطة أحمد عزت القائد السابق للجبهة الشرقية وشكل وزارته في ١٤ أكتوبر وضمت عددا كبيرا من أعضاء لجنة الاتحاد والترقي على الرغم من فرار طلعت وجمال وأنور (الثلاثة الكبار) .

وقد أرجا البريطانيون الاجتماع النهائي في مدروز لمدة أسبوعين حتى تتمكن قواتهم من احتلال الموصل وحلب ليتأكدوا من أنهم - لا الفرنسيين - هم الذين يسيطرون على الآستانة والبوغازين وقبل عشرة أيام من توقف القتال على الجبهة الغربية (فرنسا) عقدت هدنة مدروز في ٣١ أكتوبر ونصت على الاستسلام دون قيد أو شرط ، وهو ما لم يحدث بالنسبة الى أي من دول الوسط (ألمانيا - النمسا - بلغاريا) وبدأت القوات العثمانية تلقي سلاحها واستعد الحلفاء لاحتلال الآستانة وغيرها من المدن الكبرى (٢٦) .

وعلى الرغم من أن كفة الدولة العثمانية وحلفائها ، ألمانيا والنمسا والبلغار لم تكن لتعادل كفة الانجليز والفرنسيين والايطاليين والروس في بادئ الأمر ، ثم الولايات المتحدة ، بعد ذلك ، فقد استطاع العثمانيون أن يقاوموا أربع سنوات ، هلك فيها الزرع والضرع ، فقد شوهد الجندي التركي يحارب في الميدان وهو جوعان وعريان والأمراض تفتك به ولكنه كان يحارب بقوة الايمان وباسم الاسلام ولذا فقد كانت كل المصائب تهون لديه ، وكان لابد لهذه المأساة ، التي رصد لها الغرب كل امكاناته

فخرت الدولة صريعة واستسلمت لاعدائها تحت ضربات حقدهم ولولا استسلام البلغار أولا والنمسا بعد ذلك لما وصلت الأمور الى هذه النتيجة (٢٧) ٠

وهناك بعض الملاحظات الهامة على هدنة مدروس تتعلق بالشروط القاسية التى فرضت على العثمانيين والتى تعتبر تسليما كاملا غير مشروط لمطالب بريطانيا ، وتفوق فى قسوتها المعاهدات التى فرضت على الدول المسيحية الأعضاء فى دول الوسط ، وهى الدول التى كانت حليفة للعثمانيين فى الحرب ألمانيا والنمسا وبلغاريا ٠ مما يدل على أن الروح الصليبية كانت لاتزال مشتعلة متأججة فى الدول الأوربية الكبرى ، وفى مقدمتها بريطانيا وفرنسا وايطاليا : على الاسلام والدول الاسلامية ٠

وقد جاء فى نصوص هدنة مدروس التأكيد على الاطلاق الفورى لجميع أسرى الحلفاء ، وكذلك المسجونين والأسرى الأرمن مهما كانت نوعية الجرائم التى ارتكبوها كما ورد فيها نص يختص بأرمينية جاء فيه « انه فى حالة وقوع اضطراب فى الولايات الأرمينية الست يحتفظ الحلفاء لأنفسهم بحق احتلال أى جزء منها ، مع سيس SiS وهاشين Hesin وزيتين zeytin وعنتاب Ayintap فتصبح تحت الاحتلال الفورى » ٠

ونتيجة لأحكام هدنة مدروس دخلت قوات الحلفاء أراضى الدوله العثمانية وكان يسيطر عليها اعتقاد لا يتزعزع فى صدق الدعاية المعادية للدولة العثمانية فى أنها دولة متعصبة تعصبا دينيا صارخا٠أوقعت مذابح جماعية بملايين المسيحيين دون أدنى سبب سوى اختلاف الدين وأن المسيحية تفوق الاسلام فى تمسكها بالرحمة وحرصها على عدم سفك دم الأبرياء ٠

وفى هذا الجو المعادى للعثمانيين والدعاية المغرضة أظهر الأرمن

شماتة سافرة بهم وترحيبا بقوات الاحتلال الدولى المشترك • صنع الأرمن فى المدن الكبرى والصغرى على السواء كميات وافرة من الأعلام البريطانية والفرنسية والايطالية ورفعوها فوق مساكنهم وأمام محلاتهم التجارية •

وكان اليونانيون يشاطرون الأرمن فى اظهار شعورهم العدائى نحو العثمانيين • وقام الأرمن واليونانيون تحت سمع قوات الاحتلال وبصرها بذبح الجنود العثمانيين المسرحين منذ عقد الهدنة كما ذبحوا آلافا من المسلمين العزل دون أن تبذل سلطات الاحتلال أى محاولة للتدخل من أجل وقف هذه المذابح (٢٨) •

وظهرت بجلاء التفرقة بين المسلمين والمسيحيين عندما فتحت المدارس التى تعطلت فى الشهور التى تلت عقد الهدنة ، فلم يسمح الا للتلاميذ والطلبة غير المسلمين باستئناف دراستهم أما زملاؤهم المسلمون فقد تركوا فى الشوارع وقام أعضاء البعثات التنصيرية فى أقاليم الدولة بدور بارز ، ولكنه مزر ومشين ، حين عهد اليهم بالاشراف على ملاجىء الأيتام المسلمين الذين فقدوا آباءهم فى أثناء الحرب العالمية الأولى ، فقد طردوا منها آلافا من هؤلاء الأيتام ووضعوا فى أماكنهم أيتاما مسيحيين من الأرمن واليونانيين •

وهكذا أصبحت الدولة العثمانية تحت رحمة الدول المتحالفة التى انتصرت فى الحرب ، وبدأت عمليات الاحتلال طبقا للاتفاقات التى عقدت أثناء الحرب ، فنزلت قوات الحلفاء كل فى الأماكن المخصصة لها • وقد وقعت الآستانة تحت الاحتلال المشترك للحلفاء تحت قيادة الأميرال كالثورب باعتباره مندوبا ساميا تعاونه لجنة ثلاثية تضم مندوبا عن كل من فرنسا وبريطانيا وايطاليا كما عين مندوبون للاشراف على أعمال الوزارات العثمانية وسعت الأقليات الدينية وبخاصة الأرمن واليونانيون - كما ذكرنا - الى استغلال الوضع الجديد لخدمة أغراضها (٢٩) •

وقد أدت روح التشفى التى صدرت عن الحلفاء والأقليات الدينية الى نمو روح المقاومة لدى الأتراك ، وكانت أوضح ما تكون فى الأناضول

فمنذ ديسمبر ١٩١٨ ظهرت مجموعـات وطنية محلية أطلقت على أنفسها اسم « جمعيات الدفاع عن الحقوق » أو « جمعيات مقاومة الضم » وكانت هذه الحركات أقوى ما تكون فى المناطق التى تهددها الأجانب : فى تراقيا وأزمير اللتين كان المسلمون فيهما موضعا لتحرشات اليونانيين، وفى قليقيا حيث جند الفرنسيون فرقة أرمنية مهمتها مسـاعدتهم على احتـلال المنطقة ، وفى المناطق الشرقية حيث كان الحلفاء يزمعون اقامة دولة أرمنية .

وبينما كل ذلك يجـرى تأخر توقيع معاهـدة الصـلح مع الدولة العثمانية وذلك بسبب تضارب مصالح الحلفاء وأطماع الأقليات ومرض الرئيس ولسون الذى كان يتطلع الى فرض انتداب أمريكى على الأناضول

ومن ناحية أخرى لم يرع الحلفـاء شروط الهـدنة ودفعوا اليونان لاحتلال أزمير . وكان هذا العمل فضلا عن اشـتداد صولة الحلفاء فى الآستانة قد أشعل الحركة الوطنية فهب الأتراك عن بكرة أبيهم يكتبون صفحة رائعة من صفحات تاريخهم الحربى المجيد وقد ظل الحلفاء مترددين فى البت فى مصـير تركيا حتى أوائل سـنة ١٩٢٠ فقد اجتمع مجلس الحلفاء الأعلى فى لندن فى فبراير من تلك السنة لتقرير مستقبل تركيا واتسعت هوة الخلاف بين الانجليز من ناحية والفرنسية من ناحية أخرى حول تقرير مصير الآستانة فقد كانت انجلترا ترغب فى نزعها من يد الأتراك بينما لم توافقها فرنسـا وايطاليا وقد سلمت انجلترا بوجهـة نظرهما نتيجة لقيام موجة من الاسـتياء فى أنحاء العالم الاسلامى لهيض جناح الدولة العثمانية وانتهاك حرمة عاصمة الخـلافة حينذاك وكانت موجة الاستياء على أشدها فى الهند الاسلامية التى كان يمثلها فى لندن

الوفد الهندى ، ولذلك قرر المجلس الأعلى للحلفاء فى ١٤ فبراير ١٩٢٠ بقاء الآستانة فى يد الأتراك وحرية المرور فى البواغيز : وايجاد الضمانات الكافية لذلك ، على أن الحلفاء مع تسليمهم بهذا لم يكن فى نيتهم انصاف تركيا أو معاملتها معاملة طيبة ولاسيما انجلترا التى لم تكن تحبذ قرارات الحلفاء بشأن الآستانة وسرعان ما أرسلت أسطولها ليرابط فى مياهها فى ٢١ فبراير ١٩٢٠ (٣٠) ٠

اجتماع مجلس المبعوثان :

بعد تطوير الأوضاع فى تركيا بهذه الصورة اجتمع مجلس المبعوثان لمناقشة ما يجب عمله للدولة فى محنتها وأصـــدر فى ٢٨ يناير ١٩٢٠ « الميثاق الوطنى » متضمنا القواعد التى جعلها الأتراك أساسا للصلح وأصبح هذا الميثاق البرنامج السياسى لتركيا الجديدة وقد نص على :

١ ـ أن تنزل الدولة عن البلاد العربية على أن يقرر مصيرها وفقا لارادة شعوبها وأن تبقى للوطن التركى الذى يضم القومية التركية وحدته السياسية التامة ٠

٢ ـ أن يعين مستقبل تراقيا الغربية بعد استفتاء أهلها ٠

٣ ـ أن تقبل تركيا القواعد الخاصة بحقوق الأقليات على أن يكون للأقليات المسلمة فى الدول المجاورة نفس الحقوق ٠

٤ ـ أن تكفل الدولة أمان الآستانة وبحر مرمرة وصيانتها من كل سـوء وفتح البواغير بشرط المحـافظة على هذه القـاعدة لحرية التجـارة والمواصلات الدولية ٠

٥ ـ استفتاء السكان فى قارص وأردهان وباطون وهى المناطق التى يدور حولها لخلاف مع أرمينيا ٠

٦ ـ الاعتراف بالاســتقلال التام للدولة وحريتهـا التـامة لترتقى

حركتها الوطنية والاقتصادية حتى تتمكن من تأسيس ادارة ملائمة للحياة العصرية (٣١) ٠

معاهدة سيفر ١٩٢٠ :

عقدت الدول المتحالفة مؤتمرا للصلح فى باريس بدأت أعمال التمهيدية باجتماع فى ١٢ يناير ١٩١٩ حضره ممثلو كل من الولايات المتحدة وبريطانيا وفرنسا وايطاليا وكان اجتماعا غير رسمى تقرر فيه أن تمثل فى المؤتمر كل دولة أعلنت الحرب على ألمانيا أو قطعت علاقاتها بها رسميا ، وأن يتراوح عدد ممثلى كل دولة بين واحد وخمسة أعضاء - واقتصرت ميزة الخمسة أعضاء على أعضاء الخمس دول الكبرى : الولايات المتحدة وبريطانيا وفرنسا وايطاليا واليابان - أما الدول المغلوبة فلم تمثل فى المؤتمر الا حين دعيت لتسمع الحكم عليها ٠

وقد اجتمع المؤتمرون فى جو من الكراهية والخوف ، الكراهية لألمانيا وحلفائها ، وجشع للحصول على أكبر رقعة من أراضى المستعمرات وكسب للتعويضات وخوف من الشيوعية كذلك كان الصلح الذى أنهى الحرب صلحا أملاه المنتصرون ، ولم يكن عن طريق المفاوضة ٠

وقد أمليت معاهدة فرساى على ألمانيا بشروطها التأديبية القاسية ، كما وقعت بعد ذلك معاهدة سان جرمان مع النمسا ١٠ سبتمبر ١٩١٩

وكانت معاهدة سيفر Sevre المعقودة فى ١٠ أغسطس ١٩٢٠ هى آخر معاهدات الصلح التى أملاها الحلفاء فى باريس على الدول المنهزمة وقد أطلق عليها أستاذنا الدكتور عبد الحميد البطريق اسم (انحلال الدولة العثمانية) ٠

وقد تأخر عقد معاهدة سيفر الى شهر أغسطس ١٩٢٠ بسبب ما ثار من الخلافات بين فرنسا وبريطانيا من جهة ، وبين ايطاليا واليونان من جهة أخرى على تقسيم التركة العثمانية ٠

ومهما يكن من أمر تلك الأطماع الدولية فى ميراث الدولة العثمانية فقد رأى الحلفاء فى النهاية انهاء المناقشة بتلك المعاهدة العقيمة - كما وصفها المؤرخون - التى لم تترك لتركيا الا منطقة جبلية صغيرة فى الأناضول حول أنقرة ، وركنا صغيرا من الأرض الأوربية خلف الاستانة

وقد قضت معاهدة سيفر ببتر البلاد العربية من جسم الدولة العثمانيين وأباحت تملك الجمهورية الأرمنية ما تشاء من ولايات أرضروم وطرابزون ووان وتبليس وأن تحتل القوات البريطانية والايطالية والفرنسية مدينة الأستانة وولاياتها وازمير والأجزاء الشمالية من ولاية بروصة وأن تتكفل الحكومة العثمانية بنفقات جيش الاحتلال وأن تضم ولايتى أزمير وادارته الى اليونان وأن تقسم الأجزاء المتبقية من تركيا الى مناطق نفوذ بين انجلترا وفرنسا وايطاليا واليونان وجعلت أمر الاشراف على البواغيز الى هيئة خاصة أسمتها « لجنة مراقبة البواغيز » ولم تكن الحكومة التركية ممثلة فى هذه الهيئة اذا اشترطت لقبولها فى عضوية الهيئة أن تكون عضوا فى عصبة الأمم ، وكانت الهيئة مؤلفة من ممثلى انجلترا وفرنسا والولايات المتحدة وايطاليا واليابان واليونان ورومانيا وأن تقبل فيها الروسيا وبلغاريا بعد قبولهما فى عصبة الأمم ، وما كانت هذه الهيئة غير دولة فى داخل دولة ، فقد كان لها علمها الخاص ونظمها وميزانيتها المستقلة وخول لها فرض الرسوم المختلفة وتنظيم الملاحة فى بحر مرمرة والبواغيز وأن تكون لها ادارتها البوليسية الخاصة يقوم بها ضباط من الدول المكونة للهيئة (٣٣) .

وهكذا انتهى وجود الدولة العثمانية من الناحية الواقعية - باعتبارها دولة أوربية : اذ أنها لم تستبق على القارة سوى مساحة من الأرض أقل من تلك التى كانت فى يد الدولة البيزنطية فى أواخر عهدها وبالاضافة الى ذلك فقد اعترفت الدولة بجمهورية ايريفان الأرمنية وبمملكة الحجاز باعتبارهما دولتين مستقلتين ، كما اعترفت بالاستقلال

الذاتى لكردستان التى منحت حق الاستقلال بعد سنة اذا ما أبدى الأكراد رغبتهم فى ذلك ، وبالانتداب الغربى على كل من سوريا والعراق وفلسطين (وكان مؤتمر سان ريمو ـ قد قرر فى ابريل ١٩٢٠ تخصيص سوريا لفرنسا والعراق وفلسطين لبريطانيا) كما تنازلت الدولة عن كل أملاكها الاسمية فى أفريقيا وبحر ايجة : فقد تنازلت لبريطانيا عن قبرص ومصر ولايطاليا عما تبقى لها من الجزر .

أما شروط المعاهدة الأخرى فقد قلصت سيادة ما تبقى من الدولة العثمانية : فقد تقرر ألا يزيد عدد الجيش العثمانى عن ٥٠٫٠٠٠ جندى يخضعون لاشراف الضباط الأجانب وحدد سلاح الجيش والأسطول وأعيدت الامتيازات الأجنبية وتقرر تشكيل لجنة جديدة يمثل فيها الحلفاء مهمتها الاشراف على الدين العثمانى العام ، وعلى ميزانية الدولة وعلى الضرائب والرسوم الجمركية والعملة والقروض العامة . وأخيرا طلب من العثمانيين أن يقدموا تنازلات كبيرة لمن تبقى فى داخل الدولة من غير المسلمين (٣٤) .

وفى نفس اليوم الذى وقعت فيه المعاهدة تم اتفاق ثلاثى بين المندوبين الانجليز والفرنسيين والايطاليين على منح كل من فرنسا وايطاليا منطقتى نفوذ فى الأناضول . تمتد منطقة النفوذ الفرنسى الى شمال سوريا وتمتد المنطقة الايطالية جنوب وشرق أزمير .

وقد اضطر المندوبون الأتراك الى توقيع تلك المعاهدة فى ٣ أغسطس سنة ١٩٢٠ وأصبح السلطان العمثانى « محمد وحيد الدين » دمية فى أيدى السلطات البريطانية التى كان أسطولها راسيا فى مياه الاستانة . ولكن الشعب العثمانى لم يستكن الى ما فرضه عليه الحلفاء وعز عليه أن يرى اليونانيين يستقرون فى أزمير وتراقيا وجزر الأرخبيل ولا يكتفون بذلك بل يهاجمون الحدود بقصد احتلال اسكى شهر الا أن العثمانيين

صمدوا للقوات اليونانية فى واقعة اينونو (١١ يناير ١٩٢١) وانهزم الجيش اليونانى شر هزيمة وتقهقر نحو بروسه ٠ واضطر الحلفاء بعد ذلك الى تعديل معاهدة سيفر فعقدوا لذلك مؤتمرا فى لوزان ١٩٢٣ ٠

وقد أصدر السلطان بعض الفرمانات الخاصة لارضاء الحلفاء وبخاصة الانجليز ومن بينها حل لجنة الاتحاد والترقى ومصادرة أملاكها ، كما حل البرلمان وقبض على كثير من المثقفين الأتراك وتم نفيهم الى جزيرة مالطة وكانت لهذه التطورات التى وقعت بعد الحرب العالمية الأولى وما فرضه الحلفاء على الدولة العثمانية من عقوبات فى معاهدة سيفر وتدفق الأجانب على المدن التركية آثارا بعيدة المدى اذ تمكن مصطفى كمال أتاتورك من الوصول الى السلطة ليحقق بعد ذلك أكثر مما كان هؤلاء يريدونه بالدولة العثمانية(٣٥) ٠

حواشى الفصل التاسع

العثمانيون فى أخريات أيامهم

(١) د. حسين فوزى : العرب والعروبة ، الأنجلو ص ٤٤ ـ ٤٥ .

(٢) المرجع السابق ص ٤٧ .

(٣) د. توفيق على برو : العرب والترك ، مرجع سابق ص ٤ .

(٤) المرجع السابق ص ٥ .

(٥) د. حسين فوزى ، العرب ، مرجع سابق ، ص ٥٤ .

(٦) د. محمود صالح منسى : حركة اليقظة ، مرجع سابق ص ١٣٢

(٧) د. حسين فوزى : العرب ، مرجع سابق ، ص ٥٥ .

(٨) د. عبد العزيز الشناوى ، الدولة العثمانية ، ج ٢ ص ١٠١٢ ـ ١٠١٣ .

(٩) د. منسى : حركة اليقظة ، مرجع سابق ص ١٣٢ ـ ١٣٤ .

(١٠) د. توفيق برو ، مرجع سابق ، ص ٥٩٢ ـ ٥٩٣ .

(١١) د. عبد العزيز نوار : مرجع سابق ، ص ٢١٠ .

(١٢) د. عبد العزيز الشناوى ، ج ٣ ص ١٦٣٣ ـ ١٦٣٤ .

(١٣) المرجع السابق ص ١٦٣٢ .

(١٤) د. على حسون : العلاقات العثمانية الروسية ، مرجع سابق ص ١٧٠ .

(١٥) المرجع السابق ص ١٧٠ ـ ١٧١ .

(١٦) د. أحمد عبد الرحيم مصطفى : أصول التاريخ العثمانى ص ٢٨٨ .

(١٧) المرجع السابق ، ص ٢٨٦ .

(١٨) د. محمد على حلة : تاريخ أوربا المعاصر ، ص ١١٧ ، محمد قاسم ، مرجع سابق ، ص ٣١٤ .

(١٩) فيشر : تاريخ أوربا الحديث ، ص ٥٠٠ ـ ٥٠٤ .

(٢٠) المرجع السابق ، ص ٥٠٢ . لمزيد من التفاصيل : الرجل الصنم لضابط تركي سابق ، بيروت ص ٣٢٦ - ٣٣٢ .
(٢١) د. عبد العزيز الشناوى : الدولة العثمانية ج ٣ ، ص١٦٤٤
(٢٢) د. عبد الحميد البطريق،التيارات السياسية ، ص١٤٤-١٤٥ د. على حسون ، مرجع سابق ، ص ١٧٢ .
(٢٣) د. على حسون ، مرجع سابق ، ص ١٧٤ .
(٢٤) د. عبد العزيز الشناوى ، ج ٣ ص ١٦٥٢ - ١٦٥٣ .
(٢٥) د. أحمد عبد الرحيم مصطفى ، مرجع سابق ، ٢٩٢ .
(٢٦) فيشر ، مرجع سابق ، ص ٥٢٥ .
(٢٧) د. احسان حقى : تكملة تاريخ الدولة العلية العثمانية للزعيم محمد فريد ط ١٩٨٣ دار النفائس ، بيروت ، ص ٧١٦ .
(٢٨) د. الشناوى ج ٣ ، مرجع سابق ، ص ١٦٢٨ .
(٢٩) د. أحمد عبد الرحيم ، مرجع سابق ، ص ٢٩٣ .
(٣٠) المرجع السابق ، ص ٢٩٣ - ٢٩٤ .
(٣١) د. حسين فوزى : السياسة والاستراتيجية ، مرجع سابق ص ٣٩٨ - ٣٩٩ .
(٣٢)د. عبد الحميد البطريق ، مرجع سابق ، ص ١٧٣ - ١٧٤ .
(٣٣) د. أحمد عبد الرحيم مصطفى ، مرجع سابق ، ٢٩٥ .
(٣٤) المرجع السابق ، ص ٢٩٦ .
(٣٥) د. عبد الحميد البطريق ، مرجع سابق ص ١٧٧ .

الفصل العاشر

فارس والأطماع الروسية البريطانية
فى الحرب العالمية الأولى

ظلت البلاد الاسلامية التى تقع شرق أرض الجزيرة بعيدة عن سيطرة العثمانيين وان لم تنج فى الوقت عينه من الضغط الأوربى الصليبى الذى أخذ دوره فى هذه المنطقة كما أخذ دوره فى الدولة العثمانية - كما مر بنا - وفى كل بلاد الشرق عامة ، وقد دخل مسلمو الهند والملايو وجزر الهند الشرقية فى حوزة الاستعمار الأوربى فى طوره الأول ، وبقيت أفغانستان تزود المستعمر عن جنباتها وتصده عن أرضها حيث كانت تقع فى نقطة التقاء النفوذ البريطانى بالنفوذ الروسى فمااستطاع البريطانيون أو الروس أن ينالوا منها شيئا واشتروا صداقتها وودها بالمال ، أما فارس فقد أصبحت نهب الطامعين وخاصة انجلترا وروسيا وقد ظلتا ترقبان جنود بعضهما بعضا فى تلك المنطقة وتسعيان كل منهما للوقوف دون مطامع الأخرى (١) .

وقد اصطدمت الدولة العثمانية بدولة فارس عندما أخذت تتجه فى فتوحاتها نحو الشرق منذ عهد السلطان سليم الأول عام ١٥١٤ وفقدت فارس بعض ولاياتها الغربية حتى اذا اعتلى العرش الشاه عباس الأول عاهل الأسرة الصفوية نفث فى البلاد قبسا من قوته فاستعادت ولاياتها الغربية التى كانت فى قبضة العثمانيين وبوفاته أخذ نجم الأسرة الصفوية فى الأفول وتعرضت فارس لغزو الأفغانيين ، وانتهب بطرس الأكبر قيصر روسيا ما حاق بالبلاد من ضعف فسلبها الولايات الشمالية وجيلان ومازندران وجورجيا وان لم يستطع الاحتفاظ بها طويلا فقد استردها نادر شاه بعد ذلك بقليل وحمل القيصر على عقد معاهدة رشت ١٧٣٢ لمصلحة فارس وفيها تم الاتفاق على أن تجلو روسيا فورا عن جميع الأراضى الفارسية الواقعة جنوب مدينة سالیان ونهر كورا بينما يؤجل الانسحاب

الى حين من كل من دربند وباكو حتى تسترد فارس القفقاز وايراوان من العثمانيين أو أن يغلق الطريق الى سواحل بحر الخزر · وقد أمكن اعادة هاتين الولايتين الى فارس على اثر معاهدة أخرى بعد أن تمكن نادر من فتح شماخى وداغستان (٢) ·

وبعد هذه الانتصارات قاد نادر الجيوش الفارسية الى الهند واستولى على دلهى ونقل عرش الطاووس الشهير الخاص بملوك المغول الى بلاده ثم توغل فى أواسط آسيا ففتح بخارى وخيوا وأخضع القبائل التركمانية التى كانت تهدد حدود فارس وأوقع بالعثمانيين هزيمة ساحقة عند ديار بكر واضطرهم الى عقد صلح عام ١٧٤٦ والتنـازل نهائيـا عن المطالبة بالولايات التى كانت فى أيديهم ·

ويذكر الدكتور أحمد شلبى أن نادر شاه الذى كان فى شبابه قاطع طريق اتجه للقوة مع رعيته ، فلم تغن عنه انتصاراته الخارجية الرائعة فقتل بيد أحد ضباطه سنة ١٧٤٧ وهوت البلاد من القمة الى القاع ، والحقيقة أن مقتل نادر شاه لم يكن لأنه كان قاطع طريق فى شبابه ولكن لأنه أعلن المذهب السنى فى البلاد مذهبا رسميا واضطهد زعماء الشيعة مما جعل هذا الضابط الشيعى يقوم باغتياله ليعود المذهب الشيعى مذهبا رسميا للبلاد ·

وبموت نادر شاه عمت الفوضى أنحاء البلاد واقتسم الحكم فيها أمراء أعلن كل منهم سيادته على الاقليم الذى يحكمه حتى اســتعادت البلاد وحدتها فى عهد الأسرة القاجارية وهى احدى القبائل السبع التى ساعدت الشاه اسماعيل فى جهوده لاقامة الدولة الصفوية ·

وفى عهد فتح على شاه أحد ملوك هذه الأسرة بدأ الاتصال المباشر بالدول الأوربية ، فعقدت معاهدة بين فرنسا وفارس فى عام ١٨٠٧ م (١٢٢٢ هـ) وتوقع نابليون أن تفتح هذه المعاهدة أمامه طريق الغزو

الفرنسى للهند عن طريق البر ، فى مقابل امداد فرنسا لفارس بالأسلحة ومساعدتها فى تدريب جيشها تدريبا حديثا على يد بعثة عسكرية فرنسية لتتمكن من مقاومة روسيا القيصرية التى ضمت جورجيا فى عام ١٨٠١م (١٢١٦ هـ) ولكن على الرغم من ذلك فقد اتفق نابليون - سريعا - مع روسيا ، وتوقفت العداوات التى شبت بين روسيا وفارس مؤقتا فى عام ١٨١٣ (١٢٢٩ هـ) بمعاهدة كلستان التى اعترفت لروسـيا بامتلاك جورجيا .

وفى عام ١٨١٤ (١٢٣٠ هـ) أمضت فارس معاهدة تحالف دفاعى لم تكن ذات نفع لايران على الرغم من بقائها سارية الى ١٨٥٧ م (١٢٧٤هـ)

وفى عام ١٨٢٦ تزايدت الأطماع الروسية فى ايران ونجح الروس فى احتـلال تبريز ووقعت بين الطـرفين معـاهدة تركمان جى ١٨٢٨ م (١٢٤٤ هـ) التى نصت على اعطاء روسـيا اقليمى اريوات ونخجوان ، اللذين كانا ضمن الأراضى الفارسية مع تعويض كبير ، كما نصت على حق السفن الروسية فى الرقابة على بحر قزوين ، ومنح روسـيا الامتيازات الكبيرة وأعطى ملحق للمعاهدة - عقد بعد ذلك - لروسيا حقوقا اقتصادية وجمركية خاصة .

ومنذ ذلك الوقت الى مطلع القرن العشرين وقيام الحرب العالمية الأولى أصبحت ايران موزعة بين المصالح المتعارضة لروسـيا وبريطانيا فكانت روسيا تبنى سياستها على أساس المزيد من التوسع فى آسـيا وتطمع فى أن يكون لها ميناء فى المياه الدافئة فى الخليج العربى ، بينما ووجهت بريطانيا بالحاجة الى السيطرة على الخليج العربى ، وجميع الأراضى المجاورة للهند ، أعظم مستعمرة ظفرت بها حينذاك .

ودخلت علاقات روسيا وبريطانيا بفارس عصرا جـديداً فى عصر ناصر الدين شاه الذى اعتلى العرش فى عام ١٨٤٧م (١٢٦٤هـ) وهو فى

السادسة عشرة من عمره ، وامتاز عهده الطويل بالعلاقات الودية مع روسيا التى تركز نفوذها - بالحكام فى فارس - وفى عام ١٨٥٦ م (١٢٧٢هـ) تحرك الجيش الفارسى الى أفغانستان واستولى على هراة فطلبت بريطانيا التى حاربت ملك أفغانستان فى الفترة من ١٨٣٩ الى ١٨٤١ م (١٢٥٥ - ١٢٥٧ هـ) سرعة الجلاء عن هراة ، وأعلن الحاكم العام البريطانى فى الهند الحرب على فارس وانتهت تلك الحرب بتسليم ناصر الدين وانسحاب فارس من هراة واعترفت باستقلال أفغانستان بمقتضى معاهدة باريس ١٨٥٧ (١٢٧٤ هـ) ٠

ومنذ ذلك الوقت اتخذ التنافس بين روسيا وبريطانيا فى فارس صورة التدخل الاقتصادى والحصول على امتيازات كبيرة (٦) ٠

وقد فتح ناصر الدين شاه أبواب بلاده للحضارة الغربية والنفوذ الأجنبى وكان معجبا بأوربا وحضارتها اعجاب الرجل الشرقى الذى تبهره أضوائها ومظاهرها دون أن ينفذ الى لبها وأسرارها فاستدعى ضباطا أوربين لتنظيم جيشه ، وشجع رؤوس الأموال الأجنبية على التدفق الى بلاده ، فتأسس البنك البريطانى فى عام ١٨٨٩ ، ثم البنك الروسى ١٨٩٠ وحصل الانجليز على امتياز مد خطوط برقية فى فارس ، كما نال الروس امتياز صيد الأسماك فى بحر قزوين ٠

وتردت البلاد تحت أوضار الدين الأجنبى نتيجة لاسراف الشاه وساءت حالة البلاد المالية ٠

ويشبه ناصر الدين الى حد كبير الخديو اسماعيل فى مصر (١٨٦٣ - ١٨٧٩) ويبدو أن الدول الأوربية كانت تبحث عن مثل هذه النوعية من الحكام المبهورين بالحضارة الغربية لتغرقهم الى آذانهم فى الديون ثم تمكن لنفسها فى بلادهم وهو ما حدث تماما فى مصر وبلاد فارس (٧) حيث ازدادت السيطرة الاستعمارية ، وقامت الحركة الوطنية لمواجهة

هذا التغلغل وكانت الثورة العرابية فى مصر ، وفى فارس تجلت الحركة الوطنية على صورة معارضة قوية ضد الشاه ناصر الدين واشتد ساعد هذه المعارضة الوطنية نتيجة للدعاية الكبيرة التى كان يشنها المصلح الدينى الكبير جمال الدين الأفغانى . وكان للأفغــانى ـ كما هو معروف دوره الرائد فى قيام الثورة العرابية فى مصر كذلك (٨) .

الاتفاق الودى الاستعمارى بين روسيا وبريطانيا ١٩٠٧ :

استمر التنافس بين انجلترا وروسيا قائما فى فارس حتى كانت الثورة الشــعبية التى قامت ضــد الشــاه مظفر الدين ، وعضــد التجار وبعض علمــاء الشــيعة والأشراف فى فارس هــذه الحركة الدســتورية وفى يوليو ١٩٠٦ م (١٣٢٤) تجمع التجار وغيرهم من سكان طهران حتى بلغ عددهم أكثر من عشرة آلاف وقصدوا دار السفارة البريطانية فى « جولاهك » ليكونوا فى مأمن من الاعتقال . عندئذ اضطر الشــاه الى الرضوخ فى النهاية وبتأثير بريطانيا وعد بدعوة مجلس منتخب من بين امراء البيت المالك ، والعلماء ، والنبلاء ، وأصــحاب الأراضى والتجار ورجال الأعمال وقد توفى الشاة فى يناير١٩٠٧ بعد بضعة أيام من افتتاحه الجمعية الوطنية . ليخلفه على العرش الشاه محمد على .

وفى هذا الأثناء التى كانت الأوضاع فى فارس مضطربة انتهت كل من روسيا ـ التى شرعت توجه جهودها التوسعية أكثر فأكثر ، نحو آسـيا الوســوطى ، بعــد هزيمتهــا فى الحرب الروســية اليابانية ـ وبريطانيــا التى أرادت أن تشــد الروســيا الى الغرب لكى تحولهــا عن الهند ـ الى توقيع اتفاق بينهما لتقسيم فارس الى منطقتى نفوذ بينهما . واذا كانت بريطانيا لاتطمع بأكثر من قاعدة للدفاع عن الهند ومن أجل ذلك اكتفت بالأجزاء الواقعة فى جنوب فارس والممتدة من حدود الأفغان حتى بندر عباس ، فقد تركت للروسيا الجزء الشــمالى الممتد من قصر

شيرين حتى الحدود الروسية الأفغانية ، وهو يشمل - فيما يشمل - أصفهان وكيزد وكاخ (٩) ومن المعروف أن سياسة روسيا فى تركيا وفارس وأفغانستان تهدف الى الاحتلال والى ضم المناطق المحتلة الى روسيا كما حدث بالنسبة الى تركستان والدول الاسلامية الأخرى التى ضمتها فى عهد القياصرة .

فارس قبل اعلان الحرب العالمية الأولى :

تولى الشاه محمد على عرش فارس والحركة الدستورية فى البلاد على أشدها ولم يكن فى قرارة نفسه يؤمن بالنظم الدستورية فبيت النية على تعطيل المجلس والغاء الدستور ، ولم يرده عن عزمه عام ١٩٠٧ الا قوة الرأى العام الذى أخذ يتمثل فى الأحزاب السياسية التى نشأت بعد اعلان الدستور والصحف التى انتشرت فى البلاد تغذى الرأى العام وتنميه وكان أهمها صحيفتى « المجلس » و « صور اسرافيل » ثم عطف كبار العلماء ولهم بين الفرس مكانة مرموقة على الحركة الدستورية وتشيعهم لها .

وظل الشاه على عزمه فى القضاء على الدستور والتخلص من المجلس فاختار من القوزاق كتائب حرسه الخاص بعد أن عهد بتدريبها وقيادتها الى ضباط من الروس لتكون له درعا يحميه من ثورة الشعب ، واتخذ من محاولة اغتياله عام ١٩٠٨ وسيلة لحل المجلس وكان قد ترك العاصمة وانتقل الى مقره الصيفى فسير حرسه القوازق الى طهران للقبض على زعماء المجلس وهدم بنائه واقترح عليه الروس تعيين مجلس من أربعين عضوا بدل المجلس المنتخب .

وقامت الثورة ضد الشاه محمد على فى تبريز متأثرة بما حدث فى استانبول من ثورة الاتحادين ضد السلطان عبد الحميد الثانى وقد سير الشاه جنوده القوزاقية التى احتلت المدينة فى ابريل ١٩٠٩

وقد ازدادت الثورة عنفا مما جعل الشاه يلجأ الى السفارة الروسية فى ١٣ يوليو ١٩٠٩ وتم عزل الشاه وعين ابنه الصغير أحمد شاه تحت وصاية أسد الملك كبير أسرة قاجار ونزح الشاه المخلوع الى أوربا ولم تنقطع محاولاته للعودة الى فارس بمساعدة الروس ولكن دون جدوى ٠

وعلى الرغم من هذه التطورات التى شهدتها البلاد فى مطلع القرن العشرين وقيام الحياة النيابية فانها بقيت نهب الفوضى والارتباك لتغلغل نفوذ روسيا وبريطانيا وفشل بعثة « مورجان شوستر » فى اصلاح ماليتها حتى قيام الحرب العالمية الأولى لتدخل البلاد فى مرحلة جديدة ٠ ومن مظاهر هذا التدخل المشروع الذى قدمه السير ادوارد جراى الى مجلس العموم فى عام ١٩١١ وهو يحتوى على ست نقاط :

١ - السعى لتشكيل حكومة ايرانية تحترم الاتفاق الروسى البريطانى لسنة ١٩٠٧

٢ - ابعاد الشاه السابق عن السياسة الايرانية ٠

٣ - اختيار مستشار مالى يرضى عنه الطرفان ٠

٤ - منح قرض لايران لاعادة الأمن والنظام ٠

٥ - عدم الزام رئيس الوزارة الايرانية باصدار العفو العام ٠

٦ - تنسحب القوات الروسية متى ما نفذت الشروط الروسية وأعيد الأمن الى المناطق والأقسام الشمالية ٠

فارس واعلان الحياد فى الحرب :

منذ توقيع الاتفاق الروسى - البريطانى حول ايران فى عام ١٩٠٧ وكل دولة منهما تحاول تثبيت نفوذها فى المنطقة المتفق عليها ، القسم الشمالى لروسيا والقسم الجنوبى لبريطانيا ، وتم تعطيل الجمعية الوطنية فى عهد الشاه الصغير ولم تستأنف اجتماعاتها الا فى يوليو ١٩١٤ بعد تتويج الشاه - وكان قد بلغ سن الرشد لكى تستمع الى خطاب العرش الذى أعلن فيه حياد فارس فى الحرب المؤذنة بالانفجار ٠

وعلى الرغم من حياد فارس الا أنها صارت مرتعا للمؤامرات التى كان الدبلوماسيون الروس والبريطانيون والألمان وعملاؤهم يقومون بها ؛ وتنافست كل من تركيا وروسيا فى تثبيت نفوذها فى شمال غرب البلاد (١٠) .

وكان من الطبيعى فى مثل هذه الظروف أن يميل الوطنيون المثقفون فى فارس الى التقارب مع الألمان والعثمانيين خلال الحرب لاسيما بعد أن رأوا اتفاق الانجليز مع الروس على معارضة الحركة الدستورية فى البلاد واستخدامهم الضغوط لاجبار الحكومة الفارسية على طرد « شوستر » الخبير المالى الأمريكى الذى أراد ادخال بعض الاصلاحات .

أما زعماء القبائل فلم يصلوا الى تلك الدرجة من الوعى الوطنى وظلوا مستعدين للتعاون مع أية دولة تزودهم بالمال والسلاح وتحول دون خضوعهم للحكومة المركزية ولهذا السبب أخذت صلات الانجليز تتوثق بالقبائل النازلة فى جنوب فارس قرب شواطىء الخليج ولاسيما البختيارية

أما حكومة الشاه التى أعلنت الحياد منذ البداية فانها ظلت ملتزمة به على الرغم من تعرضها لعدوان الدول المتصارعة من الجانبين (١١) .

وكانت ألمانيا قد اتخذت من قنصليتها فى بغداد محورا لنشاط دبلوماسى واسع النطاق فى الشرق الأوسط ، بل وفى منطقة المحيط الهندى كذلك . فأعدت كثيرا من البعثات السرية للاتصال بالحكام وأهم البعثات التى أرسلتها ألمانيا هى تلك التى أرسلت الى فارس تحت قيادة « راسموس » وكان عليها أن تتصل بأنصار الألمان والعثمانيين وأن تنظم حربا غير رسمية ضد الانجليز فى مناطق النفط وعلى سواحل الخليج واذا تهيأت الظروف فعلى البعثة أن تحرض حبيب الله أمير أفغانستان على مهاجمة الهند (١٢) .

وفى ذلك الوقت كان الروس يمارســـون ضغطهم على فارس من الشمال والبريطانيون يحتلون مناطق آبار النفط ، وعلى الرغم من ذلك فقد تمكن راسموس بمساندة أنصاره العديدين من الفرس من الاستيلاء على المنشآت البريطانية فى شيراز ، ثم توجه بعد ذلك لحصار مقر الاقامة العامة فى بوشهر ، واضطرت بريطانيا ازاء ذلك الى نقل جزء من قواتها العاملة فى العراق،وقيل ان ذلك كان من أسباب هزيمتها فى«كوت العمارة» ولا شك أن هذه الهزيمة قد أثرت على مركزها فى فارس أيضا فقد زحف العثمانيون شرقا الى خانقين وهددوا من جديد آبار مسجد سليمان ،وقابل الانجليز ذلك بارسال حملة أخرى عبر سهل قارون لحماية الآبار وهكذا ازدادت أعباء بريطانيا الحربية فى سنة ١٩١٦ ولم تكن ظروفها تســمح بفتح جبهة جديدة فى فارس فضلا عن وجود دعوة فى بريطانيا لسحب حماة العراق ذاتها . ومن ثم لجأت حكومة الهند الى أسلوب شائع لديها وهو تكوين جيوش من الوطنيين يقودها ضباط بريطانيون . وفى جنوب فارس تشكلت قوة من هذا النوع تضم عددا من الهنود والقبائل الفارسية أو العربية التى لم تساير حركة الوطنيين المثقفين فى المدن وسميت قوة بنادق جنوبى ايران وعهد بقيادة هذه القوة الى بيرس سايكس الذى اشتهر أيضا بكتابه عن تاريخ فارس ، وبفضل هذه القوة حافظت بريطانيا خلال العاملين الأخيرين من الحرب ١٩١٦ - ١٩١٨ على سيطرتها فى الخليج(١٣)

وأما روسيا فقد سارعت هى الأخرى باحتلال المناطق الشـمالية وحاولوا التقدم الى طهران العاصمة متجاوزين حدود نفوذهم الذى أباحه اتفاق ١٩٠٧ ، واجتاز العثمانيون حدود فارس بعد انتصارهم فى كوت العمــارة ميممين صوب العاصــمة وجعلوا هدفهم أن يحولوا دون اتصال القوات الروسية فى الشمال بالقوات الانجليزية فى الجنوب ، فلا تكون فارس معبرا لنجدة روسيا وامدادها بالمعونة الحربية كما كانوا يرمون الى تشجيع العناصر الناقمة على النفوذ البريطانى والروسى معا على الثورة

وكانت دعوة الخليفة العثمانى للجهاد الدينى قد وجدت لها صدى بين الأكراد الضاربين على حدود فارس الشمالية الغربية وبين بعض رجال الدعوة المسلمين ، ورجال السياسة الذين نزحوا الى مدينة « قم » وكونوا فيها « جماعة اجتهادى اسلام » بزعامة سلمان مرزا وكانت المفوضيتان الألمانية والنمساوية قد نزحتا اليها قبلهم خوفا من اجتياح الروس للعاصمة وأصبحت « قم » مقرا لمؤامرات الألمـان والمتشيعين لهم والناقمين على الانجليز والروس من الفرس (١٤) ٠

وقام العثمانيون بحملة أخرى على القوقاز مخترقة أذربيجان فى اتجاه آبار الزيت الروسية لم تحقق أغراضها الاستراتيجية أو السياسية ، كما نزل الأكراد على تبريز فى يناير سنة ١٩١٥ ولكنهم ردوا عنها مدحورين أمام نيران الروس الحامية وبينما كان العثمانيون يقومون بنشاطهم الحربى فى فارس الشمالية كان الألمان يتابعون نشاطهم السرى بين رجال القبائل فى الجنوب ويبذلون المحاولات لحمل الفرس على الثورة ضـــد بريطانيا وحلفائها وكانوا قد بدأوا - كما ذكرنا - هذا النشاط فى تلك السنوات القلائل التى سبقت الحرب وجل همهم أن يضمنوا فارس الى جانبهم كما ضمنوا تركيا فقد كانت مثلها تدخل فى نطاق سياستهم واستراتيجيتهم العامة ويقول جورج لنكزوسكى مؤلف « روســيا والغرب فى ايران : ١٩١٨ - ١٩٤٨» ما معناه أن الألمان لو نجحوا فيما كانوا يهدفون اليه من ربط خط حديد بغداد بالخطوط الحديدية فى فارس لكان هــذا نصرا استراتيجيا لا يعد له نصر آخر لألمانيا فى الشرق (١٥) ٠

وقد نجح الألمـان فى كسب أقوى الأحزاب السياسية فى فارس الى جانبهم وهو الحزب الديمقراطى الذى ظفر بأغلبية المقاعد التى جرت عام ١٩١٥ وكان للدعاية الألمـانية أثرها الباهر فى فوزه بالأغلبية البرلمانية ، وتطايرت الشائعات بابرام معاهدة سرية بين فارس وألمانيا ، وكان لجهود

البرنس « فون روسى » أول وزير مفوض لألمانيا فى فارس أعظم الفضل فى نجاح الدعاية الألمانية فى تلك البلاد .

أغراض الدعاية الألمانية :

طغت الأهداف الاستراتيجية للدعاية الألمانية على كل هدف آخر كما هو الشأن خلال الحروب عندما تطغى مطالب الحرب وغاية النصر على كل مطالب وتمثلت أهداف ألمانيا فى :

١ ـ عرقلة مجهود الحلفاء الحربى فى فارس باثارة القبائل الفارسية على الانجليز والروس حتى يشغلوا بهذا الميدان فيتأثر مجهودهم الحربى فى الميادين الأخرى .

٢ ـ كانت ألمانيا ترجو أن تمتد هذه الحركة الثورية فى فارس الى أفغانستان وحدود الهند الشمالية الغربية لنفس الغاية ولنفس الغرض .

٣ ـ محاولة تدمير آبار البترول لحرمان الأسطول البريطانى من موارد تموينه الرئيسة وقامت فى سبيل هذا الهدف باستمالة زعماء البختيارى سادة اقليم خوزستان التى تتركز فيها أهم موارد البترول الفارسية(١٦) .

انسحاب روسيا من فارس :

بعد قيام الانقلاب الشيوعى فى روسيا عام ١٩١٧ أعلن زعماء الانقلاب وضع حد نهائى للحرب من جانبهم وعقدوا هدنة مع ألمانيا وفتحوا باب مفاوضات الصلح فى شهر ديسمبر وخرجوا من الحرب غير أسفين .

وفى فارس انسحبت القوات الروسية واحتل البريطانيون المناطق الشمالية بعد جلاء الروس عنها .

ولنا أن نتساءل عن سبب هذا الانسحاب الروسى من فارس على الرغم من أنها كانت ـ وما زالت ـ من المناطق التى يخطط الشيوعيون للاستيلاء عليها ؟

والحقيقة أنها كانت نوعا من التمويه والخداع ومحاولة لنشر الشيوعية فى الدول المجاورة ولذلك أعلنت تنازلها عن كل الامتيازات التى كانت لروسيا القيصرية فى فارس وأضافت أنها مستعدة لمساعدتها عسكريا واقتصاديا للتخلص من القوى الأوربية وأن تقوم العلاقة بين الدولتين فى المستقبل كما ورد فى مذكرتها الى فارس « على أساس الاتفاق الحر والاحترام المتبادل بين الشعوب » والهدف من ذلك اخلاء فارس من القوى الأوربية لتخلوا من أى معوقات وتصبح لقمة سائغة للسوفييت وهى ذات السياسة التى اتبعها الشيوعيون مع كل الدول الصغيرة بعد الحرب العالمية الأولى (١٧) .

وهكذا نرى أن فارس قد اصطلت بنيران الحرب العالمية الأولى على الرغم من اعلانها الحياد ولكن الحرب حين تقع لا تدور الا حيث تتصادم مصالح المتحاربين فى حيز من الأرض هو مصدر النزاع وساحة الصدام بما تضفى عليه الطبيعة من أهمية .

نتائج الحرب العالمية فى فارس :

وكان للحرب فى فارس بين القوى المتصارعة نتائج بعيدة المدى حيث تأسست بعض الأحزاب الدينية التى عكست حالة السخط الشعبى فى ايران بعد الأوضاع الاقتصادية المتدهور نتيجة لسياسة الحكومة ، وأحداث الحرب فى ايران .

وبرز اسم « ميرزا كوجك خان » الذى كان أحد طلاب العلوم الدينية ثم صار أحد كبار الزعماء الوطنيين فى فارس (ايران) وهو أول

من شكل حزبا اسلاميا باسم « اتحاد اسلام » اذ كان متأثرا بدعوة السيد جمال الدين الأفغانى الى الجامعة الاسلامية وقد ضم هذا الحزب خليطا من الفقهاء والتجار وكان مركزه فى شمال ايران حيث نظم منذ سنة ١٩١٦ حركة مسلحة فى الغابات ضد الحكومة التى أثارت ممارساتها السخط فى أنحاء البلاد ٠

بعد ذلك شهدت مناطق أذربيجان حركة وطنية مسلحة قادها الشيخ محمد الخيابانى ، الذى كان من رجال الحركة الدستورية ، حيث نظم الفقهاء فى منطقته ٠ وارتكز على المساجد فى بث دعوته الى ضرورة العودة للاسلام الأصيل ٠ وكان فى ذلك معارضا شجاعا وقويا لكل من الاستبداد والفساد السياسى ثم للنفوذ الأجنبى المستشرى فى البلاد قبل وبعد الحرب العالمية الأولى والذى كانت اتفاقية ١٩٠٧ والروسية البريطانية واتفاقية ١٩١٩ البريطانية الفارسية تجسيدا له(١٨) ٠

فارس ومؤتمر الصلح :

وقد عرضت قضية فارس أمام مؤتمر الصلح بعد أن توجه وفد فارس برئاسة وزير الخارجية « مشاور الممالك » الذى قدم مطالب ايران والمتمثلة فى انسحاب القوات الأجنبية عن البلاد وتعويضها تعويضا ماليا عما لحقها من أضرار الحرب وويلاتها ، واسترجاع كل بلاد كردستان وولايات أواسط آسيا ، ولم يلق الوفد ترحيبا أو يجد له مكانا فى مؤتمر الصلح وحالت انجلترا بينه وبين ولوج المؤتمر - كما فعلت مع مصر - بحجة أن فارس لم تكن بلدا محاربا ولم تنضم الى الحلفاء أو تعاون الحرب الى جانبهم وبقيت على حيادها طوال سنى الحرب(١٩) ٠

سياسة بريطانيا فى ايران بعد الحرب :

بعد الحرب رفض مؤتمر الصلح مطالب ايران بتوجيه من بريطانيا التى بدأت ترسم استراتيجية جديدة تحدد علاقاتها بهذه البلاد فان ايران

قنطرة العبور الى الهند ، كما أنها تطل على البحار المفتوحة الى وسط وجنوب أفريقيا وجنوب شرقى آسيا ، ثم أصبحت هدفا استراتيجيا جديرا بالاغراء والتطلع عندما نبع بترولها وفاض غزيرا فى أوائل القرن العشرين ، وظفرت شركة بريطانية بامتيازه وعظمت أهمية ايران بظهور هذا العامل الجديد الذى أضحى مصدر القوى المحركة فى العالم .

من هنا أعلنت بريطانيا من جانبها استعدادها لاخلاء فارس والجلاء عنها والوصول معها الى اتفاق يعترف لها باستقلالها ويضمن لها مركزها ومصالحها فيها وينأى بها عن أى نفوذ أجنبى يحاول أن يمتد اليها .

اتفاقية ١٩١٩ بين بريطانيا وايران :

وضع لورد كيرزون وزير الخارجية البريطانية وبيرس كوكس السفير البريطانى فى ايران نصوص المعاهدة التى وقعت فى ٩ أغسطس ١٩١٩ وفيها تعهدت بريطانيا باحترام ايران واستقلالها ووحدة آراضيها (مادة أولى) ، كما وافقت على مدها بالمستشارين والخبراء الحكوميين - على أن يأخذوا مرتباتهم من الحكومة الايرانية - وتزويدها بالخبراء العسكريين والأسلحة والمعدات على حسابها أيضا ، ونصت المعاهدة على أن تأخذ ايران قرضا ، وأن تنشىء بريطانيا الطرق والسكك الحديدية ، وأن يعاد النظر فى الاتفاقات الجمركية من جديد فكانت هذه المعاهدة تهدف الى وضع ايران تحت السيطرة البريطانية التامة . وتقييدها بقوة شديدة حيث تجعل لنفسها الاشراف على مالية البلاد وجيشها وتفرض موظفيها على الادارات الحكومية ، وتلزمها بتبادل المعونة العسكرية وما يتبع ذلك من احتلال الأرض وانشاء المطارات والقيام بكافة التسهيلات اللازمة التى تفرضها الحرب عند اشتباك أحدهما فيها ولم تلق هذه المعاهدة تأييدا لا فى المحافل الدولية ولا فى دوائر الحلفاء ولا بين الايرانيين بطبيعة الحال كما رأى فيها الاتحاد السوفيتى خطرا جديدا

يهدد أمنه الاستراتيجى فقاومها منذ البداية وراح الحلفاء يتهمون بريطانيا بمحاولة كسب نفوذ جديد فى مناطق لم تتناولها معاهدات الصلح بعد أن خرجت ظافرة بنصيب الأسد فى غنائم الحرب وأخذ الفقهاء والمثقفون فى ايران يطالبون بالغاء المعاهدة ويتهمون رجال حكومتهم بالرشوة التى أغراها بها الانجليز على امضاء المعاهدة ويعيرونهم بالخيانة الوطنية . وبأنهم باعوا بلادهم ومن جهة أخرى تشبث الانجليز بالمعاهدة وطالبوا حكومة فارس بتصديق « المجلس » عليها(٢٠) .

عودة الأطماع الروسية الى الظهور فى ايران :

بعد هذا الرفض الشعبى للمعاهدة البريطانية الايرانية ١٩١٩ أصبحت البلاد فى حالة من الفوضى وكانت القوات الشيوعية مرابطة على الساحل القزوينى على أتم استعداد لبدء الهجوم وتحقيق أطماع قادة الانقلاب المتعطشين الى الدماء الاسلامية .

وتمت الدعوة الى مؤتمر باكو عام ١٩٢٠ للشعوب الشرقية وقد عبر تروتسكى عن أهداف المؤتمر بقوله :

« ان الاتحاد السوفيتى يرمى من وراء مساعدته تركيا وفارس الى قيام حكومات شعبية فيهما كما حدث فى روسيا » .

وفى مستهل عام ١٩٢١ أبرمت معاهدة بين ايران وروسيا السوفيتية سميت معاهدة صداقة وفيها أعلنت روسيا أن جميع المعاهدات التى أبرمت بينها وبين ايران فيما مضى - والتى كانت لا تزال سارية المفعول - قد انهيت ، كما ألغت - أيضا - جميع الاتفاقات التى كانت مبرمة بين روسيا ودولة ثالثة أخرى (بريطانيا) وكانت مضرة بالمصالح الايرانية ، وأسقطت روسيا جميع الديون غير المدفوعة التى كانت على ايران وتنازلت عن جميع الامتيازات التى كانت لروسيا القيصرية ، وردت

لايران جميع الممتلكات الروسية الموجودة على الأراضى الايرانية مثل مصرف الحصم الايرانى ، والخط الحديدى الذى يربط بين جلفا وتبريز وميناء الزلى ، والطرق وخطوط البرق ، وألغت المعاهدة الامتيازات الأجنبية أيضا ، ومنحت ايران حقوقا ملاحية فى بحر قزوين مساوية للروس تماما، غير أن جانبا آخر من هذه المعاهدة صور مخاوف الحكومة السوفيتية الجديدة ، فقد نص على الا تسمح كل من الدولتين بوجود - نشاط داخل حدودها - لقوات أو تنظيمات قد يكون لها خطط معادية للدولة الأخرى ، وان تصد من الدولتين أية قوة ثالثة تهدد أمن الدولة الأخرى وسلامتها كما نصت على انه اذا هددت قوة ثالثة تهديدا مباشرا أو حاولت أن تحولها الى قاعدة حربية تعمل ضد روسيا ، وكانت ايران نفسها غير قادرة على صد هذا الخطر . فان لروسيا الحق فى أن ترسل قواتها عبر ايران دفاعا عن نفسها(٢١) .

وكان النشاط الشيوعى فى الولايات الشمالية من ايران على أشده ويؤكد تأكيدا قطعيا أن هذه المعاهدة لا تساوى قيمة الحبر المدونة به وأنها لم تكن سوى هدنة مرحلية تواصل بعدها الشيوعية دعايتها ونشر سمومها فى ايران وتحقيق أحلامها بالوصول الى الخليج العربى .

وقد تمثل هذا النشاط الشيوعى فى جيلان التى نجح السوفيت فى اقامة جمهورية شيوعية بها ، كما امتدت محاولاتهم الى مازندران وخوراسان وأذربيجان الفارسية كما بدأت دعاية واسعة النطاق للشيوعية فى ايران كلها مستفيدة من النقمة الشيعية على المعاهدة البريطانية ومحاولة تضليل الايرانيين بالمعاهدة الجديدة المسماة معاهدة الصداقة .

وعلى الرغم من ذلك فقد تدفقت القوات الشيوعية فى الولايات الشمالية ورفضت الانسحاب الا بعد انسحاب القوات البريطانية من البلاد وهنا أخذت الأوضاع فى ايران تتطور بعد نجاح الرقيب « رضا ميرزا » فى قيادة انقلاب عسكرى وصل به الى حكم ايران ليصبح شاهاً باسم رضا بهلوى لتبدأ ايران مرحلة جديدة فى تاريخها .

حواشى الفصل العاشر

فارس

(١) د٠ حسين فوزى : السياسة ، مرجع سابق ص ١٧٠ — ١٧١

(٢) د٠ أحمد الخولى : الدولة الصفوية ، تاريخها السياسى والاجتماعى ، الأنجلو ١٩٨١ ، ص ٢٣٩ ٠

(٣) د٠ أحمد شلبى : موسوعة التاريخ الاسلامى ، ج ٨ ، النهضه المصرية ١٩٨٣ ، ص ١٥٢ ٠

(٤) دونالدولبير : ايران ماضيها وحاضرها ، ترجمة د٠ عبدالنعيم حسنين ، القاهرة ١٩٥٨ ، ص ٩٧ — ٩٨ ٠

(٦) المرجع السابق ، ص ٩٩ ٠

(٧) د٠ حسين فوزى : السياسة ، ص ١٧٤ ٠

(٨) د٠ عبد العزيز نوار : الشعوب الاسلامية ، ١٩٧٣ ، النهضة بيروت ، ص ٤٥٤ ٠

ومن الجدير بالذكر أن ناصر شاه بعد أن حاول الخروج من الأزمة المالية التى تخبط فيها وقع فى الكثير من الأخطاء مما أدى الى نشوب الاضطرابات فى البلاد التى انتهت بالقضاء عليه ، ففى سنة ١٨٩٦ بينما كان الشاه يستعد للاحتفال بالذكرى الخمسين لارتقائه العرش اغتاله أحد مريدى السيد جمال الدين الأفغانى لينتقل عرش البلاد الى ابنه مظفر الدين الذى سار على نهج أبيه فى كثير من الأمور أ٠هـ ٠

بروكلمان : تاريخ الشعوب الاسلامية ، بيروت الطبعة الثانية ، ١٩٧٩ ، ص ٦٧٤ ٠

(٩) بروكلمان : مصدر سابق ص ٦٧٨ ، دونالدولبير ، مرجع سابق ، ص ١٠٣ ٠

(١٠) د٠ حسين فوزى ، مرجع سابق ص ٣٨٧ ٠

د٠ محمود على الداود : الخليج العربى ، مرجع سابق ص ١٨٦ — ١٨٧ ٠

(١١) د٠ صلاح العقاد : التيارات السياسية ، مرجع سابق ص ٢٢٧ ٠

(١٢) المرجع السابق ، ص ٢٢٧ ٠

(١٣) د٠ حسين فوزى ، سابق ، ٣٨٧ ، د٠ العقاد ، مرجع سابق ، ٣٢٨ ٠

(١٤) مصطفى عبد القادر النجار : التاريخ السياسى لامارة عربستان المعارف ١٩٧٠ ، ص ١٩٤ ٠

(١٥) المرجع السابق ، ص ١٩٤ ، د٠ حسين فوزى ، مرجع سابق ص ٣٨٨ ٠

(١٦) د٠ أحمد شلبى : جـ ٨ مرجع سابق ، ص ١٥٨ ـ ١٥٩ باول شمتز : الاسلام قوة الغد ، ترجمة د٠ محمد شامة ص ٢١٨ ـ ٢٢٠ ٠

(١٧) د٠ عبد الحميد البطريق ، التيارات السياسية مرجع سابق ص ١٤٤ ٠

د٠ أحمد شلبى ، مرجع سابق ص ١٥٨ ٠

(١٨) فهمى هويدى : أيران من الداخل ، الأهرام ١٩٨٧ ، ص ٧١ ـ ٧٢ ٠

(١٩) د٠ حسين فوزى : مرجع سابق ، ص ٤٦٩ ٠

(٢٠) دونالد ولبر : مرجع سابق ، ص ١٠٦ ، د٠ حسين فوزى ص ٤٧١ ٠

(٢١) دونالد ولبر ، مرجع سابق ، ص ١٠٦ ٠

(٢٢) د٠ أحمد شلبى ، مرجع سابق ، ص ١٥٨ ٠

الفصل الحادى عشر

مسلمو الهند وأفغانستان

(١٩١٤ ـ ١٩١٨)

تحتل شبه جزيرة الهند موقعا جغرافيا ممتازا فهى تتوسط نصف العالم الشرقى ولو أنها استغلت موقعها الاستغلال الملائم وساعدتها الظروف فى ذلك لاحتلت منذ زمن بعيد مكانا رئيسيا بين الدول . وتمتد شبه جزيرة الهند من خط ٣٧° شمالا حتى ٨° شمالا وتحتل من خط طول ٧٠° شرقا حتى ٦٩ شرقا ويقع الى شمالا ذلك الحاجز الجبلى العظيم مرتفعات الهملايا الذى ساعد على حمايتها من اغارات الرعاة الموجودين فى مناطق الاستبس شمالا فلم يدفعها الى بناء سور كما فعلت الصين فى القرن الثالث عشر قبل الميلاد ليحميها من غارات القبائل الرعوية التى تدفعها الظروف القاسية الى الهجوم على الجهات الزراعية ولكن هذا الحاجز لم يمنع عنها الغزوات فهناك غزوات تكررت على الهند ، أهمها غزوة الآريين قبل الميلاد ، كذلك الفرس والهون والترك والأفغان كلها وصلت الهند عن طريق ممراتها فى الشمال الغربى ممر خيبر وممر بولان . ولكن يمكن القول بصفة عامة أن الهند تمتاز بعزلتها النسبية الا اذا فرض عليها الاتصال فرضا . وقد دخلت الهند بعض المؤثرات عن طريق البحر ، أهمها الاتصال التجارى مع العرب كذلك خرجت مؤثرات من الهند أهمها خروج البوذية عن طريق الممرات الشمالية الغربية ، وكانت أعظم المؤثرات التى دخلت الهند هى الاسلام(١) .

وقد كانت الفتوحات الاسلامية التى بلغت مشارف الهند فى عهد الأمويين تمهيدا لغزوات اسلامية كبرى الى داخل الهند نفسها ، وكانت أولى الحملات الاسلامية الكبرى الى الهند بقيادة محمد بن القاسم الذى وضع ـ لفترة من الزمن ـ اقليم السند تحت الحكم الاسلامى ، وفترت بعد ذلك قوة الاندفاع الاسلامى داخل الهند فترة من الزمان ، ولم يتمكن

المسلمون من استعادة قدرتهم على التوسع فى شبه القارة الهندية الا بعد أن نمت قوة الامارات والدويلات التركية شبه المستقلة فى بلاد ما وراء النهر(٢) .

واذا كانت حملات القائد الشاب محمد بن القاسم الثقفى تسجل مرحلة هامة - كما ذكرنا - من مراحل الفتح الاسلامى للهند ، فانه قد توجهت بعد ذلك فى عهد الدولة الغزنوية حملات اسلامية جارفة قادها السلطان محمود الغزنوى (٩٩٩ - ١٠٣٠) . فقد قام ابتداء من عام ١٠٠٠م بسبع عشرة غزوة فى مدى سبعة وعشرين عاما ، فيما بين ٣٩١هـ/١٠٠٠م و ٤١٧هـ/١٠٣٦ حتى خضع له شمال شبه القارة الهندية من بنارس الى غزنة ومن الهملايا الى الدكن(٣) .

وتطورت الأحداث بعد ذلك لتظهر فى الهند حكومات اسلامية فقد ورثت الدولة الغورية ، الدولة الغزنوية ، واستمرت الدوله قائمه حتى أوائل القرن الثالث عشر الميلادى عندما استبد المماليك بالحكم لمدة تقرب من القرن حتى خلفهم الأمراء الخليجيون (١٢٩٠ - ١٣٢١) وأعقبهم دولة آل تغلق (١٣٢١ - ١٤١٢) .

وفى أخريات عصر هذه الأسرة وقعت هجمات تيمورلنك على الهند ولم تلبث دلهى أن سقطت فى يد أحد القواد التيموريين فى ١٤١٤ .

ويعتبر البعض الغزو التيمورى السبب الرئيسى فى تفكك الدولة الاسلامية فى الهند ، فظهرت فى دهلى أسرة السادات على يد خضرمان (نائب التيمورين) واستمر السادات فى الحكم حتى ورثهم اللودهيون الأفغان (١٤٥١) والى جانب هؤلاء كانت توجد مجموعة من الامارات الاسلامية المتفاوتة القوة . الى أن كانت امبراطورية المغول فى الهند (٩٣٢ - ١٢٧٥هـ / ١٥٢٦ - ١٨٥٨م)(٤) .

ومؤسس هذه الامبراطورية « بابر » الذى يعتبره كثير من المؤرخين من عظماء التاريخ الاسلامى بصفة عامة وتاريخ الهند بصفة خاصة فهو مؤسس دولة المغول فى الهنـد والتى اسـتمرت تحكم من مطلع القرن السادس عشر حتى منتصف القرن التاسع عشر .

ويمكن القول بأن الامبراطورية المغولية التى عاشت نيفـا وثلاثة قرون كانت مسيطرة على الهند وطبعتها بطابع اسلامى خاص وتركت فيها آثارا خالدة منها تاج محل ـ تحفة الدنيا ـ وخلفت فيها لغة جديدة هى اللغة الأردية بكل ما فيها من جمال وقوة وأدب وشعر ومرونة ، ثم لما عراها الهرم وغرق ولاتهـا وامراؤها بالملذات وانصرفوا الى الدنيـا لوت الدنيا وجهها عنهم فتفككت امبراطوريتهم وتلاشوا تحت ضربات الانجليز الذين قضوا عليهم وحلوا محلهم فى حكم هذه البلاد(٥) .

الحكم البريطانى للهند :

ترجع أصول الحكم البريطانى للهند الى أوائل القرن السابع عشر، حينما تأسست شركة الهند الشرقية البريطانية سنة ١٦٠٠ ومنحت حق احتكار التجارة بين بريطانيا والهند . واطرد على مر الأيام نفوذ الشركة الاقتصادى والسياسى تعاظما وتغلغلا ، نتيجة للمفاوضـات الدبلوماسية والفتـوح الحربيـة حتى اذا وافى القـرن ١٩ ، كانت الشركة تبسـط سلطاتها على جميع أرجاء شبه الجزيرة تقريبا وقد عملت بريطانيا لتثبيت أقدامها فى الهند على توسيع الهوة بين قسمى الهند الرئيسيين « الهندوس والمسلمين » وبدأت تضطهد المسلمين لأنهم كانوا سادة البلاد قبل الاحتلال ونظـر البريطـانيين نظرة المغتصب لحقـوقهم المشروعة فى حـكم البـلاد فنشروا دعاية قوية ضد الاحتلال البريطانى وقاطعوا المستعمرين فى كل شيء فلم يقبلوا على المدارس التى أنشـأها المسـتعمر ولم يطرقوا ابواب مصارفهم المـالية ، بينما أقبل الهندوس على كل المشروعات البريطـانية برغبة واضحة(١٦)، ثم مرت أحداث على بلاد الهند اضطربت فيها الأحوال

وحدث فى أثرها يقظة فكرية تهدف الى اصلاح المجتمع الهندى فى مختلف الميادين . فتأسست جمعيات للاصلاح فى بمباى وكلكتا ومدراس وطافت المظاهرات الشعبية فى الشوارع الكبرى منددة بسياسة الحكومة البريطانية ، وقد تمخضت هذه الأحداث عن تأسيس « المؤتمر الوطنى » سنة ١٨٨٥ وكانت مبادئه تتمثل فى وحدة وطنية وتوكيد روابط الاتحاديين كل من انجلترا والهند بالعمل على اصلاح ما أعوج أو فسد من أحوال البلاد .

ويرجع موقف المسلمين من الاستعمار البريطانى - بالاضافة الى ما سبق - لجوء الانجليز الى اثارة عواطف المسلمين بشتى الوسائل منها اعلان عزمهم على تنصير أهل البلاد،ومنها عدم السماح للمسلمين بممارسة فرائضهم الدينية فكان من نتائج هذه الاستفزازات أن نشبت ثورة مسلحة فى عام ١٨٥٧ كادت تقضى على الاستعمار لولا أن تداركها الانجليز بشراسة وضراوة وتنكيل مستعينين بالهنادكة ، فساقوا الى المحاكم كبار الزعماء والشخصيات الاسلامية ، وانتهكوا الحرمات والأعراض وقتلوا بالظن وكان اسلام المرء وحده يكفى للحكم عليه بالموت(٧) .

وبعد القضاء على الثورة أعلن البريطانيون بعد ذلك ضم الهند كلها الى بريطانيا وحكمها حكما استعماريا مباشرا .

ولمواجهة السياسة الاستعمارية فى الهند والتى عانى المسلمون منها طويلا قام جماعة من كبار العلماء المسلمين فى الهند لنصرة الاسلام ى طليعتهم سيد أحمد خان مؤسس جامعة عليكرة الاسلامية ، اذ رأى بناقب رأيه أنه لا بد لمقاومة العدو من قتاله بسلاح من نوع سلاحه ألا وهو سلاح العلم فقام بدعاية لانشاء مدرسة عصرية يتعلم فيها أولاد المسلمين العلوم العصرية واللغة الانجليزية وقد لاقى فى سبيل دعوته هذه كل أنواع التحقير والاهانة بل والتكفير فى بعض الأحيان من قبل فريق من الجامدين الذين أفتوا بتحريم التعامل مع الانجليز وتعلم لغتهم

ولكن لم يعبأ بأقوالهم بل سار قدما فى مشروعه يجمع له الأموال ويدعو لانجاحه حتى حقق غرضه ، وقد نمت وازدهرت هذه المدرسة حتى غدت من أكبر جامعات الهند ومنها تخرج أكثر زعماء الهند المسلمين وعلمائهم. ثم واصل نشاطه بعد ذلك لنشر العلم بين مسلمى الهند وأطلق على حركته اسم المؤتمر الثقافى وقد ساهمت محاضراته الرائعة فى ايقاظ المسلمين

ويأخذ البعض على السيد أحمد خان دعوته الى وحدة الهند وقوله : ان الاسلام والهندوكية والنصرانية عقائد يجب ألا تؤثر فى الوطنية ولذلك كان يرى أن النزعة الى تقسيم الهند فكر باطل .

وأثمرت دعوة السيد « خان » فى أرجاء الهند ثمرتها المرجوة فظهر عدد كبير من الزعماء الذين كانوا مفخرة للهند ولكل مسلم من بينهم : محمد على وشوكة على وظفر على خان وعبد الله أسد كشمير وغيرهم من الشخصيات الهامة فى تاريخ مسلمى الهند(٨) .

حزب الرابطة الاسلامية :

فى سنة ١٩٠٨ اجتمعت كلمة لفيف من كبار الزعماء المسلمين على تأليف هيئة مستقلة عن مؤتمر الهند تسهر على مصالح المسلمين بصفة كونهم أقلية فى دولة غالبية سكانها من أعدائهم فى الدين فتكون حزب الرابطة الاسلامية الذى نادى بكفالة حقوق المسلمين وحماية حقوقهم السياسية والادارية وبدأت الرابطة تعمل وتجد فى العمل .

وكان من زعماء حزب الرابطة وقار الملك والسيد آدم جى والسيد سيد على والسيد محمد على والدكتور مختار الأنصارى والسيد ابراهيم رحمت الله والدكتور محمد اقبال والقائد الكبير محمد على جناح زعيم المسلمين فى الهند(٩) .

ويجدر بالذكر أن محمد على جناح انضم الى الرابطة الاسلامية فى عام ١٩١٢ على الرغم من احتفاظه بعضويته فى حزب المؤتمر . وكان حزب الرابطة آنذاك يعمل للمحافظة على حقوق المسلمين فى الهند ، وكان يطلب بثلث عدد المقاعد فى المجلس البنائى للمسلمين ، كما كان يطالب بضمانات أخرى تحفظ للمسلمين حقوقهم وقد ظل الحال كذلك الى أن بدأ يقتنع فى عام ١٩٢٩ بصعوبة الجمع بين تواجده فى حزب المؤتمر والرابطة ومنذ حدث هذا أصبحت فى الهند مؤسستان تعمل احداهما لصالح المسلمين والأخرى لصالح الهندوس ، الى أن بدأ اقبال يصرح بضرورة التقسيم فى العام التالى(١٠) .

وعن الظروف التى تأسست فيها الرابطة الاسلامية يشير السيد محمد حسن الأعظمى أنه فى عام ١٩٠٥ أعلن لورد كرزون الحاكم العام للهند تقسيم مقاطعة البنجال وجعلها مقاطعتين ، احداهما للمسلمين والأخرى للهنود ولكن زعماء المؤتمر الهندى احتجوا على ذلك لأنه سيكون فى صالح المسلمين واستجابت الحكومة لهم وتم الغاء هذا التقسيم وشعر المسلمون بالظلم الذى نزل بهم وبالغبن الذى لحقهم وبالضربة القاسية التى وجهها الهنادك اليهم وشعروا بأنهم مضطهدون مما دفع نواب سليم الله خان نواب دهاكا وهو أكبر زعيم مسلم فى مقاطعة البنغال ، الى أن يجمع كبار زعماء الهند المسلمين واتفقوا على تشكيل رابطة اسلامية فى سنة ١٩٠٦ ويعتبر هذا العام بدء تاريخ جديد فى حياة المسلمين بعد الحكم الاسلامى فى الهند ، وقد تكونت فى نفس العام ثلاث جماعات اسلامية أخرى واتفقت جميعها على حل مشكلة المسلمين بعد تزايد حركة التعصب الهندوسى التى يغذيها الاستعمار البريطانى وقدم القائد المسلم محمد على جناح رئيس الرابطة أربعة عشر شرطا كحل نهائى فاصل بين المسلمين والهندوس وهذه الشروط تتلخص فى :

١ - سن دستور أساسى للهند تتمتع فى ظله كل مقاطعة بالحكم الذاتى .

٢ - مساواة جميع المقاطعات فى الحقوق والامتيازات .

٣ - مراعاة حقوق الاقليات فى كل مقاطعة وتخويلهم حق التمثيل النيابى فى المجلس الذى سيؤسس بمقتضى الدستور وحماية حقوقهم من تعنت الأكثرية .

٤ - أن ينتخب الأعضاء الممثلون للفرق والطوائف انتخابا صحيحا مستقلا على أن يكونوا متمتعين بالصلاحية التى ينص عليها الدستور .

٥ - أن لا يؤثر أى تغيير فى نظم المقاطعات على حقوق ومزايا الأكثرية المسلمة الموجودة فى مقاطعتى البنجاب والبنغال وعدم المساس بالمزايا الحاصلين عليها .

٦ - أن يتضمن الدستور الهندى نصا على حرية العقائد والأديان لجميع الملل والمذاهب حتى تقوم بشعائرها وتعليم دينها .

٧ - فصل مقاطعة السند عن بومباى فصلا تاما بغير قيد أو شرط .

٨ - أن تنظم مقاطعة الحدود وبلوخستان تنظيما دقيقا يتفق والحالة التى تكون عليها سائر المقاطعات الأخرى .

٩ - مراعاة حقوق المسلمين فى سائر الامارات المستقلة بما يتفق والحرية الدينية التامة والعدالة فى سائر الحقوق والوظائف .

١٠ - أن يتضمن الدستور الهندى الجديد نصا على احترام حرية المسلمين فى اقامة شعائرهم وصيانة حقوقهم ومقدساتهم وآثارهم والمحافظة على ثقافتهم الدينية وحريتهم فى التعليم والتبليغ واللغة فى سائر المقاطعات والايالات المستقلة ، وأن تخصص كل ايالة منحة مالية تصرف سنويا على الشئون الاسلامية .

١١ - أن لا تؤلف وزارة من الوزارات أو تشكل أى حكومة من الحكومات فى المقاطعات الهندية ما لم يمثل فيها المسلمون بنسبة الربع(١٢) .

قيام الحرب العالمية الأولى وأثرها :

قامت الحرب العالمية الأولى واشترك فيها العثمانيون الى جانب ألمانيا والنمسا ، وخشى البريطانيون أن يقوم مسلمو الهند بثورة من أجل اخوانهم فى الدين ، فأصدرت السلطات الاستعمارية أكثر من بيان تناشد فى أهالى البلاد من مسلمين وهنود مساندتها فى الحرب والوقوف الى جانبها ، وطمأنتهم على ممتلكاتهم ووعدتهم ببحث مطالبهم بعد انتهاء الحرب .

وفى الأيام الأولى للقيام انتهز القائد المسلم محمد على جناح هذه المناسبة ونادى بوجوب تقديم مطالب الهند الى بريطانيا عن طريق المؤتمر الهندى والرابطة الاسلامية .

وكان المؤتمر الهندى قد أعلن أنه سيعقد اجتماعه السنوى فى بمباى فجد جناح فى أن يعقد اجتماع الرابطة الاسلامية فى بمباى أيضا وأن يتقدم زعماء الهيئتين متحدين بمطالبهم الى الانجليز .

وقد تعرض محمد على جناح لسخرية كثير من زعماء المسلمين وبدأ البعض يكتب ضده فى الصحف وفشل جناح فى محاولته توحيد الهنود واتهم بأن الهنادك استمالوه ، بأموالهم ، ولو نجح جناح فيما دعا اليه واشترك معه باقى الزعماء لنالت بلاد الهند استقلالها ، خاصة وأن بريطانيا كانت فى أشد الاحتياج لمساعدة الهنود لها فى تلك الحرب(١٣)

ومن ناحية أخرى أبدى مسلمو الهند تعاطفا كبيرا مع الدولة العثمانية وعقدوا أكثر من اجتماع لهذا الغرض وتبرع الكثيرون منهم بالمال ، وألقيت الخطب الحماسية التى تدعو المسلمين للاستجابة الى نداء الخليفة العثمانى بالجهاد ضد أعداء الاسلام (بريطانيا - فرنسا - روسيا) .

وعلى الجانب الآخر وصل محمد على جناح دعوته لتوحيد الصفوف وفى بومباى خرج المسلمون والهندوس متفقين على السعى لدى بريطانيا للحصول على الاستقلال ، وعلقت لوحة على باب الرابطة كتب عليها « الاتفاق قوة » .

واشترك فى اجتماع الرابطة الاسلامية من زعماء الهنود بنديث موهن مالوى ومسز بسنت ومسز تايدو وقال رئيس الرابطة الاسلامية فى خطابه « يعلمنا التاريخ أننا جئنا بعدد قليل فى الهند وحكمنا الهند كلها، ولما كنا ملوكا هنا نعد أنفسنا هنودا لم يشد ملوك المغول المسلمين قصورهم الا فى الهند »(١٤) .

وقد صدق زعماء الجانبين على المشروع المقدم من الرابطة الاسلامية وخلاصته أن يكون :

١ ـ عدد أعضاء كل قطر كبير بمجلس التشريع من ١٠٠ الى ١٢٥ وفى الأقطار الأخرى من ٥٠ الى ٧٥ ثم يخصص عدد أعضاء المسلمين فى هذه الأقطار ، فمثلا يخصص ٥٠٪ للمسلمين فى البنجاب ، ٤٠٪ فى البنغال ، و ٢٩٪ فى بهار ، ١٥٪ فى المقاطعات المتوسطة و ١٥٪ فى مدراس و ٢٣٪ فى بمباى .

٢ ـ وألا يكون فى أية مقاطعة حاكم أو مساعد للحاكم وأن يكون نصف عدد أعضاء مجلس الشورى من الهنود بعكس ما كان معمولا به وهو كل أعضاء المجلس من الانجليز ، وهؤلاء الأعضاء يؤخذون من أعضاء المجلس التشريعى ومدة عضويتهم خمس سنوات .

٣ ـ يكون عدد أعضاء المجلس التشريعى المركزى فى دهلى ١٠٥ عضوا وينتخبون من أعضاء المجلس التشريعى فى المقاطعات وينتخب

رئيس المجلس ولا يعين وتقدم فيه المسائل التى تتعلق بالهند كلها لا بمقاطعة خاصة .

٤ – يجب أن يكون نصف عدد أعضاء مجلس الوزراء للحاكم العام من الهنود .

وعلى الرغم من وجود بعض المعارضين لهذا المشروع من الهنود الا أن الجانبين تأكد لهما أن الوحدة الداخلية لا غنى عنها لمواجهة أساليب بريطانيا فى الهند والتى ساقت عشرات الألوف من الهنود مسلمين وهنادك للحرب فى ميادين كثيرة فى العراق ومنطقة الخليج وبلاد الشام ومصر وهلك كثيرون من الهنود على الرغم من تصريحات بريطانيا المتكررة أن دخولها الحرب كان لمواجهة الألمان وليس العثمانيون وأن مسلمى الهند لن يشتركوا فى مواجهة مع اخوانهم من المسلمين الأتراك (١٥) .

مطالب المسلمين الخاصة بالانتخابات :

تقدم وفد آخر يرأسه نواب محسن الملك الذى جمع زعماء المسلمين وشكلوا وفدا لعرض مطالبهم على الحاكم اللورد « منشو » وجاء فى مذكرتهم أن طرق الانتخاب المتبعة فى أوربا لا توافق بلاد الهند حيث أن بها جماعيتين عظيمتين المسلمون والهنادك ولكل منهما حضارة وثقافة وكل جماعة ضد الأخرى فلو أجريت الانتخابات على وفق النظم الأوربية فستدمج الجماعة الأصغر فى الأكثر وكل الدلائل تشير الى أن المسلمين شعب ممتاز له حياته التى تختلف عن الهنود .

كما طالب الوفد فى مقابلته مع الحاكم العام :

١ – أن ينتخب مسلم من وسط المسلم .

٢ – أن يكون عدد المسلمين فى المجلس التشريعى أكثر من النسبة العددية .

٣ - يعين الموظفون المسلمون حسب تناسبهم العددى وكذلك القضاة المسلمون فى المحاكم العليا(١٦) ٠

الثورة فى الهند :

فى عام ١٩١٧ وبعد أن ضاق الشعب الهندى ذرعا بالاجراءات الصارمة التى اتبعتها بريطانيا فى الهند خلال أيام الحرب والأزمات الاقتصادية المتكررة ، وارسال الجنود الهنود الى كل الميادين ، ومعاملة الهندى فى بلده معاملة أقل بكثير من الانجليز الذين أعطيت لهم امتيازات كبيرة ٠ لهذه الأسباب وغيرها قامت ثورة كبيرة فى الهند زلزلت قصر الحاكم العام الذى استخدم الصلاحيات المخولة له لقمع الثورة بكل الشدة والقسوة واعتقل كثيرا من زعمائها وعلى الرغم من ذلك فقد ظهر زعماء آخرون كانوا غير معروفين ، استهانوا برصاص المستعمرين فعرضوا له صدورهم وبالعصى عرضوا لها أجسادهم بل وبالموت فأسلموا أعناقهم للمشانق ، امتلأ الشباب قوة وتركت هذه الحوادث التى شملت معظم أرجاء الهند الأغنياء فقراء وسلبت البيوت ، وخرج الموظفون والقضاه والرؤساء ليشتركوا فى الثورة الهندية ، وأغلقت المدارس والكليات والجامعات وبدأت الهند تدخل عهدا جديدا (١٧) ٠

لجنة رولت ١٩١٨ :

شكلت بريطانيا كعادتها فى مثل هذه المواقف الحرجة لجنة تحقيق لامتصاص غضب الثائرين وتهدئتهم واتخاذ الاجراءات المناسبة للقضاء على الثورة وقد عرفت هذه اللجنة باسم لجنة « رولت »

التى اقترحت قانونا للعقوبات يطبق على كل من تسول له نفسه الثورة ضد الحكومة الانجليزية ، أو يخالف أوامرها ولقد زاد هذا القانون النار اشتعالا وأرسل الزعيم المسلم محمد جناح الى الحاكم العام يبدى رأيه فى اقتراحات لجنة « رولت » وقد جاء فى رسالته :

« .. كأن هذه اللجنة كونت لمعاقبة قبائل مجرمة نشأت فى هذه البلاد وتريد أن تمحوها ، ولكن وضع القوانين ليس بعلاج لهذا المرض . وأن هذه المعاملة وتلك السياسة لا يمكن أن تقبلها دولة متمدينة ولايمكن أن يتصور وضع هذه القوانين فى هذا الوقت .

ولكن الحكومة لم تبال بهذه الاحتجاجات وقبلت هذه القوانين فى سنة ١٩١٨ ونفذتها .

وكان رد الزعماء المسلمين فى خطاب للحاكم العام بدهلى فى ٢٨ مارس سنة ١٩١٩ « انك بتصديقك على هذا القانون أبعدت الشعب عن الاقتراب من البريطانيين وأيقن الهنود أن الانجليز قائمون وانكم هدمتم قصر الانصاف والعدل وأحرقتم دستور الحق » .

وقدم محمد على جناح وعدد من زعماء المسلمين استقالاتهم من مجلس الشورى ورفضوا التعاون مع البريطانيين (١٨) .

احداث ٣٠ مارس ١٩١٩ :

فى يوم ٣٠ مارس ١٩١٩ عقد الهنود أعظم اجتماع ضد الحكومة فى العاصمة « دهلى » ولما أراد الجيش تفريق المظاهرات هجم المتظاهرون على الجيش وهم عزل وقتل عدد كبير منهم واشتعلت الثورة فى جميع أرجاء الهند واعتقلت السلطات البريطانية عددا كبيرا وأعلنت الأحكام العرفية .

وقد وصل « غاندى » من أفريقيا الجنوبية فى هذا الوقت وقاد الهنود وبدأ يجمع توقيعاتهم لمقاطعة بريطانيا ودعا لاضراب جميع الموظفين والعمال والطلبة والمحامون وجميع الناس يوما واحدا .

ويلاحظ هنا التشابه الكبير بين ثورة ١٩١٩ فى مصر كرد فعل لمساوىء السياسة البريطانية فى مصر قبل وبعد الحرب العالمية الأولى وكنتيجة لمنع سعد وصحبه من السفر الى مؤتمر الصلح وثورة الهند التى كانت هى الأخرى نتيجة للسياسة البريطانية الاستعمارية فى الهند واعلان الأحكام العرفية واعتقال الكثير من زعماء البلاد ولو أن الثورة المصرية كانت أكبر تنظيما وعنفا الا أن النتائج فى الحالتين تكاد تكون واحدة(١٩)

جمعية الخلافة الاسلامية :

كانت عواطف ومشاعر المسلمين فى الهند على الرغم من تلك الاجراءات الصارمة التى اتبعتها بريطانيا فى الهند لتحول بين هؤلاء المسلمين وبين الانضمام الى جانب تركيا الا أنه فى سنة ١٨ وبعد أن وضعت الحرب أوزارها وقويت الدعوة لاستقلال الشعوب سواء قبل صدور مبادىء الرئيس الأمريكى ولسن الأربعة عشرة أو بعدها • ولكن هذه المبادىء ألهبت حماس الشعوب المهيضة الجناح واتجهت الحركة الوطنية فى الهند بزعامة غاندى الى الضغط على بريطانيا من أجل استقلال الهند ، وفى الجانب الاسلامى الهندى كان المسلمون الهنود يسعون كذلك الى تحرير الهند من الاحتلال والى انقاذ الخلافة العثمانية (الاسلامية) من براثن الانجليز ، وقد رأى هؤلاء المسلمين فى محاولات بريطانيا للاجهاز على دولة الخلافة وفرض الشروط القاسية عليها وتوزيع ممتلكاتها بين الدول المتحالفة رأوا فى كل ذلك سقوطا لهم فى أعين كل من الانجليز والهندوس (٢٠) •

ويعتبر الاخوان محمد على وشوكت على من زعماء جمعية الخلافة التى تشكلت فى الهند وبذلت جهودا كبيرة لمساندة العثمانيين ماديا ومعنويا ، بل وفى عام ١٩٢٠ ذهب محمد على الى أوربا على رأس وفد اسلامى كبير لعرض وجهة نظر مسلمى الهند بشأن مستقبل الدولة العثمانية ودافع الوفد عن فكرة الخلافة وعن بقاء الجزيرة العربية والعراق

وسوريا وفلسطين ومصر تابعة للخليفة • ولم يستند هذا الوفد فى دفاعه عن الدولة العثمانية الى فتوى مسلمى الهند القاضى بواجب دعم ومساندة الدولة العثمانية فحسب ، بل انه استند كذلك الى العهد الذى قطعته الحكومة البريطانية لمسلمى الهند ، يوم دخلت الحرب بأنها لم تدخل الحرب لقتال العثمانيين أو لسلبهم بلادهم بل لقتال الألمان وأنها بهذا القول استطاعت أن تسوق مئات الألوف من الجنود المسلمين ليقاتلوا معها ضد العثمانيين وهم يحسبون أنهم يقاتلون الألمان (٢١) •

وعلى الرغم من اخفاق وفد الخلافة الاسلامية فى عرض مطالبه أمام مؤتمر الصلح الا أنه حقق نجاحا كبيرا فى عرض وجهة نظر مسلمى الهند واعلان موقفهم من ضرورة الابقاء على الخلافة الاسلامية وتأكيدهم على أن العالم الاسلامى فى مسيس الحاجة اليها وأن على المسلمين الحفاظ عليها بأنفسهم دون طلب المساعدة من الدول الأوربية التى لا هم لها الا الكيد للاسلام والعمل على تمزيق وحدة المسلمين وتفريق كلمتهم •

وقد صرح محمد على جناح فى عام ١٩١٦ فى اجتمـــاع للرابطة الاسلامية بقوله : « ان التعاليم الاسلامية والآداب والروايات الاسلامية شاهدة على عظمة الاسلام » وأنه لا يمكن أن تقف دولة من دول العالم أمام دولة المسلمين ثم قال « انه يجب أن يعرف الانجليز أن العالم الاسلامى لن يسمح بالتدخل فى مسألة الخلافة ، بل عليهم أن يتركوا المسلمين يختارون أى طريق شاءوا » •

ويرى أستاذنا الدكتور عبد العزيز نوار أن محمد على جناح كان له رأى آخر فى مسألة الخلافة الاسلامية وأنه « كان يرى أن عهد الخلافة قد ذهب وانقضى وأن على مسلمى الهند أن يحددوا أهـدافهم بشـكل واقعى » (٢٢) •

كذلك هاجم محمد على جناح الانجليز عندما انقضـــوا على الثوار

الهنود فى ١٩١٩ لقتل الحركة الهندية التحررية ، ولكنه فى نفس الوقت انتقد غاندى عندما ابتدع ما عرف بسياسة المقاطعة والعصيان المدنى ٠ وكانت وجهة نظر جناح وعدد آخر من زعماء المسلمين فى الهند أن المقاطعة السلبية تضر بالشعب الفقير أكثر مما تضر بالانجليز وأن الالتجاء الى المغزل - وهو ركن أساسى فى سياسة غاندى التحررية - ليس سوى رجعة الى الماضى وخير منها انشاء المصانع كى تستطيع الهند أن تقف أمام مصنوعات بريطانيا وفى هذه الحالة تستطيع الهند أن تقاطع البضائع الانجليزية بنجاح دون أى اضرار بمصالح الشعب الهندى نفسه ٠

وقد واصل زعماء المسلمين فى الهند جهودهم بعد أن تأكد لهم استحالة التعايش مع الهنود فى دولة واحدة وقد أثمرت هذه المحاولات عن قيام دولة باكستان بعد الحرب العالمية الثانية ٠

أفغانستان فى الحرب العالمية الأولى :

تعد أفغانستان بتكوينها الحالى - قطرا داخليا ، يحيط به اليابس من جميع الجهات وتقع فى قلب قارة آسيا وتجاور الاتحاد السوفيتى فى الشمال والصين الشيوعية فى أقصى الشمال الشرقى ، وباكستان فى الشرق والجنوب وايران فى الغرب ، وتبلغ مساحتها ٦٥٠ ألف كم٢ ٠

ولم يرد اسم « أفغانستان » الا منذ منتصف القرن الثامن عشر الميلادى ١٧٤٧ فى عهد أحمد شاه وذلك بعد ما استتبت السيادة للجيش الأفغانى ، وقد كانت قبل ذلك أقاليم مختلفة تحمل تسميات متعددة (٢٣) ٠

وتعتبر أفغانستان مهد الآرين الذين هاجروا اليها من سهول تركستان الغربية وانتقلوا من حياة الرعى والتنقل الى حياة الزراعة والاستقرار فنشأت الحضارة وأقيمت مدينة بلخ عاصمة لدولتهم وعرفت البلاد باسم آريانا وتعنى كلمة آرى « النبيل » ٠

انتشار الاسلام فى أفغانستان :

دخل الاسلام هذه البلاد فى وقت مبكر بعد « تهاوند » عام ٢١ هـ حين رأى أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله عنه أن يدفع قوات المسلمين الى جميع أنحاء فارس فعقد بيده سبعة ألوية لسبعة من القادة عهد اليهم بالانسياح فى أرض فارس كلها ٠ وكان من بين هذه الجيوش جيشـــان اتجها نحو المنطقة التى سميت بعد ذلك « أفغانستان » الأول منهما سار نحو منطقة سجستان وعلى رأسه عاصم بن عمر التميمى والثانى سار نحو خراسان تحت قيادة الأحنف بن قيس ٠

وقد حارب الأفغانيون فى جاهليتهم حربا شعواء استشهد فيها كثير من الصحابة رضى الله عنهم ولاسيما فى كابل عاصمة البلاد حاليا الا أنه لما أدرك الأفغانيون حقيقة الاسلام وشرح الله صدورهم آمنوا به واعتنقوه عن حب واخلاص (٢٤) ٠

ومن الجدير بالذكر أن أهل خراسان نقضوا العهد بعد عمر رضى الله عنه ، فعاد اليهم الأحنف مرة أخرى فى عهد عثمان رضى الله عنه وأعــاد فتحها عام ٣٣ هـ ٠ ولكن يعتبر القائد المجاهد قتيبة بن مسلم بطل الفتح الحقيقى لهذه البلاد وغيرها من المناطق الاسلامية فى ماوراء النهر وذلك فى خلافة الوليد بن عبد الملك ٠

وقد توالت على افغانستان بعد الفتح دول كثيرة كالدولة الطاهرية والدولة الصــفارية والدولة الســـامانية والدولة الغــزنوية والدولة السلجوقية والدولة الخوارزمية وكان لقيام هذه الدول أثر كبير فى تقدم الحضارة الاسلامية ، حيث ظهرت بالاضافة الى بغداد مراكز أخرى كغزنة وهرات وغيرهما من المراكز ٠

الأطماع البريطانية فى أفغانستان :

فى عام ١٧٤٧ تولى أحمد خان حكم أفغانستان بعـد انقاذها من الفوضى التى حلت بهـا بسبب تنازع المغول والصـفويين وغيرهم على السيطرة عليها وقد أسس أحمد خان أسرة حكمت البلاد كانت عاصمتها قندهار الا أن ابنه وخليفته تيمور شاه قد نقلها الى مدينة كابل التى أصبحت عاصمة منذ ذلك الوقت ولاتزال وكان آخر ملوك هذه الأسرة شجاع الملك الذى طلب المساعدة من بريطانيا ضد منافسة أسرة جديدة تزعمها محمد زائى وقد انتهز الانجليز الفرصة للسيطرة على أفغانستان حيث كانت تقع فى دائرة أطماعهم لتأمين وجودهم فى شبه القارة الهندية ووقفوا مع شجاع الملك ضد خصومه وقد أدى ذلك الى نشوب الحرب الأفغانية البريطانية والتى أباد فيها الأفغان الجيش البريطانى عن بكرة أبيه وعدده ٤٥٠٠ من الانجليز و ١٢٫٠٠٠ من الهنـود الأتباع ولم ينج سوى طبيب واحد لايزال يذكره الأفغان والانجليز معا هو دكتور برايدن الذى وصل الى الهند وهو يلعق جراحه .

أما شجاع الملك فقد قتله الأفغانيون جزاء فعلته النكراء واستعانته بالبريطانيين (٢٥) .

فى الحرب العالمية الأولى :

تولى حكم أفغانستان «حبيب الله» الذى حاول بكل الطرق النهوض بالبلاد وترقيتها ، فاهتم بانشاء الطرق وتطوير الصناعة ، وبناء المصانع ونشر التعليم والثقافة فى أنحاء أفغانستان ولكنه على الرغم من ذلك اتخذ موقفا غير متوازن من الصراع الروسى البريطانى حول أفغانستان وكانت الدولتان بعد توقع اتفاق ١٩٠٧ والخـاص بتقسيم نفوذها فى فارس تحاولان عقد اتفاقية مماثلة تتعلق بأفغانسـتان وعنـدما قامت الحرب العالمية الأولى اتخذ «حبيب الله خان» موقف الحياد بين المعسكرين المتصارعين

(المانيا وتركيا) وبريطانيا وفرنسا وروسيا الا ان الشعب الأفغاني المسلم كان يناصر تركيا ويعادى روسيا وبريطانيا عداءا شديدا ، كما أن عددا من الوزراء فى الحكومة الأفغانية كانوا يميلون الى الانضمام الى دولة الخلافة الاسلامية (٢٦) .

ونظرا لتصميم الملك حبيب الله على سياسته المنحازة الى الانجليز قامت ثورة ١٩١٦ فى أفغانستان ولم تتمكن القوات البريطانية من مساندة حبيب الله وذلك لظروف الحرب وخوفا من اغضاب روسيا حليفتها فى ذلك الوقت ونجح الشعب الأفغانى فى الاطاحة بالملك حبيب الله ليتولى الحكم ابنه أمان الله خان ١٣٣٧ هـ (١٩١٩) م وفى عهده لقيت بريطانيا هزيمة على يد المسلمين فى هذه البلاد مما جعلها تعقد صلحا تقرر فيه استقلال أفغانستان وتتخلى بريطانيا نهائيا عن فكرة الاستيلاء على هذه البلاد (٢٧) .

وكان على روسيا أن تتخلى هى الأخرى عن خطتها القاضية بادماج أفغانستان فى حلقة الجمهوريات الاسلامية التى استولت عليها فى عهد القياصرة ولكنها (روسيا) لم تفقد الأمل بعد الانقلاب الشيوعى عام ١٩١٧ فى اجتذاب أفغانستان الى فلكها الثقافى والالحادى وقد بدأت خطتها فى عصر أمان الله خان واكتملت بعد ذلك فى عهد الملك محمد ظاهر شاه .

أفغانستان فى عصر أمان الله خان :

بعد أن تولى أمان الله وبعد أن نجح فى الحصول على الاستقلال فى عام ١٩١٩ كان من الممكن لهذا الملك أن يكسب ثقة الشعب الأفغانى المسلم ولكنه كان طموحا الى درجة تفوق تماما امكانات البلاد كما انه كان من المتيمين بالحضارة الغربية بكل ما فيها وبشقيها (الراسمالية

(ألمانيا وتركيا) وبريطانيا وفرنسا وروسيا الا أن الشعب الأفغاني المسلم كان يناصر تركيا ويعادى روسيا وبريطانيا عداءا شديدا ، كما أن عددا من الوزراء فى الحكومة الأفغانية كانوا يميلون الى الانضمام الى دولة الخلافة الاسلامية (٢٦) .

ونظرا لتصميم الملك حبيب الله على سياسته المنحازة الى الانجليز قامت ثورة ١٩١٦ فى أفغانستان ولم تتمكن القوات البريطانية من مساندة حبيب الله وذلك لظروف الحرب وخوفا من اغضاب روسيا حليفتها فى ذلك الوقت ونجح الشعب الأفغانى فى الاطاحة بالملك حبيب الله ليتولى الحكم ابنه أمان الله خان ١٣٣٧ هـ (١٩١٩) م وفى عهده لقيت بريطانيا هزيمة على يد المسلمين فى هذه البلاد مما جعلها تعقد صلحا تقرر فيه استقلال أفغانستان وتتخلى بريطانيا نهائيا عن فكرة الاستيلاء على هذه البلاد (٢٧) .

وكان على روسيا أن تتخلى هى الأخرى عن خطتها القاضية بادماج أفغانستان فى حلقة الجمهوريات الاسلامية التى استولت عليها فى عهد القياصرة ولكنها (روسيا) لم تفقد الأمل بعد الانقلاب الشيوعى عام ١٩١٧ فى اجتذاب أفغانستان الى فلكها الثقافى والالحادى وقد بدأت خطتها فى عصر أمان الله خان واكتملت بعد ذلك فى عهد الملك محمد ظاهر شاه .

أفغانستان فى عصر أمان الله خان :

بعد أن تولى أمان الله وبعد أن نجح فى الحصول على الاستقلال فى عام ١٩١٩ كان من الممكن لهذا الملك أن يكسب ثقة الشعب الأفغانى المسلم ولكنه كان طموحا الى درجة تفوق تماما امكانات البلاد كما انه كان من المتيمين بالحضارة الغربية بكل ما فيها وبشقيها (الراسمالية

والشيوعية) والدليل على ذلك أنه أمر أن يلبس النساء والرجال معا الملابس الأوربية ويتركوا الزى الأفغانى ، وأن يتهجوا فى عاداتهم وتقاليدهم العادات الغربية تماما وأن تخرج المرأة سافرة الى الشارع والعمل وأن تسافر للدراسة والتعليم دون محرم وقد زار فرنسا وألمانيا وانجلترا ولم ينس أن يزور الاتحاد السوفيتى فجاء أشد حماسا للحضارة الغربية وأكثر تصميما على تطبيق ما رآه فى تلك البلاد بأى ثمن ، كما التقطت العديد من الصور لزوجته وبناته وهن سافرات وسمح بنشر هذه الصور فى الصحف الافغانية (٢٩) .

من هنا كانت ثورة الشعب الأفغانى على أمان الله وعلى سياسته العلمانية التى كان فيها متأثرا بشكل كبير بصديقه كمال اتاتورك فى نفس الفترة الزمنية .

والشعب الأفغانى الذى خاض حروبا ثلاثة منذ فترة قصيرة ضد البريطانيين وقدم فى هذه الحروب وفى غيرها عشرات الألوف من الشهداء فى سبيل الاسلام . هذا الشعب كان فى مسيس الحاجة الى من يعيد بناء البلاد على نفس الأساس الذى استشهدوا فى سبيله وهو الاسلام وليس الى من يعيدهم الى حظيرة الغرب الفكرية (٣٠) .

ومن الجدير بالذكر أن « أمان الله وقع فى خطأ كبير عندما استخف بعلماء المسلمين وظهرت السخرية منهم فى مجتمعاته الرسمية وحاول أن يلزم هؤلاء العلماء بارتداء الملابس الأفرنجية . كما انغمس هو فى حياة اللهو والترف بصورة واضحة ، وزادت مظاهر الترف والاسراف فى دوائر الحكومة وبذلك هيأ أمان الله أفغانستان بأفعاله تلك لقيام الثورة التى اندلعت فى أواخر عام ١٩٢٨ عندما استولى هؤلاء الثوار على « جلال أباد » كما امتد لهيبها الى المناطق الشرقية كلها وتمكن أحد خصومه وهو باجى السقا « ابن السقا » من الاستيلاء على كابل واعلان نفسه ملكا على أفغانستان باسم « حبيب الله غازى » (٣١) .

وتم القضاء على حبيب الله فى نهاية عام ١٩٢٩ على يد نادر خان الذى حاول أن يسيطر على البلاد ويقضى على الرشوة والفساد ولكنه اغتيل عام ١٩٣٣ ليتولى الحكم بعده محمد ظاهر شاه الذى تسللت الشيوعية فى عهده بصورة كبيرة كان لها تأثيرها على تطورات الأحداث فى أفغانستان حتى اليوم .

وأخيرا بعد أن ابتليت هذه البلاد بالانقلابات الشـيوعية فى عام ١٩٧٩ ودخول قوات الاحتلال السوفيتى الى أفغانستان بحجة مسـاندة الحكومة الشرعية ، قام الشعب الأفغانى بالجهاد دفاعا عن أرضـه ودينه متحديا هذه القوات السوفيتية التى وصل عددها فى بعض الأحيان الى ٢٠٠ ألف جندى مزودين بأحدث الأسلحة فى العالم ولكن قوة العقيدة أقوى بكثير فكانت هذه النتائج الرائعة التى جعلت الاتحاد السوفيتى يسعى للخروج من هذا المأزق والانسحاب من أفغانستان لتبقى هذه البلاد كما كانت جناحا يقى العالم الاسلامى من خطر الاحتلال الشيوعى الذى ماتزال أطماعه قائمة للوصول الى المياه الدافئة على الرغم من كل ادعاءات قادته ، فهل تكون أفغانستان هى الخطوة الأولى فى سقوط الامبراطورية الروسـية ؟ .

انه حلم عزيز وما ذلك على الله ببعيد

« انهم يرونه بعيدا ونراه قريبا »

وأما عن أسباب صمود هذا الشعب المسلم فيمكن ايجازها فى :

١ ـ أنه شعب مسلم فالاسلام دين ٩٩ بالمـائة من السكان ومعظمهم من أهل السنة والجماعة وبقى التشريع الاسلامى المصدر الوحيد للتشريع منذ أن فتحها عاصم بن عمرو التميمى زمن عمر رضى الله عنهم حتى انقلاب محمد داود سنة ١٩٧٣ ولذا فالدين الاسـلامى هو المحرك الأول لهـذا الشعب فى جهاده .

٢ ـ أنها بلد العلوم الاسلامية فمعظم علماء أواسط وشرق آسيا منها

٣ ـ أن ٦٠٪ من الشعب الأفغاني من عرق « البوشتن » وهو خليط من العرق التركي والايراني ويطلق عليه البعض « الباتان » وهو عرق يمتاز بطول قامته وبشرته السمراء وشعره الأسود المموج ـ وهذا شعب صلب المراس محارب بطبيعته ، يأنف الذل ولا يستطيع الاقامة على الضيم وما حدث لبريطانيا في تلك البلاد خير شاهد على ما نقول ٠

٤ ـ أنه شعب عزيز لم يذله الاستعمار ولم تروضه الأيادي الغربية ذات الوجوه الحمر والعيون الزرقاء ولم تحول الأسود فيه الى قرود باسم التقدم العلمي وبريق الشهادات الخادع ومناهج التطوير الخلاب ٠

٥ ـ ليس في افغانستان كلها كنيسة واحدة ولا منصر واحد ٠

٦ ـ أنه شعب فقير لم يتالف الترف كيانه ، ولم تنخر الرفاهية في عظامه ولم يهد التنعم صلابته ولا رجولته ٠ وهو يتحمل المشاق وظروف التقلبات وقساوة العيش اذ يكفيه أن يجد الخبز الجاف فقط ويعيش عليه المجاهدون لعدة أشهر ٠

٧ ـ أنه شعب صاحب نخوة فهو على فقره المادي جواد كريم في أحلك الظروف(٣١) ٠

حواشي الفصـــل العاشر

مسلمو الهند وأفغانستان

(١) د٠ جمال الدين الديناصـورى وآخرين : جغرافية العـالم ، أسيا ، ١٩٧٦ : ص ٩٧ ٠

(٢) د٠ عبد العزيز نوار : الشعوب الاسلامية (مسلمو الهند) ص ٥٠٥ ٠

(٣) د٠ أحمد شلبى : التاريخ الاسلامى ، جـ ٨ ص ٢٦٣ ٠

(٤) د٠ أحمد الساداتى : تاريخ المسلمين فى شبه القارة الهندية ١٩٧٠ ، ص ٦٢ ـ ٦٦ ٠

(٥) د٠ نوار : مرجع سابق ، ص ٥٠٥ ـ ٥٠٦ ، د٠ شلبى ، مرجع سابق ، ص ٢٩٢ ٠

(٦) د٠ السعيد رزق حجاج : الاستعمار الأوربى ، مرجع سابق ، ص ٢٥٢ ، د٠ محمود زيادة ، حاضر العالم الاسلامى ، ص ١٧٤ ٠

(٧) د٠ احسان حقى : مأساة كشمير المسلمة ، السعودية ، ١٩٧٧ ص ٥٨ ٠

(٨) المرجع السابق ، ص ٦٢ ، زعماء الاصلاح فى العصر الحديث ، أحمد أمين ص ١٤١ ٠

(٩) محمد حسن الأعظمى : القائد الأعظم ، بدون تاريخ ص ٥ ٠

(١٠) د٠ أحمد شلبى : مرجع سابق ، ص ٣٣٩ ٠

(١١) محمد حسن الأعظمى : باكستان ، الدار القومية للطباعة والنشر ، ص ٧٣ ـ ٧٤ ٠

(١٢) المرجع السابق ، ص ٣١ ـ ٣٢ ٠

(١٣) حاضر العالم الاسلامى : لوثروب ستودارد ، تعليق الأمير شكيب أرسلان ، جـ ٢ ، ٢٨٧ ٠

(١٤) محمد حسن الأعظمى : باكستان : مرجع سابق ، ص ٧٩ـ٨٠

(١٥) الأعظمى : القائد الأعظم ، مرجع سابق ، ص ٢٥٥ ٠

(١٧) د٠ احسان حقى : كشمير ، مرجع سابق ص ٦٢ ٠
(١٨) الأعظمى ، القائد الأعظم ، مرجع سابق ، ص ٤١ ، المشير محمد أيوب خان : سادة لا عبيد ، ص ٢٠ ـ ٢١ ٠
(١٩) المرجع السابق ، ص ٥٤ ٠
(٢٠) د٠ السعيد رزق حجاج : الاستعمار الأوربى ، مرجع سابق، ص ٢٥٥ ، أبو المكارم زاد ، ثورة الهند السياسية ، القاهرة ١٣٤١ ، ص ٥ ـ ٨ ٠
(٢١) د٠ احسان حقى : مرجع سابق ، ص ٦١ ، أحمد فهد بركات الجامعة الاسلامية ، ص ٢٩٠ ـ ٢٩١ ٠
(٢٢) د٠ عبد العزيز نوار : مرجع سابق ، ص ٥٦٨ ـ ٥٦٩ ٠
(٢٣) فاروق حامد بدر ومحمود شاكر : تاريخ أفغانستان من سلسلة مواطن الشعوب الاسلامية ، ص ٣٤ ٠
(٢٥) د٠ عبد الحليم أحمدى : الجهاد فى افغانستان أصوله التاريخية ومستقبله ، الكويت يونيو ١٩٨٢ ، ص ١٦٢ ٠
(٢٦) كارل بروكلمان : تاريخ الشعوب الاسلامية ص ٨٠٠ ـ ٨٠١ فاروق بدر ، ص ٦٤ ٠
(٢٧) د٠ عبد الحليم أحمدى ، مرجع سابق ، ص ١٦٣ ٠
(٢٨) المرجع السابق ، ص ١٨٦ ، د٠ على مظهر ٠ أفغانستان ، ص ٨٦ ـ ٨٨ ٠
(٢٩) د٠ السعيد رزق حجاج : الاستعمار الأوربى ، ص ٢٨٦ ٠
(٣٠) د٠ عبد الله عزام آيات الرحمن فى جهاد الأفغان ١٩٨٥ ص ١٧
(٣١) المرجع السابق ، ص ١٧ ٠

الفصل الثاني عشر

مسلمو الاتحاد السوفيتى فى الحرب العالمية الأولى

يعتبر الاتحاد السوفيتى احدى الدولتين العظيمتين فى العالم اليوم، ومساحة أراضيه أكبر من أى دولة من دول العالم اذ تبلغ ٢٢٬٢٧١٬٠٠٠ كم٢ ويبلغ عدد سكانه الآن حوالى ٣٠٠ مليون نسمة ، ويشكل المسلمون خمس سكانه تقريبا (٦٥ مليونا) ويعيش ٧٥٪ من مسلمى الاتحاد السوفيتى فى آسيا الوسطى فيما يعرف بالتركستان الغربية (لأن تركستان الشرقية أو سنكيانج تحتلها الصين الشيوعية)(١) .

المناطق الاسلامية بالاتحاد السوفيتى :

تمثل الأقاليم الاسلامية فى الاتحاد السوفيتى تسعة أعشار مساحته الكلية ، وقد ضمت الى روسيا القيصرية ، ثم جاء الانقلاب الشيوعى فى عام ١٩١٧ لتبدأ حرب ابادة منظمة تستهدف القضاء على الوجود الاسلامى فى تلك البلاد وأهم المناطق الاسلامية فى الاتحاد السوفيتى هى :

١ ــ تركستان الغربية : وهى بلاد واسعة فى آسيا الوسطى تجاور فى الشمال سيبريا وفى الشرق تركستان الشرقية ، وفى الجنوب افغانستان وايران وتطل على بحر قزوين فى الغرب . وهى وطن الترك الأصلى وكانت تعرف ببلاد ما وراء النهر مع جزء من اقليم خراسان ومن اشهر مدنها بخارى وطشقند وسمرقند . وقد كانت درة فى جبين العالم الاسلامى قال عنها ياقوت الحموى(٢) :

« ما وراء النهر من أنزه الأقاليم وأخصبها وأكثرها خيرا . وأهلها يرجعون الى رغبة فى الخير والسخاء ، واستجابة لمن دعاهم اليه مع قلة

عائلة وسماحة بما ملكت أيديهم ، وشدة شوكة ومنعة وبأس فأما الخصب فيها فهو يزيد على الوصف ، ويتعاظم أن يكون فى جميع بلاد الاسلام وغيره مثله ويكفى هذه البلاد فخرا أنها قدمت للعالم الاسلامى الامام البخارى والامام مسلم والمفسران الجليلان الزمخشرى والنسفى وأئمة البلاغة والاعجاز عبد القاهر والتفتازانى والسكاكى ، ومنها كذلك الفارابى وابن سينا • ومن علماء الرياضة والفلك : خالد البلخى ومن علماء الهندسة : بنوموس • ومنها البيرونى والخوارزمى والسرخسى والجوهرى من خيرة العلماء(٣) •

ومن الثروات المعدنية :

٢٥٠ منجما للذهب ، ١٦ للفضة ، ٤٦ للحديد ، ٣٢ للرصاص ، ٣٤٤ للبترول ، ٧٠ للفحم ، ١٣ للكبريت ، ٦٣ للصوديوم عدا اليورانيم والزئبق والنحاس والقصدير والبلاتين وغير ذلك من المعادن •

ومن ناحية خرى تعتبر من أكبر المناطق المنتجة للقمح فى الاتحاد السوفيتى.

وقد احتلت روسيا هذه البلاد منذ أكثر من قرن من الزمان ، ثم قسمت بعد الانقلاب الشيوعى عام ١٩١٧ الى خمس جمهوريات اتحادية هى :

١ ـ أوزبكستان وطاجيكستان وقازافستان وقيز غيزستان وتركماتستان •

٢ ـ بلاد فى حوض نهر الفولجا شرقى روسيا وغالبيتها مسلمة ويتكلم معظم سكانها لغات تركية بالاضافة للروسية وقد انشىء فيها سبع جمهوريات تتمتع بما يعرف بالاستقلال الذاتى من أهمها جمهوريتا باشكيريا وتتاريا ومن أهم مدنها أوقا وقازان •

٣ - سيبريا : وهى أراضى واسعة تمتد بين روسيا والمحيط الهادى. وتسكنها قبائل من الجنس المغولى قليلة العدد وقد وصل اليها الاسلام بواسطة الدعاة من أواسط آسيا ولا سيما أهل بخارى .

ويقدر عدد سكانها بعشرة ملايين نسمة ٢٥٪ مسلمون وكانت تضم امارة اسلامية قضى عليها الروس فى أواخر القرن العاشر الهجرى وأصبحت سيبريا اليوم منفى للمسلمين الناقمين على الظلم الشيوعى .

٤ - ققفاسيا : وتمتد مع جبال القفقاس (القوقاز) من بحر قزوين (الخزر) الى البحر الأسود ، وينتشر على سفوحها الشمالية الداغستان وسركسيا وعلى سفوحها الجنوبية أذربيجان وجورجيا وأرمينيا .

وسكان داغستان وشاشان وأذربيجان مسلمون ومن أهم مدن ققفاسيا : باكو ومحج قلعة وتفليس وغيرها من المدن الأخرى .

٥ - القرم : شبه جزيرة تمتد فى البحر الأسود وتعد من قارة أوربا وصل الاسلام اليها عن طويق التتر الذين دخلوا فى الاسلام عام ٧٤٠هـ ثم حكموا شبه الجزيرة من قبل العثمانيين ثم دخلها الروس عام ١١٩٨هـ (١٨٨٣)م وكان عدد سكانها قبل الاحتلال الروسى خمسة ملايين نسمة حاول الروس افناءهم بالمجاعات والتقتيل الجماعى والتشريد ، كما طمسوا كل معالم الاسلام فيها ولم يبق هناك من بين ١٥٥٨ مسجد غير بضعة مساجد(٤) .

امارة موسكو والتوسع الصليبى فى المناطق الاسلامية :

بدات امارة موسكو تنمو فى القرن الحادى عشر الميلادى بعد أن تحولت الى الارثوذكسية فى عهد فلادمير سلافيتش سنة ٣٧٨هـ (٩٨٨م) وانتشرت بينهم النصرانية تدريجيا حتى شملت معظم قبائلهم وأصبحوا بعد سقوط القسطنطينية على يد السلطان محمد الفاتح ٨٥٧هـ (١٤٥٣م)

ممثلى الكنيسة الشرقية ورفعوا لواء الصليبية الحاقد ضد المسلمين • وقد ساعدهم على تنفيذ مخططاتهم • وقوع الخلافات بين الامارات التترية الاسلامية وانقسامها وضعف شأنها مما أتاح للدولة المسكوبية أن تنهى السيطرة الاسلامية على موسكو بعد أن ظلت ٢٤٠ عاما وذلك عندما رفض حاكمها دفع الجزية لأحمد خان سلطان قازان المسلم ، وقامت الحرب بينهما وحقق الروس انتصارا كبيرا وقام البابا يحث أمير موسكو فاسيلى الثالث باشعال « الحرب المقدسة » ضد المسلمين ولكنه ترك هذه المهمة لولده ايقان •

ففى سنة ٩٥٩هـ/١٥٥٢م زحفت جيوش ايفان الرهيب على مدينة قازان عاصمة خان التتر التى كانت مركز لحضارة اسلامية زاهرة فاحتلتها ثم استولت هذه الجيوش بعد سنتين على دولة خانات استراخان ودمر الروس هاتين الدولتين ، وطردوا المسلمين من المدن الكبيرة وصادروا أراضيهم ومنحوها للنبلاء الروس ، ثم اجتازوا الأورال ليتوغلوا فى سيبريا ويدمروا مملكة سيبير الاسلامية •

ومن الجدير بالذكر أن سيبريا ظلت بلادا اسلامية حتى القرن السابع عشر للميلاد ـ الحادى عشر للهجرة • ولم تسقط فى أيدى الروس الا بعد حرب دامت ٥٦ عاما وكان السلطان كوجم آخر حكامها المسلمين وقد عرض عليه الروس بعد انهيار جيشه أن يقبل الاحتلال الروسى ويبقى على عرشه تابعا لهم • ولكن السلطان المسلم أبى هذا العرض وآثر أن يقاتل دون كل شبر من « سيبريا » المسلمة حتى استشهد ومن بعده واصل الجهاد ابنه السلطان على ووضع الروس بعد ذلك أيديهم على هذه الأرض الشاسعة وأسموها « سيبريا » وهو محرف من « صايرى » الاسم القديم لهذا الاقليم(٦) •

وقد اتجهت بعد ذلك القوات الروسية جنوبا صوب القوقاز وكانت تتبع فارس تارة والدولة العثمانية تارة وقد استطاعت القوات الروسية أن تحتل القوقاز بعد حرب دامت منذ عام ١١٩١هـ (١٧٧٥)م الى ١١٩٩هـ (١٧٨٤م) واستمرت بعد ذلك المناوشات والمعارك الجانبية حتى عام ١٢٢٨هـ (١٨١٣م) عندما اعترف نادر شاه حاكم فارس بسلطة روسيا على القوقاز وعندما قام الأمراء المحليون بمقاومة الغزو الروسى ولكنهم اضطروا للخضوع بعد أن اكتسحتهم القوات الروسية وعندئذ قام قاضى القضاة الملا محمد الكمراوى باعلان ردة امراء داغستان الذين استسلموا لحكم روسيا وألف كتابا أسماه (اقامة البرهان على ارتداد عرفاء طاغستان) .

وكن القاضى الكمراوى عالما فقيها زاهدا مجاهدا فنشر روح الجهاد وتسمى باسم الغازى محمد واستطاع أن يلحق بالقوات الروسية هزائم متلاحقة وبقى فى ميدان الجهاد من سنة ١٢٤٨هـ (١٨٣٢م) الى ١٢٥٠هـ (١٨٣٤م) حيث استشهد فى الميدان فخلفه تلميذه حمزة الخنزاجى وهو احد الأمراء القليليين الذين تابعوه ورفعوا راية الجهاد حتى استشهد بعد عام وجميعهم من قبيلة أوار الدغستانية الذين لا يتكلمون ويكتبون الا باللغة العربية ، وتولى الأمر بعدهما الامام العالم المجاهد الشيخ محمد شامل الداغستانى الذى استمر فى مقاومة الاستعمار الروسى نحو ٣٥عاما وأجلاهم عن كثير من البلاد التى احتلوها فى الناحية الجنوبية من القفقاس وكانت أعظم المعارك التى دارت بين الطرفين فى سنتى ١٨٤٣ . ١٨٤٤ حيث هاجم جميع الحصون التى كانت بيد الروس فى الجبال واخذ منهم غنائم كبيرة من الأعتدة الحربية والمؤن بالاضافة الى أعداد كبيرة من الأسرى واضطر القيصر نيقولا الأول ثم اسكندر الثانى الى تجريد حملات عسكرية ضخمة لمقابلة هذا الثائر المقدام(٧) .

نهاية البطل المجاهد :

ظل هذا العالم المجاهد يحارب الروس دفاعا عن عقيدته ومعه أكثر من ٦٠ ألف مجاهد رافقوه فى الاحجام والاقدام شعارهم شعاره ومصيرهم مصيره وفى عام ١٨٥٩ وقع فى أسر القوات الروسية وسجن فى بطر سبورج (أينجراد اليوم) وبعد خمس سنوات قضاها فى الأسر سمح له بزيارة الديار الاسلامية المقدسة وفى عام ١٨٧١ توفى هذا العالم المجاهد وكان تراب المدينة المنورة المثوى الأخير لجثمانه حيث قرت عينه فى نفس الأرض التى تشرفت بجثمان سيد المرسلين ٠

وبعد اخماد ثورة الشيخ شامل سنة ١٢٧٦هـ (١٨٥٩) اتجهت القوات الروسية الى آسيا الوسطى وتم احتلال طشقند ١٢٨٢ (١٨٦٥)٠

وفى عام ١٨٦٨ سقطت سمرقند ٠ وفى عام ١٨٧٣ فرضت الحماية على بخارى وفى السنة التالية على خوارزم وفى عام ١٨٧٥ توجهت القوات الروسية الى خانية خوقند وواجه الروس مقاومة شعبية رائعة مما جعلهم يجمعون أكبر عدد من قواتهم ويدكون المدينة دكا ويبيدون أهلها عن بكرة أبيهم عام ١٨٧٦ واكتمل فتح التركستان بوصول القوات الروسية الى هضبة يامير (١٩٠٠) ١٣١٨هـ ومنذ ذلك الحين وضعت التركستان تحت ادارة عسكرية روسية(٨) ٠

مرحلة ما قبل الانقلاب الشيوعى :

فى عام ١٩٠٥ أصدرت الحكومة القيصرية مرسوما باباحة حرية الاعتقاد الدينى الأمر الذى جعل الكثيرين يدخلون فى دين الله أفواجا ، وقد حدث فى عام ١٩٠٩ أن احدى وتسعين أسرة اعتنق أفرادها الاسلام دفعة واحدة فى قرية اسمها **Atomva** وقد أحصى عدد الذين اهتدوا

الى الاسلام بين ١٩٠١ و ١٩١٠ فبلغ عددهم ثلاثة وخمسين الف شخص وقيل فى تفسير هذا الاقبال الشديد أن الألاف من المسلمين الذين فرضت عليهم النصرانية فى القرن السادس عشر الميلادى فى عهد ايفان الرهيب والمعروفون باسم « ستاروا كرياشين » والتتار الذين أجبروا على التنصر فى القرنين الثامن عشر والتاسع عشر والمعروفون باسم نوفو كرياشين عادوا جميعا الى الاسلام وبلغ عددهم حوالى ٤٠٠ر٠٠ شخص ٠

ولكن لم يستمر هذا التسامح طويلا فبعد عام واحد (١٩٠٦) قدم وزير الداخلية الروسى تقريرا الى مجلس الوزراء يحذر فيه من اعطاء الحرية الدينية بهذا الشكل الواسع ، كما يحذر من اعطاء المسلمين حق تكوين جمعيات سياسية ودينية ويامر بالقبض على دعاة هذه الحركات واعتبارهم خارجين على القانون بتهمة أنهم جواسيس وعملاء لدولة الخلافة العثمانية وفعلا قامت الحكومة بتصفية جميع الأحزاب الاسلامية التى تكونت فى عامى ١٣٢٣ ـ ١٣٢٤هـ (١٩٠٥ ـ ١٩٠٦)(٩) ٠

وفى ١٣ يناير ١٩٠٦ (١٣٢٤هـ) عقد مؤتمر سرى فى مدينة سان بطر سبورج حضره مائة مندوب تتارى وقرمى وقفقاسى وكازاخى وتركستانى ٠ وفى أغسطس من العام ذاته عقد فى مدينة نييجنى‌توفجورد مؤتمر ثالث حضره مئتا مندوب عن مختلف المناطق الاسلامية فى روسيا وكان هذا المؤتمر علنيا خلاف المؤتمرات السابقة وأعلنت مقرراته المطالبة بالحرية الدينية وحرية التعليم وتقرر لأول مرة ظهور حزب سياسى اسلامى لكافة مسلمى روسيا القيصرية ٠

وعلى الرغم من أن هذا الحزب ظل متواضعا فى مطالبه التى قصرها على الحرية الدينية وحرية التعليم ولم يتعرض للمطالب السياسية الخاصه بالاستقلال ، كما أنه عرض تعاونه مع الحكومة الروسية الا أن هذه المطالب قد رفضت مما يدل على تأصل الحقد الصليبى ضد المسلمين فى هذه البلاد

وبعد سنتين من تكوين هذا (الاتفاق الاسلامى) أى فى عام ١٣٢٦ (١٩٠٨) فقد قادته كل أمل فى الليبرالية الروسية وهاجر كثير منهم الى تركيا ومنها الى مناطق العالم الاسلامى الأخرى(١٠) .

قيام الحرب العالمية الأولى وأثره :

على الرغم من أن روسيا أعلنت على لسان سازونوف وزير خارجيتها فى مذكرة قدمها الى القيصر فى ديسمبر ١٩١٣ « أن روسيا لا ترغب فى الحرب ولا فى ضم أية حدود جديدة ولكنها لا تستطيع أن تسمح بسقوط المضايق والقسطنطينية فى أيدى دولة أخرى ولو كانت احدى دول البلقان الصغرى مثال بلغاريا » وأضاف الى ذلك قوله « ان تأمين المضايق لمصلحة روسيا هو فى حكم الواقع الآن فتركيا ليست بالدولة القوية غاية القوة ولا بالضعيفة غاية الضعف ، وهى لا تستطيع أن تكون خطرا علينا ولكنها فى الوقت نفسه مضطرة الى أن تقف من روسيا موقف الحذر لأنها أقوى منها ان ضعف الامبراطورية العثمانية وعدم قدرتها على التطور مع الحضارة هو فى مصلحتنا ، انه خلق بين الشعوب المسيحية الخاضعة لها شعورا بالولاء نحـو روسـيا الارثوذكسـية مما يقوى مركزنا الدولى فى أوربا الشرقية »(١١) .

ومع بدايات الشرارة الأولى للحرب العالمية الأولى استعدت روسيا للوقوف الى جانب صربيا ضد النمسا ، وأعلن القيصر التعبئة العامة فأعلنت المانيا الحرب على روسيا فى أول أغسطس سنة ١٩١٤ وانضمت فرنسا الى حليفتها روسيا فأعلنت المـانيا الحرب على فرنسا فى ٣ أغســطس ، وأخذت المـانيا تستعد لتنفيذ مشروعها الذى وضـعه العسكريون وهو غزو فرنسا عن طريق اختراق بلجيكا ولكسمبرج لاكتساح فرنسا قبل أن تستعد روسيا للقتال .

وكانت روسيا فى بداية الحرب تشكل خضما من البشر قوامه مسلمو القوزاق وأواسط آسيا وكثير من الشعوب التى ألهبتها سياط الحكومة القيصرية وساقتها عصا القيصر الى حتفها بالقوة المستحكمة من جهة وبتفشى الجهل من جهة أخرى . وهاتان هما الدعامتان الأساسيتان اللتان يستخدمها كل طاغية مستبد . وكان الروس أقرب الى الاثنان . وبلادهم نهبا موزعا بين استثمارات أوروبا الغربية والكنيسة المتحالفة مع القيصر فى القضاء على الوجود الاسلامى هناك(١٢) .

وتذكر بعض المصادر أن جيش القيصر نيقولا الثانى كانت تضم مليون ونصف المليون من الجنود المسلمين الذين أجبروا على قتال الألمان والأتراك فى حرب كان هدفها ازالة الدولة العثمانية مركز الخلافة الاسلامية من الوجود والاستيلاء على استامبول وتحويلها مرة أخرى الى عاصمة للمسيحية الارثوذكسية . والغريب حقا أنه على الرغم من الاضطهاد القيصرى وعلى الرغم من أنهم يحاربون دولة الخلافة الا أن هؤلاء المسلمين حاربوا دون اظهار أى عصيان فى صفوف قوات القيصر على الأقل حتى عام ١٣٣٥ (١٩١٦) وفى ٢٥ يونيو ١٩١٦ (١٣٣٥) فرضت القوات الروسية على جميع المسلمين من سنى ١٩ الى ٤٣ من القازاخ والأوزبك واليغور والتتار والتركمان القيام بأعمال السخرة فى مؤخرة الجيوش الروسية ، مما ادى الى ثورة المسلمين فى آسيا الوسطى وفى سبتمبر ١٩١٦(١٣٣٥هـ) قررت حكومة القيصر التصدى بأشد أنواع البطش والتنكيل لهذه الثورة التى قام بها هؤلاء المسلمون بأشد أنواع البطش والتنكيل . وعلى الرغم من كل أساليب البطش البربرية التى اتبعت الا أن توالى الأحداث جعل الثورة تستمر فعلا حتى قيام ثورة الباسمشتية .

وفى مارس ١٩١٧ (١٣٣٦هـ) قام الدوما (البرلمان) الرابع بالثورة ضد القيصر نيقولا وتكونت الحكومة المؤقتة برئاسة الأمير ليفون وكرينسكى وثارت بقيام روسيا الليبرالية الديموقراطية(١٣) .

موقعة تانبرج أغسطس ١٩١٤ :

بدأت الحرب فى الجبهة الشرقية وقد نجح القائد الألمانى الكبير فون هندنبرج أن يحرز نصرا حاسما على الروس فى موقعة تاننبرج (١٦ ـ ٣١ أغسطس) وهى الموقعة التى طهرت الأراضى الألمانية من الغزو الروسى وأنقذت بروسيا الشرقية من الاحتلال ، وكانت ضربة قاصمة لآمال الحلفاء الذين كانوا يعولون على الضغط الروسى لانقاذ الموقف فى الغرب • فقد تحطم الجيش الروسى ووقع الكثيرون منهم فى الاسر على أن الروس على الرغم من هزيمتهم أمام الألمان فى تاننبرج استطاعوا أن ينجحوا فى جبهة أخرى فى نفس الوقت أمام النمساويين فى غاليسيا حتى الاستيلاء عليها فى نهاية العام • وبعد هزيمة الجيش الروسى أعطى القيصر تعليماته بحشد قوات جديدة لصد الزحف الألمانى المتوقع على روسيا وتم بالفعل حشد جيش من أبناء المناطق الاسلامية فى أواسط آسيا وقد اعترف القائد الألمانى « هند نبورج » فى مذكراته بشجاعة هؤلاء الجنود ومقاومتهم الباسلة للجيش الألمانى(١٤) •

وقد بدأ نجم روسيا العسكرى يأفل فى عام ١٩١٥ اذا كانت قواتها تنقصها الذخيرة والمؤونة والأسلحة الحديثة والأهم من ذلك الروح المعنوية العالية ، كما كانت قيادتها غير صالحة ، بينما كانت قوات الدول الوسطى تفوقها عددا وعدة ولذلك دارت الدائرة على الروس منذ شهر مايو من ذلك العام ، فهاجمتهم القوات النمساوية الألمانية ، وما يكاد يمضى شهران حتى جلا الروس عن غاليسيا واحتلها النمساويون والألمان وأصبحت القوات الروسية التى تعسكر فى بولندة معرضة للهجوم من الشمال والجنوب،مما أدى بالروس الى الجلاء عن «وارسو» و «ايفانجورود Ivangorod » وانفتح الطريق أمام القوات النمساوية الألمانية فاحتلوا كوفنو وبرست لتوفسك وفلنا ، وهكذا طردت القوات الروسية

من غالسيا وبولندا وخسرت جانبا من لتوانيا ، وبذلك خسرت روسيا مناطق صناعية وأثر ذلك على قدرتها الدفاعية وروحها المعنوية ٠

والواقع أن روسيا لم تكن مستعدة للحرب استعدادا كاملا فقد كانت تنقصها مصانع الأسلحة والمعدات ووسائل النقل الحديثة والقيادة الحكيمة الحازمة ٠

وفى خلال الثلاث سنوات الأولى من الحرب ، جندت الحكومة الروسية حوالى خمسة عشر مليونا من الجنود وهو عدد لم تستطع الحكومة بمالديها من امكانات حربية ضعيفة أن تجهزه بكل ما يحتاج اليه فى ميادين القتال من مؤونة وأسلحة ، كما أدى تجنيد الفلاحين الى حرمان الأراضى من الأيدى العاملة فأثر ذلك على المحصول السنوى الذى كان من الواجب أن يتضاعف ليسد حاجة البلاد أثناء الحرب ٠ ولم تستطع الانتفاع من أغلب هؤلاء المجندين لأنهم - وهم على حالتهم من الجوع ونقص الذخيرة - يصبحون عالة على الميدان وعاملا من عوامل الهزيمة ٠

ومما قتل الروح المعنوية فى الشعب والجيش الروسى على السواء ما تناقلته الألسنة عن سوء حالة الجيش ، وما يعانيه الجنود من سوء التغذية وقلة الأسلحة وفسادها مما كان سببا فى توالى الهزائم ووقوع ملايين الجنود فى ميادين القتال بين قتلى وجرحى وأخذت جماهير غفيرة من المهاجرين الذين لا مأوى لهم يتجهون شرقا تتبعهم القوات المنهزمة واضطربت البلاد وأصبحت مهيئة للتغيير(١٥) ٠

الحرب بين روسيا وتركيا :

بدأت الحرب على الجبهة الروسية التركية فى ٢٩ أكتوبر ١٩١٤ بوقوع معركة بحرية على أثر دخول قطعتين من قطع الاسطول العثمانية

الى مرفأ أودسا وأغرقتا الطراد الروسى «دويتر» ثم صدر الأمر بانسحابهما بعد ذلك ٠

وكان هذا الهجوم البحرى بمثابة الشرارة لقيام الروس بالهجوم على الحدود التركية فى ١٣ نوفمبر من نفس العام ونجحت القوات الروسية فى القضاء على بعض الفرق العثمانية مما اضطر العثمانيين الى التراجع الى أرضروم مركزهم الرئيسى(١٦) ٠

وقد أخطأت القيادة التركية فى توقيت هجومها عبر جبال تعلو عن سطح البحر بأكثر من عشرة آلاف قدم ٠ ولكن الغاية الحقيقية من وراء ذلك كانت اجبار روسيا على سحب بعض جنودها من الشرق لتخفيف الضغط على ألمانيا والنمسا وقد نجحت هذه الخطة على الرغم من الخسائر الفادحة التى لحقت بالقوات العثمانية ٠

الانقلاب الشيوعى والانسحاب من الحرب :

بعد أن ساءت الأحوال الاقتصادية فى روسيا ابان فصل الشتاء لدرجة كبيرة ونقصت الأغذية وتوالت الهزائم المنكرة فى جبهات القتال وفسدت الادارة الحكومية والقيادة العسكرية وتطورت الأمور الداخلية فى روسيا الى نجاح الشيوعيين فى الوصول الى السلطة وابعاد القيصر « نيقولا الثاني » أعلن القادة الجدد - كما أسلفنا - الانسحاب من الحرب بل وعقدوا معاهدات مع تركيا ومع ألمانيا لوقف القتال والذى يعنينا فى هذا المقام موقف المسلمين فى روسيا من هذا الانقلاب المعروف باسم الثورة الاشتراكية والحقيقة أن المسلمين لم ينتبهوا الى خطورة هذه الأحداث التى وقعت عام ١٣٣٦هـ / ١٩١٧ لأنه لم يستهدف تقريبا الى الروس ٠ فوقفوا فى بعض المناطق موقف المتفرج أو المساند فى حدود ضيقة تخلصا من الظلم القيصرى الذى لحق بهم وكان قادة الانقلاب الشيوعى فى روسيا

يعلمون مدى ما أجرم القياصرة فى جنب المسلمين - بل كانوا - وهذا هو أملهم - يريدون توفير الضمانات لانجاح ثورتهم واستثارة المضطهدين لكى يخمدوا أنفاس القيصرية معهم . فقد كانت هناك صعوبات تواجه الشيوعية فى السنة الأولى حيث كان جزء كبير من الشعب الروسى لا يزال مترددا فى معاونتهم بل كانت بعض المناطق تعادى حكمهم وتجاهر بعدائها لهذا الانقلاب الجديد(١٧) .

كما أن قوات روسيا البيضاء المناهضة لهم كانت قد أخذت تستجمع بمعاونة بعض الدول الأجنبية استعدادا للقضاء على الانقلاب الشيوعى ولذلك توجه لينين وغيره من القادة نحو الطائفة الاسلامية فوجهوا نداء فى ٧ ديسمبر ١٩١٧ الى شعوب روسيا من المسلمين اعترفوا فيه بما اقترفه حكم القياصرة من رزايا وآثام وبشروا بانتهاء عهد الآلام والمعاناة ودعوا المسلمين الى حكم أنفسهم بطريقتهم : « وعليكم من اليوم أن تشيدوا صرح كيانكم بأنفسكم وبطريقتكم الخاصة وفق ما تحبون وتختارون » .

أيها الرفاق .. أيها الاخوة لنتقدم سويا فى عزم وصلابة نحو سلام عادل ديموقراطى .

ان معتقداتم وعاداتكم ومؤسساتكم القومية والثقافية تعتبر من الآن فصاعدا حرة مصونة ، فابنوا حياتكم القومية بحرية وبدون عراقيل فلكم الحق فى ذلك . واعلموا بأن حقوقكم شأنها شأن حقوق كافة شعوب روسيا ، محمية بكل قوة الثورة وهيآتها .

ولقد جاء هذا النداء الذى توجه به الشيوعيون الى المسلمين تأكيدا لمنشور سابق أذيع فى ١٥ نوفمبر ١٩١٧ تضمن « اعلان حقوق شعوب الروسيا » بجميع مذاهبها وفئاتها وقومياتها وقد جاء في هذا المنشور : (١٨)

١ ـ المساواة والسيادة لشعوب الروسيا ٠

٢ ـ حق شعوب الروسيا فى التقرير الحر لمصيرها بما فيه حق الانفصال وتكوين دولة مستقلة ٠

٣ ـ الغاء كل وأى امتيازات وقيود قومية أو دينية ٠

٤ ـ التطور الحر للأقليات القومية والمجموعات المتحدة الأجناس التى تسكن فى الروسيا ٠

ومن ناحية أخرى بادر الشيوعيون الى وضع خططهم لنشر الحادهم فى آسيا وأفريقيا بصفة عامة وفى المناطق الاسلامية فى التركستان وغيرها من المناطق الاسلامية وقد ساعد الشيوعيين فى مخططاتهم هذه الحشد الكبير من رجال السياسة والخبراء فى الشئون الشرقية والذين انتظم العديدون منهم بعد القضاء على النظام القيصرى فى سلك الحكومة الجديدة كما فر الى روسيا بعد انسحابها من الحرب العالمية الأولى بعض رجال الحكم العثمانيين أمثال أنور باشا ورفاقه هربا من وقوعهم فى أيدي الحلفاء المنتصرين فى الحرب(١٩) ٠

وفى واخر ١٣٣٧ هـ نظم ديوان الدعاية البلشفية الخاصة بالشعوب الشرقية وقسم الى ثلاثة قسام رئيسية : الأول للأقطار الاسلامية ، والثانى للهند والثالث للشرق الأقصى ٠

وقد مرت الدعاية الشيوعية بثلاثة أدوار ازاء ما يحدث فى العالم الاسلامى بصورة عامة وعند الأتراك بصورة خاصة ٠

ففى الدور الأول استغلوا كراهية الشعوب المقهورة للاستعمار الغربى وتظاهروا باعترافهم بحق كل أمة بتقرير مصيرها ، وأنهم هم المعين والناصر لها لمقاومة التوسع الأمر الذى حمل العديد من القادة

الذين خدعوا بهذه النداءات بالتوجه نحو موسكو وقد جاء في منشور شيوعي موجه الى الترك وموقع من لينين في عام ١٣٣٨هـ ما يلى « يا مسلمي الشرق يا مسلمي ايران وتركيا وبلاد العرب والهند يا مسلمي العالم الذاهبين ضحايا الاستعمار استيقظوا ان روسيا قد أقلعت عن سياسة الحكومة القيصرية ٠٠ ان روسيا تمد يدها اليكم لتعينكم على تحطيم أغلال الاستبداد البريطاني ٠ ان روسيا تطلق لكم الحرية الدينية ، وحق الحكم الاستقلالي ٠ وتعترف بحدود بلادكم ، الحدود المعروفة قبل الحرب ٠ ولن توافق على اعطاء قطعة من البلاد التركية الى الأرمن ، وتبقى مضائق الدردنيل في أيديكم وتظل القسطنطينية عاصمة العالم الاسلامي ٠ ويمنح المسلمون في روسيا الحكم الذاتي التام ٠ انما جميع ما نطلبه منكم لقاء هذا هو قيامكم بمقاتلة المستعمرين » ٠

وفي نداء آخر وجه الى مسلمي روسيا جاء فيه : « يا مسلمي روسيا ، يا تتار المغول والقرم ٠٠ يا سكان القوقاس الأبطال ٠٠ أنتم يا من هدمت مساجدكم وحطمت معابدكم ومزق القياصرة الطغاة قرآنكم وحاربوا دينكم وأبادوا ثقافتكم وعاداتكم ولغاتكم ٠٠ ثوروا من أجل دينكم وقرآنكم وحريتكم في العبادة ٠

اننا هنا نعلن احترامنا لدينكم ومساجدكم ٠

وأن عاداتكم وتقاليدكم حرة لا يمكن المساس بها ٠ ابنوا حياتكم الحرة الكريمة المستقلة دون أى معوقات ولكم كل الحق في ذلك ٠٠ واعلموا أن جميع حقوقكم الدينية والمدنية مصونة بقوة الثورة » (٢٠) ٠

وهكذا كانت بداية الاسلوب الشيوعي بعد عام ١٩١٧ ٠ ثم أخذت لهجتهم تأخذ طابعا دعائيا جديدا حيث الدور الثاني في خداعهم ومناوراتهم

والذى لم يعتمد فقط على اثارة الحملات ضد الاستعمار بل على اطلاق الصرخات المدوية التى تضمنت تحريضهم لسكان البلاد التركية كى يقاوموا الرأسمالية وأبناء الطبقة الوسطى من وطنيين وأجانب ٠ ولوحوا لهم بالوعود البراقة أمثال تحسين أوضاعهم ورفع شأنهم ٠ وفى منشور وجه الى الأتراك فى صيف عام ١٣٣٩ هـ يبدو واضحا اختلاف الخطة عما سبق وهذه بعض فقرات هذا المنشور « ٠٠ ان العمال على اختلاف طبقاتهم ٠٠ ليقاتلون اليوم الأغنياء والمتمولين قتالا شديدا فى كل قطر وبلد ٠ وان أرباب رؤوس الأموال والى جانبهم الأشراف والأعيان ، يحاولون الآن جهدهم لتصفية العامل التركى ٠٠ فيايها الزملاء الرفاق هلموا بنا نوحد الغاية والغرض ونسعى وراءهما سعيا متحدا فى جميع أقطار العالم »(٢١)

سياسة الابادة فى المناطق الاسلامية :

صدق المسلمون فى البداية الدعاية الشيوعية وبدأت الشعوب الاسلامية التى كانت خاضعة لحكم القياصرة تعلن استقلالها تلبية للنداء الموجه اليها من الساسة الحمر ٠ وقد اشتعلت الثورة فى القوقاز بقيادة نجم الدين غوتسو فى نهاية عام ١٣٣٦ هـ (١٩١٧) وأعلن القوقاز استقلاله فى مايو ١٩١٨ وتبعته جورجيا بعد بضعة أسابيع ولكن القوات الروسية الشيوعية داهمت هذه المناطق وأقامت مذابح جماعية فى مارس ١٩١٨ راح ضحية احداها فى باكو فقط ١٨٫٠٠٠ مسلم ، كما أعلن المسلمون فى أذربيجان قيام جمهورية اسلامية ولكن قوات لينين هاجمت أذربيجان بوحشية لا مثيل لها حتى قضت على استقلالها فى عام ١٩٢٠ بعد مقتل عشرات الألوف من أبنائها المسلمين ٠٠ وكانت قوات الحلفاء قد احتلت مدينة باكو فى ١٣٣٧ (١٩١٨) ثم انسحب الحلفاء منها وأعلن السوفيات قيام نظامهم فى باكو ١٩٢٠(٢٢) ٠

وأصبحت أذربيجان جمهورية سوفيتية من الجمهوريات الثلاث لما

وراء القوقاز وكانت لغة الأذرى (اذربيجان) تكتب بحروف عربية قبل استبدالها بالحروف الروسية وفى تركستان قامت القوات الشيوعية بارتكاب مذابح جماعية أدت الى فرار الكثيرين من أبنائها الى أفغانستان وايران وتركيا ومناطق شرق آسيا ٠ وهاجرت مجموعات أخرى الى بلاد الحجاز لاسيما فى مكة والمدينة وجدة (٢٣) ٠

وقد بدأ الشيوعيون حملتهم الضارية على المناطق الاسلامية فى ابريل سنة ١٩١٨ بعد أن استتب لهم الحكم فى روسيا وبدأ بمنطقة الأورال التى كانت قد أعلنت استقلالها مع بداية الانقلاب الشيوعى ، ثم توغلت قواته فى شمال القوقاز وخانية خوقند وتوجهت بعد ذلك الى القرم حيث واجهت مقاومة شديدة استمرت عامين فعمدت القوات الشيوعية الى محاصرتهم ومنعت عنهم الأغذية حتى بلغ عدد الذين أصابتهم المجاعة فى تلك الفترة حسب التقارير الرسمية ٣٠٢ر٠٠٠ ألف شخص مات منهم جوعا حسب التقارير الرسمية ١٤٤١٣ر وتوالت المجاعات فى القرم حتى هلك أكثر من مائة ألف مسلم (٢٤) ٠

هذا بالاضافة الى قتل وسجن الكثير من العلماء المسلمين ومطاردتهم والغاء المحاكم الشرعية ونظام المواريث واجبار المسلمات على السفور والزواج الجماعى فى بعض الأحيان ومصادرة الأوقاف الاسلامية واغلاق آلاف المساجد ٠

كما وقف الشيوعيون بصفة عامة موقفا عدائيا من الاسلام فى كافة البلدان السوفيتية لأنهم يرون « أن الدين أفيون الشعوب » وأنه يتعارض مع الفكر الشيوعى الالحادى وأصدروا تعليماتهم الى منظمات الحزب الشيوعى بمحاربة الاسلام فى كل مكان وقد نشطت هذه المنظمات فى القاء المحاضرات ونشر الكتب الالحادية ضد الدين الاسلامى وقد ألقيت فى أوزبكستان وحدها أكثر من عشرة آلاف محاضرة ضد الاسلام فى عام

واحد ، كما طبعت ٨٤ كتابا تهاجم الأديان ولاسيما الاسلام تم توزيعها في المناطق الاسلامية بالاتحاد السوفيتي(٢٥) .

ويمكن القول بصفة عامة أن الشيوعيين سلبوا ونهبوا ونشروا الرعب والهول وصادروا الأملاك والأموال بصورة أقسى بكثير مما فعله القياصرة . وقد اشترك في المذابح الجماعية المستوطنون الروس كما فعلوا من قبل مع القياصرة عدة مرات ومنها مذبحة عام ١٣٣٥ هـ (١٩١٦)م أي قبيل الانقلاب الشيوعي .

ويكفي أن نعرف على سبيل المثال أن عدد سكان الداغستان كان عند قيام الانقلاب الشيوعي يتراوح بين سبعة وثمانية ملايين كما يقول الأمير شكيب رسلان في كتابه حاضر العالم الاسلامي فأصبحوا بعد مرور أكثر من ستين عاما مليونين ونصفا وذلك نتيجة حرب الابادة التي شنتها روسيا السوفيتية الشيوعية .

ومن المآسي التي انتشرت في المناطق الاسلامية بعد انقلاب عام ١٩١٧ بالاضافة الى المذابح تهديم المدن واغتصاب الفتيات المسلمات من قبل الجنود والمستوطنين الروس ونزعهم حجاب النساء المسلمات في شوارع طشقند وغيرها من المدن ، والاعتداء عليهن واغتصابهن مما لم يترك لأي مسلم عرق الا ونبض بالثورة ضد هؤلاء الهمج المتوحشين الذين وصفهم لنا ابن فضلان وابن بطوطة والمسعودي وابن رسته بأنهم زرق العيون شقر الشعور قباح الوجوه أهل غدر وأقذر الأمم قاطبة » (٢٦) .

وأخيرا شهدت تركستان مذابح مروعة من عام ١٩٢٢ الى ١٩٥٣ كما شهدت حرب ابادة لا نظير لها في التاريخ القديم والحديث ويكفي أن هناك مجاعة استمرت من ١٩٣٣ ـ ١٩٣٤ مات فيها أكثر من ثلاثة ملايين تركستاني مسلم حتى أكلت الميتة ، بل أكل الناس جثث أقاربهم وأطفالهم . كما هدمت وأغلقت ٦٦٨٢ و ٧٠٥٢ مدرسة اسلامية عامرة كانت في التركستان (٢٧) .

مراجع الفصل الثاني عشر

مسلمو الاتحاد السوفيتي

(١) د٠ محمد على البار : المسلمون فى الاتحاد السوفيتى ، جـ ١ ، دار الشروق ، جدة ، ص ٣٥

(٢) معجم البلدان : طبعة دار صادر ، بيروت ، المجلد الخامس ، ص ٤٥

(٣) د٠ السعيد رزق حجاج : الاستعمار الأوروبى ، مرجع سابق ، ص ٢٦٥

(٤) محيى الدين القضمانى : حاضر العالم الاسلامى ، من مطبوعات الجامعة الاسلامية بالمدينة المنورة ، ص ٨٣

(٥) المرجع السابق ، ص ٨٤

(٦) الشيخ محمد الغزالى : الاسلام فى مواجهة الزحف الأحمر ص ١٠٩

(٧) طه الولى : صفحات من تاريخ الاسلام والمسلمين فى بلاد السوفيات ، بيروت ١٩٨٠ ، ص ٩٢ ٠

(٨) المرجع السابق ، ص ٩٥

(١٠) د٠ محمد على البار ، مرجع سابق ، جـ ١ ص ٩٨

(١١) د٠ عبد الحميد البطريق ، التيارات السياسية ، مرجع سابق ، ص ١٣٢

(١٢) المرجع السابق ، ص ١٣٢ ، د٠ على حسون : العثمانيون والروس ، ص ١٦٧ ، د٠ على البار ، جـ ١ ، مرجع سابق ، ص ٥٦

(١٣) مذكرات هند نيورج : ترجمة منصفان ، ١٦٢١ القاهرة ، ص ١١١

(١٤) د٠ عبد الحميد البطريق ، مرجع سابق ، ص ١٤٣ ، باول‌شمتز مرجع سابق ص ٢١٨ ـ ٢٢١ ٠

(١٥) عبد نورج : مرجع سابق ، ص ١١٢ ، د٠ عبد الحميد البطريق ، مرجع سابق ، ١٦٩

(١٦) د٠ علي حسون : مرجع سابق ، ص ١٦٧ ـ ١٦٨

(١٧) د٠ السعيد رزق ، مرجع سابق ص ٢٧٨

(١٨) د٠ محمد على البار ، مرجع سابق ، ص ٥٧

(١٩) د٠ علي حسون : مرجع سابق ، ص ١٦٨

(٢٠) المرجع السابق ، ص ١٧٩

(٢١) طه الولي : مرجع سابق ، ص ١١١

(٢٢) المرجع السابق ، ص ١١٢

(٢٣) د٠ السعيد رزق حجاج : الاستعمار ، مرجع سابق ص ٢٦٨ ـ ٢٦٩

(٢٤) انخفض عدد سكان القرم من خمسة ملايين تتارى قرمى مسلم الى أقل من مليون عام ١٣٥٩هـ (١٩٤٠م) ثم قام ستالين عام ١٣٦٤هـ (١٩٤٥م) بقتل وطرد جميع من بقى من سكان القرم المسلمين ٠ ولأول مرة فى التاريخ يباد شعب بأكمله ويطرد كليا من وطنه حتى أنه لا يوجد فى القرم تتارى مسلم واحد ٠

(٢٥) شكيب ارسلان : حاضر العالم الاسلامى م ١ جـ ٢ ، ص ٢٨٦ ـ ٢٨٨ ٠

(٢٦) د٠ محمد على البار ، جـ ١ ، ص ٣٣٣ ٠

(٢٧) د٠ السعيد رزق حجاج ، مرجع سابق ، ص ٢٨٢ ٠

الفصل الثالث عشر

العالم الاسلامى

بعد الحرب العالمية الأولى

تمخضت الحرب العالمية الأولى عن آثار لم تكن فى ذاتها وليدة الآلام التى خلفتها الحرب أو المحنة التى مر بها العالم خلال أربع سنوات وانما ترجع فى أصولها الى تلك القوى التى لعبت دورها على المسرح العالمى قبل نشوب الحرب وكانت أهم أسبابها فالتسابق فى سبيل التسلط ، وتنازع مجموعة الدول الغربية الكبرى فى حصول كل دولة من دولها على أدسم قطعة فى الفريسة الصريعة وهى بلدان الشرق الأدنى والشرق الأوسط والأقصى وشعوبها ، وما بين الشعوب الغربية من حزازات وأحقاد أوغرت الصدور وأذكت النيران للأخذ بالثأر ، كما كان اصطدام المصالح والمطامع الصقلية بالجرمانية وتنافس النمسا مع روسيا فى البلقان وتدخلها المستمر فى شؤون الدولة العثمانية وبتر أعضائها العضو تلو الآخر ، وكانت أفكار الوطنية المتطرفة المضطربة والروح العدائية ضد العثمانيين فى شرق أوربا تعلى وتدفع بشعوبها الى الحروب باستمرار ٠

وقد ظل الناس يتحدثون عن الحرب قبيل قيامها بسنوات ، وكما يقول المؤرخ الفرنسى سيجنويوس « أصبحت شكوك الشعوب كبيرة الى حد أن كل شعب يرفض ويستبعد كل اعتقاد فى اخلاص جاره ويحمل تصريحاته عن السلام على أنها مناورات لتخدير أعصابه قبل مفاجأته بالهجوم عليه ٠

وقد كشفت أحداث الحرب أن ما خلقته من جروح بليغة تتطلب جهودا جبارة وعزائم صادقة لتضميدها كما أثبتت أن فن الحرب وحده ومضى السلاح ووفرته وشدة البأس والعزيمة لا تكفى فى الحروب الحديثة فظهرت فى قلب هذه الامبراطوريات لا سيما فى ألمانيا والنمسا وتركيا

أزمات حرمان قاسية وجوع قارص نتيجة سنى الحرب الطويلة العجاف واشتداد الحصار وعدم كفاية الموارد والاقوات وبعد الحرب اثقلت الأزمة الاقتصادية كاهل الحكومات والأفراد بنفقاتها الطائلة وحملت المتحاربين وأعقابهم ديونا ثقيلة تنوء الرأسمالية الصناعية على ضخامتها ووفرة احتياطيها بحملها(١) ٠

واذا كان مؤتمر الصلح قد عقد فى باريس مع بدايات عام ١٩١٩ ليواجه هذه المشاكل التى خلقتها الحرب والتى تنبع - كما ذكرنا - فى أصولها من ذلك الماضى البعيد الذى سبق قيامها وقد مثلت فى المؤتمر أغلب شعوب العالم تمثيلا لم يسبق له مثيل فى أى مؤتمر آخر عقد من قبل وان لم يكن فى حقيقته الا مجمعا للدول المنتصرة فان الدول المغلوبة لم تمثل فيه الا حينما دعيت لتسمع الحكم عليها ، ولم تشترك فيه الدول المحايدة وأقصيت عنه روسيا بعد أن خرجت من الحرب بسبب الانقلاب الشيوعى الذى لم يكن موضع رضاء الدول الغربية الغالبة وقد مثل فى المؤتمر كثير من الدول التى لمست رجحان كفة الحلفاء فى آخريات الحرب فأعلنت الوقوف الى جانبهم فقضى المؤتمر بمحتلين للصين وسيام وجمهوريات أمريكا الوسطى والجنوبية وللشعوب التى ثارت على العثمانيين كالعرب ولشعوب امبراطورية النمسا والمجر وألمانيا كبولندا وتشيكوسلوفاكيا ويوغسلافيا ودول البلطيق(٢) وللصهيونيين الذين وعدوا بوطن قومى فى فلسطين ٠

وعلى الرغم من هذا التجمع الكبير فان السلطة العليا كانت فى يد الدول الخمس الكبرى انجلترا وفرنسا والولايات المتحدة وايطاليا واليابان ٠

ولم تلبث اليابان أن انسحبت من المؤتمر لأن مسائل القارة الأوربية لا تعنيها كما أن مندوب ايطاليا لم يجد من عناية شركائه ما يشجعه على اظهار شخصيته فى المؤتمر أو أن يكون له رأى فى اتجاهاته وبذلك أصبحت الكلمة العليا فى سياسة العالم لممثلى الدول الثلاثة الأول وهم جورج كليمنصو (فرنسا) وكانت له رئاسة المؤتمر ، ولويد جورج (انجلترا) والرئيس الأمريكى ودور ويلسون وغلبت على هذا الأخير روحه الفلسفية فأتيح لزميله الآخرين أن يسوسا مصير العالم على هواهما(٣) .

وطغت على اتجاهات روح الانتقام التى كانت تتأجج فى صدور كليمنصو ولويد جورج وكانت المعاهدات التى فرض فيها حل المشكلات الناجمة عن الحرب ولكنها أظهرت بجلاء تصميم هذه الدول على تحقق مصالحها والانتقام من ألمانيا وتركيا وصياغة خريطة العالم صياغة جديدة تحقق لهما مزيدا من السيطرة والتوسع .

وحسبنا أن نلقى نظرة على نتائج الحرب فى العالمين العربى والاسلامى وكما أشرنا فى المقدمة الى أنه لم يبلغ أثر الحرب ونتائجها فى أى جزء من أجزاء العالم ولا فى أوربا نفسها ما بلغه فى العالم الاسلامى وهذه حقيقة لا سيما وقد كان العالم يعتقد بعد الحرب نه قد أصبح للمواثيق والعهود حرمة وقدسية خاصة تلتزم بها الحكومات والجماعات وخاصة بعد أن أعلن الحلفاء قبل نهاية الحرب مبادئهم الجديدة التى كانت تهدف الى احترام المواثيق واقرار حق الشعوب فى تقرير مصائرها ، والقضاء على الفكرة التى كانت تقول ان القوة فوق الحق فاذا بهم يشهدون بعد الحرب تبخر هذه المبادىء رويدا رويدا وطغيان مصالح الدول على حقوق الشعوب وتحرر الحكومات من وعودها التى قطعتها على نفسها فى أثناء الحرب تماما كما أوصى به « مكيا فيللى » أمرة قبل ذلك بأكثر من أربعمائة عام(٤) .

وليس فى التاريخ الحديث أمة خانها الحلفاء بعد الحرب العالمية الأولى وتنكروا لمواثيقهم معها كالعرب . فقد نقض الحلفاء عهودهم لها وأخلوا بكل ميثاق أبرموه حتى استحال العرب بعد الحرب الى شعوب ودول مشتتة أو مقطعة الأوصال يتسلط عليها الأجنبى ويتحكم فيها كيفما يشاء . وقد كان العرب قبل الحرب على الأقل يعيشون فى ظلال شبه وحدة دينية ادارية ، وان كانوا قد عانوا من حكمهم لا سيما فى عصر الاتحاديين الشىء الكثير .

أما بعد الحرب فقد تحرر العرب حقا من الحكم العثمانى وزالت عنهم السيادة والتبعية التركية ولكنهم ما لبثوا أن وقعوا تحت ما عرف بالحمايات والانتدابات الأجنبية وكأنما العرب قد خاضوا معارك الحرب الى جانب الحلفاء وضحوا بالآلاف من أبنائهم لا لينعموا بالاستقلال الذى وعدوا به بعد الحرب ولكن ليستبدلوا بحكم العثمانيين حكما أجنبيا اشد وأقسى(٥) .

العرب فى مؤتمر الصلح :

على الرغم من افتضاح أمر الاتفاقات السرية التى عقدها الحلفاء أثناء الحرب ومكروا فيها بالعرب الا أن الشريف حسين كان ما يزال يطمع فى تحقيق ما وعد به وذلك من خلال مؤتمر الصلح فأرسل ابنه فيصل الذى قوبل فى لندن بموجة من التكريم والمجاملة غلبت عليها روح النفاق والتمويه ، ثم أخذت خفايا الأمور تتكشف للأمير شيئا فشيئا ورأى اصرار فرنسا على عدم الاعتراف بحكومته فى سوريا أو بتمثيل حكومة الحجاز فى مؤتمر الصلح . كما وجد نفسه حيال حملة منظمة شنها عليه الصهيونيون وعلى أبيه لموقفهما من وعد بلفور(٦) .

وأخذ شعور فيصل بالمرارة وخيبة الأمل يتضاعف كلما وجد نفسه هدفا لحملات قاسية سواء من الحكومة الفرنسية أو دعاة الصهيونية وأنصارها وتقاعس بريطانيا عن مساندته .

ومن المعروف أن بريطانيا لم يكن لها من هم الا حمل العرب على قبول فكرة الوطن القومى لليهود فى فلسطين وكانت محاولاتها لحمل فيصل على تأييد أمانى الصهيونية من الالحاح الى حد أن لجأت الى لورنس (صديق فيصل) عساه يكون أقدر على اقناعه بقبول الفكرة الصهيونية والاعتراف رسميا باسم العرب الذين يمثلهم بالوطن القومى ·

فيصل ولورنس :

ولورنس هذا ليس الا بهلوانا احترف التمثيل والخداع وكان من أعمدة الاستعمار البريطانى فى المنطقة العربية بدأ يهتم بالعرب هو بعد طالب صغير فى جامعة اكسفورد ، تلميذا لمستشرقين اسمعوه عن العرب أخبارا تناقض حياتهم المعاصرة ، حيث البداوة والتخلف والفقر والفوضى والاستعباد ، عن تاريخهم القديم لما كانوا أسياد نصف العالم المعروف آنذاك وبناة حضارة من كبريات الحضارات البشرية(٧) ·

قام لورنس بعد رحلات الى بلاد العرب تعرف من خلالها على حياتهم وتكلم لغتهم ومارس عاداتهم وتزيا بأزيائهم وقد اشترك مع غيره من البريطانيين فى اقناع الشريف حسين بالانضمام الى الحلفاء واعترف بعد ذلك فى مذكراته أنه كان يعرف أن بلاده لن تنفذ وعودها للعرب بعد الحرب وأنه اشترك فى خداع العرب ويبرر ذلك بعدم ايمانه بحق العرب فى تأسيس دولة مستقلة لأنهم (من وجهة نظره) قوما متخلفين بحاجة مستمرة لحماية بريطانية ·

ولم يؤمن بحق العرب فى الاتحاد لأنهم مجموعة شعوب متناقضة لتفاوت مستويات المعيشة والثقافة والمدنية من اقليم وآخر ، كما عرف عن لورنس تأييده الكامل للأطماع الصهيونية فى فلسطين وقد صرح لرجال الصحافة فى أواخر نوفمبر ١٩١٩ وكانت قضية فلسطين بدأت تشغل المحافل الدولية : « انى أؤيد الصهيونية · انى اعتبر اليهود النقلة

الطبيعية للخميرة الغربية الضرورية جدا لدول الشرق الأدنى » ٠

عمل لورنس : وهو يحمل هذه الأفكار مستشارا رئيسيا لفيصل منذ أن خاض غمار الثورة الحسينية الى أن حملته سفينة بريطانية الى العراق ليجلس على عرشه ، فكان يحضر اجتماعات فيصل الرسمية والخاصة ويكتب رسائله ومذكراته ويعد له اتفاقاته ويترجم له فى مقابلاته ٠

وقد أثبتت الأحداث التى وقعت بعد الحرب العالمية الأولى أن ما جرى للعرب كان من صميم ما طالب لورنس به وما عمل له ٠ وكانت الاجراءات التى فرضت على العرب شبيهة جدا بمشاريع لورنس ومخططاته(٨) ٠

العرب وقرارات سان ريمو ١٩٢٠ :

اجتمع هذا المؤتمر فى ٢٥ ابريل ١٩٢٠ وأصدر قرارات الانتداب على البلاد العربية وهى صورة لاتفاق سابق عقد بين لويد جورج وكليمنصو ولا تختلف عنه الا فى وضع المنطقة الشرقية من سوريا التى تشمل دمشق وحمص وحماه وحلب والتى كانت تحت سيطرة الحكومة الفيصلية تحت الانتداب الفرنسى ٠

وأعلنت قرارات مؤتمر سان ريمو فى ٥ مايو ١٩٢٠ وتأكد للعرب ان الانتداب البريطانى قد أصبح حقيقة مقررة على العراق وفلسطين ، كما تقرر الانتداب الفرنسى على سوريا التى قسمت الى سوريا ولبنان(٩)

وقد ثار اعلان الانتداب على البلاد العربية فى الشام والعراق موجة من البغض والموجدة فى العالم العربى ضد الدول الكبرى ، كما ولدت شعورا جديدا كان مداره البغضاء الشديدة لقوى الغرب ولم يكن سببه انكار حق العرب فى الوحدة والاستقلال بقدر ما كان سببه نكران الوفاء

ونكث العهـود ممـا جعلهم ينتقلون من خيبة الأمل الى اليأس الذى كان سببا فى الثورات التى أعقبت ذلك . ولم تكن قرارات سان ريمو فى نظر العرب خيانة لهم فحسب بل نكثا لعهد سطرته الدماء فانطوت كراهيتهم لها على موجة من الاحتقار المرير .

ومن المؤكد أن قرارات سان ريمو قضت على أمل العرب فى مؤتمر الصلح وفى الوصول الى تسوية مع بريطانيا وفرنسـا ويلاحظ أن هذه الانتدابات التى كانت البدعة الاستعمارية الحديثة التى ابتدعت لتنسق نظريا مع ما كانت دول الحلفاء تشيد به كذبا وتضليلا من مبادىء الحرية وتقرير المصير والتجرد عن المطامع الاستعمارية ومع ما سارعت فرنسا وانجلترا الى توكيده عقب هزيمة العثمانيين وجلائهم عن بلاد الشام فى بيان أذاعتاه بتاريخ ٨ نوفمبر من سنة ١٩١٨ فى طول البلاد وعرضـها وقد جاء فيه(١٠) .

« ان المقصد السامى الذى دعا فرنسا وبريطانيا العظمى الى أن تمتشقا الحسام وتثيرا حربا عوانا فى الشرق هورغبتهمافىتحرير شعوبهمن ظلم الترك واستعبادهم وخلاصهم من عسف الألمـان ومطامعهم وميلها الى تأليف حكومات وطنيـة حرة تنتخب حسب رغائب الأمة وتسـتمد منها سلطتها . ولتأييد هذه المقاصد وابرازها الى عالم الوجود اتفقت فرنسـا وبريطانيا العظمى على أن تساعد الأهلين على تأليف هـذه الحكومات فى الشـام والعراق وجميع البلاد التى حررها الحلفـاء وأن تعترفا بها حين تأليفها ، وأن لا تتدخلا فى شؤونها ولا تسـتالها الأنظمة والقوانين وأن لا يكون لهما غاية سوى مساعدتها والمحافظة عليها لتتأكد من أنها تسلك بأعمالها مسلكا حسنا فتضمن العدالة والمساواة بين جميع السكان بغض النظر عن جنسيتهم وتحلهم وعند الحاجة تساعدانها بالمشاريع الاقتصادية والعمـرانية التى من شأنها ترقية البلاد والسـير بها الى مسـتوى الأمم الراقية ولا تسهيان عن نشر لواء العلم وترقية التربية بصورة واسعة .

هذه هى الخطة التى ستسير عليها الحكومتان المتحالفتان فى الأقطار المتحررة »(١١) .

وهكذا غدت بريطانيا فى أثناء الحرب العالمية الأولى وعقبها ونتيجة لها ، صاحبة الشأن والقبضة فى بلاد العراق وفلسطين وشرق الأردن . وكادت حلقتها الاستعمارية تكمل حول معظم أجزاء الوطن العربى المشرقية حيث كانت قبل ذلك صاحبة الشأن والسيطرة فى مصر والسودان وسواحل البحر الأحمر ، وأطراف الجزيرة العربية وسواحلها الجنوبية والشرقية وخليج العقبة .

ولقد أخذت منذئذ تسجل فى العراق والأردن وفلسطين فصولا استعمارية سوداء ما تزال آثارها ممتدة الى الآن وبخاصة فى فلسطين(١٢) .

الانتداب البريطانى على فلسطين :

الانتداب هو استعمار مقنع فرضته الدول التى انتصرت فى الحرب العالمية الأولى وطبقته على الأقاليم التى زالت عنها سلطة العدو المنهزم ، وجعلت نظام الانتداب جزءا لا ينفصل من نظام عصبة الأمم وهى الهيئة الدولية التى انشئت للعمل على منع الحروب وتنظيم العلاقات بين الشعوب طبقا لمبادىء العدالة والتعاون ونصت المادة الثانية والعشرون من ميثاق العصبة على معنى الانتداب وأهدافه وأنواعه وطريقة تطبيقه .

ومما هو جدير بالذكر أن الصهيونيين هم الذين سعوا لدى الحلفاء كى تكون بريطانيا هى الدولة المنتدبة على فلسطين نظرا للارتباط الوثيق بين بريطانيا والصهيونية والقائم على المصالح المشتركة بينهما ، كما أن بريطانيا هى الدولة التى أصدرت تصريح بلفور ، وهى القوة الأجنبية الرئيسة وقتذاك فى منطقة الشرق العربى والتى تستطيع أن تحول

التصريح الى حقيقة مجسدة بانشاء وطن قومى لليهود فى فلسطين ويكون هذا الوطن المرتجى ركيزة لبريطانيا فى المنطقة العربية .

وقد بادرت بريطانيا الى تبليغ الأمير فيصل بهذه القرارات التى صدرت تباعا ، وجاءت صياغة هذا التبليغ آية فى الخبث والتغرير والتلاعب بالألفاظ فقد جاء فيه بخصوص فلسطين « وبخصوص فلسطين فقد كنتم دائما على علم بأن حكومة جلالته ارتبطت بانشاء وطن قومى لليهود فى فلسطين وهو هدف ارتضته الادارة وترى الحكومة البريطانية نفسها مقيدة بالتزام ستؤكده نصوص الانتداب يهدف الى المحافظة بأتم طريقة على مصالح السكان الوطنيين (أى أهل البلد) فى فلسطين »(٣)

وقد سارعت الحكومة البريطانية الى تنفيذ قرار انتدابها على فلسطين وكشفت القناع عن وجهها القبيح أمام شعوب العالم الاسلامى ، ففى التاسع والعشرين من ابريل ١٩٢٠ وجه الحاكم العام للمنطقة الجنوبية من أراضى العدو المحتلة - وهو الاسم الذى أطلقته بريطانيا على فلسطين منذ احتلالها - الدعوة الى رؤساء الطوائف وأعيان البلاد الى اجتماع عقد فى داره وتلا عليهم البيان الآتى : (١٤)

« قرر المجلس انتداب دولة لفلسطين ، وأن يدمج عهد بالفور بانشاء وطن قومى لليهود فى معاهدة الصلح مع تركيا . وقد عرض هذا الانتداب على بريطانيا فقبلته وهى تحكم البلاد لخير سكانها وأتلو عليكم وعد بالفور وأخول لكم ان ادماجه فى صك الانتداب يعنى عدم التعرض للعادات الدينية والأماكن المقدسة وعدم تقييد شىء من الحرية الدينية بشرط المحافظة على النظام والأمن العام ، ويسمح للمهاجرين بدخول البلاد على قدر حاجتها الى النمو والارتقاء ، وتسيطر حكومة بريطانيا على المهاجرة ولايخرج أصحاب الأملاك الحاليون من أملاكهم ولا تنزع منهم ولا تمنح امتيازات اقتصادية لأفراد أو جماعات اذا كان فى منحها ضرر لغيرهم . فالحكم سيكون للحكومة البريطانية ولايسمح بحال من الأحوال لأقلية أن

تسيطر على الأكثرية من السكان ، ومتى حان الوقت لانشاء شكل من الأشكال الحكم النيابى ففى هذه الحالة تعقد الآمال العظيمة على زيادة اليسر لجميع سكان البلاد ٠٠ وقد صدر هذا القرار بعد طول انتظار ، فيجب انهاء الخلافات السياسية والاضطرابات وعلى جميع الفلسطينيين الحقيقيين أن يتباروا لخدمة فلسطين وخير الأجيال المقبلة » (١٥) ٠

وكان لهذا القرار وقع سيء للغاية فى نفوس الفلسطينيين بوجه خاص ٠ والمسلمين بوجه عام حيث أدركوا الخديعة الكبرى التى أوقعتها بريطانيا بالعرب وأنها مصممة على تسليم فلسطين لليهود ، وتعددت اجتماعات العرب المسلمين والنصارى وتوالت احتجاجاتهم على قرار المجلس الأعلى بفرض الانتداب خلافا للعهود المقطوعة للعرب ، ويكفى الاشارة الى البرقية التى أرسلتها الجمعية الاسلامية المسيحية بالقدس الى سكرتارية المجلس الأعلى للحلفاء وقد جاء فيها : (١٦)

« نحن أعضاء الجمعية الاسلامية ـ المسيحية الممثلة لجميع أهالى لواء القدس نحتج على القرار الصادر من مؤتمركم بخصوص مستقبل فلسطين ونرفضه رفضا باتا لما فيه من الاجحاف بحقوقنا المقدسة ، ونعلن أننا لا نتخلى عن مطالبنا المنحصرة فى استقلال سوريا المتحدة من طوروس الى رفح ورفض الهجرة الصهيونية رفضا باتا وعدم فصل فلسطين عن سوريا للأسباب الآتية :

١ ـ لاننا لم نقاتل الترك الذين تجمعنا واياهم الرابطة الشرقية ونحارب بجانب الحلفاء لنعطى بلادنا هدية لأناس أجانب عنها وليس لهم حق من حقوق التملك فيها بل لننال حقنا من الاستقلال فى الحياة ٠

٢ ـ لأن فصل فلسطين عن سوريا يضر بمصالح البلاد الاقتصادية والعمرانية وبمصالح الوطنين القومية والمحلية ٠

٣ - لعدم كفاية أراضى البلاد لأهلها الوطنيين الذين هم فى ازدياد مستمر لاسيما وفى النية الاهتمام بأمر اسكان وتحضير القبائل البدوية القاطنة فيها .

٤ - لأن الهجرة ستزيد النفوس وتسبب المجاعات وتؤهل البلاد لحالة الشغب والثورة الدائمين .

٥ - لو لم يكن دخول الأجنبى مضرا بمصالح البلاد الاقتصادية والأدبية لما منعت أرقى دول العالم وأشدها اقتدار كدولتى بريطانيا وأمريكا دخول الأجنبى الى بلادهما ، فكيف بفلسطين المنهوكة القوى من الحرب الطاحنة فانها لاتتحمل هجرة أشد الشعوب طمعا وأكثرها أنانية.

فلذلك نطلب من المجلس أن ينظر الى مطالبنا بعين الانصاف ويؤيد هذا الحق الطبيعى الذى لا حياة للبلاد الا به ، ونلقى تبعة كل ما يحدث فى البلاد مستقبلا على عاتق المؤتمر والسلام » (١٧) .

صك الانتداب :

وضعت بريطانيا صك الانتداب على فلسطين وعرضته على مجلس عصبة الأمم فأقره فى ٢٤ من يوليو ١٩٢٢ وهو يكاد يكون صورة عن المشروع الذى كانت المنظمة الصهيونية قد عرضته على مؤتمر الصلح فى فبراير ١٩١٩

وقد جاء فى مذكرات « وايزمان » أن اليهودى الأمريكى بنيامين كوهين كان يتولى مع سكرتير اللورد كرزون وزير الخارجية البريطانية وضع صك الانتداب والاتفاق على نصوصه .

وصك الانتداب هذا يقع فى ٢٨ مادة ، وقد جاء فى بعض هذه المواد:

١ - للدولة المنتدبة السلطة التامة فى الاشتراك والادارة الا فيما قيدها به هذا الصك ٠

٢ - تكون الدولة المنتدبة مسئولة عن وضـــع البلاد فى أحوال سياسية وادارية واقتصادية تضمن انشاء الوطن القومى اليهودى ، كما جاء فى ديباجة هذا الصك ، وعن ترقية مؤسسات الحكم الذاتى ، وتكون مسئولة أيضا عن صياغة الحقوق المدنية والدينية لجميع سكان فلسطين بقطع النظر عن الجنس والدين ٠

٣ - يعترف بوكالة يهودية صالحة كهيئة عمومية لاســـداء المشورة والمعونة فى ادارة فلسطين فى الشئون الاقتصادية والاجتماعية وغير ذلك من الأمور التى قد تؤثر فى انشاء الوطن القومى اليهودى ومصالح السكان اليهود فى فلسطين ولتساعد وتشترك فى ترقية البلاد على أن يكون ذلك خاضعا دائما لمراقبة الادارة ويعترف بالجمعية الصهيونية كوكالة ملائمه مادامت الدولة المنتدبة ترى أن تأليفها ودستورها يجعلانها صـــالحة ، وعليها أن تتخذ ما يلزم من التدابير بعـد استشـارة حكومة جـلالته البريطانية للحصول على معونة جميع اليهود الذين يبغون المساعدة فى انشاء الوطن القومى اليهودى ٠

٦ - على ادارة فلسطين ، مع ضمان عدم الحاق الضرر بحقوق ووضع جميع فئات الأهالى الأخرى ، أن تسهل هجرة اليهود فى أحوال ملائمة وأن تشجع بالتعاون مع الوكالة اليهودية المشار اليها فى المادة الرابعة حشـد اليهود فى الأراضى بما فيهـا أراضى الحكومة والأراضى الموات غير المطلوبة للمقاصد العامة ٠

٧ - على ادارة فلسطين أن تتولى مسئولية سن قانون للجنسـية ويجب أن يشتمل ذلك القانون على نصوص من شأنها أن تسهل لليهود

الذين يتخذون فلسطين مقاما دائما لهم اكتساب الجنسية الفلسطينية .

١٣ - تنص على تبعة الدولة المنتدبة فى المحافظة على الحقوق الموجودة بالنسبة الى الأماكن المقدسة والمواقع الدينية فى فلسطين وضمان الوصول اليها وحرية العبادة فيها مع مسئووليتها أمام عصبة الأمم عن ذلك كله .

١٤ - تؤلف الدولة المنتدبة لجنة خاصة لدرس تحديد وتقرير الحقوق والدعاوى المتعلقة بالأماكن المقدسة ، وتعرض طريقة اختيار هذه اللجنة وقوامها ووظائفها على مجلس عصبة الأمم لاقرارها ولا تعين اللجنة ولاتقوم بوظائفها من غير موافقة المجلس المذكور .

٢ - يجب أن تكون الانكليزية والعربية والعبرية لغات فلسطين الرسمية ، وكل كلام أو نقش بالعربية على طوابع أو دمغة أو عملة فى فلسطين يجب أن يكرر بالعبرية وكل كلام أو نقش بالعبرية يجب أن يكرر بالعربية .

٢٥ - يحق للدولة المنتدبة بموافقة مجلس عصبة الأمم أن تؤجل أو تمتنع عن تطبيق ما قد تعتبره من شروط هذا الانتداب غير قابل للتطبيق على الأحوال المحلية القائمة فى البلاد الواقعة بين نهر الاردن والحد الشرقى لفلسطين ، ولها أن تتخذ من التدابير لادارة تلك الأقطار ما قد تعتبره ملائما لتلك الأحوال (١٨) .

وصك الانتداب بصورته هذه يدل على أنه اعتداء بشع على حقوق العرب فالسلطة التشريعية والادارية بناء على المادة الأولى بيد الدولة المنتدبة وهذا يعنى أن تحكم البلاد حكما مباشرا على يد بريطانيا على الرغم من أن الفقرة الرابعة من المادة ٢٢ من صك العصبة اعتبرت البلاد مستقلة مبدئيا وجعلت مهمة الدولة المنتدبة مقصورة على اسداء النصح والمشورة، فأين الاستقلال من هذا الوضع الذى أعلنته بريطانيا .

وأما المادة الثانية فانها تجعل الانتداب البريطانى كله أداة مسخرة لتهويد فلسطين وتعبئة كل سلطة وجهد حكومى لمصلحة الصهيونية وهى تحرم العرب حتى حقهم الذى كانوا يمارسونه فى العهد العثمانى بمقتضى الدستور العثمانى من تمثيل فى البرلمان ومجال الادارة الى اشتراك فعلى فى الادارة ٠

وأما المادة الرابعة فقد سوغت اقامة وكالة يهودية تقف الى جانب الحكومة لتنفيذ الفكرة الصهيونية واعترفت بالجمعية الصهيونية وكالة ملائمة لهذا الغرض ٠

وأما المادة السادسة فتهدف الى تسهيل هجرة اليهود الى فلسطين٠

وأما المادة السابعة فتحتم تسهيل حصولهم على الجنسية الفلسطينية

وأما المادة الثانية والعشرين فتجعل من لغتهم وهم الأقلية الضئيلة لغة رسمية فى البلاد ٠

وخلاصة القول : ان وعد بلفور وصك الانتداب همـــا اعتداء على حقوق العرب الطبيعية فى بلادهم التى استقروا بها قرونا طويلة ، وهما كذلك اعتداء على حقوقهم السياسية التى نشأت عن زوال السيادة التركية وعن جهودهم وتضحياتهم التى بذلوها فى ازالتها وهما كذلك اعتداء على الحقوق العربية التى تعهدت بريطانيا فى اتفاقات وبيانات ومراســلات معهم برعايتها ، وبما أن العدوان لا يرد الا بالدفاع والمقاومة فان تاريخ فلسطين بعد الحرب العالمية الأولى وحتى اليوم هو تاريخ نضال مستمر وكفاح دام موصول (١٩) ٠

موقف العرب من تطورات الأحداث فى فلسطين :

منذ أعلنت الحكومة البريطانية عزمها على قبول الانتداب على فلسطين وتصميمها على تنفيذ وعد بالفور هب الفلسطينيون يستنكرون هذا العمل

ويحتجون عليه ، وتألفت فى مدن فلسطين جمعيات باسم « الجمعيات الاسلامية المسيحية » دلالة على تضامن الشعب الفلسطينى فى مناهضته لتلك السياسة كما نشبت فى القدس مظاهرات عنيفة فى الفترة من ٤ - ٨ ابريل ١٩٢٠ وتطورت الى هجوم العرب على اليهود والاصطدام بهم وبالبوليس البريطانى ووقوع عدة قتلى وجرحى بين اليهود والعرب .

وبعد تعيين السير هربرت صموئيل (وهو صهيونى متعصب) أول مندوب سام لفلسطين وشروعه فى وضع البلاد فى حالات سياسية واقتصادية وادارية تؤدى الى قيام الوطن القومى اليهودى ، فعين بنتويس نائبا عاما وهو أحد غلاة الصهيونية ، وترك له اعداد القوانين والأنظمة وكذلك جعل مدير التجارة العام ومدير المهاجرة والسفر يهوديين واقيم على رأس كل دائرة موظف يهودى أو بريطانى ، وكذلك حكام المقاطعات ، وترك لليهود استقلال كامل بادارة معارفهم ومدارسهم فتشرف عليها وتديرها اللجنة التنفيذية الصهيونية على حين جعلت المعارف العربية بيد بريطانى ومساعدين من بنى جلدته ادارة واشرافا وتوجيها (٢٠) .

وكتبت على الطوابع والنقود « أرض اسرائيل » بالعبرية ترجمة لكلمة « فلسطين » بالعربية ، وفى عهد صموئيل هذا بدأت عمليات انتقال الأراضى من أيدى العرب الى أيدى اليهود وأقطعوا أكثر اراضى الدولة كأراضى الكبارة وعتليت وتلال قيسارية حتى بلغ فيما بعد ماأعطت الحكومة البريطانية لليهود من أملاك الدولة (١٧٥) ألف دونم ، وأقفلت المصرف الزراعى وحجزت أراضى الفلاحين ومواشيهم تسديدا للقروض ورفعت الضرائب فأخذ البعض يعرضون أراضيهم للبيع لدفع تلك الضرائب أو للتخلص من الديون أو لسد الرمق .

وفتحت أبواب الهجرة لليهود ومنحوا عدة آلاف من شهادات الهجره

وفى سبتمبر ١٩٢١ منحت حكومة صموئيل روتمبرج اليهودى

امتيازا لتوليد الكهرباء مدته سبعون عاما وذلك بالاستفادة من نهر الأردن وحوضه وروافده ونهر اليرموك وجميع توابعه ، ورخصت له أن يستعمل بحيرة طبرية خزانا للمياه وأن يبنى ما يشاء من المحطات والمعامل .

وسنت قوانين لحماية الصناعات اليهودية وقررت اعفاء ما نستورد من مواد وآلات من الرسوم الجمركية .

وخشى العرب - بعد أن رأوا بلادهم تسير الى حافة الهاوية على يد سلطات الانتداب البريطانى - وساد القلق بينهم حتى اندلعت فى يافا ثورة جديدة فى مارس ١٩٢١ دامت ١٥ يوما انقض فيها العرب على مركز الهجرة الصهيونى حيث قتل عدد من اليهود ، ثم هجم الثوار على بعض المستعمرات اليهودية بين يافا وقولكرم ، وكانت القوات البريطانية والبوليس فى جانب اليهود ، فأسفرت المعارك عن مقتل نحو خمسين يهوديا وجرح نحو ١٥٠ يهودى ، وأما العرب فقد قتل منهم نحو خمسين وجرح نحو ٧٥ ، معظمهم بيد القوات العسكرية البريطانية ، فضلا عن غرامات باهظة فرضتها السلطات على العرب ، وقد سارت فى أثناء هذه الاضطرابات ، التظاهرات ، وانتشرت الاضطرابات فى سائر بلاد فلسطين فقد هاجم العرب مستعمرات الخضيرة اليهودية وكفر سابا وبتاح تكفا وغيرها ، وحدث التحام بين القوات البريطانية والعرب المسلحين حول مستعمرة بتاح تكفا يوم ٥ مايو اشترك فيه الفرسان والسيارات المصفحة وترتب عليه مقتل كثير من العرب ، واضطرت السلطة الى استعمال طائرة عسكرية لتفريق الجموع الثائرة(٢١) .

وهاجم العرب مستعمرة أخرى هى مستعمرة رحبوت قبيل انتهاء المسلمين من الاحتفال بعيد النبى صالح بالرملة (٦ مايو) فقبيل انتهاء الاحتفال شوهد عدد من الرجال يسيرون ناحية مستعمرة رحبوت التى تبعد أربعة أميال عن الرملة ، وكان قد أشيع حينئذ أن يهود رحبوت هاجموا قرية مجاورة ، وسمع صراخ الجماهير الفلسطينية « فليسقط

اليهود » وأمكن وقف هذا الهجوم بعد زيادة الاستعدادات العسكرية ، لكن يهود المستعمرة بعد قيام السلطة بحمايتهم - اطلقوا النار على العرب فقتلوا ثلاثة منهم واعتقل سبعة عشر عربيا لاشتراكهم فى الهجوم على المستعمرة وكان أهم نتائج تلك الاضطرابات مايلى :

أولا : اتخذ السير هربرت صموئيل قرارا بايقاف الهجرة اليهودية التى كان بدأها فى أغسطس ١٩٢٠ ، وقد ارتفع الصياح فى صفوف الصهاينة بأن المندوب السامى قد استسلم لقانون الغوغاء وانهم فقدوا الثقة به (٢٢) .

ثانيا : تقرر على اثر الاضطرابات توزيع الذخيرة على المستعمرات اليهودية النائية على أن يحتفظ بها فى مكان خاص تحت عهدة رئيس المستعمرة أو أحد ذوى المقام فيها ، ويكون هو مسئولا أمام الحكومة فيما لو استعملت تلك الذخيرة بطريقة غير مشروعة وكان من المقرر أن تسحب تلك الأسلحة على مدار عدة سنوات غير أن ذلك لم يتم ، فقد ورد فى تقرير لجنة شو التى قامت بالتحقيق فى اضطرابات ١٩٢٩ أن مستودعات السلاح كانت لاتزال موجودة فى عدد من المستعمرات وأن تلك الأسلحة قد استعملت فى حالة واحدة على الأقل للدفاع عن مستعمرة من المستعمرات التى هوجمت .

ثالثا : عينت الحكومة لجنة لتقدير الأضرار الفعلية التى حدثت للقرى اليهودية ولما كان من الصعب تحديد المسئولية على أشخاص بعينهم فقد فرضت السلطات غرامة مالية قدرها ستة آلاف جنيه ضد الشعب العربى فى طولكرم والمناطق الأخرى التى ساهمت فى تلك الاضطرابات واذا كانت الحالة فى فلسطين قد هدأت بعض الوقت الا أنها عادت للغليان فى مارس ١٩٢٤ وفى مدينة يافا مرة أخرى خلال احتفال اليهود بعيد المساخر وتزيى بعضهم بزى السافر وزى علماء المسلمين مما استفزت العرب وأدى الى قتال أسفر عن سقوط عدد من القتلى والجرحى (٢٣) .

كما أن فلسطين أضربت اضطرابا شـــاملا يوم زار اللورد بلفور القدس لافتتاح الجامعة العبرية فى مارس ١٩٢٥ وهى التى أقيمت على أرض عربية فى جبل الزيتون انتزعتها السلطات من أيدى أصحابها العرب بالقوة أى بقانون نزع الملكية ، وأعطيت لليهود وقد غادر بلفور فلسطين على الفور الى دمشق فواجهته مظاهرات عنيفة أسرعت السلطات الفرنسية بعدها الى مطالبته بالسفر الى بيروت ومنها الى بلاده ٠

ولم تتوقف ثورات الشعب الفلسطينى يوما سواء فى عـــام ١٩٢٩ (ثورة البراق) أو (حائط المبكى) أو فى عام ١٩٣٥ ثورة الشهيد الشيخ عز الدين القســـام الى أن كانت ثورة الشعب الفلسطينى الكبرى عام ١٩٣٦ ـ ١٩٣٩ والتى أوشـكت أن تنهى الاحتـلال البريطانى والتغلغل الصهيونى لولا توسط بعض القادة العرب لوقف القتال ، وكذلك قيـام الحرب العالمية الثانية (٢٤) ٠

ونستطيع أخيرا أن نؤكد حقيقة هامة وهى أن تفاقم قضية فلسطين كان نتيجة من النتائج الخطيرة للحرب العالمية الأولى وغدر الحلفاء ولاسيما بريطانيا بالعرب ، كما أن الشعب الفلسطينى كان دائما على أتم استعداد للاستجابة لنداء الوطن مهما كلفه ذلك من مال وجهد وأنفس ، عندما دعى الى الاضراب أضرب ، وعندما دعى الى المظاهرات استجاب ، وعندما دعى الى المقاطعة نفذ ، وعندما دعى الى الجهاد سارع وقدم للتضحية العديد من خيرة أبنائه ، فهو شعب صبور لم يبخل على وطنه بشىء ولم يضن على متطلبات الجهاد بأى وسائل أو امكانات ، وذلك على الرغم من ظروفه القاسية ، وعلى الرغم من تحالف الاستعمار البريطانى مع الصـــهيونية العالمية ٠٠ وكذلك انصراف معظم الدول العربية الى مشاكلها الخاصة ، كما أن ظروف المجتمع اللولى لم تكن تسمح بطلب المساعدة من احـــدى القوى الكبرى وهذه القوى كانت متواطئة مع الصهيونية ٠

معاهدة لوزان (٢٤ من يوليو ١٩٢٣) :

بعد هزيمة العثمانيين فى الحرب فر عدد من كبار رجال جماعة الاتحاد والترقى الذين كانت فى عيديهم مقدرات البلاد ومنهم من كان يرجو أن يعود اليها فاتحا ومنهم من كان ينوى اعتزال السياسة وافساح المجال لغيره (٢٥) .

وقد استيقظ العالم الاسلامى ، سنة ١٩١٨ على هذه الفاجعة التى نزلت به وهو غير مصدق أن دولة الخلافة الاسلامية ، التى كانت الدرع الواقى للمسلمين ورمز قوتهم قد زالت من الخريطة تماما .

وفى ذات الوقت كانت الاحتفالات تقام فى الدول الغربية لنسر لتحقيق النصر على الألمان والنمساويين والأتراك فحسب ولكن - وهذا هو الاهم - زوال الدولة العثمانية وقرب انتهاء الخلافة من العالم الاسلامى ولم يكن غريبا أن يقف الجنرال « اللنبى » قائد الحملة الانجليزية على الجبهة المصرية الفلسطينية ، حينما دخل القدس وهو يردد « الآن انتهت الحروب الصليبية » ووقف الجنرال جورو القائد الفرنسى على قبر صلاح الدين الأيوبى فى دمشق وقال : « ها قد عدنا ياصلاح الدين » .

ورحم الله أمير الشعراء شوقى وهو يصور شعور المسلمين بهذه النتائج أبلغ تصوير وأروعه :

الهند والهة ومصر حزينة

تبكى عليك بمدمع سحاح

والشام تسأل والعراق وفارس

أمحا من الأرض الخلافة ماح ؟!

المقاومة التركية ضد اليونيين :

أبلغت لجنة الحلفاء العليا المقيمة فى باريس والمؤلفة من رؤساء وزارات كل من انجلترا وفرنسا وايطاليا واليونان ، أبلغت الحكومة العثمانية أنها اتخذت قرارا يقضى بنزول الجيوش اليونانية فى أزمير وحذرتها من المقاومة التى ستعتبر لجميع الحلفاء ونقضا للهدنة (٢٦) .

وفى اليوم التالى أى فى ١٥ مايو نزل اليونانيون فى أزمير وارتكبوا فيها من المذابح والفظائع ما يؤكد أحقادهم الدفينة ورغبتهم فى الانتقام من العثمانيين .

وأن السلطان « محمد وحيد الدين » قد كلف مصطفى كمال أتاتورك بعد تعيينه مفتشا لجيوش الأناضول وأعطاه صلاحيات واسعة كلفه بالقيام بثورة فى شرق الأناضول حتى يتسنى لرجال السياسة أن يحاوروا ويناوروا أثناء عقد الصلح ليأخذوا أكثر ما يمكن أخذه من الأعداء .

وقد غادر أتاتورك استانبول بصحبة عدد من العسكريين والمدنيين الذين اختارهم لمساعدته ووصل الى مدينة صامسون فى ١٩ مايو ١٩١٩ وبعد أن جمع ملوك الأهالى بدأ ثورته .

ونظرا لاحتجاج الحلفاء على هذا العمل مستندين الى أحكام الهدنة فقد طالبوا باستدعاء مصطفى كمال وقد استجابت الحكومة التركية وأرسلت على لسان وزير الحربية تستدعيه الى العاصمة ولكنه استمر فى عدم الاجابة ، وازاء ذلك هدد الحلفاء بالرجوع الى الحرب مما جعل الحكومة العثمانية تعلن فصله من منصبه .

وبعد مضى أكثر من سنة لم تجن البلاد من ثورة أتاتورك الا الدماء والخراب وتقدم اليونانيون نحو قلب الأناضول وكادوا يطرقون أبواب

أنقرة ، مما جعل الحكومة التركية تعلن عصيانه وتمرده استنادا الى فتوى شيخ الاسلام عبد الله درى زادة ، ولكن السلطان ما لبث أن أقال هذه الوزارة وكلف توفيق باشا وهو من أنصار مصطفى كمال ، بتأليف وزارة جديدة دامت فى الحكم نحو سنتين خدمت فيهما أغراض أتاتورك فلما قويت شوكته تنكر للسلطان وطلب اليه أن يتنازل عن الحكم ويكتفى بالخلافة المجردة من السلطة على أن يظل مقيما فى استانبول وتنتقل السلطة الى أنقرة فرفض السلطان وتنازل عن العرش سنة ١٩٢٢ وخلفه عبد المجيد خليفة لا سلطانا ثم خلع سنة ١٩٢٤ وأخرج من البلاد بعد الغاء الخلافة(٢٧) .

وقد أعلن مصطفى كمال بعد نجاحه فى مقاومة اليونانيين والحاق الهزيمة بهم بطلان جميع المعاهدات والاتفاقات التى ارتبطت بها الحكومة العثمانية منذ احتل الحلفاء الآستانة فى ١٠ من مارس ١٩٢٠ وعدت بذلك معاهدة سيفر باطلة بطلانا قانونيا فى نظره وخاض أعوانه حربا قوية ضد الجيش اليونانى ، وظفروا بمساعدات عسكرية وسياسية من روسيا الشيوعية التى عقدت صلحا منفردا مع الكماليين . وأمرت ايطاليا قواتها بالجلاء عن أداليا ثم وقعت فرنسا فى ٢٠ من أكتوبر ١٩٢١ اتفاقية أنقرة مع الوطنيين الأتراك وجلت قواتها عن كليكيليا وجاءت الضربة القاضية عندما أعلن مجلس الحلفاء الأعلى فى أغسطس ١٩٢١ : أن الحرب التركية اليونانية حرب خاصة بينهما ، وأعلنت بريطانيا وفرنسا وايطاليا واليابان الحيدة . وطالب الكماليون بتعديل معاهدة سيفر ولما لم يستجب لهم هاجموا الجيش اليونانى وأجلوه من أزمير فى سبتمبر ١٩٢٢ . ونودى فى نوفمبر بالجمهورية التركية وهرب السلطان العثمانى محمد السادس فى ١٧ نوفمبر الى مالطة على ظهر سفينة بريطانية وأصبحت حكومة المجلس الوطنى الكمالية هى الحكومة الوحيدة فى تركيا .

وفى وسط هذه الأحداث التى تعاقبت سراعا كانت بريطانيا وفرنسا وايطاليا قد وجهت الدعوة الى عقد مؤتمر دولى فى موزان يضم الى جانب الدولة سالفة الذكر الولايات المتحدة واليابان ورومانيا ويوغسلافيا وحكومة الآستانة العثمانية وحكومة المجلس الوطنى فى أنقرة ، كما دعيت روسيا وبلغاريا للاشتراك فى مناقشات المضايق وحدها وكانت الولايات المتحدة قد اكتفت بارسال مراقبين لها فى المؤتمر لأنها لم تكن فى حالة حرب مع تركيا كما أن الحكومة العثمانية قد سقطت وانفردت حكومة أنقرة بتمثيل البلاد فى المؤتمر ٠

وقد افتتحت جلسات مؤتمر لوزراء فى ٢٠ نوفمبر ١٩٢٢ واستمرت حتى ٤ من فبراير ١٩٢٣ ولم يصل الى نتيجة محددة بسبب رفض الحكومة التركية لمشروع معاهدة الصلح لمخالفته الميثاق الوطنى التركى ٠

ودخلت الحكومة التركية فى مفاوضات مباشرة مع الدول المعينة وأعيدت جلسات المؤتمر فى ٢٣ ابريل واتفق فى نهايات تلك الجلسات على توقيع معاهدة لوزان فى ٢٤ يوليو ١٩٢٣ وتقرر فيها اخلاء الآستانة من الحاليات الأجنبية ورد تراقيا الى تركيا بما فيها أدرنة وغير ذلك من قرارات كانت فى صالحها ٠ وبموجب هذه المعاهدة خفف الحلفاء من تشددهم وبسطت تركيا سلطانها من جديد على آسيا الصغرى كلها وتعين على اليونانيين أن يرجعوا الى بلادهم ، فى حين رجع الأتراك الذين كانوا لا يزالون فى دول البلقان الى الأناضول زرافات زرافات(٢٨) ٠

وفيما يتعلق بالدول العربية التى كانت تابعة للعثمانيين قررت المادة السادسة عشر تنازل تركيا عن جميع حقوقها فى الأقطار المنسلخة عنها ومن ضمنها البلدان العربية ٠ لكن بقيت مشكلة الموصل معلقة بحجة أن أهلها لا يتكلمون العربية وتقرر احالتها الى لجنة دولية بعثت بها عصبة الأمم ٠ وقد قررت اللجنة فى عام ١٩٢٦ ضم الموصل الى العراق مقابل تخصيص ١٠٪ من عائدات البترول لتركيا مدة خمسة وعشرين عاما

وقد نص صراحة نزول تركيا عن حقوقها فى مصر والسودان اعتبارا من ٥ نوفمبر ١٩١٤ وهو تاريخ دخول العثمانيين الحرب ضد الدول المتحالفة : كما نص على ضم قبرص لبريطانيا ، وكذلك قبلت الدول بمقتضى هذه المعاهدة الغاء الامتيازات الأجنبية واسترداد تركيا أراضيها فى أوربا الى نهر مارتزا غربا(٢٩) .

وهكذا سلم أعداء الأمس لتركيا بما سلبوه منها وغازلوا أتاتورك بهذه الاتفاقية وكان الثمن ما فعله بعد ذلك فما كادت جلسات المؤتمر تنتهى حتى جد الكماليون فى انقلابهم مولين وجوههم نحو الغرب فشفعوا الغاء السلطنة العثمانية باعلان الجمهورية التركية فى أكتوبر ١٩٢٣ ثم بالغاء الخلافة فى مارس ١٩٢٤ . وبعد أن كان دين الدولة هو الاسلام أصدروا قرارات بجعل الدولة علمانية وأبدلوا الحروف العربية باللاتينية وهكذا نال الغرب بغيته وأصبحت تركيا دولة صغيرة علمانية وتنكرت حتى لواقعها فهى قد أعلنت أنها دولة غير اسلامية على الرغم من أن ٩٥٪ من سكانها مسلمون وتنكرت لآسيويتها مع أن مالها فى أوربا من مناطق لا يتجاوز عشر مساحتها ، فقد ذكر شيخ الاسلام صبرى أفندى أن تركيا سارت خطوات كثيرة فى التنصل من دينها وعقيدتها حتى ان مصطفى كمال أتاتورك أوصى وهو على فراش الموت بألا يصلى عليه صلاة الجنازة ، ثم انه لما دعيت تركيا لحضور المؤتمر الاسلامى الذى عقد فى القدس سنة ١٩٣١ رفضت الحكومة التركية حضوره لأنها غير مسلمة . ولما دعيت لحضور المؤتمر الآسيوى الذى عقد فى دهلى رفضت حضوره كذلك بحجة أنها ليست بدولة آسيوية(٣٠) .

واذا كان المسلمون قد رحبوا بانتصارات اتاتورك على اليونانية واستعادته لأجزاء من الدولة العثمانية فذلك لأن المسلمين خدعوا بمصطفى كمال الذى كان يظهر خلاف ما يبطن فقد استغل عواطف المسلمين وأموالهم الى أبعد حد وكسا ثورته لباسا اسلاميا سواء بأحاديثه

وتصريحاته وخطبه ، أو بمعاملته لزعماء المسلمين ، فقد استعان بالزعيم الليبى السيد أحمد السنوسى وجعله مستشارا له كما استغل أعمال وأقوال جمعية الخلافة الاسلامية بالهند التى قامت بزعامة الاخوين شوكت على ومحمد على واستغل الشعراء فمدحوه والأدباء فأثنوا عليه ومشايخ الطرق فرفعوه الى مقام الولاية(٣١) .

وبعد لوزان ومساندة الحلفاء له بعد أن تأكدوا أنه سيقوم بالدور المرسوم تماما ويخلصهم من شبح هذه الدولة الاسلامية التى اقضت مضاجعهم طيلة خمسمائة عام . وما كاد يطمئن أتاتورك الى تنفيذ الحلفاء لوعودهم حتى ألغى الخلافة وطرد الخليفة من البلاد وطرد السيد أحمد السنوسى وتنكر لكل القيم الاسلامية ، وسار سيرة ليس فيها أية مصلحة للاسلام ولا للمسلمين ، بل ليس فيها أية مصلحة لتركيا نفسها(٣٢) .

وكل ما فعلته الثورة التركية أنها شغلت الناس بأمور يعتقد البعض أنها جانبية تافهة مثل الغاء الطربوش وسفور النساء وغير ذلك الا أن الحقيقة أن أتاتورك حطم دولة الخلافة الاسلامية تحطما وما فعله ثورة على الدين وعلى الثقافة وعلى التاريخ وعلى العالم الاسلامى .

ولم يقدم تركيا بما فعله خطوة واحدة الى الأمام بل ارجعها خطوات الى الوراء وبصفة عامة يمكن القول أن ثورة أتاتورك أتت وبالا على تركيا وعلى العالم الاسلامى لأنها قضت على ثروات تركيا المعنوية وسلبتها عظمتها التى كانت تقوم على الاسلام وهى عظمة لن تعود أبدا الا اذا عادت تركيا من جديد لاسلامها وحضارتها الاسلامية .

لقد كان باستطاعة كمال أتاتورك بعد أن انتصر على اليونانيين أن يتنكر للغربيين ويقلب لهم ظهر المجن فيخدم بذلك بلده وأمته ولم يكن يستطيع الغربيون آنذاك أن ينالوه بأذى لأن العالم كله كان معه ولكنه لم يفعل لأن الخطة الغربية كانت تساير هواه(٣٣) .

أثر الغاء الخلافة على العالم الاسلامى :

كان لالغاء الخلافة على يد أتاتورك آثار خطيرة فى العالم الاسلامى بعد أن أصبح لأول مرة بلا خلافة ولم يدر الناس لم ينصرف دعاء الداعين حين يبتهلون الى الله فى ظهر كل جمعة أن يشمل بعنايته وتوفيقه خليفة المسلمين وأخذ الناس فى مصر وغيرها اضطراب وحيرة وتأكد لهم أن أعداء الاسلام قد نجحوا تماما فى محاولاتهم على يد رجل ينسب الى المسلمين .
وكانت أول خطوة أخرجت المصريين عما هم فيه من حيرة وارتباك بيان مذيل بامضاء ستة عشر عالما من علماء الأزهر أذاعوه بعد الغاء الخلافة بأربعة أيام يقررون فيه بطلان ما تجرأ عليه الكماليون من عزل الخليفة عبد المجيد ، الذى انعقدت له البيعة من المسلمين ، لأنه صادر من فئة قليلة لا يعتد بهم « فبيعته صحيحة شرعا فى عتق كل مسلم يؤمن بالله واليوم الآخر ، وينبه البيان المسلمين الى حاجتهم للخليفة ثم يدعوهم للاسراع فى عقد مؤتمر » يقرر ما يراه فى أمر الخلافة عن الطريق الشرعى ، ويحذرهم من تسرب الخلاف الذى يؤخر الاسلام ويوهنه .

وفى اليوم التالى أذاع وكيل الأزهر الشيخ محمد حسنين مقالا يبين فيه خطأ الكماليين فيما ذهبوا اليه من أن الخلافة عقبة فى طريق التقدم وختمه بدعوة المسلمين للنظر فى الخلافة .

ومنذ ذلك الوقت كثرت الدعوات لعقد مؤتمر الخلافة وبرز اسم مصر واسم الأزهر كمصدر لهذه الدعوات ومركز من أهم مراكز النشاط الاسلامى الذى يحاول معالجة هذه القضية(٣٤) .

ونشطت هذه الحركة الداعية الى عقد المؤتمر حين ذاعت شائعات ترشيح الملك حسين بن على للخلافة فنشر علماء الأزهر بيانا حذروا فيه من الانخداع « بنداءات الخونة المارقين الذين ينادون ببيعة الملك حسين ، ويحذرون من تهافت كل دولة على جعل الخليفة فيها فتتعدد بذلك خلفاء المسلمين وتذهب ريحهم وتضرب عليهم الذلة والمسكنة .. » .

الأزهر والخلافة :

بعد هذه النداءات المتكررة من الأزهر لقادة العالم الاسلامى بضرورة الاهتمام بمسألة الخلافة اجتمع شيخ الأزهر ومن حوله هيئة كبار العلماء وعدد كبير من مدرسى وطلاب الأزهر وتم الاتفاق على عقد مؤتمر عام فى القاهرة توجه الدعوة لحضوره الى جميع ممالك الاسلام حاكمة كانت أو محكومة مستقلة أو محتلة ، وأن تؤلف فى أنحاء مصر لجان تدعى لجان الخلافة تروج للمؤتمر وتعزز فكرته وتكون فيما بعد عونه وعدته فى تنفيذ قراراته ٠

ولم يكن التمهيد لانعقاد المؤتمر مرا هينا كما ظن كثير من علماء الأزهر فى بادىء الأمر فقد امتدت الدعوة اليه من سنة ١٩٢٤ وهو عام سقوط الخلافة الى عام ١٩٢٦ عندما عقد المؤتمر بالقاهرة ٠

وكان سبب التأخير يرجع الى اعتقاد بعض الدول الاسلامية الأخرى أن علماء الأزهر انما يقصدون من مؤتمر القاهرة الذى يدعون اليه أمرا آخر له باطن غير ظاهره ، وأنهم انما يثيرون مسألة حماية الخلافة لا خوفا على الخلافة من شاطىء البوسفور الى شاطىء النيل وضم أريكة الخلافة الى
الخلافة من شاطىء البوسفور الى شاطىء النيل وضم أريكة الخلافة الى
أريكة الملك فى عابدين (أى جعلها للملك فؤاد)(٣٥) ٠

كما ظهرت فى مصر جماعة أطلقت على نفسها اسم جماعة الخلافة الاسلامية بوادى النيل ويرأسها الشيخ محمد ماضى أبو العزايم ٠

وتكشف تقارير الأمن المصرية عن دور هذه الجماعة ومعارضتها لاسناد الخلافة للملك فؤاد وتفضيلها احياء الخلافة الاسلامية فى مكة المكرمة بدلا من القاهرة والذى يهمنا الأن أن المؤتمر عقد بالقاهرة ولكنه

كما يذكر الشيخ الأحمدى الظواهرى كان « انعقـادا » مشـوها مبتورا فقد حضرته الوفود التى قدمت من المغرب ومن سوريا ومن فلسطين ولكنه لم يكن بالمؤتمر الاسلامى العام ، ولم تكن له الضخامة أو القوة التى تنبأ لديها المتنبؤن(٣٦) ٠

وقد أصدر المؤتمر الذى كان يرأسه الشيخ أبو الفضل الجيزاوى شيخ الأزهر اذ ذاك قرارا أعلن فيه امكان تنصيب خليفة حسب نصوص الشريعة ولكنه أعلن أن تعيين الخليفة يترك لمؤتمر تمثل فيه كل الشعوب الاسلامية ٠ ولمـا كان المؤتمر ينقصه هذا الشرط فقد أوصى كل المسلمين ألا يهملوا مسألة الخلافة فى المستقبل وأن يعملوا على اعادة ذلك المنصب الذى هو روح الاسلام ومظهره ٠

ويرجع فشل المؤتمر الى الدعاية المضادة التى انتشرت فى كثير من البلدان الاسلامية للتقليل من دور الأزهر ودور مصر ٠

كذلك كان للعوامل السياسية المضطربة فى مصر وتنافس الأحزاب المصرية دورها كذلك،كما أن الملك فؤاد لم يكن بالشخص الذى ترضى عنه الشعوب الاسلامية ليكون خليفة لا سيما وقد تولى منصبه بقرار صادر من الحكومة البريطانية ولم يكن له من ماضـيه ما يسانده فى القيام بهذه المهمة الخطيرة ومن ناحية أخرى كان للخلاف الذى دب بين الشيخ حسين والى والشيخ الظواهرى أثره فى فشل المؤتمر(٣٧) ٠

والذى لاشك فيه أن الاقتراح الذى عرضه الشيخ الظواهرى بفض جلسـات المؤتمر قبل تفـاقم الخـلاف كان بايعاز من الملك فؤاد وكان فى نفس الوقت بداية النهـاية للجهـود التى بذلت لاحياء الخلافة ولو تريث المؤتمرون وجددوا موعدا آخر وأعدوا له جيدا لأمكن للمسـلمين اتخـاذ خطوة أكثر ايجابية فى هذا الميدان ٠

وقد انشغلت كل دولة وحكومة فى هذه المنطقة ، حسب ما انتهى اليه التقسيم عقب الحرب العالمية الأولى بقضاياها الخاصة واندفعت الشعوب فى هذه البلاد سواء المستقلة منها أو المستعمرة أو ما بين ذلك من أسماء وأشكال فى صراع عنيف ضد القوى الأجنبية الخارجية وفى مسائل الحكم الداخلية وما أثارته الأوضاع الجديدة من مشاكل وما التزمه من طلب العيش وتنظيم الاقتصاد على الأسس السياسية الجديدة من جهود واستغرق كل هذا جهود الشعوب وزعمائها وتعرض الوطنيون والمخلصون منهم للاضطهاد والتشريد والنفى وخفت تلك الدعوة فيما عدا بعض الجماعات والهيئات التى ظلت تبثها فى قوانينها الأساسية(٣٨) .

وفى فترة ما بين الحربين لم تذكر كلمة الوحدة الاسلامية والخلافة الا فى الأدب أو فى مناسبات سياسية محدودة الوقت والأثر مثل مؤتمرات قضية فلسطين أو مؤتمر الصلح بين المملكة العربية السعودية واليمن أو فى بعض المعاهدات التى عقدت بين الدول العربية .

وأخيرا يمكن القول أن الحرب العالمية الأولى وما أعقبها من أحداث وترتب عليها من نتائج كانت لها آثارها الخطيرة فى العالم الاسلامى حيث راجت الدعوة للقومية وظهرت الكثير من الأنظمة العلمانية وخفت صوت الدعوة لاحياء الخلافة ومكنت الدول الغربية لنفسها فى العالم الاسلامى بصورة أكثر مما كانت عليه قبل الحرب .

وقد تتابعت الأحداث الى أن كانت الحرب العالمية الثانية وكان للعالم الاسلامى فيها دور يستحق الدراسة والاهتمام(٣٩) .

هوامش الفصل الأخير

العالم الاسلامى بعد الحرب العالمية الأولى

(١) د٠ أحمد سويلم العمرى : أصول العلاقات الخ ، مرجع سابق ، ص ٤٠٩ ٠
(٢) المرجع السابق ، ص ٤٠٩
(٣) د٠ حسين فوزى ، السياسة ، مرجع سابق ص ٢٠٣ ٠
(٤) السياسة الاستراتيجية ، مرجع سابق ، ص ٢٩٤ ٠
(٥) رمزى ميور ، النتائج السياسية ، مرجع سابق ص١٧٧ ـ١٧٨
(٦) محمد رفعت : التوجيه السياسى للفكرة العربية ، مرجع سابق ، ص ١٥١ ٠
(٧) المرجع السابق ، ص ١٥١ ٠
(٨) أنيس صايغ ، الهاشميون والثورة العربية ، ص ١٩٠ ٠
(٩) د٠ حسين فوزى ، مرجع سابق ، ٤١٨ ٠
(١٠) محمد رفعت ، مرجع سابق ، ص ١٥١ ـ ١٥٢ ٠
(١١) أكرم زعيتر : القضية الفلسطينية ، ص ٥٧ ٠
(١٢) محمد عزة دروزة ، مرجع سابق ، ص ٢٤٤ ٠
(١٣) د٠ حسين فوزى ، مرجع سابق ص ٤١٨ ٠
(١٤) د٠ حسن صبرى الخولى : مرجع سابق ص ٤١١ ٠
(١٥) المرجع السابق ، ص ٤١١ ـ ٤١٢ ٠
(١٦) أكرم زعيتر ، مرجع سابق ص ٥٧ ٠
(١٧) د٠ عادل غنيم : الحركة الوطنية الفلسطينية ، من ١٩١٧ ـ ١٩٣٦ ، ص ١٠٢ ٠
(١٨) المرجع السابق ، ص ١٠٢ ـ ١٠٣ ٠
(١٩) د٠ احسان حقى : مرجع سابق ، ص ٧٢٧ ٠
(٢٠) د٠ أحمد سويلم العمرى : الشرق الأوسط وقضية فلسطين ص ١١٠ ٠

(٢١) د٠ عادل غنيم ، ص ١٠٣ ٠

(٢٢) د٠ حسن صبرى ، مرجع سابق ، ص ٤١٣ ٠

(٢٣) المرجع السابق ، ص ٤١٣ ٠

(٢٤) محمد رفعت ، مرجع سابق ، ص ١٥٦ ٠

(٢٥) د٠ احسان حقى ، مرجع سابق ص ٧٢٧ ٠

(٢٦) المرجع السابق ، ص ٧٢٨ ـ ٧٢٩ ٠

(٢٧) د٠ حسن صبرى : مرجع سابق ، ص ٤٣٠ ٠

(٢٨) محمد رفعت : مرجع سابق ص ١٥٦ ـ ١٥٧ ٠

(٢٩) د٠ فاضل حسين : مؤتمر لوزان وآثاره فى البلاد العربية ، معهد الدراسات الاسلامية ، ص ٤٥

(٣٠) المرجع السابق ، ص ١٢ ٠

(٣١) بروكلمان : تاريخ الشعوب الاسلامية ، مرجع سابق ص٦٩٥

(٣٢) محمد رفعت ، مرجع سابق ص ١٥٨ ٠

(٣٣) د٠ احسان حقى ، مرجع سابق ، ص ٧٥٩ ٠

(٣٤) د٠ محمد محمد حسين : الاتجاهات الوطنية ، جـ ٢ص٤٤ ٠

(٣٥) المرجع السابق ، ص ٤٤ ـ ٤٥ ٠

(٣٦) دار الوثائق القومية بالقلعة ، التقارير السرية ، تقرير رقم ١٤٠٥ ، أغسطس ١٩٢٦ ٠

(٣٧) الشيخ الأحمدى الظواهرى : السياسة والأزهر ، د٠ فخرالدين الأحمدى ، ص ٢٠٨ ـ ٢١٠ ٠

(٣٨) د٠ عبد الملك عودة : العالم الاسلامى ومشكلاته المعاصرة ، معهد الدراسات العربية ، ١٩٥٨ ، ص ١١ ـ ١٢ ٠

(٣٩) عباس العقاد ٠ الاسلام والاستعمار ، ص ١٦ ٠

الخاتمة

يمكن القول بعد هذه الدراسة عن العالم الاسلامى فى الحرب العالمية الأولى فى الفترة من عام ١٩١٤ وحتى عام ١٩١٨ أن هذه الحرب كانت فى لحمتها وسداها حربا استعمارية بحتة ، بل يعتبرها البعض حلقة من حلقات الصراع الصليبى الذى يستهدف العالم الاسلامى بحدوده المعروفة آنذاك .

وعلى الرغم من أن وجهة النظر الاسلامية فى أحداث تلك الحرب لم تكتب حتى اليوم فقد كانت هذه المحاولة بداية للتعرف على الآثار المدمرة لتلك الحرب الشرسة فى كل منطقة من مناطق التجمع الاسلامى فى آسيا وأفريقيا ويكفى أن نعرف أن ميادين القتال الرئيسة كانت فى قلب بلاد الشام والعراق وشمال أفريقيا وشرقها ومصر والسودان .

وكذلك فى فارس والأناضول وكانت الخسائر فى الأفراد والأموال فوق ما يتصوره الكثيرون . وحارب المسلم الهندى فى صفوف بريطانيا والسنغالى فى صفوف فرنسا وهلم جرا مسلمون يقاتل بعضهم بعضاً لحساب هذه الدولة الأوربية او تلك .

وقد شهدت هذه الحرب خاتمة الدولة العثمانية بعد أن اندحرت فى ميادين الحرب وتكالبت عليها القوى الاستعمارية التى كانت تتحين هذه الفرصة منذ سنوات طوال فيما عرف باسم المسألة الشرقية واقتسام تركة الرجل المريض .

والحقيقة أن الحرب العالمية الأولى التى دامت أربع سنوات ونيف امتدت من سنة ١٤ الى سنة ١٨ وثبت فيها العثمانيون فى ميادين القتال ثبوت الجبال ودافعوا عن دينهم ووطنهم وكرامتهم دفاع الأبطال ولكنها انتهت بمأساة مفجعة اذ استيقظ المسلمون على أكبر فاجعة أصيبوا بها

فى تاريخهم الحديث ، اذ رأوا بنيان دولة الخلافة تنهار ، كما تنهار بيوت الكرتون ، لا بل وقد أصبحت هذه الدولة ذات العز الباذخ والشأن الرفيع الشامخ التى كانت ملء عين الزمان وسمعه أثرا بعد عين وكأنها لم تغن بالأمس . وأصبحت أرضها موطنا لأعدائها وموطئا لأقدامهم .

واذا كانت الدولة العثمانية قد أخطأت بدخولها هذه الحرب الاستعمارية الى جانب دولتى الوسط فقد رفعت فى الأيام الأولى نداء الجهاد تستصرخ به مسلمى العالم لمساندتها وقد تباينت الأصداء المباشرة لهذا النداء فى كثير من بلدان العالم الاسلامى على الرغم من خضوع هذه الدول للاستعمار الأجنبى وقيام كل من بريطانيا وفرنسا باتخاذ الكثير من الاجراءات والاحتياطات الوقائية لاضعاف أثر هذا النداء الموجه من قبل العثمانيين فقد أثبتت هذه الدراسة أن كثيرا من مسلمى شمال أفريقيا تجاوبوا مع هذا النداء وقاموا بثورات متعددة ضد الفرنسيين والايطاليين كما كان لاعلان الجهاد أثر واضح فى شرق أفريقيا وبخاصة فى الصومال حيث أعلن المجاهد الصومالى السيد محمد عبد الله حسن الذى قاد ثورة اسلامية كبيرة ضد البريطانيين والايطاليين تجاوبه مع هذا النداء وفى الأيام الأولى لقيام الحرب أرسل وفدا صوماليا يؤكد للعثمانيين وقوفه الى جانبهم والتزامه بنصرتهم ووقع معهم اتفاقا مكتوبا بهذا الخصوص .

وعالجت هذه الدراسة محاولة الامبراطور الاثيوبى « ليج اياسو » الذى أعلن الاسلام فى بلاده وأعلن ارتباطها بالدولة العثمانية واستعداده للقتال الى جانبها ولكن بريطانيا وفرنسا وايطاليا بالتعاون مع الكنيسة الأثيوبية هاجمته بأحدث الأسلحة حتى تم القبض عليه وأودع السجن وانتهت تلك المحاولة الاسلامية التى لو قدر لها النجاح لغيرت تاريخ هذه المنطقة وحققت نتائج باهرة .

وأظهرت هذه الدراسة حقيقة الأطماع البريطانية فى الشرق العربى ودورها فى مساندة الصهيونية ونجاحها فى استمالة الشريف حسين بن على للقتال فى صفوف الحلفاء لتصبح المواجهة الحربية من قوات العثمانيين المسلمين وقوات الحسين بن على لتسيل الدماء الاسلامية أنهارا فى حرب لا ناقة لهم فيها ولا جمل ٠

ويسجل التاريخ للملك عبد العزيز آل سعود والامام يحيى حميدالدين أنهما اتخذا موقفا اسلاميا طيبا برفضهما الاستجابة لبريطانيا وطعن العثمانيين فى ظهورهم وكان موقفهم أفضل بكثير من موقف الحسين الذى خدع بوعود الحلفاء ٠

وبعد انتهاء الحرب رأى العرب أنفسهم وقد أصبحوا أكثر فرقة وشتاتا مما كانوا عليه من قبل وأنهم أصبحوا محكومين بأسماء مخترعة منها الانتداب والحماية والتحالف والاستعمار والقوة وبعد أن كانوا شركاء الدولة العثمانية فى الحكم أسقطوا فى أيديهم ٠

وكانت ردة فعلهم عنيفة ويأسهم من حلفاء الأمس عظيمـا ولكنهم لم يتحركوا بل ظلوا يعيشون بالآمال والخطب الرنانة فقط ٠

باستثناء بعض المحاولات التى بذلت لاحياء الخلافة الاسلامية وقام فيها الأزهر بدور يسجل له شيوخا وطلابا ٠

ومن النتائج الأخرى التى كشـفت عنهـا الدراسـة أن الاتجاهات القومية التى ظهرت فى كثير من البلدان الاسلامية بتأثير من الغرب كانت عائقا أمام تجاوب المسلمين فى بلاد الشام ومصر مع اعلان الجهاد وظهرت خطورة هذا الاتجاه القومى ـ الذى يرفضه الاسلام رفضا كاملا ـ بعد انتهاء الحرب حين تمكن كمال أتاتورك من عزل الخليفة العثمانى واعلان الجمهورية التركية والغائه الخلافة والسير بهذا البلد المسلم فى طريق معوج حاد

به عن الاسلام وأعطى بذلك فرصة لغيره من الحكام المنبهرين ببطولته الزائفة أن يقلدوه فى اتجاهاته وما فعله « أمان الله خان » فى أفغانستان صورة مما فعله اتاتورك ، كما أن الكثير من الدول العربية والاسلامية قد سارت فى التيار القومى بعد الاستقلال مستجيبة للمطالبين بالتغريب باعتبار أن الاسلام قد هزم هزيمة ساحقة بهزيمة دولة الخلافة وسقوط العالم الاسلامى من المحيط للمحيط تحت سيطرة أوربا غير المسلمة .

وأخيرا نرجو أن تكون هذه الدراسة فاتحة لدراسات علمية جادة منصفة حول تاريخ العالم الاسلامى فى تلك الفترة الواقعة بين الحربين العالميتين .

وبالله التوفيق ...

قائمة المصادر والمراجع

أولا : الوثائق :

محافظ عابدين ، ٢٤٦ داخلية .

تقارير أ من ١٩ - ٥٢

تقرير خاص عن جماعة الخلافة بوادى النيل

الوثائق الصومالية :

نصوص الاتفاقيات الموقعة بين الوفد الصومالى الممثل للسيد عبد الله حسن ، وممثل الحكومة العثمانية بخصوص اعلان الجهاد الاسلامى والتزام الصومال بهذا الاعلان .

ثانيا : مذكرات :

- أحمد شفيق باشا : مذكراتى فى نصف قرن ، ٣ أجزاء مطبعة مصر ١٩٣٤ .
- الأمير عمر طوسون : مذكرة بما صدر عنا منذ فجر الحركة الوطنية ١٩١٨ -١٩٢٨ الاسكندرية ١٩٤٢ .
- مذكرات شيخ الاسلام الظواهرى ، بقلم فخر الدين الأحمدى الظواهرى ، القاهرة ١٩٤٥ .
- مذكرات فون‌هندنبورج ، القائد الألمانى ، ترجمة منصفان ، القاهرة المطبعة اليوسفية ١٩٢١

ثالثا : مراجع عامة :

- د. ابراهيم أحمد العدوى : تاريخ العالم الاسلامى ، جـ ٢ عصر التنمية والعطاء ، الأنجلو ، ١٩٨٤ .

د. ابراهيم أحمد العدوى : مصر والشرق العربى درع الاسلام الأنجلو ١٩٨٥ .

ـ أبو الحسن الندوى : ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين ، القاهرة ١٩٨٢ ٠

د٠ أبو القاسم سعد الله : الحركة الوطنية الجزائرية ، جـ ٢ ، معهد البحوث والدراسات العربية ، القاهرة ١٩٧٧ ٠

ـ أبو الكلام أحمد : ثورة الهند السياسية : ترجمة عبد الرازق المليجى ، القاهرة ١٣٤١هـ ٠

ـ د٠ احسان حقى : مأساة كشمير ، الدار السعودية للطباعة والنشر

ـ د٠ احسان حقى : التحقيق والتعليق على كتاب : تاريخ الدولة العلية العثمانية ، بيروت ، ط ٢ ، ١٩٨٣ ٠

ـ د٠ أحمد سويلم العمرى : أصول العلاقات السياسية الدولية ، الأنجلو ١٩٥٩ ٠

ـ د٠ أحمد سويلم العمرى : الشرق الأوسط ومشكلة فلسطين . الأنجلو ١٩٥٤ ٠

ـ د٠ أحمد سويلم العمرى : بحوث فى المجتمع العربى ، الأنجلو١٩٦٠

ـ د٠ أحمد سويلم العمرى : أصول النظم الاتحادية ، الأنجلو ١٩٦١

ـ أحمد شفيق : حوليات مصر السياسية ، تمهيد ، جـ ١ ، ١٩٢٦٠

ـ د٠ أحمد شلبى : التاريخ الاسلامى والحضارة الاسلامية ، جـ ٥ النهضة المصرية ، ١٩٧٧ ٠

ـ د٠ أحمد شلبى : التاريخ الاسلامى ، جـ ٨ ، النهضة ١٩٨٣ ٠

ـ د٠ أحمد طربين : لبنان من عهد المتصرفية الى بداية عهد الانتداب معهد الدراسات العربية ، ١٩٦٨ ٠

ـ د٠ أحمد عبد الرحيم مصطفى : فى أصول التاريخ العثمانى ، دار الشروق ، ١٩٨٢ ٠

ـ د. أحمد عزت عبد الكريم : ٥٠ عاما على ثورة ١٩١٩ ، الأهرام ١٩٦٩ .

ـ أحمد فهد بركات الشوايكة : حركة الجامعة الاسلامية ، مكتبة المنار الأردن ، ١٩٨٤ .

ـ أحمد نورى النعيمى : تركيا فى حلف شمال الأطلس ، بغداد ١٩٨١

ـ د. أحمد محمود الساداتى : تاريخ المسلمين فى شبه القارة الهندية معهد الدراسات الاسلامية ، القاهرة .

ـ أكرم زعيتر : القضية الفلسطينية ، دار المعارف ، القاهرة ١٩٥٥ .

ـ أمين سعيد الثورة العربية الكبرى ، ثلاثة أجزاء ، مطبعة عيسى البابى الحلبى وشركاه ، القاهرة .

ـ أمين شاكر وآخران ، أضواء على الحبشة ، دار المعارف ١٩٥٤ .

ـ أنيس صايغ : الهاشميون والثورة العربية الكبرى ، بيروت ١٩٦٦

ـ أنيس صايغ : الهاشميون وقضية فلسطين ، القاهرة ١٩٦٦ .

ـ د. السعيد رزق حجاج : دراسات فى تاريخ مصر الحديث ، ١٩٨٤

ـ د. السعيد رزق حجاج : لجنة ملنر ونفاق السياسة البريطانية ١٩٧٥

ـ د. السعيد رزق حجاج : دراسات فى تاريخ الحركة الصهيونية . ١٩٨٤ .

ـ د. السعيد رزق حجاج : الاستعمار الأوروبى فى أفريقيا وآسيا ، ١٩٨٧ .

ـ د. السعيد رزق حجاج : الصومال فى العصر الحديث ، ١٩٨٧ .

ـ د. السيد محمد الدقن : سكة حديد الحجاز الحميدية ، القاهرة ١٩٨٥

ـ السيد/ الصادق المهدى : جهاد فى سبيل الاستقلال : الخرطوم (بدون تاريخ) .

- باول شمنز : الاســلام قوة الغد العالمية ، ترجمــة د٠ محمد شامة مكتبة وهبة ١٩٧٤ ٠

- براجينسكى :، لوكونين ، تاريخ حركة التحرر فى شرق افريقيا ، ترجمة محمد خليل قاسم القاهرة ١٩٦٦ ٠

- ب٠ اورلانيس : الحروب والسكان ٠ ترجمة أحمد القصير وآخر القاهرة ١٩٧٤ ٠

- د٠ تركى بن محمد بن سعود : علاقة بريطانيـا بالملك عبد العزيز آل ســعود ، من بحوث المؤتمر العالمى عن تاريخ الملك عبد العزيز (الدارة) ١٩٨٦ ٠

- ترمنجهام : الاسلام فى أثيوبيا ، القاهرة ١٩٥٢ ٠

- د٠ توفيق سلطان اليوزبكى وآخران ، دراسات فى الوطن العربى، جامعة الموصل ، ١٩٧٤ ٠

- د٠ توفيق على برو : العرب والترك فى العهد الدستورى ، معهد الدراسات العربية ، ١٩٦٠ ٠

- جرانت : أوربا فى القرنين التاسع عشر والعشرين ، ترجمة محمد على أبو درة وآخر ، سجل العرب ، ١٩٧٧ ٠

- د٠ جلال يحيى : الســياسة الفرنســية فى الجــزائر ، دار المعرفة الاسكندرية ١٩٥٩ ٠

- د٠ جمال حمدان : استراتيجية الاستعمار والتحوير ، كتاب الهلال العدد ٢٠٥ ابريل ١٩٦٨ ٠

جون جنتر : داخــل أفريقيــا ، ترجمة حســن جــلال العروسى ، الانجلو ١٩٥٧ ٠

- جورج انطونيوس : يقظة العرب ، بيروت ، ١٩٦٢ ٠

- د. حسن صبحي : تاريخ شمال أفريقيا الحديث والمعاصر ، الاسكندرية ١٩٧٣ .

- د. حسن صبرى الخولى : سياسة الاستعمار والصهيونية تجاه فلسطين فى النصف الأول من القرن العشرين ، مجلدان ، دار المعارف ١٩٧٣ .

- حسين الزيكى : هذه فلسطين ، تونس ١٩٧١ .

- د. حسين فوزى : السياسة والاستراتيجية فى الشرق الأوسط ، النهضة المصرية ، ج ١ ، ١٩٥٣ .

- د. حسين فوزى : العرب والعروبة : الأنجلو ، ١٩٦٢ .

- حمدى السيد سالم : الصومال قديما وحديثا ، جزءان ، القاهرة ١٩٦٥ .

- د. حمدى الطاهرى : قصة الصومال ، القاهرة ١٩٧٧ .

- خير الدين الزركلى : شبه الجزيرة العربية فى عهد الملك عبد العزيز آل سعود ، بيروت ١٩٨٥ .

- دونالد ولبر : ايران ماضيها وحاضرها ، ترجمة د. عبد النعيم حسنين وآخر ، القاهرة ١٩٥٨ .

- دونالد وايدلز ، تاريخ أفريقيا جنوب الصحراء ، ترجمة د. شوقى الجمل القاهرة .

- د. ذوقان قرقوط : المشرق العربى فى مواجهة الاستعمار ، الهيئة العامة للكتاب ، القاهرة ١٩٧٧ .

رمزى ميور : النتائج السياسية للحرب العظمى ، ترجمة محمد بدران ، لجنة التأليف للترجمة والنشر ، القاهرة ١٩٣٦ .

- روم لاندو : تاريخ المغرب فى القرن العشرين ، ترجمة د. نقولا زيادة ، بيروت ١٩٦٣ .

- د. زاهر رياض : مصر وافريقيا ، الأنجلو ١٩٧٦ .

- د. زاهية قدورة ، تاريخ العرب الحديث ، النهضة العربية . بيروت ١٩٧٥ .

- د. زكى المحاسنى : فلسطين وسوريا ، (دراسات فى النهضة العربية) جامعة الدول العربية القاهرة .

- ساطع الحصرى : محاضرات فى نشوء الفكرة القومية ، القاهرة١٩٥٥

- سعيد بن على المغيرى ٩ جهينة الأخبار فى تاريخ زنجبار . تحقيق عبد المنعم عامر ، عمان ، ١٩٧٩ .

- سيد عبد المجيد بكر : الاقليات المسلمة فى آسيا واستراليا ، رابطة العالم الاسلامى ، مكة المكرمة ١٩٨٣ .

- سيد عبد المجيد بكر : الاقليات المسلمة فى قارة أفريقيا ، مكة المكرمة ١٩٨٥ .

- د. سيد نوفل : الأوضاع السياسية لامارات الخليج العربى جزءان معهد الدراسات العربية العالية ، ١٩٦٠ .

- د. شوقى عطالله الجمل : تاريخ سودان وادى النيل ٣ أجزاء . الانجلو المصرية ١٩٨٠ .

- د. صلاح العقاد : المشرق العربى المعاصر ، الانجلو ١٩٧٠ .

- د. صلاح العقاد : المغرب العربى المعاصر ، الانجلو ١٩٦٩ .

- د. صلاح العقاد : التيارات السياسية فى الخليج العربى ، الانجلو ١٩٦٥ .

- د. طلعت غنيمى الشيخ : مصر والسودان فى العلاقات الدولية عالم الكتب بالقاهرة ، ١٩٧٩ .

- طه الولى : صفحات من تاريخ الاسلام والمسلمين فى بلاد السوفيات بيروت ١٩٨٠ .

- د. عادل غنيم : الحركة الوطنية الفلسطينية من ١٩١٨ - ١٩٣٦ ، الهيئة المصرية العامة ، ١٩٧٤ .

- عاطف السيد : البحر الأحمر والعالم المعاصر ، القاهرة ١٩٨٣ .

- عباس العقاد : الاسلام والاستعمار ، بدون تاريخ ، القاهرة .

- د. عبد الحليم أحمدى : الجهاد فى أفغانستان ، الكويت ، ١٩٨٢

- د. عبد الحميد البطريق : التيارات السياسية المعاصرة فى الفترة من ١٨٧٠ - ١٩٦٥ ، دار الفكر العربى .

- د. عبد الخالق لاشين : سعد زغلول ودوره ، بيروت ١٩٧٤ .

- عبد الرحمن الرافعي : محمد فريد ، النهضة المصرية ١٩٦٢ .

عبد الرحمن الرافعي : ثورة ١٩١٩ ، ج ١ ، النهضة ، ١٩٥٥ .

- د. عبد العزيز الشناوى : الدولة العثمانية دولة اسلامية مفترى عليها ٤ أجزاء ، الانجلو المصرية ، ج ١ ، ج ٣ ١٩٨١ ، ١٩٨٣ .

- د. عبد العزيز نوار : الشعوب الاسلامية ، النهضة العربية ، بيروت ١٩٧٣ .

- د. عبد العزيز نوار : مصر والعراق ، الانجلو ، ١٩٦٨ .

- د. عبد العظيم رمضان : تطور الحركة الوطنية فى مصر من ١٩١٨ - ١٩٣٦ ، دار الكاتب العربى ، القاهرة .

- د. عبد العظيم رمضان : الغزوة الاستعمارية للعالم العربى ، دار المعارف ١٩٨٥ .

- د. عبد الله عزام : آيات الرحمن فى جهاد الأفغان ، ١٩٨٥ .

- عبد المجيد بن حلون : هذه مراكش ، مطبعة الرسالة ، القاهرة ١٩٤٩ .

- د. عبد الملك عودة : محاضرات فى المشكلات السياسية فى العالم الاسلامى ، معهد الدراسات العربية والاسلامية ، القاهرة ١٩٨٠.
- على البهلوان : تونس الثائرة .
- د. على جريشة وآخر : حاضر العالم الاسلامى ، القاهرة ١٩٨٠.
- د. على جريشة : أساليب الغزو الفكرى ، دار الاعتصام ١٩٧٨ .
- د. على حسون : العثمانيون والروس ، بيروت ١٩٨٢ .
- د. على مظهر : افغانستان ، القاهرة ١٩٥٠ .
د. عمر عبد العزيز : تاريخ العرب الحديث ، بيروت ، ١٩٧٥ .
- فاروق حامد بدر : تاريخ أفغانستان ، مكتبة الآداب ١٩٨٠ .
د. فاروق عثمان أباظة : عدن والسياسة البريطانية فى البحر الأحمر ، الهيئة المصرية العامة ، ١٩٧٦ .
د. فاضل حسين : مؤتمر لوزان وآثاره فى البلاد العربية ، معهد الدراسات العربية ، القاهرة ١٩٥٨ .
- فتحى غيث (المهندس) الاسلام والحبشة ، النهضة المصرية القاهرة
- فهمى هويدى : ايران من الداخل ، الأهرام ، ١٩٨٧ .
- فون ونجهايم ، مذكرات سفير ألمانيا فى استانبول ، القاهرة (بدون تاريخ) .
- فيشر : تاريخ أوربا فى العصر الحديث ، ترجمة أحمد نجيب هاشم وآخر ، دار المعارف ١٩٧٦ .
- قدرى قلعجى : أضواء على تاريخ الكويت، دار الكاتب العربى ١٩٦٣
- قلينى فهمى باشا : الأمير عمر طوسون ، القاهرة ١٩٤٤ .
- كارل بروكلمان : تاريخ الشعوب الاسلامية ، ترجمة أمين فارس ، منير البعلبكى ، بيروت ط ٨ ، ١٩٧٩ .

ـ كمال أتاتورك (الرجل الصنم) ترجمة عبد الله عبد الرحمن ، بيروت ١٩٨٢ ٠

ـ كيرزى : (ليفتنانت كولونيل) العمليات الحربية فى مصر وفلسطين ترجمة محمد على فهمى وآخر ، القاهرة ١٩٥٢ ٠

ـ لوثروب ستودارد الأمريكى ، حاضر العالم الاسلامى ، ترجمة عجاج نويهض تعليق الأمير شكيب أرسلان ، مجلدان فى أربعة أجزاء ، دار الفكر بيروت الطبعة الرابعة ٠

ـ د٠ محمد أنيس ، د٠ السيد رجب حراز ، الشرق العربى فى التاريخ الحديث والمعاصر ، النهضة المصرية ، بدون تاريخ ٠

ـ د٠ محمد أنيس وآخرون ، دراسات فى المجتمع العربى ، النهضة العربية ١٩٦٢ ٠

ـ الجنرال محمد أيوب (رئيس باكستان الأسبق) أصدقاء لا سادة بيروت ، ١٩٦٨ ٠

ـ د٠ محمد البهى : الفكر الاسلامى وصلته بالاستعمار الغربى ، مكتبة وهبة ١٩٥٧ ٠

د٠ محمد السيد غلاب : تطور الجنس البشرى ، الانجلو ١٩٨١ ٠

ـ د٠ المعتصم : مهدى الصومال ، الدار القومية ، سلسلة مذاهب وشخصيات ، العدد ٦٣ ٠

ـ د٠ محمد المنسى عاصى ود٠ السعيد حجاج : حاضر العالم الاسلامى ١٩٨٧ ٠

ـ د٠ محمد بديع شريف : العراق (دراسات فى النهضة العربية)٠

ـ محمدين عبود : مركز الأجانب فى مراكش ، القاهرة ، مكتب المغرب العربى ٠

ـ محمد بن مسعود : تاريخ ليبيا الحديث ، ليبيا ، ١٩٥٤ ٠

ـ محمد جلال كشك : السعوديون والحل الاسلامى : مكتبة مدبولى ، ١٩٨٤ .

ـ محمد جلال كشك : رحلة فى منابع مايو ، القاهرة ١٩٧٩ .

ـ د. محمد حافظ غانم : المشكلة الفلسطينية على ضوء أحكام القانون الدولى معهد البحوث والدراسات العربية ، ١٩٦٥ .

ـ محمد حسن الأعظمى : باكستان ، الدار القومية للطباعة والنشر ، القاهرة .

ـ محمد حسن الأعظمى : القائد الأعظم ، القاهرة ، بدون تاريخ .

ـ محمد رفعت : التيارات السياسية فى حوض البحر المتوسط ، لجنة البيان العربى ، ١٩٤٩ .

ـ محمد رفعت : التوجيه السياسى للفكرة العربية الحديثة ، دار المعارف ١٩٦٤ .

ـ محمد سلام أمزيان ، عبد الكريم الخطابى ، ١٩٧١ .

ـ محمد شفيق غربال : تاريخ المفاوضات المصرية ـ البريطانية ، جـ ١ النهضة المصرية ١٩٥٢ .

ـ محمد صبيح : مواقف حاسمة فى تاريخ القومية العربية ، ٣ اجزاء القاهرة ١٩٦٢ .

ـ د. محمد ضياء الريس : فى التاريخ الاسلامى الحديث الانجلو، ١٩٥٩.

ـ محمد عزة دروزة : الوحدة العربية ، بيروت ١٩٥٧ .

ـ د. محمد على البار : المسلمون فى الاتحاد السوفيتى جزءان . دار الشروق ـ جدة ، ١٩٨٣ .

ـ د. محمد على حلة : محاضرات فى تاريخ أوربا المعاصر ، مطبعة الحسين ١٩٨٦ .

ـ محمد على كمال الدين : الثورة العراقية الكبرى : العراق دار البيان ، ١٩٧١ .

- د. محمد عوض محمد : الاستعمار والمذاهب الاستعمارية ، دار الكتاب العربى ، ١٩٥٦ .

- الزعيم المصرى محمد فريد : تاريخ الدولة العثمانية ، تحقيق د. احسان حقى ، بيروت ، ١٩٨٣ .

- د. محمد فؤاد شكرى : السنوسية دين ودولة ، دار الفكر ، القاهرة ١٩٤٨ .

- محمد قاسم وآخر : التاريخ الحديث والمعاصر ، القاهرة ١٩٥٨ .

- محمد كامل سليم : أسرار وثورة ١٩١٩ ، القاهرة ١٩٧٣ .

- محمد كمال الدسوقى : تاريخ ألمانيا ، دار المعارف ١٩٦٩ .

- محمد محمد حسين : الاتجاهات الوطنية ، ج ٢ ، مكتبة الآداب ، ١٩٦٨ .

- محمد محمود الصواف : المخططات الاستعمارية لمكافحة الاسلام ، دار الاصلاح ، المملكة العربية السعودية ، ١٩٧٩ .

- محمد نجيب : ذكريات فى السياسة المصرية ، القاهرة (بدون) .

- د. محمود حلمى : المجتمع العربى ، القاهرة ١٩٦٥ .

- د. محمود صالح منسى : حركة اليقظة العربية فى الشرق الآسيوى دار الفكر ١٩٧٢ .

- د. محمود صالح منسى : تصريح بالفور ، دار الفكر العربى ، ١٩٧٠

- د. محمود على الداود : الخليج العربى والعلاقات الدولية ، معهد الدراسات والبحوث العربية ، ١٩٦١ .

الشيخ محيى الدين القضمانى : حاضر العالم الاسلامى ، من مطبوعات الجامعة الاسلامية بالمدينة المنورة ، ١٤٠٣هـ .

الأمير مصطفى الشهابى : القومية العربية ، معهد الدراسات والبحوث العربية ، القاهرة .

- مصطفى عبد القادر النجار : التاريخ السياسى لامارة عريستان ، المعارف ١٩٧١ .

- د. مصطفى محمد رمضان : العالم الاسلامى فى التاريخ الحديث والمعاصر ، مطبعة الجبلاوى ١٩٨٥ .

- د. مصطفى النحاس جبر : سياسة الاحتلال تجاه الحركة الوطنية الهيئة العامة للكتاب ، ١٩٧٥ .

- ممتاز العارف : الحبشة بين مأرب وأكوم ، بيروت ١٩٧٥ .

- ناصر الدين الأسد وآخرون : دراسات فى الثورة العربية الكبرى عمان ، ١٩٦٧ .

- د. مكى الطيب شبيكة : بريطانيا وثورة ١٩١٩ ، معهد البحوث والدراسات العربية ، ١٩٧٦ .

- د. نقولا زيادة : محاضرات فى تاريخ لبنان ، معهد الدراسات العربية ، ١٩٥٨ .

- د. نور الدين حاطوم : المراحل التاريخية للقومية العربية ، معهد الدراسات العربية ١٩٦٣ .

- د. هنرى أنيس ميخائيل : العلاقات الانجليزية الليبية ، القاهرة ١٩٧٠ .

والترلاكور : الاتحاد السوفيتى والشرق الأوسط بيروت ١٩٥٩ .

- د. يوسف هيكل : فلسطين قبل وبعد ، بيروت ١٩٧١ .

رابعا : تقاويم :

- اللواء محمد مختار باشا : التوقيعات الالهامية فى مقارنة التواريخ الهجرية بالسنين الافرنكية والقبطية جزءان ، تحقيق د. محمد عمارة : بيروت ، ١٩٨٠ .

فهـــرس

رقم الإيداع بدار الكتب ١٩٨٩/٢٢١٢